صفاء حسن ناعسة
٢٠٠٢

شعر الفقهاء

نشأته وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الأول

الدكتور
حسني ناعسة

مدرس الأدب الإسلامي والأدب العباسي
بجامعة تشرين « اللاذقية »

الكتبة العربية بحلب

٣٢٢١

الدكتور حسني ناعسة
شعر الفقهاء

الكتبة العربية ٢٠٠٦ A11 ن ا ع ش

من مطبوعات

المكتبة العربية بحلب
محمد تلاليني
ساحة فرحات ـ الصليبة ـ المطبعة الماروبية
ص.ب: ٩١٣٥ ☎: ١٣٠٤٦

اسم الكتاب	المؤلف	المحقق	السعر
شرح الملوكي في التصريف	ابن يعيش	الدكتور فخر الدين قباوة	٢٦ ل.ل
ديوان سلامة بن جندل	الأصمعي والشيباني	»	٢٦٠٧٥ ل.ل
القسطاس في علم العروض	جار الله الزمخشري	»	٣٠ ل.ل
شرح مقصورة ابن دريد	الخطيب التبريزي	»	٨ ل.ل
سلامة بن جندل	الدكتور فخر الدين قباوة		١٦ ل.ل
إعراب الجمل وأشباه الجمل	»		٢٥ ل.ل
منهج الخطيب التبريزي	»		[illegible] ل.ل
المنهل من علوم العربية	حلواني ـ فاخوري ـ زكار		[illegible] ل.ل
شرح أبيات سيبويه	النحاس	الدكتور أحمد خطاب	٢٢ ل.ل
دلائل النبوة (مجلدان)	أبو نعيم الأصبهاني	قلعجي وعباس	٧٥ ل.ل
أعلام الاسلام	عبد الوهاب سكر		٥ ل.ل
النوج في اللغة العربية	قواعد وإعراب وتعبير	صيادي ـ بدر ـ شيخ تراب	١٠ ل.ل
مع الإسلام	أبو الحسن الندوي		ل.ل
كيف أصلي	قلاش وزيتو		١٥٠ ق.ل
مشكلاتنا الاجتماعية في الاسلام	مصطفى صبري مفتي الديار العثمانية		٤ ل.ل
على طريق الوعي الحضاري الاسلامي	محمد منلا غزيل		٤ ل.ل
في رحاب الأدب العربي	» »		٤ ل.ل
كلمات على طريق الوعي الحضاري	» »		٣ ل.ل
الوجيز في الأدب العربي	الدكتور محمد خير الحلواني		٦ ل.ل
أدباء العرب للمستشرقين	قاسم أحمد		٣٥٠ ق.ل
شعر الفقهاء	الدكتور حسني ناعسة		[illegible] ل.ل
القادمة من سباحات الليل	ضياء قصيجي		٦ ل.ل

الثمن ٥ ... ل.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

المكتبة العربية بحلب
محمد ندا اليشي
سالمة فرحات - الصليبة - المطبعة الماروتية
ص.ب: ٩١٢٥ ☎: ١٣٠٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تناولت هذه الدراسة شعر الفقهاء، بالمعنى الاصطلاحي لكلمة فقه، وتحدثت عن هذا اللون من الأدب منذ نشأته في عصر النبي ﷺ وصحابته، إلى منتصف القرن الثالث للهجرة، وعرضت لذلك في ثلاثة أبواب.

وقد فصّل الباب الأول القول في أغراض الشعراء الفقهاء، وأولها الحكمة، وتشمل ما قالوه من أشعار في الإيمان والعقيدة، وهي أشعار تؤكد أن للناس إلهاً خالقاً، برأ العباد، وأنزل عليهم الدين، وجعل لهم حياة ثانية أخرى، ولعل ذلك ما دعاهم أن يطيلوا من تأملاتهم وتفكرهم في الحياة والإنسان والكون، وأن ينفذوا من ثم إلى عبر كثيرة، ومواعظ قيمة. ويلي الحكمة الغزل، وقد شهر به من بينهم عروة بن أذينة، وأكثر منه، ويتلوه الفخر ثم الوصف والعتاب والهجاء والرثاء والمدح.

وانتقلت بعد ذلك إلى الباب الثاني، فدرست ما في شعر الفقهاء من ملامح فنية، وتجارب شعورية، وصور تشخيصية، وموسيقا موقعة. وما فيه أيضاً من ملامح نظم، وأفكار مجردة، وبساطة في بعض الأحيان، ثم أبنت أطرافاً من علاقته بالمجتمع الإسلامي الذي عاشه، ومدى التزامه بقيم الإسلام ومبادئه الخالدة.

واستعرضت في الباب الثالث سير الشعراء الفقهاء، ورادتهم في العصر الراشدي، وأعقابهم في العصرين الأموي والعباسي، وأفردت لأعلامهم بحوثاً مفصلة بعض التفصيل، تحدثت فيها عن النعمان بن بشير، وأبي الأسود الدؤلي، وابن عتبة، وابن أذينة، وسابق البربري، من عصر بني أمية، وعن عبدالله بن المبارك، والإمام الشافعي، من العصر العباسي. وبالله التوفيق.

مني ناصر

الباب الأول

الشعر = دراسة موضوعية

طرقت أشعار الفقهاء أكثر اغراض الشعر العربي ، ومن البدهي أن يغلب عليها إحساس ديني شفيف ، ذلك لقرابتهم الدانية من آيات الذكر الحكيم ، وأحاديث النبي الكريم ، وسير الصحابة والتابعين والفقهاء . وأول هذه الأغراض الحكمة ، فقد زادت على سائر أغراضهم - كل على حدة - بمقدار الضِّعف أو يزيد ، وما من ريب أن الإسلام قد هيأ لها بما دعا إليه من عقل وتفكر ، ومن مجاهدة للنفس وأخذها بأسباب التربية الخُلقية ، ومن ذلك قوله تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب اجلهم ، فبأيّ حديث بعده يؤمنون ؟ » (١) . وقوله عز من قائل : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادُون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » (٢) .

ويعقب الحكمة في شعر الفقهاء ، على التوالي بحسب أبياتهم ، الغزل والفخر والوصف والعتاب والهجاء والرثاء والمدح . وقد يُستغرب بعض هذه الأغراض في نتاجهم بادئ الرأي ، إلا أننا ، إذا وقفنا على مضامينها ، زال كثير من ذلك الاستغراب فالفقهاء الشعراء أناس كغيرهم من الناس ، يأكلون مما يأكلون ، ويشربون مما يشربون ، وإذا كان ينبغي لهم وقار العلماء وسمات الأتقياء ، فإن ذلك ليس بمانعهم أن يتغزلوا بأزواجهم أمهات بنيهم ، أو يفتخروا بمحمدة ، أو يذمّوا منقصة . . . وبعبارة أخرى ليس المعيار في أن يقولوا غزلاً أو فخراً أو هجاء . . . إنما المعيار ما قالوه في هذه الموضوعات من فكر ومعان ، ولا بأس أن نستعرض ذلك بالتفصيل .

---

١) الأعراف ١٨٥ .

٢) المؤمنون ١-٨ واللغو : كل كلام ساقط . والعادون : الكاملون في العدوان .

الفصل الأول

الحكمة

الحكمة في اللغة هي العدل أو الكتابة أو العلم أو الحلم أو النهي عن الفساد.

ولكنني لا أقصد من الحكمة في شعر الفقهاء سوى المعنى الاصطلاحي الذي ذهب إليه الدكتور عبدالحليم محمود من أنها « المعرفة بالله »[1]، وأنّ لها سبيلين اثنين : العقل والتصفية ، أو التفكير وتزكية الباطن ، وأنّ مردّ الاستبصار في ذلك إنّما هو إلا الوحي والتنزيل وهداية الله[2].

ويقع تحت هذه المعاني للحكمة من شعر الفقهاء ما تناول الحديث عن الله ـ سبحانه ـ وصفاته ، والايمان به ، وباليوم الآخر ، وما كان لهم من تأمّل في الحياة والإنسان والكون ، وما أخذوا به أنفسهم من إمعان في الاعتبار أو تربية الضمائر والأنفس بالزهد والموعظة والأخلاق.

١ ـ شعر الايمان والعقيدة :

بعكس شعر الفقهاء صورة واضحة عن حقيقة الايمان ، فإن الناس إلهـ واحداً لا شريك له ، خلق العباد ، وأنزل عليهم الدين ، ووهبهم نِعَماً غامرة من فضله الأوفر ، وهو ـ سبحانه ـ خالق باقٍ مالك الملك يعلم الغيب والشهادة ، ويفعل ما يشاء ، وقد كتب على نفسه الرحمة واللطف والانعام . . . وكريم الصفات .

فالمرء يكدح في حياته ، ويتقلّب في فنون عمله ، لكنّ له ربّاً مهيمناً يعلم السرّ وأخفى ، وإنه لمجازيه على ما قدّم يوم يأتيه فرداً ويشهد على نفسه بنفسه ، يقول ابن المبارك :

١) التفكير الفلسفي في الاسلام ٢٣٢ و ٢٣٣ .
٢) المصدر السابق ٧ و ٢٣١ و ٢٤٣ و ٢٥٣ ...

والآدميّ بهذا الكسب مُرْتَهَنٌ له رقيبٌ على الأسرار يَطَّلِعُ
حتى يوافيه يوم الجمع منفرداً وخصمه الجلد والأبصار والسَّمع[1]

والله هو المعبود الحقّ وحده ، لا ربّ غيره ، وإليه المعاد ، وقد بانت أدلة الايمان به ، وانقصمت الحجج الداعية إليه ، وأفعال الإنسان قد تنصرف هـذه الحقيقة فتهتدي وتستنير ، وقد تهبط دون ذلك درجات ، يقول الشافعي :

شهدْتُ بأنّ الله لا ربّ غيره وأشهد أن البعث حقٌ وأخلصُ
وأنّ عرى الإيمان قولٌ مبيّنٌ وفعلي زكيٌ قد يزيد وينقص[2]

والايمان ذخر ثمين بل هو كنز الآخرة ، إذا كان الذهب كنز الحياة الدنيا ، يقول الشافعي أيضاً :

واعلم بأنّ كنوز الأرض من ذهب فاجعل كنوزك من برّ وإيمان[3]

والله لم يذرّ عباده يتخبّطون على غير بصيرة من أمرهم ولا كتاب منير ، بل منّ عليهم بالاسلام والقرآن استهداء لهم وإرشاداً لسعاهم ، قال محارب بن دثار :

أحْمَدُ خالقي حمداً كثيراً بدا خَلْقي فأنشأه سَوِيّا
ومنّ عليّ بالإسلام حتى عرفتُ الدين مقتبلاً صبيا
وضَمّنَ مُحْكَمَ الفرقان قلبي فكنتُ لمَنْ يَدين له وليّا
وأخّر مولدي قرناً فقرناً إلى الإسلام لم أك جاهليّا[4]

فهو يحمد الله سبحانه أن أتمّ خلقه ، وعمّرته ، منذ يفاعته ، أنوار دينه الحنيف فأصبح في المؤمنين المهتدين ، وأخّر ميقات حياته إلى زمن الرسالة فلم يمت على جاهليّة . ويذكر النعمان بن بشير أيضاً هذه النعمة الكبرى ، نعمة الدين الذي

١) تاريخ ابن عساكر (المجلد) ـ ٦ (عبدالله بن المبارك)
٢) طبقات الشافعية للسبكي ١ / ١٥٦ ، ومناقب الشافعي للرازي ٨٧ ، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢ / ٦٨ . ٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٢ / ٨٩ . ٤) أخبار القضاة ٣ / ٣٠ .

أنزله الله على قلب رسوله ليكون للعالمين نذيراً، فيقول:

تبارك ذو العرش الذي هو أيّدا لنا الدين واختار النبيّ محمّدا
رسولاً لنا يتلو علينا كتابه وينذرُ بالوحي المسير الموقّدا (١)

وقد انطلق الشعراء الفقهاء يردون طويلاً حمد ربهم على هذه النعمة، ويكثرون من الثناء عليه، سبحانه، ويفيضون القول في تعداد صفاته الكريمة. فالنعمان بن بشير يسبّح الله عزّ وجلّ، ويذكر أنّ كل شيء هالك إلا وجهه: بيده الملك، وله الحكم، وهو الفعّال لما يريد، العليم بما يبدو وبما يستخفي، وهو الله الكريم العظيم الذي أنزل على الناس ديناً قيّماً يهديهم ويرشدهم، وهو الله الذي يُبدئ الخلق ثم يعيده:

كل شيء سوى المليك يَبيدُ لا يبيدُ المُسبَّح المحمودُ
مالكُ المُلك لا يُشاركُ فيه وله الحُكم فاعلاً ما يريد
عالمُ الغيب والشهادة والفض ..... ل وذو المَنّ والجلال الحميدُ
وله الدينُ قاضياً متعالٍ هو يُبدي بعلمه ويعيد (٢)

وإنّه من مُلك الله الناس، شيبَهم وشُبّانهم وكهولهم وأطفالهم، وما في البحر من فُلك تمخر عُبابَه تارة، أو تركد سواكن على ظهره تارة أخرى، وما في السماء من طير «ما يُمسِكُهُنّ إلا الرحمن»... كلّ ذلك لله الذي «لم يكن له شريك في الملك» و«لم يكن له كفواً أحد»:

وله الشيبُ والشّباب جميعاً كلُّهم والمرشّح المولودُ
وله الجاريات في لُجج البحـ ..... ـر فمنها مَواخِرٌ ورُكود
وله الطير في السماء تراهنّ - قريباً ودونهنّ صعود
ليس لله ذي المعارج فيمن تحمل الأرضُ والسماء نديدُ (٣)

١) نور الأبصار ٢١٦. ٢) شعر النعمان ٨٥. ٣) شعر النعمان ٨٦.

وتسترسل صفات الله في شعر الفقهاء، فهو المُهَيْمِنُ المَنّانُ المنعِمُ الوهّابُ، عَمَرَ لطفُه الإنسانَ منذ كان في بطن أمّه مُضْغَة فكلّله، ثم اكتحلت عيناه بنور الحياة فحفظه، ثم اشتدّ وما فأنفذ إليه أنوار الإيمان وألهمه أسباب التوحيد، قال الشافعي:

إنْ كنتَ تغدو في الذنوب جليدا وتخاف في يوم الوعيد وعيدا
فلقد أتاكَ من المُهَيْمِن عَفْوُه وأتاح من نِعَمٍ عليك مَزيدا
لا تيأسنْ من لطف ربّك في الحشا في بطن أمّك مُضْغَةً ووليدا
لو شاء أن تَصْلى جهنّم خالداً ما كان ألهم قلبَك التوحيدا (١)

إن الله هو الغفور الودود الذي يقبل التوبة عن عباده ويتجاوز عن سيئاتهم قال النعمان:

ربّ إني ظلمت نفسي كثيراً فاعْفُ عني أنت الغفور الودودُ
وقني شرّ ما أخاف فإني مُشفِق خائفٌ لما تستعيدُ (٢)

وإرادة الله هي الماضية، وحُكْمه النافذ، بعلم، منذ آن خلق الناس، ما سوف يصيبون وما سيكون عليه أمرهم، قال الشافعي أيضاً:

ما شئتَ كانَ، وإنْ لم أشأْ وما شئتُ - إنْ لم تَشأْ لم يَكُنْ
خلقْتَ العباد على ما علمْتَ ففي العلم يجري الفتى والمُسِنّ
فمنهم شقي ومنهم سعيدٌ ومنهم قبيحٌ ومنهم حَسَنْ (٣)

ومن صفات المولى في شعر الفقهاء أنه مليك إذا رجاه عباده رزقهم (٤)، وهو خير حَكَمٌ عَدْلٌ لا يظلم نقيراً (٥)، وعليه يتوكل العباد فيرزقهم ويقسم

١) نور الأبصار ٢١٦. ٢) شعر النعمان ٩٢. ٣) مختصر تذكرة القرطبي ١٤ والانتقاء ٨٠ والوافي ١٧٩/٢. ٤) انظر أبياتاً لابن شهاب الزهري في معجم الشعراء ٣٤٥.
٥) انظر بيتين لابن المبارك في تاريخ ابن عساكر (المهد) ٦٥ (عبدالله بن المبارك).
والنقير: النكتة في ظهر النواة.

بينهم معيشتهم ، قال الشافعي :

تَوَكَّلْتُ في رزقي على الله خالقي ... وأيقنتُ أنّ الله لا شكّ رازقي
وما كان من رزقي فليس يفوتني ... ولو كان في قعر البحار النواسق
سيأتي به الله العظيم بفضله ... ولو لم يكنْ منّي اللّسانُ بناطقِ
ففي أيّ شيء تذهب النفس حسرةً ... وقد قسم الرحمن رزق الخلائقِ (١)

وذو العرش رحيم عليم يؤتي مِنْ لَدُنْهُ الحِلْم ويؤيّد بالتقوى ، قال ابن المبارك :

أيا رب هذا العرش أنت رحيمُ ... وأنت بما تُخْفي الصدورُ عليمُ
فيا ربّ هب لي منك حلماً فإنني ... أرى الحلم لم يندم عليه حليم
ويا ربّ هب لي منك عزماً على التقى ... أقيم به في الناس حيث أقيم (٢)

ومع الإيمان بالله يعرضون الإيمان باليوم الآخر والحياة الثانية التي تستفتح بمُواراة الميّت في قبره ، وفيه يذوق - إن كان من الآثمين - أول دفعات العذاب ، وعندما يحين الحَشْر يمثل بين يدي الله في موقف رهيب رائع ليُثيبه ، بحسب عمله ، نعيماً أو جحيما .

وإذن فإن في اللّحْد ، للمذنبين ، عذاباً شديداً لو شهده الأطفال الرُّضَّع لاشتعلت رؤوسهم شيباً ، وهنالك لا يتحمّل العذاب عن الآثمين إلاّ أنفسهم ، فهم أولى بما كانوا يكسبون ، يقول سابق :

وبعد دخول القبر يا نفسُ كربة ... وهَوْلٌ تُشيب المرضعين زلازلهْ
فلا يَرْتجي عوناً على حَمْل وِزْرِهِ ... مُسيءٌ وأولى الناس بالوزر حامله (٣)

١) نتيجة الأفكار ٨ . ٢) تاريخ ابن عساكر (المهد) ٦ (عبدالله بن المبارك).
٣) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٦ .

وهذه النّزْلة حَتْمٌ على رقاب العباد ، وليس يُفلت منها من الناس أحد ، إنّ المرء يظلّ طوال عمره ينعى غيره فإذا النعي أخيراً يكون عليه ، ويظلّ يضرب في شعاب الأرض لا يفتُر ، فإذا به يقيم في مثوى لم تمسسه من قبل قدماه ، يقول سابق أيضاً :

وللحتوف تُرَبّي كلّ مُرْضعة ... وللحساب برى الأرواح باريها
لا تبرح النفس تَنْعى وهي سالمة ... حتى يقوم بنادي القوم ناعيها
ولن تزال طوال الدهر ظاعنةً ... حتى تقيم بوادٍ غير واديها (١)

ويلبث المتوفى بقبره ، حتى إذا قامت الساعة انتفض وانتظم في موقف الحشر أمام حاكم خبير عادل لا يظلم الناس شيئاً ، قال ابن المبارك :

استووْا عند مليكٍ بمَساويهم خبيرِ
حَكَمٍ يَعْدِلُ لا يظلم مقدار النّقير (٢)

ذلك يوم الفَصْل يشهده المرء وليس معه إلاّ مَلَكٌ يقوده ، وشاهدٌ ينطق أنّه قد بُلّغ ، قال النعمان بن بشير :

إنّما هذه الحياة غرورٌ ... بعدها الفصل بينكم والخلودُ
يومَ نُدعى إلى الحساب ومَنّا ... يوم نأتيك سائق وشهيد (٣)

إنّه مشهد هائل يأخذ الناسَ فيه على مصيرهم خوفٌ شديد ، فيموجون وكأنهم سكارى ، وما هم بسُكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، وينجّي الله الصالحين من ذلك الهول العصيب ، فيجعلهم مع الأنبياء في مكانة عليّة ، قال النعمان أيضاً :

وترى الناس يحسبون من الكر ... ب سُكارى بل العذابُ شديدُ

١) المصدر السابق ٣٥٢ . ٢) تاريخ ابن عساكر (المهد) ٦ (عبدالله بن المبارك) ، والنقير : النقرة في ظهر النواة . ٣) شعر النعمان ٩٢ ، والشهيد كل ما يشهد عليه ، ويشمل ذلك الملائكة والنبي والعمل والجوارح . انظر روح المعاني (بولاق) ٢٥٧/٨ .

وقف الناسُ للحساب جميعاً فشقيٌّ معذَّبٌ وسعيدُ
والنبيُّون عنده بمكان في علاء والصالحون قعود [1]

ويقف الأنبياء الذين بلَّغوا الناس ما نُزِّل إليهم من ربِّهم، ويقف إلى جنبهم شهود التبليغ، ويخيِّم على المحشر جوٌّ من الخشوع التوجُّس، ثم يتسلَّم العباد سجلات ما قدَّموه في حياتهم الدنيا، فيودُّ الظالمون - بعد أن أصابوا حظوظهم في الأولى العاتية - لو كانوا سباعاً أو خنازير أو أيَّ صنف من المخلوقات، إلا البشر، لعلهم ينجون، ولات ساعة مَنية، فإنهم لو تفكَّروا في دنياهم لأيقنوا أنَّ هناك ثواباً وعقاباً، أما اليوم فليس ثمة رَجْعة ولا إعادة، قال ابن المبارك:

إذا النبيُّون والأشهاد قائمةٌ
والإنس والجنُّ والأملاك قد خشعوا
وطارت الصحفُ في الأيدي منشَّرةً
فيها السرائرُ والأخبار تطَّلع
يودُّ قومٌ ذوو عزٍّ لو انَّهمُ
هم الخنازيرُ كي ينجوا أو الضبع
يُشفَّعُ العلمُ قبل الموت عالمه
قد سالَ قومٌ بها الرُّجْعى فما رجعوا [2]

ثم تظهر النتائج، فريق يفوزون بالجنة، خالدين فيها، وفريق يكبكبون على على وجوههم في نار جهنم، فتموج بهم، وكلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها، قال ابن المبارك:

أفي الجنان وفوزٍ لا انقطاعَ له أم الجحيم فما تُبقي ولا تَدَعُ

١) شعر النعمان ٩١. ٢) و ٣) تاريخ ابن عساكر (المجلد) ج ٦ (عبدالله بن المبارك).

تهوي بهالكها طوراً وترفعهم إذا رجوا الخروجاً من غمِّها وقعوا [1]

ثم ينقلب الطاغون إلى مردٍّ عصيب، عذابه شديد، وطعامه ضريع وصديد، وهو عذاب خالد مقيم، في نار تهبة شرهة، قال النعمان بن بشير:

فاتَّقوا اللهَ واحذروا شرَّ يومٍ فمطاريرِ عذابه مشهودُ
فطعامُ الغُواةِ فيها ضريعٌ وشرابٌ من الحميم صَديدُ
كلَّما أُخرج اللَّعينون منها ساعةً من عذاب غمٍّ أُعيدوا
وإذا قيل هل تقارب منها قالت النارُ: هل لديكم مَزيد؟ [2]

لكن المتَّقون لهم عند ربهم، بما استقاموا على طريقته، جنات فيها من الآلاء ما يشتهون، قال النعمان:

سيجعلُ جناتِ النعيم لباسكم إذا ما التقيتم أيُّكم كان أسعدا
ثواباً بما كانوا إلى الله قدَّموا يُحلَّون فيها لؤلؤاً وزبرجدا
لهم ما اشتهتْ فيها النفوسُ ولذَّةُ العُيون فكانت مستقرَّاً ومقعدا [3]

٢ - تأمل وتفكر:

وعلى هدي حقيقة الإيمان مضى الشعراء الفقهاء يطيلون التأمل والتفكر في الحياة والإنسان والكون، فليست هذه الحياة إلا سراباً وغروراً، ينتفع ابن آدم فيها وينتفج ويغيب عنه أنها سريعة الزوال، وأنَّ بعدها الآخرة دار القرار، وأن خير ما يدَّخره إنما هو ما طاب من العمل ومن الكَلِم، قال النعمان:

إنما هذه الحياةُ غرور بعدها الفصل بينكم والخلودُ

١) شعر النعمان ٩٠، والغواة: جمع الغاوي وهو الضال، والضريع: طعام في جهنم، والحميم: الماء الشديد الحرارة، والصديد: هو الحميم أعلى حتى خثر.
٢) شعر النعمان ١٠٠ وزبرجد: جوهر. ٣) شعر النعمان ٩٢ — ٩٣.

خير ذخر مع اليقين لعبد عمل صالح وقولٌ سديدُ [1]

إنّ المرء يمضي في الحياة سنين ، ولكنّ ماذا يجني بعد طول كدّه وكفاحه ؟ هل ينال مناها ويحتظي بآماله ؟ لا ، فما يكسبه فيها زهيد يسير ، وهو تاركه ـ لا محالة ـ عما قليل ، عندما ينشب أمامه شبح الموت ، قال الحسن بن علي بن أبي طالب :

ومارستُ هذا الدهر خمسين حَجّةً وخمساً أُزجّي قائلاً بعد قائلِ
فلا أنا في الدنيا بلغت جسيمَها ولا في الذي أهوى كدحْت بطائل
وقد شرعتْ دوني المنايا أكفّها وأيقنتُ أني رَهْنُ موتٍ مُعاجل [2]

شأن الحياة ـ أيّاً كان ـ ماضٍ فانٍ ، ومكان الرحلة عنها وشيكٌ قريب ، والمصيبة الكبرى أن يخسر الإنسان نعيم الخلود ، قال عمر بن عبد العزيز :

ولا خير في عيش امرىء لم يكن له مع الله في دار القرار نصيبُ
فإنْ تُعْجِبِ الدنيا أناساً فإنّها قليلُ متاعٍ والزّوال قريب [3]

ولسابق أبيات تصوّر ساعة مضيّ الحياة وفنائها ، أو ساعة الحَشْرجة ، وكيف تفارق الروح البدن فيَهوي مُنتزَع الحِلْية ، تاركاً ما ثمّر من مال ، وما أحبّ من أهل ، ويمضي في سبيله لا يحمل معه إلا سجلاً يستعرض عمره كلّه ، وما كان له في ذلك العمر من أعمال ، وبينما يغسل الناسلون جسد ميّتهم ، تبقى معه آثامه:

إذا الجسدُ المَعْمورُ زايل روحه خَوَى وجمالُ البيت بانفس آهلُهْ
وقد كان فيه الروح حيناً يزينه وما النِعْد لولا نصله وحبائله
يزايلني مالي إذا النفسُ حشرجتْ وأهلي ، وكَدْحي لازمي لا أزايله
ويُغسل ما بالجسم من ظاهر الأذى ولا يغسل الذنبَ المخالفَ غاسلُه [4]

١) العقد الفريد ٤ / ٢٠ . ٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز ٢٢٦ .
٣) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٧ .

وللشاعر مقطوعة أخرى تذكر حال من يغفلون عن الموت فيبتهم فلا يملكون منه هرباً ولا دفعاً ، بل يفارقون أموالهم وما كسبوا وسط بكاء الثكالى وعويل النوادب ، ويستسلمون للموت الذي يأتي على الغنيّ والفقير :

فكم من صحيح بات للموت آمناً أتتْه المنايا بغتةً بعدما هجعْ
فلم يستطعْ إذ جاءه الموت بغتة فِراراً ولا منه بقوّته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مُقنّعاً ولا يسمع الداعي إذا صوته رفع
وقُرّبَ من لحدٍ فصار مقيلَه وفارَقَ ما قد كان بالأمس قد جمع
فلا يتركُ الموتُ الغنيّ لمالِه ولا مُعْدماً في المال ذا حاجة يدع [1]

وعلى هذا النحو يستفيض الحديث عن الموت ، منتهى الحياة ، فهؤلاء فريق يثوون فيحزن لهلاكهم أحبّتهم ، ثم لا يلبث الآخرون حتى يسلكوا الطريق نفسه ، أفلا انتبهوا إلى أنهم وإيّاهم في سياق واحد ؟ وعلام لا تستيقظ النفس من غفوتها وتبصر نهايتها والمورد واحد ، وكل الناس وارده . قال ابن المبارك :

أرى الناسَ يبكون موتاهمُ وما الحيّ أبقى من الميّتينا
أليس مصيرهم للفنا وإن عُمّر القوم أيضاً سفينا
يساقون سَوْقاً إلى يومهم فهم في السياق وما يشعرونا
فإن كنت تبكين من قد مضى فبَكّي لنفسك في الهالكينا
فإنّ السبيلَ لكم واحد سيتْبع الآخرُ الأوّلينا [2]

تلك قاعدة الحياة في شعر الفقهاء ، جيل يعمر الأرض ، فيأمل ويطمع ، ويصول ويجول ، ثم يمضي ، فإذا بجيل آخر يملأ خشبة المسرح ، ويطعم الحياة كما طعمها الذي من قبل ، ثم يمضي هو أيضاً بأوزاره وخطاياه ، ويعمر المسرح جيل

١) حلية الأولياء ٥ / ٣١٨ . ٢) تاريخ بن عساكر (المهد) حـ ٦ (عبدالله بن المبارك)

جديد ، وهكذا دواليك ، قال سابق :

والمرء ما عاش في الدنيا له أمل ... إذا انقضى سفر منها أتى سفرُ
لها حلاوة عيش غير دائمة ... وفي العواقب منها المُرُّ والصَّبر
إذا قضتْ زُمَرٌ آجالَها نزلتْ ... على منازلها من بعدها زُمَرُ (١)

لقد نظر الشعراء والفقهاء إلى الحياة نظرة شاملة ، وكأنهم يعالجون مسائل علمهم ، فيقفون عند الحوادث الفرعية يقلّبونها على وجوهها ثم يستنبطون لها قانوناً يضمّها في سلك جامع ، وكذلك الدنيا ، كلُّ الشواهد تعرض مسيرتها المتكرّرة ، الرتيبة ، فمنذ قوم تبع وثمود ، وشعيب وهود ويونس كان يشهد مسرحَ الحياة أفواجٌ من البشر ، يؤدّون أدوارهم ، وسرعان ما يندرون الخشبة ليظهر عليها جيل آخر من بعدهم ، قال النعمان :

قد رأيتم مساكناً كان فيها ... قبلكم قومُ تبّع وثمودُ
وقرون لقّنتهمُ رسل اللـ ... ـه شعيبٌ فكذّبوه وهود
وابن متّى الذي تداركه اللـ ... ـه من الغمّ وهو فيه عميد
فدعا دعوةً وقد غيّبته ... ظُلَمٌ دونها حنادسُ سُودُ (٢)

إن الحياة تجربة ليست غير ، يقدّم كلٌّ وَرَقة امتحانه ثم يمضي .. وهكذا تتعاقب الأجيال ، ويطوي القوم خلف القوم ، وهم مستسلمون لهذا النظام السائد الرتيب ، قال ابن المبارك :

إنها دار بَلاء ... وزوالٍ وغرورِ
كم لعمري صرعتْ قب ... لك أصحاب القصورِ
وذوي الهيئة في المجـ ... ـلس والجمع الكثيرِ

١) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٣ . ٢) شعر النعمان ٨٧ .

أُخرجوا منها فما كا ... ن فيهم من نكيرِ (١)

تلك سورة الحياة في شعر الفقهاء ، إنها سريعة المَرّ ، يغترّ بسرابها من يغترّ ، وينسى مصيره المحتوم ، فاذا به يدركه ، ويشيّع كلّ يوم فريقاً من الراحلين ، ولا يستشعر أنه سوف يمضي كما يمضون ، ويستسلم لهذا النظام المهيمن المتعاقب .

. . . . .

والإنسان في شعر الفقهاء مخلوق أبدعه الله وأنشده ، منذ كان في عالم الذرّ ، أنها هو عبد لمولاه ، وقد كتب عليه قِصَرَ العمر ، وناط به المسؤولية ، وهو ، خلال هذه الرحلة قد يرتكس ، إلا أنّ بمُكنته النهوض والاستقامة من جديد ، ويتقلب على الإنسان في حياته الدنيا شدّة ورخاء وقوة وذبول ، وليس له ، في كل ذلك ، من الأمر شيء ، إنْ هو إلا قضاء واقع وقدر نافذ .

فمنذ أنْ أراد الله سبحانه أن يخلق الناس استحصام بين يديه واستفسام من أصلاب آبائهم ، وأشهدهم أنه هو خالقهم ، فأقرّوا العبودية له وحده ، وعاهدوه على التوحيد ، قال النعمان :

وأخْرَجَ ذرّيّاتِكم من ظهوركم ... جميعاً لكيما تستقيموا وأشهدا
عليكم وناداكم ألستُ بربّكم ... فقلتُمْ : بلى ، عهداً علينا مؤكّدا (٢)

ثم كانت حياة البشر ، من زمن أصلهم الأوّل آدم ، قليلة معدودة ليست تطول ولا تدوم ، قال سابق :

١) تاريخ ابن عساكر (المهد) ـ ٦ (ابن المبارك) .

٢) شعر النعمان ٩٥ ، هذا ويفسر بعض العلماء إخراج الذراري بأنه التناسل المعروف الذي يجري بينهم بالتوالد ، ويفسرون الاشهاد بأنه نصب الدلائل التي تهتدي بها عقولهم إلى الايمان . قال البيضاوي : « أي أخرج من اصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن . . . ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الاقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى . فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الاشهاد والاعتراف على طريق التمثيل » . تفسير البيضاوي (المطبعة العثمانية) ٢٢٨ .

أيبعد آدمَ ترجون البقاء وهل ... تبقى فروعٌ لأصل حين ينصهر [1]

والمرء محاسبٌ مسؤول عما يكسب في حياته ، فإذا تعدّى حدود ما أحلّ له مولاه ، إلى لذاذه محرّمة ، فإنّ ساعة اللذاذة تمضي ، وإثمها يبقى ، بل يورده جهنم وسوء عذابها ، قال مسمر بن كدام :

تفنى اللذاذة ممّنْ نالَ صفوتَها ... من الحرام ويبقى الإثم والعارُ

تبقى عواقب سوء في مغبّتها ... لا خير في لذّة من بعدها النارُ [2]

وقد ينحدر الإنسان - خلال عمره - في المأثم فيزلّ ، ولكنه يستطيع أن ينهض من عثرته ويستأنف الاستقامة ، ويفيد من تجارب الأيام ، قال سابق :

قد يرعوي المرء وما بعد هفْوته ... ويُحكِمُ الجاهلَ الأيّام والخبَرُ [3]

وقد عرض الشعراء الفقهاء صوراً كثيرة للإنسان عندما يرتقي إلى ما يليق به من مكانة في أشعارهم في التربية النفسية والفخر والمدح والرثاء والعتاب ، كما عرضوا حالات أخرى لهبوطه في الهجاء ، وسوف يمرّ ذلك عند تناول هذه الأغراض :

وحياة المرء في دنياه لا تجري على وتيرة واحدة ، بل هي متقلّبة بين الشدة والرخاء والضنك والسهولة ، يقول عروة بن أذينة :

نُعالج العيش أطواراً تقلّبه ... فيه أفانينُ تطوى عن أفانينِ

باليُسْرِ والعسر والأحداث معرضةٌ ... لا بدّ من شدّة فيها ومن لين [4]

ستوف العيش أحوال وأحواله ، والمرء لا يملك أن يبدّل من ذلك شيئاً ،

١) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٣ .
٢) الزهرة ٦٨ ، وصفة الصفوة ٣ / ٧٣
٣) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٣٩ . ٤) شعر عروة ١١٨ .

وليس له إلا أن يستمتع بريعان شبابه ، ثم يبدأ في الانحدار ، تماماً كالغصن النضير يحول حطاماً نخرة ، قال سابق :

والمرء يصعد ريعانُ الشباب به ... وكلُّ مُصْعِدَةٍ يوماً ستنحدرُ

بينا ترى الغصنَ لَدْناً في أرومته ... ريّانَ صار حطاماً جَوْفُهُ نَخِرُ [1]

هكذا ينحدر ثم يمضي ، والأرض هي الأرض ، والسماء هي السماء ، لم يغيّر ، وما كان ينبغي له أن يغيّر من ناموس الكون شيئاً ؛ فإنّ كلمة الله هي الواقعة ، وحكمه النافذ ، وقدره الغالب ، فما الخير إلا أن يستسلم لهذه القدرة السائدة المهيمنة ، قال الشافعي :

قَدَرَ الله واقعٌ ... حَيْثُ يُقضى ورودُهُ

قد مضى فيك حُكْمُهُ ... وانقضى ما يريدُهُ

وأخو الحرص حرصه ... ليس مما يزيده

فأردْ ما يكون إذْ ... لم يكن ما تريده [2]

. . . . .

وقد كان للشعراء الفقهاء في الكون المحيط بهم من حولهم نأمّل طويل ، فتفكّروا في تعاقب الأيام ودوران الزمن ، فالوجود مستمرّ ، والفلك يمدو ، والأمم تحيا ، خلال ذلك ، ثم تطوي ، قال سابق :

وكيف يأمنُ ريبَ الدهر مُرْتَهَنٌ ... بمَدْوةِ الدهر إن الدهر عدّاه

ألقى على الجيل من عادٍ كلاكِلَهُ ... وقوم هودٍ فهُمْ هامٌ وأصداء [3]

١) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ٣٤١ . ٢) روضة العقلاء ١٠٨ ومناقب الشافعي للبيهقي ٤١٨/١ . ٣) سابق البربري لعبدالله كنون بحث محقق في مجلة مجمع اللغة العربية =

إنّ الزمن بدور ، والليل يعقب النهار باستمرار ورتابة ، والمرء - خلال تعاقبها - يودّع شبابه ونضارته ، قال الدؤلي :

أفنى الشبابَ الذي فارقتُ جِدّتَه
كرُّ الجديدين من آتٍ ومُنْطَلِقِ

لم يتركا ليَ في طول اختلافهما
شيئاً يُخاف عليه لذْعة الحَدَقِ [1]

وقد انتقلوا من التفكّر في دوران الزمن الرتيب إلى التفكّر في القُدْرة التي أحكمتْ نظام الكون وما فيه ، قال النمان بن بشير :

فكيف لو أنّ الليل كان عليكمُ
ظلاماً إلى يوم القيامة سَرْمدا

من الخالقُ الباري لكمْ كنهاركمْ
نهاراً يُجَلّي ليله المتنمِّدا ؟

مرجْتَ لنا البحرين بحراً شرابُه
عُذُباتٌ ، وبحراً يحمل الفُلْكَ أسودا

أجاجاً إذا طابت له ريحُه جرتْ
به وَيْراها حين تسْكُنُ ركّدا

فما منكمُ مُحْصٍ لنعمة ربّه
وإنْ قال ما شا أن يقول وعدّدا

سوى أنّها عمّتْ على الخلق كلهم
لأفضل ذي فضل وأحسنه يدا [2]

فما كان لأحد ، لو قضى الله أن يجعل الحياة ظلاماً دائماً ، أن يأتي بضياء من عنده ، لكنه - سبحانه - نوّر النهار ، وجعل - في البحر - ماءً عذباً فراتاً سائغاً شرابه ، وماءً ملحاً ثقيلاً تجري الرياح على ظهره ، إذا جرت الرياح ، أو تقف

= المجلد ٤٤ ـ ١ / ٢٧ ، وهام وأصداء كناية عن هلاكهم ، والهام طائر يصر بالليل ، وهو الصدى أيضاً ، والصدى : طائر يخرج من رأس المقتول إذا بلي ، بزعم الجاهلية ، وذكر البوم .

١) ديوانه ٢٢٢ ، والجديدان : الليل والنهار ، ولذعة الحدق : يريد الاصابة بالعين ، والحدقة : سواد العين . ٢) شعر النمان ٩٨ ، وسرمداً : دائماً ، والنمدد : المستور ، ومرج البحرين : جعلهما لا يلتبس أحدهما بالآخر ، والفلك : السفينة ، والأجاج الماء الشديد الملوحة .

من بعدها رواكد ، وقد أتمّمَ سبحانه نعماً أخرى ، لا يحصيها العدّ ، فتمّمت الخلائق أجمعين . ويعود النمان في موضع ثان فيتفكّر في هذا الفضاء الرحب ، وما أبدع فيه المولى - جلّت قدرته - من سموات وأرضين ، وما هيأ في المعمورة من أسباب الحياة ، فبسطها ، وأحسن شأنها ، وألقى فيها رواسي أن تميل ، وأسبغ على عباده فيها أرزاقهم :

بنى فوقنا سَبْعاً طباقاً وتحتَها
من الأرض سوّى مثلهنّ ومهّدا

وذلّلها حتى اطمأنّتْ بأمره
وعمّ علينا رزقه ثم أوتدا

عليها الجبالَ الراسياتِ فشدّها
فأرسى لكم سهل المناكب مُلْبِدا [1]

وواضح من الضمائر المتكاثرة في أبيات الشاهدين المتقدّمين أن الله تعالى إنما سخّر الكون بليله ونهاره وبحره وبرّه وأرضه وسمائه من أجل البشر .

ولعل من الطريف أن نجد منذ عهود مبكرة من تاريخ شعر الفقهاء تميزاً حيّاً عما اصطلح عليه فيما بعد بوحدة الوجود ، وليست أعني شطط ذوي الشرف الذين زعموا لهم اتحاداً مع الله - تعالى عما يقولون - وإنما أعني ذلك التصوّر الشامل الذي ينظر إلى الإنسان وإلى الكون على أنهما من مشكاة واحدة ، من صنع الله ، وأنّ نظامهما واحد ، هو تدبير بديع السموات والأرض ومَنْ فيهنّ .

وقد مرّ بنا من قريب تشبيه سابق لزوال ميعة الشباب ببياس الغصن الرطيب وانحطامه ، ويقرب من هذا المعنى ما رآه ابن المبارك من أن الناس ليسوا إلا نباتاً ما أن يطلع وينضر حتى يحصده الفناء ، وأنّ ليست أعمالهم إلا غراساً لهم يتعطفون جناها في الآخرة :

يا أيها الناسُ أنتمُ عُشُبٌ
يحصده الموت كلما طلعا

لا يحصد المرء عند فاقته
إلا الذي في حياته زرعا [2]

والإنسان والقمر ، في رأي عروة بن أذينة ، يشتركان في نظام واحد ،

١) شعر النمان ٩٤ وأوتد : ثبت وأقام ، والمناكب من الأرض : المواضع المرتفعة ، وملبداً : لازقاً ومتجمعاً . ٢) جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢٣٦ .

فما إن يأتلق نجم المرء حتى يهوي، وما إن يروق ضوء القمر حتى يخبو، وما إنْ يتمّ لكل شيء جدّته حتى تنحسر:

إنّ الفتى مثل الهلال له نورٌ ليالِيَ ثم يُمْتَحَقُ
يَبلى وتُفْنيه الدهور كما يُبلي ويَنضو الجِدّةَ الخَلَقُ[1]

فالشعراء الفقهاء تأمّلوا دورة الزمن الرتيبة المتعاقبة، وتفكّروا في مظاهر الكون من ليل ونهار وسماء وأرض، واستدلّوا بها على الخالق الذي أبدعها، واهتدوا إلى أنّ نظاماً شاملاً يهيمن على الإنسان وعلى الكون، ويحكمهما جميعاً.

٣ ـ العِبَر:

وكان الشعراء والفقهاء وهم يمضون في حكمتهم يهتمّون اهتماماً كبيراً بالقواعد الممتازة، التي يصطفيها القوم الأذكياء من خلال حياة البشرية وعمرها الطويل وامتدادها الرحب الفسيح، ويضيفون إلى تراث ذلك من عندهم خلاصات منتقاة وتجارب ثُرْنى وحِكَماً تُعتبر.

وتمضي خلاصاتُ فِكَرهم أو قل صحائح أمثالهم أو قل ما اجتنوه من القواعد من الحياة في جوانب شتى، فما أوتي امرؤٌ جوامع العلم، وإنما يجدّ ويشطّ وكلما أمعن في جدّه ونشاطه أيقن أنّ ما اكتسبه منه قليل، وأن الذي دونه من أبواب العلم كثير كثير، قال الشافعي:

كلّما أدّبني الدهـــــر أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددتُ علماً زادني علماً بجهلي[2]

فخيرٌ له أن يعرف حدّه ويقف عنده، فما سبق ثعلبٌ أسداً، ولا أمدّت الأنماد القليلة بحراً محيطاً بموج عارم ولا تيّار هائل، قال عروة:

لا صَبْرَ للثعلب الضبّاح ليس له
حِرزٌ على عَدوات المُشبل الضّاري

١) شعر عروة ٣٤١. ٢) وفيات الأعيان ٣٠٨/٣، والوافي بالوفيات ١٧٩/٢.

لا تستطيع الكُدى الأنماد راشحةً
مدّ البحور بأمواج وتيّار[1]

وأرفقُ الناس بالمرء نفسُه، وهو أولى أن يحفظ كرامته، ويصون ماء وجهه، قال الشافعي:

ما حكّ جِلْدَكَ مثلُ ظفرك فتولَّ أنت جميع أمرك
وإذا قصدتَ لحاجة فاقصد لمعترفٍ بفضلك[2]

والمرء هو الذي يحفظ سرّه ويملك أمره، ولا يؤمنُ إلا نفسَه إن ضاقت به عن أسرارها، وماذا يعي السرّ إلا ما لا يطلع عليه سوى صاحبه؟ قال ابن عتبة:

إذا كان لي سرٌ فحدّثُه العِدا وضاق به صدري فللناسُ أعْذَرُ
وسرُّكَ ما استودعتَه وكتمتَه وليس بسرٍّ حين يفشو ويظهر[3]

والإنسان بأفعاله لا بأقواله وبمخبره لا بمظهره، فكم نحيف الجسم يعد في الحصفاء العظماء، وكم ذي رُواء ليس منهم، ذلك أن الإنسان بما يملكه من قوى دافعة إلى الفضل والارتقاء، جسيماً كان أم ضئيلاً، قال القزويني:

ترى المرء النحيف فتزدريه ـ وفي أثوابه رجل مَريرُ
ويعجبك الطرير فتختبره فيخلف ظنّك الرجل الطرير
وما عِظَمُ الرجال لهم بزَيْنٍ ولكن زينها حمدٌ وخيرُ[4]

ويضرب سابق لمن يبتغي الشرّ لغيره مثلاً بحافر بئر لإيذاء الناس، فإذا هو

١) شعر عروة ٢١٢ والصباح: الذي يخرج الصوت، والحرز: الموضع الحصين، والمشبل القاري: الأسد المفترس ذو الاشبال، والكدية: الأرض الصلبة، والنمد: الماء القليل.
٢) نور الأسمار ٢١٤ وشذرات الذهب ١١/٢ ومناقب الشافعي للبيهقي ٧٢/٢.
٣) الأغاني (دار الثقافة) ١٤٢/٩.
٤) أخبار القضاة ٢٨٨/١ والطرير: ذو المنظر والرواء، والخِبر: الكرم والشرف.

يهوي فيها من دونهم ، وكذلك كل ظالم لا بدّ أن يذوق وبال أمره وعاقبة ما قدّم :

فلا تحفرَنْ بيراً تريد أخا بها فإنّك فيها أنتَ من دونه تقعُ
كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً تُصِبْهُ على رَغمٍ عواقبُ ما صنع [1]

والصديق - في رأي الفتيان - إيثار الضيق ، والقريب النافع من لم يأس آصرة الرّحيم إذا أصاب غنى ونال حظاً :

فلا تعدُدِ المولى شريكك في الغِنى
ولكنما المولى شريكك في العدمِ
إذا متَّ ذو القربى إليك برَحْمِهِ
وغشَّك واستغنى فليس بذي رحم [2]

وتلك الأمثال كانت عصارة تجارب طويلة مارسها الفقهاء خلال أعمارهم ، وكثيراً ما نجدهم يحدّثوننا عن تلك التجارب ، ويسترسلون في حديثهم الذي عرفوه من قبل واقعاً مشهوداً ، ويبدئون ويعيدون ما استخلصوه من آراء قيمة في الحياة . فأبو الأسود الدؤلي يذكر خبرته الواسعة بأحوال الناس ، وكيف رضي منهم صالحات فأخذها ، ونقم على مذامّ فهجرها ، وكان مما اصطفاه وأخذه أن يفي بالوعد وفاء من يجعله كالدّين المكتوب إذا أقرّ به غارمه ، وبذلك يستحثّ نفسه استحثاثاً قوياً على الوفاء ، ويتقي حساب ربه ، ولا يدع للناس إليه سبيلاً . وإذا أراد أن يمنع أمراً أعان ذلك صراحة حتى لا يعاني السائل من مشقّة الانتظار ، ويسلك أبو الأسود « منهاج النظرة الشاملة » فإذا هو لا يفعل ما يؤدّي إلى ذم باقٍ أبـــد الآبدين من أجل ثناء عاجل أو حمد زائل :

وبلوتُ أخبارَ الرجال وفعلهم فلمْتُ علماً منهم وتجاربا

١) سابق البربري لعبدالله كنون ٣٥ .
٢) شعر النعمان ١٥٩ ، والعدم : الفقر ، ومت : اتصل .

فأخذتُ منهم ما رضيتُ بأخذه وتركتُ عمداً ما هنالك جانبا
فإذا وعدتُ الوعد كنت كغارم دَيْناً أقرّ به وأحضر كاتبا
حتى أُنفّذَه على ما قلتُه وكفى عليّ بـ لنفسيَ طالبا
وإذا فعلت فعلت غير محاسبٍ وكفى بربّك جازياً ومحاسبا
وإذا منعتُ منعتُ منعاً بيّناً وأرحتُ من طول الثناء الراغبا
لا أشتري الحمد القليل بقاؤه يوماً بذمّ الدهر أجمع واصبا [1]

وكان للإمام الشافعي خلالَ حياته الزاخرة بالدأب والجدّ والرّحلة تجارب وافرة ، وهي تجارب كان يردّد في خواتمها أنما الدنيا سراب خلاّب ، وأن الغرور قد حجب عن المتنفخين به حقيقتَها ، فأقبلوا عليها بشراهة إقبال كلاب أصابوا جيفة نتنة ، فهمْ كلٌّ أن يقتنص المزيد ، فمن آثر من الناس السلامة تجنّب الدنيا ، ومن طلبها نافسه عليها المتنافسون :

ومَنْ يَذُقِ الدنيا فإني طَعِمْتُها وسِيقَ إلينا عَذْبُها وعذابُها
فلم أرَها إلا غروراً وباطلاً كما لاح في ظهر الفلاة سَرابُها
وما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ عليها كِلابٌ همُّهُنّ اجتذابُها
فإنْ تجتنبْها كنتَ سلماً لأهلها وإن تجتذبْها نازعتْك كلابها [2]

ويخبرنا الشافعي في قصيدة أخرى كيف ابتلى الناس فوجد الأثرة حشوَ جلدهم فحسم الطمع وعفّ واستغنى عما في أيديهم ، ووجد فيهم الظّلاّم فرسم لهم نهايتهم المحتومة يوم تفرّ أموالهم ويسقط جاههم ، وتسودّ صحائفهم بالآثام ، ويصبّ عليهم ، بما فعلوا ، العذاب :

١) الأغاني (دار الثقافة) ١٢/٣١٣ وواصباً : دائماً . ٢) مختصر تذكرة القرطبي ١٦ ، وانظر الفتوحات الوهبية ٢٥١ ، وشذرات الذهب ٢ / ١٠ .

بلوتُ بني الدنيا فلم أر فيهمُ ... سوى من غدا والبخل ملءَ إهابهِ

فجرّدت من غِمْدِ القناعة صارماً ... قطعتُ رجائي منهم بذُبابه

فلا ذا يراني واقفاً في طريقه ... ولا ذا يراني قاعداً عند بابه

غنيٌّ بلا مال عن الناس كلّهم ... وليس الغنى إلاّ عن الشيء لا به

إذا ظالمٌ يستحسن الظلم مذهباً ... ولجّ عتوّاً في قبيح اكتسابه

فكِلْهُ إلى صَرْفِ الليالي فإنّها ... ستبدي له ما لم يكن في حسابه

فكم قد رأينا ظالماً متمرّداً ... يرى النجم تيهاً تحت ظلّ ركابه

فمنّا قليل وهو في غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه

فأصبح لا مالٌ ولا جاهَ يرتجي ... ولا حسنات تتقي في كتابه

وجوزيَ بالأمر الذي كان فاعلاً ... وصبّ عليه الله سَوْطَ عذابه [1]

لقد كان الفقهاء وهم يعشّون الناس تجارب حياتهم وأحاديث آلامهم يشيعون من نسمّم أرقى القمة المشرفة ثم جعل يرقب المشاهد على السفوح بصيرة نافذة وعقل مستنير ، فإذا هم لا يقفون عند خبرتهم الخاصة بل يمضون ليدعوا إلى الاعتبار بكل لامة والاهتداء بكل سَداد . فالشافعي يرسم صورة جادة في رحلته إلى بلدة عقد عليها الأمل ، ولكنه لا يدري أن الموت ينتظره هناك انتظاراً ، ويصور امرأً غارقاً في ضحكه غافلاً عن سلطان الموت الداني منه ، ولو علم ذلك فاض كمداً وكآبة :

ومُتْعِبِ العِيس مرتاحٍ إلى بلدٍ ... والموت يطلبه من ذلك البلدِ

وضاحكٍ والمنايا فوق مفرقه ... لو كان يعلم غيباً مات من كمَدِ [2]

١) ديوانه ١٦ وإهابه : جلده .

٢) مناقب الشافعي للرازي ٢٠٥ ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٦ والعبدة ١/ ١٨.

ويصوّر مسعر بن كدام رجلاً يبني داراً مأوىً له ، فما إن يتم بناؤها حتى يبغته الموت فيسكن لحده :

ومشيّدٍ داراً ليسكن داره ... سكن القبور وداره لم يَسْكُنِ [1]

وتكثر هذه الدعوة إلى الاعتبار في شعر الفقهاء كثرة واضحة ، ويلفت سابق كيف يجمّع الناس أموالهم ، فإذا هي تنقلب في قبضة الوارثين ، ويبنون القصور والقصور فإذا هم يذرونها عرضة التقوّض والانهيار ويمضون ، والنفس تهوى الملاذّ وهي تعلم أنها فتنة ، إذ الموت يغدو عليها ويروح ، وقد تخطّف من قبل ملوكاً كثيراً غفلوا عن مصائرهم المحتومة ، فما لبثوا حتى بلغوها ، هكذا قضت عاد وتبع وثمود .. فهل ثمة مطمعٌ في بقاء ؟ إن امرأً سبقه إلى الموت هؤلاء كلّهم لوشيك الرحيل :

أموالُنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورُنا لخراب الدهر نبنيها

والنفسُ تكلف بالدنيا وقد علمت ... أنّ السلامة منها ترك ما فيها

فلا الإقامة تُنجي النفس من تَلَفٍ ... ولا الفرارُ من الأحداث ينجيها

وكلُّ نفسٍ لها زَوْرٌ يصبّحها ... من المنيّة يوماً أو يُمسّيها

أين الملوك التي عن خطبها غفلتْ ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها ؟

غُرّتْ زماناً بملك لا دوام له ... جهلاً كما غرّ نفساً من يمنّيها

وصبّحتْ قومَ عادٍ في ديارهمُ ... بمُقْطِعٍ يوم عادتهم عواديها

وتبّعاً وثمودُ الحِجْرِ غادرهم ... رَيْبُ المنون رميماً في مغانيها

فكيف يبقى على الأحداث غارُنا ... كأننا قد أظلّتنا دواهيها [2]

٤ - الزهد والمواعظ والأخلاق:

كان الشعراء الفقهاء يحرصون ، وهم على طُرُق الحكمة ، أن ينوّروها بأشعة

١) روضة العقلاء ٢٠٢ . ٢) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٥١ وما بعدها

« الإرشاد النفسي » أو « الرياضة الروحية » كما قد نوّروها بالإيمان والتأمّل والعبر ، أو قل كانوا يهتدون بأضواء الإيمان في بنائهم الباطني وحياتهم الداخلية كما اهتدوا به في تدبّرهم العقلي وشؤونهم الفكرية ، وقد لمح جولدتسيهر بعض أمارات التشابه بين الزهد الإسلامي مع المسيحية فمضى يزعم تأثره بها واقتفاءه طريقتها ، وهو بذلك يخلط دونما تمييز ، بين أنواع الزهد التي عرفها المجتمع الإسلامي ، إذ كان فيه زهد إسلامي خالص غلب على جمهور العباد والنسّاك والفقهاء ، وسوف أقف عند خصائصه من خلال شعر الأخير بين فيه ، وكان ثمة زهد فاسد دخيل مثّله معتنقو المانوية ، وكان زهد ثالث انتشر في جماعة أقبلوا عليه بنوايا طيّبة ولم يكونوا على ثقافة فقهية كافية أن تميز لهم الصحيح من الشائب ، فدخل زهدهم بعض عناصر من غير الإسلام ، وأغلب الظن أن أبا العتاهية كان من هـــذه الجماعة ، غير أنّ النوعين الأخيرين من الزهد لم يكونا هما الغالبين .

وإذن فجولدتسيهر يعمّم الحالة الأخيرة التي لحظها على الذين لم تتهيأ لهم ثقافة دينية واعية من الزهاد ، ولم يسيروا على آثار الفقهاء المستبصرين ، فعلق بمنهجهم بعض شوائب أجنبية ، لكن هذا الصنف من الزهد قليل ، كما تقدم ، وأهم من ذلك أن ما علق به من آثار خارجية لم يكن في أسسه الأولى ولا خطوطه العريضة ، ولم يبلغ به يوماً أن يتخذ من دون الله أرباباً آلهة ، ولا أن يتخذ من دون محمد رسول الله أسوة هادية ، ويمكن القول إن تأثرهم كان في نبذهم الحياة نبذاً ابتعد - في بعض جوانبه - عن التصوّر الإسلامي للزهادة ، أو سلك سبيلاً كان ثمّة ما هو خير منه وأقوم ، بعبارة أدقّ ، يقول الدكتور يوسف خليف : « لو كان (الزهد الاسلامي) قد تأثر بالرهبانية المسيحية على النحو الذي يصوّره جولدتسيهر لرأينا وجوهاً من الشبه بين الزهاد المسلمين والرهبان المسيحيين في أسلوب حياتهم ، ولكن الواقع ينكر ذلك ، فلم يعرف الزهاد المسلمون نظام الرهبانية المسيحي ، ولم يعرفوا حياة الأديرة والصوامع ، ولم يحرّموا على أنفسهم الزواج ، ولم يبتعدوا عن المشاركة في الحياة العامة التي يحياها الناس .. والذي نريد أن نصل إليه من هذا هو أن الزهد في الاسلام

١) العقيدة والشريعة في الاسلام ١٣١ .

لم يكن مسيحيّ النشأة أو النزعة ، وأن الزهاد المسلمين لم يكونوا رهباناً يقضون حياتهم في الأديرة والصوامع ، وإنما كان الزهد في الإسلام إسلامي النشأة والنزعة ، غاية ما في الأمر أن هؤلاء الزهاد المسلمين الذين عاشوا في بيئات مسيحية ، كالعراق والشام ومصر ، لم يستطيعوا أن يعيشوا بمعزل عن تيار الرهبانية المسيحية ، وإنما تأثروا بها ، لا ذلك التأثر الذي يصوّره جولدتسيهر ، ولكنه التأثر الذي ظهر في تلك المبالغات التعبدية التي لم يكن الصحابة يعرفونها ، والتي كان الصحابة ينكرونها عليهم ، وهو تأثر لا يجعلنا نسلك الزهد الإسلامي والرهبانية المسيحية في قَرَن واحد ، فالرهبانية المسيحية محاولة لإماتة النزعات الدنيوية في حين أن الزهد الاسلامي محاولة لتهذيب هذه النزعات . وفرق كبير بين المحاولتين في الوسيلة والغاية ،[1].

ومن هنا كان الفقهاء لا يفتؤون يوجّهون نصائحهم تترى لإزالة كل شائبة دخيلة على الزهد ، ومن ذلك أن ابن المبارك نظر في بغداد إلى رجل عليه ثياب صوف لا تخالطها غيرها ، فقال : من هذا ؟ فقيل له : هذا أبو العتاهية الشاعر ، فكتب إليه :

أيها القارىء الذي لبس الصو ف وأضحى يُعَدُّ في العُبّادِ
الزم الشَّعْرَ والتعبّد فيه ليس بغدادُ موضعَ الزهّادِ
إنّ بغدادَ للملوكِ محلٌ ومُناخ للقارىء الصيّاد[2]

وكان صاحب كتابي « الزهد » و « الجهاد » يقول لأبي العتاهية : إنك قد أصبت أحد شطري الزهد القويم ، وهو نبذ الدنيا ومطامعها ، وبقي عليك أن تستكمله بالعمل والدأب والسعي والجهاد .

ومن الحقّ أن هذه الثنائية ، نبذ الحياة من جهة ، والعمل الدؤوب من جهة أخرى ، هي أهمّ خصائص الزهد الإسلامي ، وهو ما عرف عن الفقهاء في حياتهم المعاشية والعلمية والعبادية ، وهو ما يبدو كذلك واضحاً وضوحاً تاماً في أشعارهم .

ومن يقرأ هذه الأشعار يجدها تستحثّ على العمل والسعي والأخذ بالأسباب ،

١) حياة الشعر في الكوفة ١٩٩ و ٢٠٠ . ٢) بهجة المجالس ٦٤/٢ .

ولكنها تتلفت ، في الوقت نفسه ، إلى أن المرء لن يصيب من وراء عمله إلا ما قد قسم له مولاه ، وبذلك يفشط الإنسان في الكسب ، ويخوض غمار الحياة ، ويضرب في شعابها ، من دون أن يجعل ذلك مسعاه ولا أكبر همّه ، بل يبقى عفّاً من متاع الفانية ، مترفّعاً على حطامها ناعماً براحة البال ، شادّ البصر إلى آخرته ، متطلّع القلب إلى الله .

فأبو الأسود الدولي ينصح بالكدح المشفوع بالتوكّل المعمّم بالقنعة والأمن والقناعة فيقول :

إذا كنتَ معنياً بأمر تريده فما للقضاء والتوكّل من مِثْلِ
توكّلْ وحمّلْ أمرك الله إنّما تُرادُ به آتيك فانعمْ بذي الفضل (١)

ويؤكّد أبو الأسود لابنه ، وقد انقطع عن العمل وطلب الرزق ، أنّ أسباب المعيشة ليست في أن يتمنّى الإنسان ما يتمنى وهو قاعد خامل ، وإنما عليه أن يعمل ويسعى ، وأن يُلقي دلوه بين الدلاء وبذلك تعود إليه وهي تفيض فيضاً تارة ، أو تعود بماء قليل ممكثر بالطين تارة أخرى ، ولكنّ الحالتين خير له من الكسل والقعود وأن يظنّ رزقه يصله دون سعي منه ولا جهاد في سبيل ، فالله قد قسم الرزق لخلائقه حقاً ، ولكن عليهم أن ينشطوا ليتبلّغوا به وأخذه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنّي ولكنْ ألقِ دلوك في الدلاء
تجئك بملئها يوماً ، ويوماً تجيء بحمأة وقليل ماء
ولا تقعد على كسل التمنّي تُحيل على المقادر والقضاء
فإنّ مقادر الرحمن تجري بأرزاق العباد من السماء (٢)

لا بدّ من السعي إذن حتى لا يكون الزاهد كلاّ على أحد من الناس ، ولكنّ ذلك السعي لن يقدّم من أمر القسمة المفروضة من الله شيئاً ولن يؤخّر ، فلا بد أيضاً أن يعف عن المطامع فلا يذلّ لها ، بل الفقر خيرٌ من غنىً منكوس

١) ديوانه ٢١٠ . ٢) ديوانه ٢٤٤ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١١٥/٧ .

الكرامة أو منقول السخاء ، فليس المال مدار الأمر ، إنما هو العفة والنبل والحرية ، ولو سحب ذلك فقرٌ أو قِلّة ، قال هارون بن عبدالله الزهري :

والرزقَ فاطلبه ، على أنّه قيل له وقتٌ وآجالُ
وليس يبطىء عنك في وقته ولا له عن ذاك إعجال
فلا تقمْ عبداً على مَطْمَع فربما أخلفكَ الحالُ
والفقرُ خيرٌ فاعلمنْ من غنىً يكون فيه لك إذلالُ
والمال للمُكثِرِ شَيْنٌ إذا لم يك منه إفضالُ
والحرّ خير حيث أمسى ولا يمنعه من ذاك إقلال (١)

إن الإنسان - مهما سعى - لن يفوز بغير نصيبه المقدّر ، ولن يستطيع أن يحوز رزق الآخرين ، سواء طمع فيه أو عفّ عنه ، فلام يرهق نفسه فيما لا تطيق ، ويخسر دينه ، ويشين سمعته ؟ إنّ الغنى غنى النفس ، وإنّ كثيراً من غير أولي السَّعة ليتسنّمون ، بنفوسهم العالية ، على الدنيا ومطامعها ، وإن كثيراً من ذوي المتاد والوفرة ليُخْفِقون أنفساً جائعة طامعة شرهة ، قال عروة بن أذينة :

وقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقي أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
وأنّ حظّ امرىء غيري سيبلغه لا بدّ لا بدّ أن يحتازه دوني
فلن أكلف نفسي فوق طاقتها حرصاً أقيم به في مَعْطن الهُونِ
أبَيْتُ ذلك رأياً لستُ قاربَه ولا معرّضَه عرضي ولا ديني
فما امرؤٌ لم يُضِعْ ديناً ولا حَسَباً بفضل مالٍ وهى عرضاً بمغبون
كم من فقير غنيّ النفس تعرفه ومن غنيّ فقير النفس مسكين (٢)

١) أخبار القضاة ٢٧٦/٣ ، وترتيب المدارك ٥١٨/١ .
٢) شعر عروة ١٧٦ ومعطن الهون : موضع الذل ، ومغبون : مخدوع وخاسر .

وعلى هَدْي « الزهادة الاسلامية » في شعر الفقهاء نستطيع أن ندرك أشعارهم التي تناولت شطراً واحداً من هذه الزهادة ، وهو القناعة والعفة ، على نحو ما قال الشافعي :

أمتُ مطامعي فأرحت نفسي ... فإن النفس ما طمعتْ تَهونُ
وأحييتُ القُنوعَ وكان مَيْتاً ... ففي إحيائه عرضي مَصونُ
إذا طمعٌ يحلّ بقلب عبد ... علتْهُ مَهانةٌ وعلاه هُونُ (١)

وقال ابن المبارك :

لله دَرُّ القُنوع من خُلُق ... كم مِنْ وضيعٍ به قد ارتفعا
يضيق صدر الفتى بحاجته ... ومن تأسّى بدونه اتّسعا (٢)

وقال ابن المبارك أيضاً :

ومن البلاء وللبلاء علامة ... أن لا يُرى لك عن هواك نُزوعُ
المبدُ عبد النفس في شهواتها ... والحُرُّ يشبع مرّةً ويجوع (٣)

فمن الخطأ أن يُظنّ في هذه الأمثلة ، وأشباهها أنها تدعو إلى قناعة لا يصحبها عمل دائب وجهاد صادق ، وأكبر دليل على ذلك حياةُ كلٍّ من الشافعيّ وابن المبارك ، صاحبي الأبيات ، ومعروف كيف كان الامام الأوّل يجزىء ليله ثلاثة أجزاء ، فيكتب في أولها ، ويصلي في ثانيها ، وينام في ثالثها (٤) ، حتى إذا تنفس الصبح قعد في المسجد في حلقته بعد الصلاة ، فيجيئه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فاذا ارتفع الضحى تفرّقوا وجاء

١) مناقب الشافعي للرازي ٢٠٠ وطبقات الشافعية للأسنوي ١٤/١ .
٢) بهجة المجالس ٣٠٤/٢ .
٣) بهجة المجالس ٣٠٦/٢ ، وتاريخ ابن عساكر (المنتخب) ٦٠ (ابن المبارك) .
٤) انظر طبقات الشعراني ٥٠/١ .

أهل العربية والعروض والنحو والشعر ، فلا يزالون إلى قُرْب انتصاف النهار ، ثم ينصرف رضي الله عنه » (١) . ولم يكن ابن المبارك بأقلّ سعياً من الشافعي ، وقد يكفيه شهادةً أنه طاف ما وراء النهر وفارس والعراق والشام والحجاز واليمن ومصر ! وسوف يأتي ذلك عند الحديث عنه .

. . . .

وإلى جانب دعوة الفقهاء إلى الزهد في متاع الحياة الدنيا وعظوا مواعظ كثيرة أخرى ، منها الاستكثار من التقوى ، فهي خير زاد وأمضى عتاد ، ولن يستشعر حقيقتها إلا الذين ذاقت قلوبهم حلاوة طعمها من القوم المستبصرين ، قال سابق :

إنّ التقى خيرُ زادٍ أنت حاملُهُ ... والبِرّ أفضل شيء ناله بشرُ
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ما له بصر (٢)

وهذه التقوى - إذا توالى حرص الإنسان عليها - أصبحت له عادة لا يلقى فيها عنتاً ولا مشقة ، قال النعمان بن بشير :

فلا تك صدّاداً عن القصد والهدى ... أصمّ إذا تدعى إلى الحقّ أصيدا
عليكم بعادات التقى واتّباعها ... وكلُّ امرىء جارٍ على ما تعوّدا (٣)

وقد مضى الفقهاء وهم في سبيل التقوى يَذْكرون الله ذكراً كثيراً ، ويظنون به ، لأن في الذكر - كما يقول سابق - إحياء للقلب فلا يكون ميتاً ولا قاسياً :

وقد يُنعش الذكرُ القلوب وإنما ... يكون حياةَ العود في الماء وابلُهْ
أرى النفس لا يَنْمي إذا جفّ أصله ... وليس بباقٍ مَنْ أُبيحت أوائله (٤)

ويعود سابق إلى بيان أثر الذكر في الانسان في موضعين آخرين من شعره ، فيردّد في أوّلها إحياء الذكر للقلب فاذا به ينضر ويطيب ، ويبيّن أن القلوب

١) معجم الأدباء ٣٠٤/١٢ . ٢) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٣٩ .
٣) شعر النعمان ٩٢ ، والأصيد : الذي يرفع رأسه كبراً ، ويريد المتكبر الذي لا يستجيب للحق . ٤) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٨ .

الفطنة القاسية ان تحظى بهذه الحقيقة [1]، ويرى في الموضع الآخر أن ذكر الله إذ تعمق النفس أثر باثراً قوياً في موقف صاحبها من الحياة، فيزول عنه الكلف بها وبملاذها، ويسكن قلبه من كل خفقة قلق أو سوء [2].

وكان من أثر التقوى دعوة الشعراء الفقهاء - في مواعظهم - إلى الثقة بالله والاعتماد عليه، فان الله كافٍ عباده، ومن قلة الثقه أن يظن أحد في الناس له غنية كافية، قال الحسين بن علي بن أبي طالب:

اغْنَ عن المخلوق بالخالقِ ... تَغْنَ عن الكاذب والصادق

من ظنّ أن الناس يُغنونه ... فليس بالرحمن بالواثق [3]

ومع التقوى وذكر الله والثقة به وعظ الفقهاء بطاعة الله، إذ بدون هذه الطاعة لا تكون تقوى ولا يثمر ذكر ولا تتمّ ثقة، وبهذه الطاعة رباح ومنجاة واستراحة، قال ابن المبارك:

أيضمن لي فتىً تركَ المعاصي ... وأرهنه الكفالةَ بالخلاص؟

أطاعَ اللهَ قومٌ فاستراحوا ... ولم يتجرّعوا غُصَصَ المعاصي [4]

وماذا يجني الانسان من المعاصي إلا الحرمان من الخيرات والابتعاد من رحمة الله وفضله؟ قال الشافعي:

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نُورٌ ... ونور الله لا يُؤتى لعاصي [5]

وكان من مواعظ الفقهاء إرشادهم إلى مجموعة من أساليب الوعظ نفسه، أو قل هديهم إلى ما يصلح اتخاذه «مناهج في التربية والنصيحة والتقويم»، وهي مناهج لم يلفوها «بتحليل مخبري» ولا «وسيلة تجريبية» وإنما نفذوا إليها بأحاسيسهم الدقيقة ومشاعرهم القوية وعقولهم المستنيرة، فتناثرت خلال أشعارهم نثراً.

١) المصدر السابق ٣٤١.
٢) المصدر السابق ٣٤٥.
٣) المصدر السابق ٤٣٢.
٤) أدب الدنيا والدين ٨٨.
٥) المحدون من الشعراء ١٣٨ ووكيع هو وكيع بن الجراح الفقيه.

ومما عرض الشعراء الفقهاء من هذا الطراز من المواعظ ابتداء الناصح بتربية نفسه أولاً، والحرص عليها منذ نعومة الأظفار، وتحري التربة الصالحة لها، والافادة من تجارب الآخرين، ومراعاة التخصص في البحث، وتحرير الحقائق والمعلومات، والتأني في النصح، والتكرار، والاقلال من المزاح والجدل، والمداومة في سكون، وإطالة الصمت، والاهتمام بالنهايات.

فليس من الحكمة أن ينهى المرء غيره عن اشياء هو يعملها، بل من واجبه أن يتمثل ما يدعو إليه تمثلاً تاماً ليكون قدوة لهؤلاء الذين يدعوهم، يقول أبو الأسود الدؤلي:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مِثْلَهُ ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

ابدأ بنفسك وانهها عن غيّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيم

فهناك يُقبل ما وعظتَ ويُقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم [1]

وينبغي - إلى جانب تمثل الواعظ مبادئه - الشروع في تربية الناشئة منذ نعومة أظفارهم وغضاضة هيدانهم، لأنهم في صغرهم يقبلون التعديل والتثقيف، والتربية والتأديب، «حسب المناهج المقرّرة»، أما الذين شبّوا عن الطوق فكأنهم يشعرون بغير قليل من الحرج إذا هم استجابوا إلى ما يوجّهون إليه، ومثلهم في ذلك مثل الغصون، إن كانت طرية رطبة أمكن تعديلها إلى ما يراد، لكنها لن تلين وان تتعدّل إذا يبست، مهما بذل من أجل ذلك من جهد، قال سابق البربري:

قد ينفع الأدب الأبناء في صِغَرٍ ... وليس ينفعهم من بعده الأدبُ

إن الغصون إذا عدّلتها اعتدلتْ ... ولا يَلينُ ولو لينّته الخشبُ [2]

وكأما الصِّغر تربة صالحة أن تؤتي الخير وتحسن العطاء، وكان الفقهاء يتحرّون هذه التربة لا في الصغار بل أيضاً في الكبار، وهؤلاء في رأي الشافعي فريقان، فمنهم من يستجيب للحق ويذعن له، ومن الخير أن يفيض عليهم العلماء

١) ديوانه ٢٢٣.
٢) سابق البربري لعبدالله كنون ١٩.

من كنوزهم، ومنهم من لا يزيده التعليم إلا جهالة وضلالة، فمن ضياع العلم أن يُراق في أعتاب هؤلاء القوم الذين لا يقيمون له وزناً:

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ... ولا أنثر الدرّ النفيس على الغنم
فإنْ يسّر الله الكريم بفضله ... ولاقيت أهلاً للعلوم والحِكَم
بثثتُ مفيداً واستفدتُ ودادهم ... وإلا فمخزونٌ لديّ ومكتتم
فمن مَنَحَ الجهّال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم (1)

ويحظ سابق أن يفيد الانسان من تجارب سابقيه وأن يعتبر بمن مضى من الصالحين ويسير على منهجهم في هجران الهوى والتعفف عن الدنيا، فيقول:

ثم اقتدوا بالأولى كانوا لكم غُرَراً ... وليس من أمّة إلاّ لها غُرَرُ
متى تكونوا على منهاج أوّلكم ... وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا (2)

وينصح الامام الشافعي المتعلمين بالاختصاص فيما هو خير، وأن يختاروا من الموضوعات أحسنها، ذلك أن العلم خضمٌ لا يدرك له قرار:

ما حوى العلم جميعاً رجل ... لا ولو مارسَهُ ألْفَ سنهْ
إنما العلم بعيدٌ غَوْرُه ... فخذوا من كل شيء أحسنه (3)

ويدعو أبو الأسود الدؤلي إلى التثبت من كل ما يقوله الانسان أو يسمعه، وبذلك لا يخوض - إذا تحدّث - فيما يكون فيه الندامة من بعد:

حقّق القولَ إذا ما قلتَه ... واحذرنْ مخزاتَه في المجمعه (4)

١) حياة الحيوان ٢/٢٢٣، وحماسة الظرفاء ١/١٧٥، وهم دية الأمم ٣٠، ويبدو أن الامام الشافعي يتأثر في أبياته قول عكرمة: إن لهذا العلم ثمناً. قيل: وما هو؟ قال: أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه. انظر إحياء علوم الدين ١/١٨.
٢) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٤.
٣) ديوانه ٦٥، وقد نسبا في التمثيل والمحاضرة ١٦٥ إلى الامام علي.
٤) ديوانه ١٢٢.

وكذلك حين يُنقل إليه وشاية لا ينبغي أن يسلّم بها دون تحقيق ولا تثبّت، فليس بعيداً أن يكون هذا الذي نقل إليه الوشاية قد بيّت أن يشي عنه كما وشى له، ويجرحَ سمعته لدى الآخرين كما جرح سمعتهم عنده، قال أبو الأسود:

لا تقبلنْ نميمةً بُلِّغتَها ... وتحفّظنْ من الذي أنبأكها
إنّ الذي أهدى إليك نميمةً ... سيمَمْ عنك مثلها قد حاكها (1)

وقد دفع الفقهاء مناهجهم في التحقيق إلى التأني في الغربة والتمهّل في إقرارها في النفوس، ومن خير ما يصوّر ذلك أبيات للدؤلي تحكي صبره على صاحبه وإنْ زلّ مرة أو مرّات، فهو يعامله معاملة حسنة، ويرجو له أن يرتدّ إلى المنهج القويم بعد أن يتبيّن - مع الأيام - أخطاءه بنفسه:

أعود على المولى وإن زلّ حِلْمُهُ ... بحلمي وكان العَوْد أبقى وأحمدا
وكنتُ إذا المولى بدا لي غِشُّه ... تجاوزت عنه وانتظرت به غدا
لتُحكمه الأيّام أو لتردّه ... عليّ ولم أبْسُطْ لسانا ولا يدا (2)

ومع التأني يكون دائماً التكرار، وأشدّ ما تحتاج إليه إذا أردت أن تنهى لجوحاً عن غيّه فهذا لا ينفع معه نهي ولا زجر، ولن يزيده ذلك إلا خصومة وجدلاً، وخير وسيلة للتأثير فيه أن تبدي معه بالرفق وتميد، وتتزوّد لذلك بالصبر والأناة، فادا بنفسه تلين وإذا هو يرعوي ويستقيم، قال سابق:

إذا زجرْتَ لَجوجاً زدْتَهُ عَلَقاً ... ولجّت النفس منه في تماديها
فمُدْ عليه إذا ما نفسُه جمحتْ ... باللين منك فإن اللين يَثنيها (3)

ومما نصح به الفقهاء الاقلال من المزاح والجدل، ومما احتفظت به المصادر في هذا الشأن أبيات لسمر بن كدام يعظ فيها ابنه وهي تجري على هذه الشاكلة:

١) نهاية الارب ٣/٢٩٥. ٢) ديوانه ٢٤٦.
٣) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٥٣، واللجوج كثير الصخب والخصومة، وعلفاً: تعلقاً؛ ويثنيها: يعطفها ويردها.

إني منحتُكَ يا كِدامُ نصيحتي فاسمعْ لقول أبٍ عليك شفيقِ
أما المزاحة والمراء فدعهما خُلُقان لا أرضاهما لصديقِ
إني بلوتُهما فلم أحمَدْهُما لمجاورٍ جاراً ولا لصديقِ (١)

ويؤكد أبو الأسود مضارّ الخصلة الثانية التي حذّر منها مسعر، المراء، فيذكر بما يعقب المجادلات من شرّ وندامة، ويذمّ من يجاور السفهاء ويصاحبهم في شيمتهم، يقول:

فاتركْ محاورة السفيه فإنّها نَدَمٌ وغبٌ بعد ذاك وَخيمُ
وإذا جريتَ مع السَّفيه كما جرى فكلاكما في جريه مذمومُ
وإذا عتبتَ على السَّفيه ولمتَه في مثل ما تأتي فأنت ظلومُ (٢)

غير أن هذا الموقف من الاسراف في الجدل لا يعني أن الشعراء الفقهاء كانوا يرفضون المحاورة حيثما كانت، فقد تستدق بعض الحقائق على المتلقين، فلا بد من مناقشتهم فيها لازالة اللَّبْس، وتعرية الغموض، وتمييز الخبيث من الطيّب، إلا أنّ العالم الفطن والمتكلم الجامع يناقش في سَمْت ورويّة، ويناقش في حلم ورزانة فلا يكون كمن يغلو في مجادلته ابتغاء الرياء المقيت، ومن الخير للمسلم أن يتجنب هذا الذي لا يبغي الحقيقة ولا معرفتها ويجعل من إثارة الضجة العقيمة غاية ما بعدها غاية، فيتنطّع ويتحذلق، ويلجّ ويستكبر، قال الشافعي:

إذا ما كنت ذا علم وفضل بما اختلف الأوائل والأواخرْ
فناظرْ من تناظر في سكون حليماً لا تلجّ ولا تكابر
يفيدك ما استفاد بلا امتنان من النُّكَت اللطيفة والنوادر
وإياك اللَّجوجَ ومن يراني بأني قد غُلبت ومن يفاخر

١) مختصر جامع بيان العلم ١٥٨، ومضاهاة أمثال كليلة ودمنه ٨٢. ٢) ديوانه ٣٣.

فإنّ الشرّ في جنبات هذا فميّزْ بالتقاطع والتدابر (١)

وخير من هذه اللُّجاجة العقيمة في رأي أبي الأسود أن يقلّ المرء من كلامه بل يصمت صمتاً تاماً ولا يتخبط في شعاب معقّدة ربما قادته إلى الهلكة أو الضياع:

أطلِ الصمت إذا ما لم تُسَلْ إنّ في الصمت لأقوامٍ دعهْ
رب ماشٍ بحديث قالهُ لا يضرّ المرْءَ ألاّ يَسْمعه (٢)

وقد اندفع الفقهاء يلوّحون دائماً بالغايات من الأعمال، فلا تكون وسائلها كل شيء، ولا تفتر عنها النظرات فتدنو وتضيق، أو تنحرف وتضل، فأبو حنيفة يوجّه المشتغلين بالعلم ليبتغوا به الآخرة وثواب الرحمة، ولا يؤثروا على هذه الغاية ثواب الدنيا وعطاء البشر:

مَنْ طلب العلم للمَعادِ فاز بفضل من الرشادِ
فيا لخسران طالبيه لنيل فضل من العباد (٣)

إن العلم وسيلة لا غاية، وهو وسيلة ينبغي أن تهدي صاحبها إلى ما هو خير، فيصلح قلبه وتطيب سيرته وتزكو أخلاقه، فان لم يبتغه إلى هذه الثمرة أو جرى في سبيل معكوس، كان نقمة لا نعمة، وضلالاً لا رشاداً، قال الشافعي:

إذا لم يزدْ علمُ الفتى قلبه هدىً وسيرته عدلاً وأخلاقه حُسْنا
فبشِّرْهُ أنّ الله أولاه نقمة يساء بها مثل الذي عبد الوثنا (٤)

. . .

وكان الفقهاء يزكّون الأنفُس، وهم في سبيل بنائها الداخلي، بطائفة من الأخلاق المحمودة كالعفيفة وحبّ العلم والكرم والمعروف والوفاء والعفو.

١) ديوانه ٣٨، والأبيات الثلاثة الأولى في مناقب الشافعي للرازي ٢٢٢
٢) ديوانه ١٠٣. ٣) مفتاح السعادة ٣٧/١.
٤) ديوانه ٦٠ والوثن: جمع وثن وهو الصنم.

فصالح الأخلاق طاقة دافعة إلى المبرّة والمحافظة على وشائج القربى، ومن طرق أبوابها فتح عليه منها خير جمّ وعطاء كثير، قال ابن المبارك:

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني ... أرى صالح الأخلاق لا استطيعها
أرى خُلّة في إخوة وعشيرة ... وذي رحم ما كنتُ ممن يضيعها
فلو طاوعتني بالمكارم قدرة ... لجاد عليها بالنّوال ربيعُها (١)

ومن أكرم الأخلاق حبّ العلم والمجاهدة في تحصيله، وقد مضى الشعراء الفقراء يزيّنونه في النفوس ويحببونه إلى القلوب، فهو أمارة خير وشرف، وكنز ثمين، وقرين وفيّ حميم، وقد يخون المالُ صاحبه، فيفلتُ من يده، لكن العلم يبقى في صدره لا يخاف عليه سرقة ولا ضياعاً، إنه ذخر لا يعدله درّ ولا ذهب نضار، قال أبو الأسود الدؤلي:

العلم زَيْنٌ وتشريف لصاحبه ... فاطلب - هُديتَ فنون العلم والادبا
العلم ذخر وكنز لا نفادَ له ... نعم القرينُ ونعم الخِدْنُ إن صحبا
قد يجمع المالَ شخص ثم يحرمه ... عمّا قليل فيلقى الذلّ والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبداً ... فلا يحاذر منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخرُ تجمعه ... لا تعدلنّ به درّاً ولا ذهبا (٢)

وكما زيّن أبو الأسود العلم ودعا إليه زيّن الجود وحثّ نفس الفيّاض الكريم، فهو لا يحتاج إلى إطالة سؤال لتسيل أعطياتُه وهباتُه، بل يكفي لتدكيره، من أجره السائل حاجته، أن يَلقاه بسلامه، فيبيت لزاماً عليه إقالة عثرته ويسرع في عطائه. ونال الحمد الجزل والثناء الجميل، ويجود بسخاء وإن بدت عليه قبل ذلك أحياناً بعض علائم من جفوة وعتاب. ويلتفت الشاعر بعد تصويره نفس

١) كتاب الورقة ١٦ والخلة: الصداقة، والنوال: العطاء.
٢) تهذيب ابن عساكر ١١٦/٧ والقرين والخدن: الصديق، والحرب: الهلاك وانظر البيتان الثالث والرابع إلى صالح بن عبدالقدوس، انظر محادثات الأدباء ٣٢/١.

الكريم إلى ذلك السائل المحتاج فيوصيه ألاّ يمدّ كفّ الضراعة ما لم يكن مضطراً أشدّ اضطرار، وخير له لو عاش عيشة شظف وتقشّف، من أن يريق ماء وجهه ويسأل الناس:

وإذا طلبتَ إلى كريم حاجة ... فلقاؤه يكفيك والتسليمُ
فإذا رآك مسلّماً ذكر الذي ... كلّمتَه فكأنّه ملزوم
ورأى عواقب حمد ذاك وذمّه ... المرء تبقى والعظام رميم
فارجُ الكريم وإنْ رأيت جفاءه ... والعتب منه، والكريمُ كريم
إن كنت مضطراً، وإلا فاتخذ ... نفقاً كأنّك خائف مهزوم
واتركه واحذرْ أن تمرّ ببابه ... دهراً، وعرضُك إن فعلتَ سليمُ (١)

وكانت خصلة الكرم تدفع إلى حثّ مستمر على بذل المعروف في كل الميادين، وتذكير المحسنين ألا يصدّوا عنه لما قد يرون من جحود لأيديهم وكفران لمعروفهم، فان الله لن يضيع أعمالهم أبداً، قال ابن المبارك:

يدُ المعروف غنمٌ حيث كانت ... تحمّلها شكورٌ أو كفورُ
ففي شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفورُ (٢)

إن الحياة سوف تمضي مغنيّاً حثيثاً، فكلام لا يقدّم الانسان لأخيه ما يقدر عليه من خير وعون؟ وإذا لم يفعل ذلك فهل أقلّ من ان يخفض له جناحه ويوطىء له كنفه؟ قال سابق:

يا مبتني الدار التي ... هو مسرع عنها الرحيلا

١) ديوانه ٢٣٥. ٢) حماسة الظرفاء ١٦٩/١ وبهجة المجالس ٣٠٧/١.

إن لم تُنِلْ خيراً أخا ك فكن له عبداً ذليلا [1]

والمعروف مكرمة باقية محمودة العاقبة ، وما ضاع عرف وإنْ أوليته حَجَرا، كما يقول ابن المبارك ، ذلك أنْ ليس من شيم الأوفياء كفران النعمة ، وبذل الجميل حريٌّ أن يثاب بمثله ، ومن هنا قال عروة بن أذينة :

لا تكفرنّ طوال عيشك نعمة لؤماً تجاحدها امرأً أولاكَها [2]

فمن اللؤم أن ينسى المرء فضل من أحسن إليه ، وقد أمعن الهذلي يدعو إلى الوفاء ليس للذين يقدّمون المعروف فحسب ، بل أيضاً لهؤلاء الأقدمين الذين ذاق أبوه من قبل معهم حلاوة الحياة ومرارتها :

أكرمْ صديقَ أبيك حيث لقيتَه
واحْبُ الكرامة مَنْ بدا فحباكها [3]

لكنّ الإنسان قد تبدر منه بادرةُ إهمال وإفراط ، فيقصّر في وفاء أو غير وفاء ، وعندئذ ينبغي - في رأي الفقهاء - أن يسبر المرء أغوار صاحبه ليميز ما يأتي به من هفوات معتادة ، وما يصدر فيه عن نزعة باطنة خفية يشوبها حبُّ الأذى وضمور الاخلاص ، فأما إن كانت هفوات مألوفة فليس ثمة من صديق مُطّرد على الكمال ، و «كلُّ ابن آدم خطّاء» ، ومن الخير أن يعفو عنها دون حساب ولا عتاب ، وإلا بقي وحيداً فريداً ، قال سابق :

إذا ما كنتَ طالب كلّ ذنب ولم تحلل أخاك عن العتابِ
تباعَدَ من تباعَدَ بعد قرب وصار بك الزمان إلى اجتناب [4]

وليس من الحكمة في شيء ألا يغفر امرؤٌ غلط غيره ، بل يمضي يحاسب ويعاقب ويتر حبال المودّة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يذر إليها سبباً ، قال أبو الأسود :

١) تهذيب ابن عساكر ٦/٤٠ .
٢) شعر عروة ٣٤٥ .
٣) ديوانه ١٩٨ ، وحباه : أعطاه .
٤) سابق البربري ٢٢ .

إذا أنتَ لم تعفُ عن صاحب أساء وعاقبته إنْ عثرْ
بقيتَ بلا صاحب فاحتمل وكن ذا قبول إذا ما اعتذر [1]

ذلك حين يكون الزلل هفوة هينة ، وأمّا إن انطوى الصديق على حبّ الأذيّة ، فلنْ أحداً لن يستمرّ على مودّته ، قال أبو الأسود :

فإني وجدتُ الحبّ في الصدر ، والأذى
إذا اجتمعا لم يلبث الحبّ يذهبُ [2]

. . . .

وعلى هذا النحو انكفأ الشعراء الفقهاء يطهّرون الأنفس والنحايا من خصال السوء ، والأخلاق المُرْدية لا الرافعة ، فحملوا على الانقياد وراء الشهوات الآثمة والفواحش المنكرة ، وذمّوا المنّ والكبْر والحسد والغيبة والرياء .

فقد حذر سابق أن ينصاع الانسان لشهواته ويستسلم لنفثاتها دون ضبط ولا مقاومة ، فإن سُكْر اللذّة ساعة ، ثم وراءها ندم طويل وكآبة مستمرّة :

وتجنّب الشهوات واحـــذرْ أن تكون لها قتيلا
فلربّ شهوة ساعة قد أورثتْ حزناً طويلا [3]

إن هذا المنغمر في لهوه الجاري إثر هواه لو عفّ وزكا وتجنّب الاثم وأحسن معاملة الناس ؛ إذن لتنفّسوا هم كذلك وزكَوْا وأحسنوا معاملته ، فكما يدين يدان ، أمّا إذا استحبّ أن يبتدي على أعراض القوم ويهتك حرماتهم ويفضح عوراتهم الوثيقة ويبوئهم العامرة فانه لن يضمن أن يُؤتى من حيث أجرم ، قال الشافعي :

عفّوا تعفّ نساؤكم في المُحْرَمِ وتجنّبوا ما لا يليقُ بمُسْلِمِ
إنّ الزنى دينٌ فإن أقرضته كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

١) ديوانه ٢٤١ .
٢) ديوانه ٢٤٤ .
٣) تهذيب ابن عساكر ٦/٤٠ .

يا هانكاً حرم الرجال وقاطعاً سبل المودّة عشت غير مكرّم
لو كنت حرّاً من سلالة ماجد ما كنت هتّاكاً لحرمة مسلم
مَنْ يَزنِ يُزنَ به ولو بجداره إنْ كنتَ يا هذا لبيباً فاهم[1]

ومن الصفات الذميمة التي كرّهها الفقهاء في النفوس، كراهة الفواحش، ما يذهب وضاءة الكرم من المنّ المقيت، ولعروة بن أذينة مقطوعة يوصي فيها أولي الفضل ألا يذكروا صنائعهم - وإن عظُمت - بين يدي الذين قدّموها لهم، بل الخير أن يتظاهروا بتناسيها تماماً حتى لا يشعر هؤلاء بأيّ حرج أو غضاضة، أما الذين يتبجّحون أمام ذوي الحاجات بما وهبوهم فانهم يخمدون بهذا ما في القلوب لهم من مودّة وشكر لما أسدوه، فتتكدّر الصنيعة ويذهب فضلها، ويغيب عنهم أن الله هو الذي يجزي على المعروف خير الجزاء، ويشكره:

لا تتركنْ إنْ صنيعة سَلفتْ منكَ وإنْ كنت لا تصغّرها
إلى امرىء أن تقولَ إنْ ذكرتْ عندك في الجدّ لست أذكرها
فإنّ إحياءها إماتتها وإنّ منّاً بها يُكدّرها
وإنْ تولّى امرؤٌ بشكر يدٍ فالله يجزي بها ويشكرها[2]

ويهيب الامام الشافعي بذوي الحاجات ألا يمدّوا أكفّ السؤال - على إملاقهم - إلى الذين يُتبعون أعطياتهم بالمنّ والأذى، وخير لهم أن يصبروا على شظف المعيشة مع كرامة الأنفس من أن يتحمّلوا المنن التي تدمي القلوب وتقصدها قصد الرماح:

لا تحملنّ لمن يمنّ - من الأنام عليك مِنّهْ
واختر لنفسك حظها واصبر فإن الصبر جُنّهْ

١) نتيجة الافكار ٨. ٢) شعر عروة ٣٣٣، والصنيعة: المعروف.

منن الرجال على القلو ب أشدّ من وقع الأسنة[1]

وكثيراً ما يرتبط المنّ بنزعة الكبْر ونظرة الاستعلاء، وقد بيّن ابن عتبة وما ذلك وما يؤدي إليه من تنامي الاحقاد الذين ألفوه وألفهم، ولم يفرق بينهم إلا اعتراره بما أصاب من عرض الدنيا، وينصحه بأن يمس تراب الأرض احياناً بذكر أنه منها خُلق وإليها يعود وأنّ مصير الناس إلى حساب وجزاء! ويختم هذه الخلصة بأنها شرّ الصفات:

فمسّا تراب الأرض منها خُلقتما وفيها المعادُ والمصير إلى الحشر
ولا تأنفا أن تسألا وتسلتما فما حُشي الإنسانُ شرّاً من الكبْر[2]

ومع الكبر يكون الحسد، فالمتفخ المتنج لا يرضى لأحد أن يتنفس من النسائم التي يشمّ، ولا أن يحيا في مستواه الذي يحيا، ويضيق صدره وينقبض قلبه كلما نال غيرُه من الخير ما يوشك أن يدانيه به، فانّ تقدمه اسودّت الدنيا في عينه، وكأنّ الأرض لا تسع من أهل الفضل سوى هذا الحسود الحاقد الذميم، وكأنّ نعم الله ما فاضت منذ آدم على البشرية جمعاء، أولي الفضل منهم وذوي الحقد معاً، فتمرتهم بآلائها غمراً! ولأبي الأسود الدؤلي مقطوعة بديعة يتحدّث فيها عن حسد الحسّاد لمن سبقهم في السعي ومعاداتهم له، وليس مثلُ سابقيهم أولي الحظّ - في رأي الدؤلي - إلا كمثل الجبلة الحسناء يتألق وجهها، كلما تحدّثت، كالبدر المنير، غير أن ضرّاتها مع ذلك لا يشهدن لها إلا بدمامة الوجه وقبح الهيئة، وما كان وجهها بدميم ولا ذميم، لكنّه الحسد المرّ والحقد الأعمى، وكذلك تضيق صدور الحاسدين بمن أوتي نصيباً من الخير، ويكيدون له:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقومُ أعداء له وخصومُ

١) أدب الدنيا والدين ١٨٨، وغرر الخصائص الواضحة ٢٥٤.
٢) مجالس ثعلب ١٤/١ والاغاني (دار الثقافة) ١٤٠/٩.

كضرائر الحسناء قلن لوجها حسداً وبغضاً إنه لذميم
والوجهُ يشرق في الكلام كأنّه بدرٌ منير والنساء نجوم
وترى اللبيب محسّداً لم يجترمْ شتمَ الرجال وعرضُه المشتوم
وكذاك مَنْ عظمتْ عليه نعمة حسّاده سيف عليه صَرومُ [1]

ويصوّر ابن المبارك كيف يعادي الحسود لمنْ « عظمت عليه نعمة » عداوة شديدة لا يرجى لها زوال ، إذ تحول في قلبه عقدة نفسية ليس يقدر على حلها إلا الله ، فيقول :

كلُّ العداوة قد تُرجى إماتتُها إلا عداوة من عاداك من حسدِ
فإنّ في القلب منها عُقدةً عقدتْ وليس يفتحها راقٍ إلى الأبدِ
إلا الإله فإنْ يرحمْ تُحلّ به وإنْ أباه فلا ترجوه من أحد [2]

ومن طبائع الحاسدين أنهم ينفثون بالنية والتجريح كلَّ ما في صدورهم من غليان الحقد وسعير المنافسة المؤرّقة ، ويحكي الشافعي قصة حسود له لا يتورّع عن اغتيابه كلّما سنحت له إلى ذلك وسيلة ، فإذا حضر سأل لسانه بمديحه والثناء عليه ، لكن الامام الجليل يفطن عنه ولا يهبط إلى دَرَكته :

وذي حسد يغتابني حيثُ لا يرى مكاني ويُثني صالحاً حيث أسمعُ
تورّعت ان أغتابه من ورائه وما هو إذ يغتابني متورّع [3]

ويبين ابن المبارك تجنّبه لهذه المذمّة التي نهى عنها الله سبحانه في محكم كتابه فيقول :

١) ديوانه ٢٣٢ .
٢) العقد الفريد ٣٢١/٢ . ونسب البيت الاول الى الامام الشافعي . انظر مناقب البيهقي ٧٤/٢ . ٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٧٥/٢ .

وغيبة الناس ، إنّ غيبتهم حرّمها ذو الجلالِ في الكُتُب [1]

وكما كان للحسد آصرة تدنيه إلى النية كان ثمة آصرة أخرى تشدّه إلى الرياء ، وقد عاب الفقهاء ذلك وهذا ، ونهى الشافعي أن يختال الانسان ويتراءى في مشيته مزهوّاً مستكبراً ، فما هو إلا قليل حتى يندثر تحت التراب الذي يحتقر اليوم من فوقه :

ولا تمشِيَنّ في مَنْكِب الأرض فاخراً
فمِمّا قليل يحتويك ترابُها [2]

وعلى هذا النحو تنثر في شعر الفقهاء ذمّ الجهل [3] والغدر [4] واليأس [5] والبخل [6] وغير ذلك من الصفات التي تُصدئ النفس وتميت القلب .

. . . . .

ونخلص مما تقدّم إلى أن الزهد الذي عُرف في أوساط الفقهاء ، وهو الذي غلب على المجتمع الاسلامي على امتداده أيضاً ، كان زهداً لم يشُبْهُ زيغٌ ولا ميل ولا انحراف ، وكان الفقهاء يقفون بالمرصاد لكل شائبة دخيلة ، وكان يقوم زهدهم على قناعة عاملة وجِدٍّ راض .

وكان إلى جانب الزهد مواعظ شعرية تدعو الى الاستزادة من التقوى وذكر الله والثقة به وطاعته وتقدّم نصائح صالحة لأن تتخذ مناهج في التربية والتقويم .

ولقد زكّوا الضمائر بمجموعة من الأخلاق الرشيدة كالفضيلة وحب العلم والكرم والمعروف والوفاء ، وحذّروا من الشهوات الآثمة والمن والكبر والحسد والغيبة والرياء ...

١) تاريخ ابن عساكر (المقدمة) ص ٦ (ابن المبارك) ، وهو يشير إلى قوله تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ؟ واتقوا الله ، ان الله تواب رحيم » (سورة الحجرات ١٢) .
٢) مختصر تذكرة القرطبي ١٦ . ٣) ديوان أبي الأسود ١٤٩ .
٤) المصدر السابق ١٨٣ . ٥) المصدر السابق ٢٢٧ .
٦) المصدر السابق ٢٣٦ .

ويمكن القول إنّ هذه الحكم التي تستنير على نحو واضح في كل جوانبها بهَدْي التنزيل كانت من المقدّمات الأولى للفلسفة في المجتمع الاسلامي، إلا أنها مقدّمات صافية عذبة لم تُثقل بغموض المصطلحات ولا تعقّدهـــا، فأشارم في الايمان والتأمل والعِبَر إنْ هي إلا جانب من «التفكير»، وآثارم في الاستبصار بالعقيدة أو في الزهد والمواعظ والأخلاق «ارتياضٌ» نفسي ومجاهدة روحيـــة، والتفكير والارتياض هما أساس تلك الفلسفة التي مثّلها فيما بعد الامام الفذّ حجة الاسلام محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ للهجرة.

الفصل الثاني

الغزل

١ - غزل عروة بن أذينة :

يثير الحكمة في شعر الفقهاء الغزل، وهو أمر قد يدعو إلى الاستغراب إذا لم يتنبّه الباحثون إلى ملاحظة دقيقة في هذا المضمار، هي أنّ ثلثي الغزل عند الفقهاء أو ما يزيد على ثلثيه لعروة بن أذينة وحده، وواضح أن من يتمثل هذه الملاحظة تضطرب أمامه الصورة وتختلّ أبعادها ويحسب أنّ للشعراء الفقهاء في هذا المجال سبقاً فرّطاً، على حين لم يكد طائفة منهم يمسّونه أيّ مسّ، بينما طرقه فريق آخر من زاوية خاصّة هي الغزل بأزواجهم أمهات بنيهم. ويمكن القول إن هذا الموضوع لم يكن ليزيد على سائر الأغراض - سوى الحكمة - لولا كثرة ما لعروة فيه.

ومن يقرأ في شعر ابن أذينة، وهو أغزر الفقهاء نتاجاً باقياً، يجد أكثر من ثلث ديوانه يختصّ بالغزل؛ وأم امرأة يُردّد اسمها هي سُعدى، وكان الأمين محمد الزاكي قد لحظ أن لعروة ولدَيْن وبنات، فتساءل هل تزوج عروة سعدى؟ وهل هؤلاء بنوه منها؟ وفي الإجابة على ذلك قال: «نعم؛ إذ ليس مقبولاً أن يكون غزله في غير زوجته»(١). فإن كانت سعدى زوجته حقاً دخل نسيبه في الغزل بشريكات العمر، وعندئذ لا يثير الحـــديث عن «بنات حوّاء» عتيبَ «الحكمة» أيّ استغراب.

ولو كانت حياة عروة بين أيدينا لوضحت الشكلة، غير أن المصادر لم تحتفظ من أخباره إلا بشذرات متفرّقة لا تقيم لها صورة ولا تبيّن سيرة. وليس بعيداً أن يكون عروة تزوج سعدى، بعد أن أحبّها ومال إليها، غير أن القضية ظنية، على حدّ تعبير الفقهاء، سواء في موضوعها وفي طريقة استنباطها، ولو أن الظنّ أمر

١) شعر عروة بن أذينة للأمين الزاكي ٣٠.

مألوف في بعض جوانب العلوم النظرية ويمكن أن نطمئن إلى هذا الاستدلال ، اقتران عروة بسعدى ، ما دامت حياة الشاعر على هذا النحو من الغموض ، فإن كشف التاريخ غير ذلك تبناه ، وإن أثبته فهو وما كنا نتبع » .

على ان عروة لم يذكر سعدى أو سعاد وحدها في شعره ، وإنما ذكر أيضاً ليلى ورقاش وأم عاصم وسلمى ، وهو أمر يلقي بعض الشحب حول قصته مع سعدى وزواجه منها .

أما ليلى فقد ذكرها في بيت واحد يستنكر فيه على نفسه أن يجمع النقيضين معاً : حب ليلى وهجرانها ، وبعد ذلك الهجران لها ظلماً كظلم لهذ بن عاد لابنته صُحْر عندما قتلها دون ذنب منها إلا أنها من بنات حواء اللاتي افتقدن ثقته جميعاً :

أتجمعُ نهياماً بليلى إذا نأتْ
وهجرانَها ظلماً كما ظُلمتْ صُحْرُ (١)

وأغلب الظنّ أن ليلى هي سعدى نفسها ، وليس مستبعداً أن يكون بعد زواجه منها فارقها - لأسباب ما - ثم ندم ، على نحو ما صنع ابن عتبة غيبٌ فراقة عشية.

وأمر رقاش (٢) نسبط ، لأنّ معنى الرقْش القش والتزيين ، فهو في التالي على الحُسبان ، تدليل لسعدى بأنها ، مع جمالها ، تزدان وتتأنق .

وكذلك شأنه مع أم عاصم (٣) وسلمى (٤) ، فقد تكون الأولى كنية سعدى ، وقد تكون سلمى رمزاً لها ، أطلقه يوم كان جاداً في خطبتها ، وكأنه استبشر باسم سلمى خيراً ، وتفاءل أنها سوف تسأله وتستجيب لخطبته ، وقد يؤيّد هذا أنه يذكرها بعد حديثه عن سعدى التي حالت مودّتها - كما يقول - بعد وداد حسن ، ويذكر في حديثه أيضاً حساداً ووشاة ، ومن الراجح أن ذلك كان في إحدى مراحل خطبته التي عانى منها كثيراً ، يقول في هذه القصيدة :

١) شعر عروة بتحقيق الدكتور يحيى الجبوري ٣٣٢ .
٢) انظر شعر عروة ١٧٤ .
٣) شعر عروة ٢٢٩ .
٤) شعر عروة ١٩٦ .

إن تُمْسِ سعدى وقد حالتْ مودّتها
وأقصرتْ لانصراف أيّ إقصارِ

فقد غَنِينا زماناً ودّنا حسنٌ
على مَعاريض من لوم وإهْجارِ

ومن مَقال وُشاةٍ حاسدينَ لها
أن يدركوا عندنا فيها بإكثار

كنا إذا ما زرتْ في الودّ نُعْتِبها
وآيةُ الصُّرْمِ ألا يُعتب الزاري

إذ لذّة العيش لم تذهب بشاشتها
وإذ بنا عهد سلمى غير خَتّار

حتى متى لا مُبينُ اليأس يصرمني
ولا تقضّي من اللذات أوطاري ؟

مَنْ ضيّع السرّ يوماً أو أشادَ به
فقد منعت من الواشين أسراري (١)

لما ليلى ورقاش وأم عاصم وسلمى إلا سعدى نفسها ، استعار لها هذه الأسماء تستّراً وتغييبة حتى لا يذيع أمره وتطير قصة حبه ، ويرفض أهلها إنكاحها ممن شهر بها على مألوف القوم ، وربما دلّ على ذلك أن عروة - على شدّة هيامه بسعدى - لم يتردّد له اسم بين العشاق من أمثال جميل بثينة ومجنون ليلى وكثير عزة وعبيدالله ميّة ، وكأنما صرف بتمويهه أنظار الرقباء .

على أنّ هذه الأسماء ، أو بعض هذه الأسماء ، قد تكون خيالية ذكرها عروة في مطالع قصائده التي استفتحها بالغزل التقليدي توطئة لأغراضه ، على عادة كثير من الشعراء ، وقد يدخل في هذا الغزل التقليدي طائفة من شعره في سعدى نفسها ، ولا سيّما الذي نظمه ، بعد اقترانه بها ، في تذكّر ماضيه معها ، وقد يؤيّد منحاه التقليدي هذا أنه كان ينظم بعض مقطوعاته استجابة لرغبات المغنين ، من ذلك ما ذكره أبو الفرج من أنه « مرّ ان عائشة المغنّي بعروة بن أذينة ، فقال له : قل لي أبياتاً هزجاً أغنّي فيها ، فقال له : اجلس ، فجلس ، فقال :

١) شعر عروة ١٩٤ ، وحالت : تغيرت ، وأقصرت : كفت ، وغنينا : عشنا ، والمعاريض : التورية في الكلام بالشيء عن الشيء ، والاهجار : الافحاش في النطق ، وزرت : عتبت ، وختار : غدار

سليمى أجمعتْ بينا ... فأين تقولها أينا

وقد قالت لأتراب ... لها زُهْرٍ تلاقينا

تعالين فقد طابَ ... لنا العيش تعالَيْنا

وغاب البَرِم الليـ ... ـلة والعَيْن فلا عَيْنا

فأقبلْن إليها مسـ ... ـرعاتٍ يتهادَيْنا

إلى مثل مهاةِ الرَّمْـ ... ـل تكسو المجلس الزَّينا

تمنّينَ منا هنّ ... فكنّا ما تمنينا [1]

ويروي صاحب الأغاني أن ابن عائشة ضحك من البيت الأخير ، وعلل ضحكه بهرَم عروة الذي يقول مثل هذا القول [2] ، وواضح أن عروة نظم الأبيات لابن عائشة نظماً تقليدياً لا واقع له ، إذ كان في ذلك الحين فقيهاً كبيراً ، من شيوخ الإمام مالك ، ومن هنا كان غزله التقليدي هذا مدعاة ضحك ابن عائشة .

ومن غزله الذي يمكن ضمّه إلى هذا النوع التقليدي مطلع قصيدته الثانية ، إذ يقف بالديار ، يسألها عن أحبّته الذين قضى معهم أياماً حافلة بالهناءة والسرور ، لكنهم لم يلبثوا أن ظعنوا تاركين في نفسه الألم والحسرة × وعبرةً شاملة ، هي أن ليس في هذه الحياة من نعمة باقية ، فها هوذا قد بُدّل بالوصال قطيعة ، ثم ينتقل إلى الفخر ، وهو موضوع القصيدة ، فيستغرق سائر أبياتها :

يا ديار الحيّ بالأجـ ... ـفة لم تُكلِّمْ سائلاً كلِمهْ

أين من كنا نُسَرّ به ... فيكِ والأهواء مُلْتئمة

إذْ حَرَى شِعْبُ المَشاش لنا ... ومَصيفٌ تَلْعَةُ الرَّخَمة

١) و ٢) الأغاني (الهيئة المصرية) ٣٢٧/١٨ . وهزجاً : مرقصة مطربة ، ولا يقصد البحر المعروف لأن الأبيات من مجزوء الوافر ؛ انظر الشطر الثاني من مطلع الابيات . والبرم : الضجر السؤوم.

ومن البطحاء قد نزلوا ... دارَ زيد فوقها العَجَمَة

ثمّ حلّوا حَلّةً لهمُ ... بطنَ وادٍ قُنّةَ السَّلَمَهْ

وانْتَحَوْا بالفرش تتبعهم ... مُنّةٌ من نفسك السَّقِمَة

إنّ للدنيا وزهرتها ... نِعْمَةً لا بدّ منصرمة

وكفى حزناً لنا ولهم ... بعد وَصْلٍ عاقَهُ الشَّأمَة

إنْ تبدّلنا بهم بدلاً ... ليس من أبدالهمْ بِلَمة

فكأني يوم يَبْنِهمُ ... جَسَدٌ ليست له نَسَمَة

لا بَديعٌ صُرْمُ غانيةٍ ... أصبحتْ بالصرم مُعْتَزِمة

إنّنا قومٌ ذوو حسب ... عامر منا وذو الخَدَمة .. [1]

وسواء كان عروة يرمز بهذه الأسماء إلى سعدى أو كان يذكرهن في مطالع قصائده تمهيداً لأغراضه فيها ؛ فإنه ما يبدو من أشعاره أنه منذ رأى سعدى شغف بها وصار الأمل في الاقتران بها لا يغادره أبداً حتى ، ويعدّ ابن أديبة في جملة الشعراء المذرين الذين يتساموْن على المآثم ويبذلون في منالها الجهد الثقيل .

فهو يتعمّد تعمّداً ألا تخلو من ذكرها قصيدة ، ويسعى أن يجعل خير أشعاره فيها ، ذلك أن سعدى نزلت من قلبه منزلاً لم تبلغه امرأة من العالين :

ومن حبّ سعدى لا أقول قصيدة ... أرشّحُها إلا لسُعْدى شبابُها

لها مَنْهَلٌ من وُدّنا ومحلّة ... من القلب لم تُحْلَلْ عليها شعابُها [2]

لقد أضرمت سعدى بين حناياه ناراً ليس يطفئها ماء ولا يخمدها سواها :

١) شعر عروة ٩٥ ، والأجة وشعب المشاش وتلعة الرخة وقنة السلمة : مواضع ، وحرى : ناحية ، والبطحاء : السيل الواسع ، والعجمة : النخلة ، والفرش : صغار الإبل ، والمنة : القوة .
٢) شعر عروة ٢٧٠ .

إذا وجدتُ أُوارَ الحبّ في كبدي
عمَدْتُ نحو سقاء القوم أبتردُ

هبني بردْتُ ببرد الماء ظاهرَه
فمن لنار على الأحشاء تتقدُ [1]

إن سعدى أملُه وهواه ولن يصدّه عنها لوم اللائمين ولا عذل العاذلين ، ولن يزيده ذلك إلا حباً لها وهياماً بها ، فقد شجر بفتنة عينيها وحسن عقلهـا وظرف محيّاها ودقة أنفها وطراوة كفلها فبات عليلاً سقيماً لا يرجه منها ابتعـاد ، ولا يشفي غليله منها اقتراب :

أيام سعدى هوى نفسي ويقتلها
مَنْ لام زينَها عندي بتزيين

للظبية البِكْرِ عيناها وتلثمُها
في حسن مبتسم منها وعرنين

تنوء منها إذا قامت بمُردفةٍ
كأنها الفرّ من أفناء معروف

لا يُعْدُ سعدى مُريحي من جوى سقمٍ
يوماً ولا قُربها إنْ حُمّ يشفيني [2]

ويبدو أن عروة ، وقد تمكّن منه حبّ سعدى ، جاء يطلبها إلى أبيها ، بعد أن بذل في كتم حبه ما بذل ، ويبدو أيضاً أن الوشاة سموا من جانبهم ليكشفوا ما كتمه ويحبطوا خطته [3] ، فلم يوافق وليّها على مصاهرته بادي الرأي ، فكان ذلك ضربة قاصمة لعروة جعلته يتصوّر مستقبله أسود قاتمـاً ، ونصبت له أشباحاً غامضة من اليأس والحرمان :

١) شعر عروة ٣١٦ ، وانظر هامش ٣١٧ ، وأوار الحب : حرارته .
٢) شعر عروة ١١٣ ، ونيقة النفس : ما تطلبه ، وتلثمها : عنقها ، وعرنين الانف : أوله ، والفر : البيض ، والافناء جمع نقا وهو الكثيب من الرمل ، ومعروف : موضع . والجوى : شدة الوجد ، وحم : قدر .
٣) انظر حديثه عن الوشاة والحساد . شعر عروة ١١٥ و ١٣٩ و ١٤٨ و ١٤٦ و ١٩٥ .

ألا لن تعودَ الدهرَ خُلّةُ بيننا ولكنّ إيابُ القارظين إيابُها [1]

وعلى توالي الأيام كان اليأس يخفت ويتلاشى ، ويعود الأمل إلى نفسه ، ويتقدّم إلى أهلها يخطبها مرة ثانية ، وكأنهم استجابوا - أخيراً - لإصراره ، فتحققت أمنيته فيها ، وعاش ينعم بفتاة أحلامه ، وقضى معها سحابة عمره حتى ابيضّ رأسه ، وذاق معها حلو الحياة ومرّها ، وتجاوز عما لقيه من أهلها في البداية من رفض وقسوة وعـداوة :

علقتكِ ناشئاً حتى رأيتِ الرأسَ مبيضّا
على يُسْر وإعسار وفَيْضِ نوالكم فيضا
ألا أحببْ بأرضٍ كنـ ـتِ تحتلّينها أرضا
وأهلُك حبّذا ما هم وإنْ أبدوا لي البُغْضا [2]

وأغلب الظن أن عروة لم يستقرّ في مسيرته العلمية والاختصاص في الفقه إلا بعد فترة من شبابه ، وبعبارة أخرى بعد انقضاء مرحلة قلقه بقيرانه من سعدى ، وعندئذ اطمأنت نفسه ، وطرق أبواب العلم ، ففتحت له على مصاريعها ، وعدا من كبار علماء المدينة ، وتتلمذ له مالك بن أنس [3] .

على أن ما يلفت النظر في شعر ابن أدينة أنه يتحدّث عن فراق سعدى له بعد أن خضب الشيب رأسه فنفرت منه وقطعت حبال مودّتها ، وكانت من قبل متينة محكمة ، يقول في بعض قصائده :

رأتْ وضح الشيب في لِمّتي فهاجَ تقضّي أوطارها
فجُنّتْ من الشيب واسترجعت وانفرط فـوق إنفارها
مباعـدةً بعد أزمانهـا بملحاء ريم وأمهارها

١) شعر عروة ٢٦٠ ، وإياب القارظين : يريد الذين لا يعودون .
٢) شعر عروة ٣٣٧ .
٣) سمط اللآلي ١٣٦ .

فبتّتْ قوى الحبل مصبوبة على نَقْضها بعد إمرارها [1]

وواضح انها لم تقطع حبالها وحدها، بل صحبت معها أبناءها وبناتها أو امهارها على حد تعبيره، ويعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى في قصيدته :

أهاجتكَ دارُ الحيِّ وَحْشاً جَنابُها
أبتْ لم تكلِّمْنا وعيَّ جوابُها [2]

فيقول :

إذا اقتربتْ سعدى لججتَ بهجرها
وإنْ تغتربْ يوماً يَرُعْكَ اغترابُها
ففي أيّ هذا راحةٌ لك عندها سواء لعمري نأيُها واقترابُها
كفى حزناً ألاّ تزال مَريرةٌ
شَطونٌ بها نَهْوي يَصيح غرابُها ...
ولكن أتى من دونها كلمُ المدى ورَجْمُ الظنون جَوْرُها ومُصابُها
فأمستْ وقد جَدَّتْ قوى الحبل بغتةً
وهَرَّتْ وكانت لا تهرُّ كلابُها [3]

وقد كان يمكن أن يُعدّ هذا الشعر مما قاله في سعدى زمن خطبته لها، عندما كان يصدمه الرفض الحاسم من أهلها فيظنّ أن ليس ثمة إليها سبيل، إلا أن

١) شعر عروة ٢٦٥ ، ووضح الشيب : بياضه ، واللمة : الشعر يجاوز شحمة الأذن ، واسترجعت : قالت : « إنا لله وإنا إليه راجعون » وذلك عند المصيبة خاصة ، والملحة : بياض يخالطه سواد ، والريح : الظبي الخالص البياض ، والمهر : ولد الفرس ، استعارة لنتاج الظبية ، وامرار الحبل : احكام فتله ٢) شعر عروة ٢٥٨ . والجناب : الفناء .

٣) شعر عروة ٢٦٥ ، والمريرة : العزيمة ، وشطون : بعيدة .

الشاعر يعرض هذا الفراق في قصيدتين يذكر فيها أنه قطع مرحلة الشباب واكتظّ الشيب في رأسه ، وهنا تقوم أمام الباحث عدة احتمالات :

الأول ان عروة أحبّ سعدى في أوّل عمره فخطبها إلى أهلها فردّوه رداً قاطعاً ترك أثره في نفسه وشعره معاً ، ثم حاول أن يتناسى سعدى وقصّتها ، وجاهد نفسه لتثوب إلى ذلك ، فتمّ له بعض ما حاول ، وبقي في « لا شعوره » من حبها بعض آخر ، وهذا ما لا آخذ به ما دمت ركنت إلى زواجه منها .

والثاني أن شعره في الفراق تزداد لما كان يعانيه في اثناء تلقيه قرارات الرفض من أهلها ، وهو تزداد ربما استرسل فيه مع وساوس خياله فأضاف أشياء لم تكن وقعت من قبل .

والثالث أن ما قاله في ذلك تقليد شعري محض لا يدلّ على أنه حدث حقاً ، وبذلك يسلك في طراز المطالع التمهيدية التي أشرت إلى بعض منها .

والرابع أن عروة ، لأسباب شتى ، فارق سعدى ، ثم ندم ، غير أن فراقه لها كان فراقاً « رَجْعياً » ، فلما نأى كلٌّ منهما عن صاحبه تذكّر سالف حياته الطويلة معه ، وما لبث الصفاء ان عاد إلى نفسيهما وغمرهما ، فلان عيشه بسعداء قانية ، وعمرت بها القباب . ومن المستبعد عن عروة الذي تحمّل من أجلها العذاب والصبر ألا يعقد اليها إن وقعت منه جفوة أو قسوة في بعض الأحيان ، أو لا يعفو عمّا قد يبدر منها من سهو أو خطأ أو نسيان ، غير ان شعره ، كما لم يفصّل قصّة زواجه ، سكت عن هذه القضية ، فاستُنبطت هذه كما استنبطت تلك ، وربما تحدّث عن بعض علاقاته فيما ضاع له من شعر ، وقد أشار الرواة الى هذا الضياع [1].

٢ ـ النسيب بالازواج :

ويؤيد ما ذهبنا إليه من أن عروة إنما كان يتجه في غزله إلى سعدى ، خيطيه المفضّلة في شبابه وزوجه المثالية فيما بعد ، أنّ كثرة ما بأيدينا من غزل الفقهاء لهذه الفترة إنما كان في تشبيبات أشعارهم ، فالنمان بن بشير يذكر زوجه أم

١) انظر شعر عروة ٢٦٩ ، اذ أشار راوي مرثيته لعامر بن حزة الى أنها أكثر ما قاله عنها.

عبدالله [1] في قصيدتين من شعره إحداهما تعبر عن حزنه كلما فارقها ، والظنون أنه كان يضطر في بعض أسفاره من اجل وظائفه التي شغلها في الكوفة ودمشق واليمن وحمص أن يسافر وحده تاركاً وراءه زوجه واولاده ، فيحن إليهم ويشتاق إلى لقائهم ، وفي هذه القصيدة يرسم لزوجه أم عبدالله صورة بديعة ، فهي كغزال كان ينعم في وادٍ معشب تكسوه أزاهير الحَوْذان الحمراء ، وتلتف أشجاره الكثيفة فوق الرَّوابي ، ولكن بعض الصيادين يبلغون الوادي ، فيُذعر الغزال ، ويحاول ان يتوارى ، وبعد أن يرسم لامرأته هذه الصورة يصرّح بحبه العميق لها ، فهو يفديها ويسعى دائماً إلى وصالها ، ولا يفتأ يحرص عليها ويضع لها العوذ والرُّقى :

إذا ما أمُّ عبد الله لم تحلُلْ بواديهِ
ولم تُمْسِ قريباً هيَّج الحزنُ دواعيه
غزال راعه القُنّا ص تحميه صياصيه
بجوِّ ناعم الحَوْذا نِ ملتفّ روابيه
فبحتَ اليوم بالأمر الذي قد كنت تخفيه
وما زلت أفدّيه وأُدْنيه وأرقيه
وأسعى في هواه أ بداً حتى ألافيه [2]

وفي القصيدة الثانية يدعو النعمان لزوجه بالسُّقيا ، ويذكر نأيها ، وإخلاقَ وُدّها ، ويصرح بأنه ليس كَمَنْ يبني على الهوان بيته ، وأنه عزيز عليه أن يلام أو يهان ، وكأن الشاعر يمزج بين نظام القصيدة التقليدية ، وبين ما قد يقع بين كل زوجين من « سوء تفاهم » في بعض الأحيان ، وبذلك يبلغ غايته دون أن يصرّح بها صراحة ، فهو يستعرض « سوء التفاهم » الذي أراد معالجته في قصيدته واضعاً

١) انظر شعر النعمان ٥٢ . ٢) شعر النعمان ١٦٢ وما بعدها ، ودواعيه أسبابه ، وراعه : افزعه ، والقنا : الصيادون من القنص وهو الصيد ، والصياصي : القلاع والحصون ، والجو : المنخفض من الأرض ، والحوذان : نبت له زهرة حمراء في أصل صغرة ، وأرقيه : من الرقية وهي العوذة .

الحقيقة إلى جانب الخيال ، في مزيج لا يخفى على أم عبدالله أنهُ منصرفٌ إليها [1]

وممن تنزلوا بأزواجهم أبو الأسود الدؤلي ، وكان اتخذ غير واحدة من النساء ، ولكن « أم عوف » امتازت من سواها بالوفاء الصادق ، والبر الجميل ، فعرف لها ذلك ، وأثابها بوفائها وبرها حباً لا تزيده الأيام إلا نضارة وبهاء :

أبى القلبُ إلا أم عوف وحبَّها
عجوزاً ، ومن يُحْبب عجوزاً يُفَنَّدِ
كَحَقِّ اليماني قد تقادم عهدُه
ورُقْعَتُهُ ما شِئْتَ في العين واليد [2]

فهو لا يلتفت إلى عذل الذين يعيبون حُبهُ لعجوز ، وما مثلُ أم عوف إلا كمثل البُرْد اليماني الموشى ، يبقى - ولو أتت عليه سنون - بهيَّ المرأى ، ليّن الوبرة .

وممن وقف عزله على زوجه القاضي شريح بن الحارث الكندي ، وكانت امرأته « زينب » من تميم ، وكان يحبها حباً جماً ، ويجزيها على طاعتها ، وحسن إخلاصها خيراً وإعجاباً ، وكان للقاضي في حيِّه جار لا يزال يضرب امرأته ، فقال شريح :

رأيت رجالاً يضربون نساءهمْ فشلَّتْ يميني يوم أضرب زينبا
أأضربها في غير جُرم أتتْ به إليّ ، فما عذري إذا كنت مذنبا؟
فزينب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم تُبْقِ منهن كوكبا
فتاة تزين الحُلْيَ إنْ هي حُلّيَتْ كأن بفيها المسكَ خالط عَنْبَرا [3]

١) انظر القصيدة العاشرة في ديوانه ١١٧ وما بعدها .
٢) ديوانه ١٤٥ ، والحق : البالي ، واليماني : الثوب المصنوع في اليمن .
٣) الأغاني (الهيئة) ١٧/٢٢٣ ، والعقد الفريد ٥ / ٢٩٠ ، و ٦ / ٩٤ ، ووفيات ٢ / ١٦٨ ، والمحب : المحل .

وممن أولعوا بشريكة حياتهم عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، وكان من فقهاء المدينة السبعة ، وقد شغفته عثمة زوجه حباً ، فغنى يصوّر ذلك الحب في نحو قوله :

صَدَعْتِ القلب ثم ذررْتِ فيه هواك فليَ والتأمَ الفطور
وأنفذَ جارحاك سوادَ قلبي فأنتِ عليّ ما عشنا أمير [1]

فهو يكنّ لها من الحب أضاف ما يظهر ، وقد نفذ حبها إلى صميم قلبه ، فهزه هزات عنيفة ، ما بلغتها هزات أخرى ، واقصدته سهام جمالها ، فانقلب لا يعصي لها أمراً .

وكان الإمام الشافعي تزوج امرأة قرشية ، وكان يمازحها فيقول :

ومن البلية أن تحبّ فلا يحبّك من تحبّه
ويصدّ عنك بوجهه وتُلِحّ أنت فلا تنبّه [2]

٣ ـ العفة في غزل الفقهاء :

قد تسهم ظاهرة التغزل بالزوجة في تفسير السمة الغالبة على نسيب الفقهاء ، وهي العفة والنقاء والارتفاع على الوصف الحسيّ ، والمواقف المثيرة ، وقد رأينا فيما تقدم حرص عروة بن أذينة على سعدى ورده الوشاة ، وحنينه إلى أيام الوصال ، وحبّه الطاغي ، وحزن النمان لفراق زوجه أم عبدالله ، وولعَ الدولي بامرأته ام عوف وبرّ شريح بزينب شريكة عمره ، وتغلغل حب عثمة في قلب زوجها ابن عتبة ، ومنادمة الإمام الشافعي لامرأته القرشية .

وتكثر هذه المعاني التي تمتاز بالعفة والتسامي في غزل الفقهاء كثرة واضحة ، ويصوّر لنا النمان بكاءه لفراق « أم الحويرث » ، ولا ندري إن كانت كنية زوجته الثانية

١) الأغاني (الثقافة) ١٤٢/٩ ، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٠ ، والجواريح : أعضاء الانسان التي تكتسب . ٢) وفيات الأعيان ٣٠٨/٣ ، وطبقات الشافعية للسبكي ١٦٣ ، والمحدون من الشعراء ١٤١ . والوافي ١٧١/٢ ، ومعجم الأدباء ٣٠٨/١٧ ونسبت بعض هذه المصادر البيت الأول الى الشافعي ، والثاني الى زوجه ، وأغلب الظن انهما معاً له ولكنها كانت تردد البيت الثاني رواية ، والعتب في الزيارة أن تكون كل أسبوع .

نائلة بنت عمّار الكلبية ، أو امرأة خيالية يرمز بها إلى إحدى زوجتيه ام عبد الله او نائلة ، ونراه ـ مع بكائه ـ يذكر كيف تمكن الوشاة أن يبلغوا مآربهم في إفساد ذات بينهما ، يقول :

إذا ذُكِرَتْ أمُّ الحويرث أخضلتْ
دموعي على السِّربال أربعةً سَكْبا
وكنا كماء المين والعينُ لا ترى لواشٍ بنى بعض الهوى بيننا إربا
فأمسى الوشاة غيّروا وُدّ بيننا فلا صِلةً ترعى لدي ولا قُربا
جرى بيننا سَعْي الوشاة فأصبحت
كأني ـ ولم أذنبْ ـ جنيتُ لها ذنبا [1]

ويعود النمان إلى الحديث عن بكائه في مقطوعة أخرى ، فيذرف الدمع السخي لتذكّره أحبته ، ويصيبه السقم والأرق والحنين ، ومن الراجح أنه ـ عندما عُين والياً على اليمن تسلم وظيفته بعيداً عن إحدى زوجتيه ، فقال هذه الأبيات :

أمِنْ أن ذكرت ديارَ الحبيب عاد لعينيك تَسْكابُها
فبتّ العميد ونام الخلي واعتادَ نفسك إطرابُها
إذا ما دمشقُ قبيل الصبا ح غُلِّق دونك أبوابُها
وأمستْ ومن دونها رائسٌ فأيّان من بُعْدُ تنشابها [2]

وعلى نحو ما أصاب النمان من اثر الفراق ، بل يفوق ما أصابه يصوّر سوار ابن عبدالله المنجري كيف براه الحب بُرْئاً ، فذاب عن عظامه كل لحم وشحم ،

١) شعر النمان ١٣٥ ، أخضلت الدموع السربال : بلته ، والسربال : القميص ، والاربة : الحاجة . ٢) شعر النمان ١٣٧ ، والعميد : الذي هده العشق وأضناه ، والخلي : الخالي من الهم ، والاطراب : كالطرب ، خفة تصيب الانسان لشدة حزن أو سرور ، ورائس : اسم جبل وبئر .

فنفدت عرسة للانحطام، وفرّغ منها لبثها، فصارت كأنها القوارير تصفر فيها الريح، وما كان ذلك لولا حيامه الغالب، وخوفه من الفراق، وهو خوف إذا عنّ ذكره ارتعدت مفاصله، وارتعشت اضلاعه، إنّ جسمه قد فني أو كاد، فما يستر بقيته النحيلة الضئيلة إلا الثياب:

سَلَبْتِ عظامي لحمَها فتركتها ... عواريَ مما نالها تتكسّرُ
وأخليتِ منها محّها فكأنها ... قوارير في أجوافها الريح تصفر
إذا سمعتْ ذكر الفراق تراعدتْ ... مفاصلُها خوفاً لما تتنظر
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب نظري ... بُلِيْ جسدي لكنّني أتستّر [1]

ولأبي يحيى هارون بن عبدالله الزهري أبيات يحن فيها إلى دار أحبته، وكان هارون حجازياً، غير أنه - على عادة كثير من الفقهاء في عصره - رحل الى بلدان كثيرة ثم استقر به التطواف قاضياً لمصر، ولكنْ بقي - طوال غربته - يحمل بين جوانحه حنيناً طاغياً إلى الحجاز، ومن كان يسكن الحجاز ممن يهتف قلبه بحبهم، ويشتاق رؤيتهم، ويتربه لبدهم الشحوب والكآبة، بل البكاء الشديد:

هل الشوقُ إلا أن يحنّ غريبُ ... وأن يستطيل العهدَ وهو قريب
أرى الشوق يدعوني إلى من أودّه ... وللشوق داع مسمع ومجيب
سقى الله أكناف المدينة إنه ... يحلّ بها شخصٌ إليّ حبيب
وإني وإن شطّت بي الدار عنهمُ ... إليهم لمشتاق الفؤاد طروب
وقائلةٍ ما بال جسمك شاحباً ... وأهونُ ما بي أن يكون شحوب
فقلت لها في الصدر مني حرارة ... تقطّع أنفاسي لها وتذوب

١) تاريخ بغداد ٩/٢١١، وأخبار القضاة ٣/٢٧٩.

إذا ما تذكرْتُ الحجازَ وأهلَه ... فللعين من فيض الدموع غروب [1]

ومما يلاحظ في عزل الفقهاء حتى نهاية العصر العباسي الأول خلُوُّه من نزعة شاذة فاشزة اختصت بها عصابة المجان من امثال والبة بن الحباب ومطيع بن إياس وأبي نواس، وأعني العزل بالذكر، غير أني وقفت على بضعة أبيات تنسب إلى يحيى ابن أكثم قاضي القضاة لعهد المأمون، وهي ابيات تصور ابنَ أكثم يعشق كاتبه ابن زبدان مرة [2]، ويهيم بابني مَسْعدة مرة أخرى [3]، ويقول فيهم ابياتاً صريحة لا تخلو من فحش وعجون، ولست أتردد في رفض نسبة الأبيات إليه، ولا ارتياب أيّ ارتياب ان يكون أعداء يحيى من متعصبي المعتزلة او خصومه السياسيين وغير السياسيين نسبوها إليه كذباً وافتراء، للنيْل من سُمْعته ومحاولة تنحيته عن مركزه الهامّ في الدولة، فقد كان يحيى بن أكثم فقيهاً سنياً لم يعتنق - على رفعة منصبه - الاعتزال، ولست استبعد ان يكون المتعصبون من اهل هذا المذهب نسبوا تلك الأبيات إلى قاضي القضاة السنيّ، لعلمهم بفوزون بمنصبه لآخر منهم، فيسلطون عليه سلطانهم، ويثيرون الفتنة التي ما كان يخطر لهم ببال أنها هي سراب خلاب، والباحث إذ ينفي هذه الأبيات عن ابن أكثم فإنما يعتمد روايات ثبتت عن طائفة من كبار الفقهاء الذين كانوا يعاصرونه، وهي روايات تنفي التهمة من اصلها، فقد ذكر ليلةً يحيى بن أكثم بحضرة احمد بن المعذّل (وهو من كبار الفقهاء المالكية ممن عاصروا يحيى) فقال بعض القوم: ذاك صاحب غلمان، قال، فستَرَ أحمد وجهه بثوبه، وقال: «سبحانك هذا بهتان عظيم» [4]، وكذلك «ذكرت هذه التهمة لأحمد بن حنبل رضي الله عنه»، فقال: «سبحان الله! مَنْ يقول هذا؟ وأنكر ذلك إنكاراً شديداً» [5]، وكأنما يريد ان يوجّه العيون إلى مصدر القول الرّيب، ولعلنا لاحظنا في الرواية قبلها كيف تسند التهمة إلى «بعض القوم»، وهم - في أغلب الظن - ممن كانوا يروّجونها للغاية التي ذكرنا، أو كانوا يرددونها دون أن يتحرّوا أهي حق

١) ترتيب المدارك ١/٥١٨، وأخبار القضاة ٣/٢٧٤.
٢) انظر اربعة أبيات في ذلك في أخبار القضاة ٢/١٦٤.
٣) انظر ثلاثة أبيات فيها: وفيات ٥/٢٠٢.
٤) أخبار القضاة ٢/١٦٥. ٥) وفيات الأعيان ٥/٢٠١.

أم بهتان ؛ ودون ان يدركوا أبعاد ما تهدف إليه ، فما كانت هذه التهمة لتصدق على ابن أكثم الذي وصفه ابو الفضل بن حجر بأنه « فقيه صدوق ، روى عنه الترمذي وغيره . . . سمع من ابن المبارك وهو صغير ، وعظّمه احمد (ابن حنبل) »[1] .

. . . . .

وإذن فقلنا غزل الفقهاء حتى نهاية العصر العباسي الأول هما من نصيب عروة ابن أذينة وحده ، وأكثر ما وجدنا لهم من هذا الغرض يسلك في الغزل بالزوجة ، وبعدٌ في الشعر العفيف الذي ينأى عن الوصف الحسي وتصوير المواقف المثيرة ، ويمعن في الحديث عن أثر الحب وتغلغله في النفس ، وما يصحبه من ذرف الدموع ، وخوف الفراق ، والحرص البالغ على القرب والوصال ، والحنين الجارف إلى من تهفو إليهم القلوب ، وتتلفت إلى ديارهم العيون ، وبيان ما يقوم به الوشاة وأولو المآرب من إفساد لذات البين ، وسعْي حثيث دائب في التهجير والتفريق . . . وقد خلا شعر الفقهاء ، لهذه الفترة ، من التغزّل بالمذكّر خلوّاً تامّاً .

١) لسان الميزان ٦/٢٦٠ ، ومن القضاة المعاصرين الذين أنكروا هذه التهمة سليمان محمد ثابت في كتابه : « طرائف من القضاة » ص ٩٠ (طبع سنة ١٩٥٢ ، في مكتبة النهضة المصرية) .

الفصل الثالث

الفخر

١ - قيم قديمة :

يلي النسيب في شعر الفقهاء الافتخار ، وعلى نحو ما رأينا تلي الغزل من نصيب عروة بن أذينة نواجه الأمر نفسه في الفخر ، فإن تلثيه أيضاً له وحده ؛ فعروة أعزر الشعراء الفقهاء قصائد باقيات في أيدينا ، ومن يقرأ تلك القصائد يجدْها تتفرّق ثلاثة أجزاء على الغزل والفخر وموضوعات مختلفة . على انه لا بدّ في دراسة هذا الغرض عنده من التنبّه إلى ما كان يمانيه من أزمات نفسية عنيفة عندما كانت سعدى ، أو اهل سعدى بعبارة أدقّ ، يصدّونه عنها وعن خطبتها ، فتراكم أمام عينيه أشباح قاتمة من الهموم الثقيلة ، وتطفو كل بصيص من الأمل في القرب منها ، غير أن تلك الأشباح كانت ما تلبث حتى تشبّ في صدره ثورة ثائرة ، إذ تأخذه عزّته القديمة فيسترسل في ذكر مآثره وشمائله ، وكأنما كان يريد أن يؤكّد انه اهل إذا خطب أن يُعطى ، وإذا طلب الوصال ألاّ يردّ .

وكان - وهو في هذه الناية - يؤازر مآثره وشمائله بما كان لقبيلته في ماضيها من أمجاد ، وفي كثرة قصائده ، بل كل قصائده التي يفخر فيها ، نرى حديثه عن فتاة أحلامه يسبق ذلك الفخر ، ولهذا يُسلك غير قليل من شعره فيه فيما نظنه قبل أن يتفقه ، زمن سعيه الحثيث إلى سعدى ، وربما كان ذلك من أسباب العصبية القبلية التي تتردّد في قريضه ، وإنْ كنت لا أعني انّ كل اشعاره التي تعلو فيها نبرة العصبية قالها في تلك الفترة ، إذ من الواضح أنّ بعضها الذي يتحدّث فيه عن شبابه المنصرم وصباه الفائت [1] إنما قاله بأخرة من حياته بعد أن استقرّ وتفقّه .

وعلى الرغم من انّ كثرة شعره في الفخر لم يكن في العصبية ، وإنما يعني

١) انظر شعر عروة ١٢٥ وما بعدها ، و ٢١٣ وما بعدها .

في التيار الاسلامي، فانّ ما خاض فيه من هـذا المجال، سواء كان قبل تفقهه أم بعده، يفتح باباً قد أمر الإسلام، وأكّد أوامره، أن يُغلَق بمُحْكم السدود لئلا يعوّق رسالته إلى « العالمين »، « كافّة »، فسمّى رسول الله ﷺ كلّ عصبية ضيّقة من دون ذلك « دعوى أهل الجاهلية »[1] وقال: « دعوها فإنها خبيثة »[2].

وفي الحقيقة ان الشعراء الفقهاء قد برئوا من العصبية القديمة براءة تامة، فلم أجد لها أيّ صدىً في أشعارهم، سوى ما تقدّم من أمر عروة، وبضعة أبيات للنمّاك بن بشير يمتز فيها بانتساب عشيرته إلى قبيلة أم الأوس والخزرج[3]، وإلى بعض الآباء القحطانيين[4].

أما عروة بن أذينة، وكان عبداً في كنانة من قبائل العرب الشمالية، فقد مضى يفخر بعشيرته الأقربين كنانة. وما تفرّع منها من أشال بني مالك وعبد مناة ابني كنانة، وبني بكر بن عبد مناة، وقريش بن النضر بن كنانة، فيقول:

وإني لمن جرثومة تلتقي الحصى ... عليها ومن أنساب بكر لُبابها
ومن مالك آل القَلَنْس فيهمُ ... لنا سِرْ أعراق كريم نصابُها
وعبد مَناةَ الأكثرون لعزّهم ... بوادرُ يُخشى حَدُّها وذُبابُها
عرانينُ تنمي بها كنانةُ فُصْرةً ... نصابُ قريش في الأُروم نصابها[5]

وهو لا يفخر بكنانة وفروعها فحسب بل ايضاً بأجداده الأقدمين، ومعروف أن عرب الشمال ينحدرون من معدّ بن عدنان، ونرى عروة ينسب إليه السادة الكرماء المقدّمين:

وكلُّ قَرْمٍ مَعَدِّيِّ الأروم لنا ... منه المقدَّم مِنْ عِزٍّ وأخطارِ[6]

وكان من أولاد معدّ نزارٌ أبو مضر وربيعة، وكانوا - كما يقول عروة -

١) و ٢) التجريد الصريح ٢/٤٩.
٣) شعر النمان ٨٠.
٤) شعر النمان ١٠٢.
٥) شعر عروة ٢٧٧، وذبابها: طرفها، وعرانين القوم: ساداتهم، وفصرة: قريباً، والأروم: الأصول.
٦) شعر عروة ٢٠٨، والقرم: السيد الكريم.

بحوراً تزخر بالفضل والمنّة، وقد عرف لهم الناس ذلك وأقرّوه:

وقيسٌ وحيّا نزارٍ معاً ... بحورٌ تجيش بتيّارها
أبرّتْ على الناس أيّامُهم ... فهم عارفون بإبرارها
تُقصِّرُ القبائل من طَوْلهم ... بفضل فما بعد إقرارها؟[1]

ويريد من حيي نزار ربيعة ومضر، ويريد من قيسٍ قيسَ عَيْلان، ونعدّ هي وخِنْدِف أكبر الأفخاذ المضرية جميعاً، وقد ذكرها في عدّة مواضع من شعره من مثل قوله:

تَلقى ذُرى خِندفٍ دُونِي وتغضب لي ... إذا غضبت بنو قيس بن عَيْلانا[2]

وعلى هذا النحو يذكر الأصل المباشر الذي انعطفت منه كنانة، وهو خزيمة ابن مُدْرِكة:

في عُصبةٍ من بني خزيمة تَنْـ ... ـمي في المارّ لا يُرتجى تَظلُّمها
موسرُها ذو نَدِيٍّ يُعاشُ به ... وكالغنيّ السَّريِّ مُعْدِمُها[3]

فهو يفخر ببني خزيمة أولي القومة والمنعة والشرف، الذين أوتوا الفضل والجود، ففنيّهم يُشبِع المجالس الحافلة، وفقيرهم يبذل ما ملك بذل الاثرياء المالكين.

ولعلّنا لاحظنا أن عروة - وهو يفخر بنسبه العدناني - لا يزيد على اعتزازه بعراقة محتدهم وشدّة بأسهم وسمة فضلهم، دون أن يبلغ حدّ شعراء العصر الجاهلي من المباهاة بمجالس الخمر والقيان وتصوير النزوات الفتّاكة وما يكون فيها من قتل ونهب وبطش، وإن لم يكن يخلو شعره من وصف لمثل تلك النزوات، كأنْ يقول في بعض حروب عرب الشمال مع اليمنيين:

١) شعر عروة ٢٢٧، وتجيش: تزخر وتغلي، وأبرت: علت، والطول: الفضل.
٢) شعر عروة ١٣١، وخندف بنت حلوان زوج إلياس بن مضر، وقد نسب اليها بنوها.
٣) شعر عروة ٩٠، والندي: المجلس.

وعلى شَعْبٍ هَبَطْنَ بنا أهْلَ شَعْبٍ خُطَّةً أضَمَهْ
غارةٌ أردتْ نساءَهُمُ في طَحونِ الوِرْدِ مُلْتَهِمَهْ
ربما منهم مُنَعَّمَةٌ سافرٌ ليست بمُلْتَثِمَهْ
غُودِرتْ تَعْمى الملوكَ كما غودرت في المَعْطِنِ الحَطَمَهْ
لم تُعَظِّمْهُمْ أسنَّتُنا إذ لهمْ من فوقهم عظمَهْ
وكأنَّ المُلْكَ بينهمُ إذ لقونا طاح عن أَمَمَهْ[1]

وعروة يصوّر غزوة شنّها أجداده المدافعون على أهل « شعب » باليمن ، وهي غزوة أحكمت خطتها ودبّرت تدبيراً ظهر نجاحه عندما انتصروا على اعدائهم انتصاراً ماحقاً ، وأفنوهم فناء ، وجعلت نسوة الهالكين يبكينهم فاعلات حسرات لا يملكن أن يفعلن شيئاً ، ويذكر كيف تقوّض المُلْك اليماني منذ أوّل المعركة من غير ان يكون له من القوّة ما يعصمه ولو إلى حين .

على أنّ عروة قلّما صوّر مثل هذا الفتك الطاغي ، هو حقاً يصف عدة معارك خلال شعره ، إلا أنها معارك ليس في وصفها مضاضة ، لأنها في جملتها استعراض لقوة قبائله وبأسهم ، وسوف أقف على بعض هذه المعارك عند الحديث عن القيم الإسلامية في الافتخار .

ونخلص من هذا إلى أن النزعة القديمة في فخر عروة لم تبلغ درجة الاعتزاز بمجالس الخمر والمقامرة والقيان وما شاكل ذلك مما عرف في شعر الجاهلية ، وقد انحصرت هذه النزعة لديه بالعصبية القبلية ، وكانت أميل إلى استعراض « القوّات المسلّحة » ، والحديث عن مواهبها التي سبقت بها العشائر الأخرى ، وكانت بفضلها خيار اهل الجاهلية الأولى .

١) شعر عروة ١٠٤ ، وشعب : جبل باليمن ، وأضمّه : غاضبة مهلكة ، والطحون : الكتيبة ، والمطن : مبرك الابل عند الماء ، والحطمة : الدابة المتهدمة لطول العمر ، وأمة : قرب .

٢ - قيم قديمة مستمرّة :

وإذا كان عروة قد انفرد بالعصبية القديمة من دون الشعراء الفقهاء فإنه شركهم في فخرهم الإسلامي ، وبدلّ الاستقراء الدقيق لما بقي له في هذا الشأن على أن كثرة فخره تسلك فيه .

والنموذج الأول من الفخر الإسلامي يشيد بمآثر قد عرفها الناس من قديم ، واستمرت في المجتمع الإسلامي من دون أن تحرّمها نصوص القرآن الكريم او الحديث النبوي ، ولعل من الممكن أن يضمّ إلى هذا اللون من القيم الفخر بالنفس الكريمة الترفعة ، أو بالمواهب المختلفة كالقوّة والبلاغة والسخاء وحسن الوفاء والمعاملة الحكيمة وقرض الشعر ، ولست أعني ان الدين الحنيف لم ينوّر هذه الموضوعات بأشعة من عنده لم تكن تعهد فيها من قبل ، وإنما أعني انهم لم يمكسوا تلك الأشعة على قيمهم وفيكرهم فيها بجلاء ووضوح ، ومن جهة أخرى فإن تلك القيم لم يستنكرها نص شرعيّ ، فهي إذن أدنى إلى ما يسمّى في أصول الفقه بالعُرْف ، وبهذا تعدّ إسلامية .

وأوّل ما نقرأ من هذا الفخر بيتان للنمر بن تولب يتحدث فيهما عن عفة نفسه وزعمه أن يطمع بالذراريّ والأحفاد ؛ إذ ليست الميسّرة في النسل الكثير ولو انحدر من اصهار لئام :

فلو أنّ نفسي طاوعتني لأصبحت لها حَفَدٌ مما يُعَدُّ كثيرُ
ولكنّها نفسٌ عليّ كريمةٌ عَيوفٌ لإصهار اللئام قَذورُ[1]

ولأبي الأسود مقطوعة يتحدث فيها عن جليل مواهبه ورحب ذراعه ، يقول في تضاعيفها :

وما ولدتْ أمّي من القوم عاجزاً
ولا كان ريشي من ذُنابى ولا لَغَبِ
ولا كنتُ فَقْعاً نابتاً بقَرارة ولكنني آوي إلى عَطَنٍ رحبِ[2]

١) شعر النمر ١٠٢ ، والعيوف : الكاره .
٢) ديوانه ١٣١ ، والذنابى : ذنب الطائر ، واللغب : الريش الفاسد ، والفقع : الرخوة من =

وكثيراً تلقانا في شعر الفقهاء مثل هذا الاعتزاز بالمآثر المحمودة من المجتمع ، ولعروة بن أذينة ابيات يمتدّ فيها بصبره في البلاء ومجابهته الهموم بقوة العزم وأيّد الحزم ، ويفخر بكثرة رحاله وإحباطه ما يحالُ له من مكائد ماكرة ، ويفخر ايضاً بلاغته وبراعة حجاجه وسخائه في بذل المعروف وإثابته الكريم حسن الوفاء ، واللئيم رد حقده عليه ، ويذكر شاعريته وما تبدعه من قصائد محكمة غريبة الكَلِم :

إني امرؤٌ أقْري الهمومَ صَرامةً
وأقوتُ شحمَ ذُرى المَطِيِّ رِحالَها

ولربّ حيلة حازم ذي هُوَّةٍ يَسَّرتُها ، ولَحازمٌ ما احتالَها

ومقالةٍ في مَوْطنٍ ذي مَأْقِطٍ
طبّقتُ مَفْصِلَها ومِرْتُ عيالَها

ولرُبَّ حُجّةِ خَصْمٍ سوءٍ ظالمٍ حَنِقٍ عليَّ منحتُه إبْطالَها

فرَجَعْتُهُ قد عاد بعد تَخَبُّطٍ يَقْلي المُشاغبةَ التي أجرى لها

ولرُبَّ عُرْفٍ قد بذلت وخطّة أسهلتُ حَزْنَ طريقها اسهالَها

ومكارمٍ سَمْحٍ بذلتُ كرامةً يوماً له وقفيّةً ما سالَها

ولرُبَّ قافية تكاد حَذَوْتُها تلقى بخير سائلاً مَنْ قالَها

أرسلتُها مثلَ الشِّهاب غريبةً لا تستطيع رواتُها إرسالَها (٢)

وكما عدّ ابن أذينة في جملة محامده الشعر ؛ عدّه كذلك الإمام الشافعي ،

= الكمأة ، ورحب الطن : كثير المال واسع الرزق رحب الذراع ، والطن في الأصل مبرك الابل حوض الحوض ومربض الغنم حول الماء . ١) شعر عروة ١٦٨ ، والهوة : الوهدة العميقة ، والأقط : موضع الحرب أو المضيق في الحرب ، وطبقت مفصلها : أي أصبته ، ويريد اصاب الحجة ، ومرت عيالها : جادلتهم ، والتخبط : التغضب والتكبر ، ووافية : عطية ، والنكل : القيد ، ونكالها : عبرة لها ، وحذوتها : ابتهاء

وذكر اقتداره على قرض أحسنه ، وأشار إلى منزلة الشعر العالية :

عندي بواقيتُ القريض ودُرُّه وعليَّ إكليل الكلام وتاجُهُ

تَرْبى على روض الربا أزهارُه ويرفّ في نادي الندى دِباجُه (١)

فهو يمتلك ناصية الشعر البديع ، بل يلغ في هذا المضمار مداه الأقصى فيتفوق به في كل روضة فضيرة ومجلس عامر .

وواضح أن المفاخر السابقة فردية خاصة ، وقد كان إلى جانبها مفاخر الجماعة الأدنين الذين يحفّون بهم من كل جانب ، فالنعمان بن بشير يشيد لقومه بالشجاعة والحلم والكرم فيقول :

إذا الموتُ أدْلفَ ذِئْفانَهُ وكانت أجلّتُهُ كالظُّلَلْ

يبادِرُه كلُّ مستبسلٍ كحَدِّ السِّنان شجاع بطل

صبورٍ وقورٍ لما نابَهُ بكل لذيذ حُسام قصل

مساميح بالخير إذ أرتبت رياحُ الشتاء بنَحْس شَمَل

أهانوا الصَّبوحَ بشُرّ الجِفا ن مُعْتكرات خلالَ المَحَلْ

رُكوداً رَواميَ مَنْ يأتِهِمْ بضُرٍّ يؤُلْ بكريم النَّفَلْ

إذا يَزِن الناسُ أحلامَهم وجدتَهمُ رُجُحَ المُحْتَفَلْ

إذا يُوسرون فلا يبطرون ويومَ البَلاء كرامُ البُلَلْ

أولئك قومي لو تعلمي ن يوم التباهي ويوم الزَّحَلْ

فإمّا أعَمْتَهُمُ مِدْحتي فلا أنا بالكاذب المُنتحِلُ (٢)

١) وفيات الأعيان ٣٠٨/٣ ، ونزهة الجليس ٢١١/٢ ، وتربى : تنشأ ، ويرف : يتلألأ ويبرق ، والاكليل : التاج . ٢) شعر النعمان ١٠٩ ، وأدلف : قدم ، وذئفانه : سمه القاتل ، وجلل كل شيء : غطاؤه ، والظلل : السحاب ، وحسام قصل : سيف قاطع ، وأرتبت =

فأبطال قومه يخوضون المعارك الرهيبة التي يتخطّف الموت من صناديدها العدد الجمّ الكثير ، إلا أنهم مع ذلك يقدمون ببسالة وثبات ويذكر النعمان كرم قومه في ايام القُرّ القارس من الشتاء ، عندما تعصف ريح الشتاء الباردة ، فيبذلون في ذلك الحين العصيب طعامهم ويضاعفون عطاءهم لمن يعتفيهم . إنهم حلماء أكياس لا يأشرون في الرخاء ولا يضنون في المحن ، ويؤكد الشاعر أن ما ينعتهم به حرّ محض لا تزوير فيه ولا تضليل .

ولو رجعنا البصر فيما تقدّم من افتخار بالنفس المنعّمة الكريمة والمواهب الفاضلة الحميدة من قوة وحزم وبلاغة وبراعة حجاج وبذل المعروف ومعاملة حكيمة وقرض للشعر وإقدام وكرم وحلم ؛ وجدنا أنها ـ في تناولها على هذه الشاكلة ـ لم تلبس الثياب الإسلامية التي فُصّلت لهذه المعاني والأغراض ، ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ لم تخالف مبادىء الدين الحنيف ، فاستمرّت على ما كانت .

٣ ـ قيم قديمة مجدّدة :

يمتاز النموذج الثاني من الفخر الإسلامي في شعر الفقهاء بقيم عرفت أيضاً من قديم ، غير أنهم خلعوا عليها مفاهيم جديدة أوشكت ان تفصمها من ماضيها فصماً كاملاً ، وشدّتها إلى المقاصد الدينية بأواصر محكمة ، وأسبغت عليها سمات وشيات لم تكن تعهد فيها من قبل .

في الحماسة نرى النعمان بن بشير يفتخر بجيش لجب جرّار ، ويرجو انتصاره على الطاغين الباغين ، وهو انتصار يستمدّ قواه من الله الذي لا يخفى عليه ما يُسرّه الظالمون وما يعلنونه :

بل ليت شعري متى يعزّ ذو لَجَبٍ ... جَمٌّ الصواهل مثل العارض الغادي

حتى يُبير قبيلاً قد طغَوْا وبغَوْا ... والله للظالم العادي بمرصاد

= اشتدت ، وشمل : ريح شمالية ، والصبوح : ما حلب من اللبن بالغداة وما أصبح عندهم من شراب ، ومعسرات : مملوات ، والنفل : عطية التطوع ، والبلل : الاحتمال على الاساءة ، ويوم الرحل : يوم التباعي ، وزحل : تنحى .

بين الثوية والجسرين يقدمها ... حمّال ألوية طلاّع أنجاد [١]

فالافتخار بالكتائب المدجّجة قديم ، إلا أن في جيش النعمان قسمات حديثة ، فهو يجاهد الطغاة الظالمين ، والله للطغاة الظالمين بالمرصاد ، وهذا معنىً قرآني ذكر بعد الحديث عن طغيان عاد وثمود وفرعون ، وما صبّ الله عليهم من عذاب ، فقال تعالى : « إن ربّك لبالمرصاد » [٢] .

وكان من الحماسة القديمة الفخر بالعتاد الحربي ، وزيد بن علي يذكر من هذا العتاد السيف والرمح ، لكنه يستنصر الله ، ويتحدّث عن آمال يسعى إليها ، غير أنه لا ينسى القدر الغالب ، وانه لن يبلغ مأمله ما لم يشأ الله :

السيف يعرف عزمي عند هزّتِهِ ... والرمحُ بي خُبُرٌ والله لي وزرُ

إنا لنأمل ما كانت أوائلُنا ... من قبل تأمله إن ساعد القدرُ [٣]

وقد مرّ بنا كيف اعتدّ مروة بن أذينة بكنانة وقريش وسائر القبائل العدنانية ، ولكننا نراه الآن يفخر بأن القرشيين ليسوا ـ إذا اشتدت الحرب ـ بالضعفاء يأكلهم أعداء الدين ، بل إنهم ـ إذا ما بغى عليهم باغٍ ـ جعلوا كيده في نحره ، فباء بالخسار والبوار ، حتى لو تألّب عليهم أهل الفساد قاطبة ما استطاعوا أن ينالوهم بسوء ، وليدحرنّهم جنود الله دحراً ويمحقونهم محقاً ، إن هؤلاء هم السادة الأخيار ، وإليهم ترجع الأصول والأروم :

وما قريش إذا عضّتْ حروبهمُ ... يوماً بأكْلَةِ جافي الدين غوّانا

وما أرادهمُ باغٍ يَغُشُّهم ... يبغي الزيادة إلاّ ازداد نُقْصانا

إذا الشياطين رامتهم بأجمعهم ... لم يُبْقِ منهم جنودُ الله شيطانا

١) شعر النعمان ١٤١ ، والجب : الصوت والجلبة ، وجم الصواهل : كثير الخيل . والعارض : السحاب . وثبير : جبل ، والثوية : موضع قريب من الكوفة ، وجسرين : موضع بدمشق ، والنجد : المرتفع من الأرض .

٢) سورة الفجر ١٤ .

٣) المستطرف ١/٢٢٦ .

م الغرانين والأثرَوْن قبضَ حصىً
وجوهر السرّ والميدان عيدانا
والأكرمون نصاباً في أرومتهم والأثقلون على الأعداء أركانا[1]

فقريش تقاتل، لا من أجل العصبية الجاهلية، وإنما انتصاراً للدين الحنيف.

وقد كان مما عرف من قديم مكرمة السخاء، ولكنّ عبدالله بن عباس - رضي الله عنه - يفتخر بأنه يفرّج بماله الكرب عن الذي قد أقلقه الفقر وأرهقته الحاجة فقصده يطلب المون، ونراه يشكر لقاصده المحتاج أنْ ظن فيه الخير ورجا منه المساعدة:

إذا طارقاتُ الهمّ ضاجعت الفتى وأعمل فكر الليل والليل عاكرُ
وباكرني في حاجة لم يجدْ بها سواي ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجتُ بمالي همّه من مقامه وزايلَهُ همٌّ طروق مُسَامِرُ
وكان له فضل عليّ بظنّه بيَ الخيرَ إني للذي ظنّ شاكرُ[2]

وتفريجه الهمّ على هذا النحو يذكرنا بالحديث النبوي: «مَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومَنْ فرّج عن مُسْلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة»[3].

فالشعراء الفقهاء طرقوا في هذا النمط من الفخر معاني وأغراضاً لم تكن مجهولة من قبل، بيد أنهم ألبسوها ثياباً ذات طراز إسلامي، وأمدّوها بمضامين من هَدْي الرسالة المبعوثة، فتبدّلت خَلْقاً جديداً ومضموناً جديداً، ولم تعد تشبه حالها الأولى إلا في الاسم. فالجيوش تحارب، لا من أجل العصبية القديمة، وإنما جهاداً للطغيان ومناهضة للظلم الذي لا يرتضيه الله، والمحاربون يستعينون بربهم

١) شعر عروة ١٣٦، والأكلة: المرة من الأكل، والأكلة: اللقمة والطعمة، وجا في الدين: سبيء الاعتقاد، وغرثان: جوعان، والغرانين: السادة، ونصاباً: أصولاً، والأرومة: الأصل.
٢) العمدة ١/١٦، والعقد الفريد ١/٢٦٧. ٣) رياض الصالحين ٨٤.

ويتوكلون عليه، والفخر بالقبائل يحول اعتزازاً بما تقدّمه في الدفاع عن الدين الحنيف، والجودُ بالمال لا يبذّر في مجالس اللهو والخمر والمقامرة والقيان، وإنما يبذل في تفريج الكرب وتلبية المحتاجين.

٤ - قيم جديدة:

ويمتّ إلى القيم المجدّدة بأواصر قوية النموذج الثالث من الفخر الإسلامي في شعر الفقهاء، وهو ما نادوا فيه بمعان وقيم انبثقت بانبثاق الإسلام، فاعتزّوا بالشريعة البيضاء، والخلافة الإسلامية، والنبي الكريم، والصحابة، والدعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيله.

فعروة بن أذينة يفخر بالرسالة الموروثة عن النبي ﷺ، وهي رسالة باقية امتدّت رايتها شرقاً وغرباً، وقامت - منذ قامت - في قوم عروة من بني عدنان:

ورثنا رسول الله إرثَ نبوّة ومخلاف مُلْك تالدٍ غير راثم
وملكاً خضمّاً سَلّ بالحق سَيْفَهُ على الناس حتى حاز نقش الدراهم
وقام بدين الله يتلو كتابَه على الناس منا مُرْسَلٌ جِدّ قائم[1]

وكما افتخر بالرسالة افتخر بالخلافة وما يكون فيها من شورى في قضايا الحكم:

فينا الخلافةُ والشورى وقادتُها فمَنْ له عند أمْرٍ مِثْلُ شورانا[2]

ومما كان مجال اعتزاز كبير وفخار طويل انتساب بعض الشعراء الفقهاء إلى النبي ﷺ أو من ناصره من الصحابة، فمضوا يدلّون ويعيدون في هذه المكرمة، يقول الحسين بن علي:

أنا ابنُ عليّ الخير من آل هاشم كفاني هذا مَفْخراً حين أفْخَرُ
وجدّي رسولُ الله أكرمُ مَنْ مشى ونحن سراج الله في الناس يزهر

١) شعر عروة ٢٤٤، وغير راثم: غير زائل، وحاز نقش الدراهم: كناية عن الملك، هذا وقد أورد المحقق «راثم» و«قائم» مسهلي الهمز، وواضح أن ذلك من عمل النسخة.
٢) شعر عروة ١٣٥.

وفاطمةُ أمّي سلالةُ أحمد وعمّي يُدعى ذا الجناحين جَعْفَرُ
وفينا كتاب الله أُنزلَ صادقاً
وفينا الهدى والوحيُ والخير يُذْكَرُ (١)

فهو يفخر بأبيه علي بن أبي طالب والهاشميين ، ويفخر كذلك بالنبي جدّه ، ﷺ ، وفاطمةَ أمّه ، وجعفر عمه ، ويعتزّ بالإسلام وما كسبوه من شرف نزوله فيهم.

وللنعمان بن بشير مقطوعة يفتخر فيها بالأنصار وما أبلوه يوم بدر من بلاء حسن (٢) ، وممن أكثروا التغني بهذه المأثرة عروة بن أذينة ، وقد مضى يذكر النبي وصاحبه في محنة الغار أبا بكر ومن كان من قبيلته كنانة من خلفاء وحكام فيقول :

منا الرسولُ وأهلُ الفضل أفضلُهم منا وصاحبه الصدّيقُ في الغارِ
مَنْ عَدَّ خيراً عَدَدْنا فوق عِدَّته من طيّبين نسمّيهم وأبرار
منا الخلائف والمُستمطرون نَدىً وقادةُ الناس في بَدْوٍ وأمصار (٣)

ويعود مرّة ثانية فيشيد بانتساب النبي إلى قبيلته ، لأنه ﷺ من قريش بن النضر بن كنانة ، ويشيد أيضاً بالسنة الفاضلة ووجوب تعلّمها ، ويفتخر بالكنانيين البدريين فيقول :

منا النبيُّ الأميّ سُنَّتُه فاضلةٌ نافعٌ تَعَلُّمها
وأهلُ بدر منا خيارُهمُ وأفهم العالمين أفْهَمُها (٤)

ومما احتفظت به المصادر من الفخر بالصحابة قصيدة لعبدالله بن المبارك يقول في تضاعيفها :

إني امرؤٌ ليس في ديني لغامزة لينٌ ولستُ على الإسلام طعّانا

١) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٦٠ ، ونظم الآيات يدعو الباحث لئلا يطمئن إلى نسبتها للحسين !
٢) انظر شعر النعمان ١٤٧ .
٣) شعر عروة ٢٠٦ ، وعدته : عدده ، والخلائف : الخلفاء .
٤) شعر عروة ٩١ .

فلا أسبّ أبا بكر ولا عمراً ولا أسبّ - معاذ الله - عثمانا
ولا الزبير حواريّ الرسول ولا أبدي لطلحةَ شتماً عزّ أو هانا
ولا أقول عليٌّ في السحاب إذن قد قلتُ والله ظلماً ثم عدوانا
ولا أقول بقول الجهم إنّ له قولاً يضارع اهل الشرك أحيانا
إنّ الجماعة حبلُ الله فاعتصموا بها هي العروة الوثقى لمن دانا (١)

فابن المبارك لا يسكت ممن يريد أن ينال المسلمين بتهيء من سوء ، ويفتخر بأنه ليس يشتم أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ، فتلك غلاة الشيعة ، ولا يسبّ الزبير ولا طلحة ، من الذين طالبوا علياً بدم الخليفة الثالث ، ولا يركن إلى زعم الرافضة أن الإمام لم يمت وإنما هو في السحاب إلى حين ، ولا يتزلق فيما ازلق فيه اتباع الجهم بن صفوان الذين فصلوا الإيمان عن العمل فعطّلوا أحكام الدين ، وقاربوا الشرك الصُّراح ، وخير من كل هذا التطرّف ألا تتفرّق بالمسلمين السبل ولا تعصف بآرائهم الأهواء ، ولذلك يعظهم أن يستمسكوا بالمذهب السنيّ الغالب ، لأنه هو السبيل الذي لا يضل بسالكيه .

ومما تغنّى به الشعراء الفقهاء في هذا اللون من أشعارهم إسهامهم بالدعوة إلى الإسلام وتنبيه الناس من ضلالتهم الطامّة وجاهليتهم الأولى ، فاهتدوا - بعد الله - بما بينوه لهم ، وعرفوا عدل الإسلام ونور الإيمان ، قال عروة :

ولولاهمُ لم يهتدِ الناس دينَهم
وضَلّوا ضلال النيب تَعْوي سِقابُها
ولم يهلكوا إلاّ على جاهليّة عصاها عليهم تُرْتَبٌ وعَذابُها
ولكن بها - بعد الإله - تبيّنوا شرائع حقّ كان نوراً صَوابها (٢)

١) تاريخ ابن عساكر (المهد) ٦ ، وطبقات الشافعية للسبكي ١/١٥١ .
٢) شعر عروة ٢٨٦ ، والنيب : جمع ناب وهي المسنة من النوق ، والسقب : ولد الناقة ، وترتب : ثابت .

ودائماً ترتبط الدعوة إلى الإسلام بالجهاد ، ويشيد عروة بنصيب كنانة من النضال الطويل والكفاح الصابر في الذياد عن الرسالة ونصرة الشريعة فيقول :

ضربنا معدّاً قاطبين على الهدى بأسيافنا نُذري شؤونَ الجماجمِ
وقُمْنا على الإسلام حتى تبيّنتْ شرائع حقّ مستقيم المخارمِ (١)

ويقول :

ونحن على الإسلام ضاربَ جمعُنا
فأعطي فُلْجاً كلّ جَمْعٍ مُصادِمِ (٢)

فكنانة قد ناهضت القبائل المدّيّة ، وجاهدتها جهاداً كبيراً ، بل شهرت السيوف انتصاراً للإسلام ودحراً لأعدائه . وكان من المعارك الفاصلة التي قاتل فيها المسلمون خصوم شيرهتهم معركة بدر ، وقد مضى الشعراء الفقهاء يذكرون أبطالها وما كان لهم على المشركين من انتصار ، وقد تقدّم افتخار عروة بمن أبلوا فيها حسن البلاء من كنانة ، وممن ذكرها أيضاً النعمان بن بشير في قصيدته الميمية التي أنشدها أمام معاوية حينما هجا الأخطل الأنصار ، يقول في تضاعيفها :

ألم تبتدركمْ يوم بدر سيوفُنا وليلُك عمّا ناب قومَك نائمُ
ضربناكمُ حتّى تفرّق جمعكمْ وطارتْ أكفٌّ منكمُ وجماجمُ (٣)

وهو يذكّر معاوية بماضي قومه ، أو بعض قومه ، يوم بدر ، إذ شاقّوا المسلمين ، فمزّق الأنصارُ جموعهم وأثخنوهم قتلاً وتدميرا .

• • • • •

فلم يكن فخر الفقهاء ليبلغ حدّ ما بلغ لولا أن الفاش فيه عروة بن أذينة ،

١) شعر عروة ٢٣٥ ، وشؤون الجماجم : مفارق الشعر في الرؤوس ، والمخارم : المسارب وأنواء الفجاج .
٢) شعر عروة ٢٤٣ ، والفلج : النصر .
٣) شعر النعمان ١٥٥ ، ونلب : أصاب .

إذ تحمّل ثلثيه ، وكان هذا الفخر على لونين : جاهلي طرق عروة فيه من دون سائر الشعراء أبواب العصبية الجاهلية ، وإسلامي كان يعفي في صنوف ثلاثة ، دار أولها حول قيم قديمة استمرّت مرضية في الإسلام ، وأشاد ثانيها بمكان عرفت من قديم لكنّه جدّدها زيّ استنكر على حالته الأولى ، لولا بقاء اسمه ، واعتز ثالثها بقيم ومفاخر جديدة جيدة تامة .

الفصل الرابع

موضوعات أخرى

١ ـ الوصف :

يأتي بعد الحكمة والغزل والفخر خمسة أغراض هي الوصف والعتاب والهجاء والرثاء والمدح. ويدور الوصف حول الطبيعة وما فيها من أطلال أحبّة غادروها، ومن صحراء لا يبلغ مداها البصر، ومن صنوف الحيوان التي تعمر تلك الصحراء، كما يدور أيضاً حول أشياء متفرّقة كالسحاب والمطر والطريق والمدينة والشباب.

فالنعمان يقف من الطبيعة على ديار أحبته وقد درست وامّحت فلم يدل عليها إلا أطلالها، وما إن استبانت له حتى سالت عبراته بغزارة :

أهيّج دمعك رسمُ الطَّلَلْ عفا غيرَ مُطّرِدٍ كالخِلَلْ

نعمْ فاستهلّتْ لعِرْفانه سِراعاً وجادتْ بفَيْضٍ سَبَلْ (١)

ولعل أكبر شاعر فقيه اختصّ الأطلال باهتمامه عروة بن أذينة، وهو أكثرهم غزلاً كما رأينا، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائد غزله من دون أن يقف فيها بالأطلال ويصفها، وكنت عرضت عند الحديث عن غزله مطلع قصيدته :

يا ديار الحي بالأجمةْ لم تكلّم سائلاً كلمةْ

وسوف أتحدث عن هذا الغرض عند دراسة الشاعر مع الأعلام، وأكتفي الآن بأوائل قصيدته الثالثة إذ وقف على أطلال أحبته في ذي الأجارع فهاج وقوفُه شوقَه، وزاد ذلك الشوق ما كان يراه في الأطلال من أوتاد مبعثرة، ونُؤيّ مدفون قد كاد يمّحي في سالف عهوده السيول عن الخِباء، وأثافيّ سُوْد، وكُوَم رمال من أنقاض البُنيان القديم، كل ذلك مما أذهل الشاعر، بل حجّر دمعه في مآقيه :

١) شعر النعمان ١٠٥. وعفا : درس، والمطرد : المتتابع، والخلل : بقية الطعام في الأسنان، والخلل : منفرج ما بين الشيئين، والمستهل : جرى وسال. والسبل : المطر الغزير.

أفي رُسومِ محلٍّ غير مَسْكونِ

من ذي الأجارع كاد الشوق يُبكِيني

فَقْرٍ عفا غيرَ أوتادٍ منبّذةٍ ومنحنٍ خُطّ دون السيل مدفون

وهامدٍ كسَحيق الكُحْل مُلْتَبِدٍ

أكنافُ ملمومةٍ أبّاجُها جُون

عوارفٌ ذُلُلٌ أمْسَتْ مُعَطّلةً

في منزلٍ ظلّ فيه الدمع يَعصيني (١)

وغالباً تحول الأطلال شيئاً هامداً في الصحراء الرّحبة الممتدة، وكان وصف الصحراء بدأ يتجسّد في صدر الإسلام ولما كان من انهماك الشعراء مع غيرهم من العرب في بناء الدولة الجديدة وإرساء قواعدها، وتثبيت دعائمها، ولما كان من بُعد عن الصحراء فرضته عليهم حياةُ الجهاد في شتى الأقاليم البعيدة عن جزيرتهم، ويظل هذا الجمود مسيطراً على الشعر الأموي، (٢) ولم يستمد ذلك الموضوع شيئاً من مكانته القديمة إلا في شعر الرجاز من أمثال العجاج ورؤبة والرّقيان، وفي قصائد بعض الشعراء كالراعي وذي الرّمة (٣) وعروة بن أذينة.

ولعل هذا ما يعلل قلة وصف الصحراء في شعر الفقهاء، ويمكن القول إن النعمان بن بشير كان ثاني اثنين منهم صوّرا فيافيها المقفرة الفامضة، فهو منذ مطلع القصيدة الأولى في ديوانه يتحدث عن خيل غليظة الأعناق متينة الضفائر تعسف في صحراء وعرة كانت تبدو أسراب القطا فيها ـ إذا استجمعت ـ مثل ركب المسافرين :

يُجاذِبْنَ بالأرسانِ في كل سَرْبَخٍ

سوالفَ كالأمْسادِ مدمجةً غُلْبا

١) شعره ص ١١١. وذو الأجارع : موضع، ومنبذة : مهملة، وأكناف : أطراف، وملمومة : مجتمعة أو مستديرة، ونبج كل شيء : وسطه، وجون : سود، والعرف : الرمل المرتفع، وذلل : لينة.

٢) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء : ص ٧. ٣) المصدر السابق ٧.

بصحراء قيقاء تخالُ بها القطا
إذا ادّركتْ فاستجمعتْ رفضاً ركّبا[1]

وكثيراً ما نرى مثل هذه اللوحة عن الصحراء في شعر عروة بن أذينة أول الشعراء الفقهاء نتاً لها، فهو يصور مصاعب اختراقها، وتوهج شمسها، ولمعان آلياء، وامتداد اتساعها مما يجعل القطا يحار ويفترق أسراباً أسراباً [2]، وهو يقص كيف كلّفته سعدى - فيما كلفته - تجشم يوم حارّ مُلتهب في اجتياز فلاة يضج فيها عواء الذئاب، من شدة القيظ، وتأوي بقرها إلى أكنتها اتقاء وهج الشمس، ويرتفع صرير الجراد، وتنتصب الحرابيّ كالعيدان، ويوشك الآيب المصارم أن يشوي الوجوه من لظاه شيئاً:

وكم كلّفتنا من سُرى جدّ ليلةٍ
حبيبٍ إلى السّاري المُجدّ انجيابُها
ومن فَوْر يوم ناجم مُتضرّمٍ بأجواز مَوْماةٍ تعاوى ذئابها
يظلّ المها منها إلى كل مكنسٍ دُموجاً إذا ما الشمس سال لعابها
ووالى الصّريرَ الجُندُبُ الجَوْنُ وارتقتْ
حرابيّ في الميدان حان انتصابها
تكاد - إذا فارت على الركب تلتظي
ودِيقتُها - يشوي الوجوهَ التهابُها [3]

١) شعر النسان ٧٩، والسريح: انفلاة، والسالفة: ناحية مقدم العنق أو اعلاها. والمد: القيف أو الجلد، والقلب: غلظ الرقبة والصحراء القيقاء: المليطة أو المتفادة. والرفض: الجماعات.
٢) انظر شعر عروة ص ١٦٤.
٣) شعر عروة ص ٢٧٣، وانجيابها: انبعاؤها، والفور: الجبيثان، وناجم: طالع، والجوز: الوسط، والمها: البقرة الوحشية، والمكنس: مأوى البقر الوحشي والظباء، ودموجاً: دخولاً. والجندب: ضرب من الجراد، والحرباء: دويبة تستقبل الشمس برأسها، والوديقة: شدة الحر.

ولعل من الواضح ارتباط وصف الصحراء بوصف حيوانها وطيرها، فالنمان يذكر الخيل والقطا، وعروة يتحدث عن الذئاب والمها والجندب والحرابيّ، وغالباً تتردّد - في نعت الصحراء - هذه الحيوانات وامثالها من الظباء والنعام والمُهَا [1]، ويأتي وصف الناقة سفينة الصحراء في طليعة تلك الموضوعات غير مدافع. فالنمان يبلغ مشرَه على ناقة نشطة قوية ضخمة بيضاء اللون قد اعتادت السفر الطويل [2]، وقد يغضي همومه على ناقة جمالية ما تزال تعلوي الفيافي البعيدة حتى تكلّ [3]، وتكثر هذه الظاهرة لدى عروة بن أذينة لما في قصائده من تصوير لكثير من مشاهد الصحراء وأحيائها، فمرة يجريها بناقة خفيفة الحركة جَلْدة على عبور كل مفازة مضلّة مجهولة [4]، ومرة تمضي الظعن على كل جَمَل، وهْم طويل القَرَى، وناقة سريعة عشر أسفارٍ ضخمة قوية [5]، وطوراً يُردي أسفاره بناقة مكتنزة اللحم مشتدة الأسر بهيّة الخِلقة فتية العمر، كان تهيّأ لها مرعىً خِصب ومَرتعٌ نضير الكلأ كثير المياه بهيج الأزهار فماشت فيه أربعة أشهر ناعمة مترفة، حتى إذا اشتدت وتمّت لها قواها ركّب على متنها الرحل والهودج، وما زال يطلب عليها حاجاته ويردي بها أسفاره حتى ضمرت فاتسع عن بطنها القيد، واحدودب صلبها وذاب شحمها وانبرى لحمها، وأصبحت - لنحولها - كالسهم الدقيق، وما كان ذلك لولا التعب البالغ والارهاق المستمرّ:

هيهاتَ لا وَصْلَ إلاّ أن تُجدّدَه
بذاتِ مَعْجَمَةٍ مِرْداةِ أسفارِ
ملمومةٍ نُحِتَتْ في حُسْنِ خِلْقَتِها
وأُجْفِرتْ في تمامٍ أيّ إجفارِ

١) انظر هذه الأصناف الثلاثة في شعر عروة ص ١٥٥ وما بعدها.
٢) شعره ص ١٠٨. ٣) شعره ص ١٢٣ وما بعدها.
٤) شعر عروة ١٦٥ وما بعدها. ٥) شعر عروة ٢٢١.

وأرْغِدَتْ أشهراً بالقُهْبِ أربعةً
في سِرْبِ مُسْتأسِرِ القُرْبانِ مِحْبارِ

ترعى البقاع وفَرْعَ الجِزْعِ من مَلَلٍ
مَرابِعَ العِينِ من نَقْوى ومن دارِ

في فاخِرِ النَّبْتِ مَجَّاجِ الثرى مَرِحٍ
يُخايِلُ الشمسَ أفواجاً بِنُوّارِ

قرَّبْتُها عِرْمِساً للرَّحْلِ عُرْضَتُها
أزواجُ لِمّاعةِ الفودَيْنِ مِقْفارِ

فلم تَزَلْ تطلُبُ الحاجاتِ مُعْرِضةً حتى انْتَقَتْني بمُخٍّ باردٍ رارِ

قد غودِرتْ حَرَجاً لا قيدَ يُمْسِكُها
وصُلْبُها ناحِلٌ مُحْدَوْدِبٌ عارِي

وقد يَرى اللحمَ عنها فيَّ قافِلةً كما يرى متنَ قِدْحِ النَّبْعةِ البارِي

تَهْجُّري ورواحي ، لا يُفارِقُها
رَحْلٌ ، وطولُ ادِّلاجي ثم إبْكاري[1]

وإلى جانب وسوم الصحراء وحيوانها كانوا يرقبون ما يعجب زرقة السماء في بعض الأحيان من سُحُبٍ ثقال ما تلبث أن تهطل وتسيل ، وممّن عرضوا هذه

١) شعر عروة ١٩٨ وما بعدها ، وذات معجمة : ناقة سمينة قوية ، وأجفرت : بلغت أربعة أشهر أو خمسة ، والمستأسد : النبات القوي الملتف ، والقريان : جمع قري وهو مجرى الماء في الروض والرمس : الشديدة ، والزوج : النمط فوق الهودج ، والقودان : العدلان ، ورار : فاسد ، وحرج وقافلة : ضامرة ، والقدح : السهم قبل أن يراش ويركب نصله ، والنبعة : شجرة تتخذ منها السهام ، والتهجير . سير الظهيرة الحارة ، والادلاج . سرى آخر الليل .

الظاهرة النعمان بن بشير في نحو قوله :

سقى أمَّ عبدالله مُمْرَوْرِفُ الذُّرى
أجَشُّ هزيمٌ يَحْفِشُ الوَدْقَ مقدما

فَعَدْتُ له تُزْجي مطافيلَهُ الصَّبا
إذا ما دنا منه صَبِيرٌ تحمّما

له هَيْدَبٌ دانٍ يَزِلُّ جَهامُه عن اكلفَ رجّافِ العشيات أسْحما

إذا رجفتْ منه رحىً مُرْجِحِنَّةٌ
إلى مُكْفَهِرٍّ كالأخاشب أرْزَما

فلما تداعتْ بالسِّجال ذَنوبُه يثرب تَمْري صادقَ الوَبْلِ مظلما

ترى القَمْرَ بالقيْمان جُنَّ بُنانَهُ
أبابيلَ يَنسِفْنَ الجَهيمَ وصُيَّما

فذاك سقاها بَرْقُه وغَمامُه بِنَوْءِ الثُّرَيّا إذ أطاع وأتْجَما[1]

فقد رسم مشهداً لنزول الغيث ، وبدأ بسحاب عال ، يسمعه رعدٌ أجشّ

١) شعر النعمان ١١٧ وما بعدها ، ومرورف . مرتفع ، وأجش . غليظ الصوت ، وهزيم ذو صوت ، ويحفش . يسيل ، والودق : المطر ، وتزجي . تسوق ، والمطافيل . السحاب الصغار ، والصبا . ريح شرقية باردة ، والصبير . الجبل والسحابة البيضاء أو الكثيفة التي فوق السحابة ، وتحمم . صوت والجهام السحاب الذي لا ماء فيه والاكلف لون بين السواد والحمرة والرجاف البعر وأسحم أسود ورحى مرجحنة يريد سحابة مستديرة ثقيلة ومكفهر . السحاب الأسود الغليظ والأخاشب الجبال العظيمة وأرزم صوت والسجل والذنوب الدلو وتمري تستدر والوبل المطر الشديد والقمر القمر طائر والقماء المستوي من الأرض والبنانة الروضة . وأبابيل جماعات والجهيم النبت والصيم الشديدة والمجتمعة الحلق والثريا من الكواكب وأتيم المطر . كثر ودام .

غليظ ، وكانت رياح الصبّ تسوق قطع السحاب على هينة ومَهل ، وكلما مرت بجبل شامخ ضجّت وأرعدت ، وقد اختزنت تلك القطع في جوفها الماء الكثيرة ، غير أن غشاوة من الغيم العقيم كانت تحفها ، فكلما انقشعت عنها غشاوتها بدت حقائقها ، وكما رأيناها تضج وترعد إذا داناها جبل ، كانت ترزم وتزمجر كلما احتكّت بها قِطَعٌ أخرى من السحاب تحمل مثل ما تحمل ، ثم بدأ الغيث ينصب غزيراً في بُرَد ، فانتشت الأودية والسهول ، وتألقت الرياض والبساتين وقصدت إليها الطيور جماعات جماعات ، وبمثل هذا الخير يدعو النعمان لأم عبداقه أن تُسقى به وتغاث .

وعلى هذا النحو يصوّر عروة سحابة تزوّدت من البحر ماء ثقيلاً ، ولما بلغت ديار سُعدى هطلت وابلاً شديداً تَرك عِراصَها صَلْدَةً جرداء لا تكاد تعرف من معالمها الأولى شيئاً ما لم ترجم بالظنون (١) ، ويبدو أن غضبه على قومها الذين أصرّوا ، وأكدوا إصرارهم أن يمنعوها منه أول الأمر ، هو الذي دفعه إلى رسم هذه الصورة التي لا تكاد تُبقي في ديارهم التي ظعنوا عنها أثارة ، على عكس ما رأينا لدى النعمان من الغيث العميم الذي تنضر به الحدائق وتطيب الحياة .

وإلى جانب وصفهم الأطلال ، والفلوات ، والحيوان الصحراوي ، والسحاب والمطر وصف الدؤلي طريقاً نحوفاً سلكه (٢) ، ووصف أحمد بن أبي دؤاد بغداد (٣) ، وسامراء (٤) ، وكنت قد أشرت إلى ما يلمح عند عروة خاصة من تصوير المعارك من جهة ، ومحاسن المرأة من جهة أخرى عند الحديث عن فخره وغزله .

ومن الموضوعات الوصفية التي نالت حظاً كبيراً في شعر الفقهاء ، موضوع الشيب فأبو الأسود يتحسر لبَيْن الشباب ، واشتعال رأسه بالبياض بعد أن كان أسود فاحماً يشبه حلكة الليل (٥) ، وللإمام الشافعي أبيات تتحدث عن شعوره عندما استقبل الفوج الأول منه ، فقد انطفأ ـ منذ حلّ في رأسه ـ شبابُ نفسه ، وانقضى ربيع عمره واصفر لونه ، ومضت قوته وبهجته :

خَبَتْ نارُ نفسي باشتعال مفارقي ... وأظلَمَ ليلي إذ أضاء شهابُها

١) شعره ص ١٥٢ وما بعدها .
٢) انظر ديوان أبي الأسود ١١٧ .
٣) انظر اخبار القضاة ٣/٣٠٠ .
٤) انظر اخبار القضاة ٣/٢٩٩ .
٥) انظر ديوانه ص ١٩٦ .

أيا بومةً قد عشّشَتْ فوق هامتي ... على الرغم مني حين طار غرابها
رأيت خرابَ العمر مني فزُرْتِني ... ومأواكِ من كل الديار خرابها
أتنعم عيشاً بعد ما حلّ عارضي ... طلائع شيب ليس يغني خضابها
وعزّة عمر المرء قبل مشيبه ... وقد فنيت نفسٌ تولّى شبابها
إذا اصفرّ لون المرء وابيضّ شعره ... تنغّصَ من أيامه مستطابها (١)

ومن الشعراء الفقهاء الذين سجّلوا مشاعرهم وهم يتلقّون هذه المرحلة من عمرهم محمد بن أبي العتاهية ، وقد أورد له ابن المعتز مقطوعة تجري على هذه الشاكلة :

أراعَكَ شَيْبٌ في السّواد يلوح ... يبثّ بأسباب البلى ويَبوحُ
وما شِبْتَ إلا للخطوب وعِرّها ... لعمْرُكَ تغدو مرّة وتروح
تمرّ خطوبٌ مُفصحاتٌ بُطُقها ... فتَزورّ أحياناً وهُنّ جنوح
وكم جسدٍ يهتز بالخَفْض ناعماً ... سيُصبح مفقوداً ويذهب روح
تغيّرتَ عن عهد الشباب وطيبه ... وكان ، وطيبُ العيش منه يفوح
إذا شئتَ فاستدْعِ المشيبَ خضابَه ... فرأسك يبكي للبلى ويَنوح (٢)

فقد أقلقه ما أصاب رأسه من بياض جعل داعياً يذيع انباء اقتراب أجله ، وهو اقتراب كان يذكّره به من قبل ما كان يراه من خَطْفِ الموتِ للناس من حوله ، حتى لم يعد يفارق ذهنه أنّ كل حيّ ـ لا محالة ـ هالك مُودٍ ، وها هوذا مضت أيام شبابه ، وانقضت مرحلة صباه ، وبات يحتاج شعره إلى خضاب ، وينتظر

١) مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ص ١٦ . ونسبت الأبيات الثاني والثالث والرابع والسادس إلى الامام علي ، انظر الكشكول ١/١٧٦ .
٢) طبقات الشعراء ٣٦٣ .

ساعة توديع هذه الحياة . ومن طريف ما للفقهاء في هذا المجال بيتان لسوار بن عبدالله يخاطب فيها شيبةً تبدَّتْ في رأسه ، وكأنما كانت عينه ، كلما أبصرتْ في مرآة ، لا تقع إلا عليها ، وهو يدرك أنه ـ ولو نزعها بمقراض ـ لن يزول همّها من قلبه لأنه ـ ببساطة ـ لن ينسى ما تعنيه من انقضاء الشباب :

يا شيبةً طَلَعَتْ في الرأس رائعةً كأنما نبتَتْ في ناظر البصرِ
لئن حجبتُك بالمقراض عن بصري
فما حجبتُكِ عن همّي وعن فِكَري [1]

. . . .

فالشعراء الفقهاء وصفوا الأطلال ، ومشاهد الصحراء وأحياءها ، والسحاب والمطر ، وصوّر الدؤلي الطريق المخوف ، وعرض ابن أبي دؤاد لمدينتي بغداد وسامراء ، ورسم عروة ملامح المعارك القبلية ، ومحاسن المرأة ، وأكثر الفقهاء من استعراض الشيب نذير الموت القريب .

. . . . .

٢ ـ العتاب :

ويأتي بعد الوصف موضوعُ العتاب ، وقد عالج فيه الشعراء الفقراء ما قد يطرأ على أواصر المودة بين الأصدقاء من جَفوةٍ وتغيّر ، وما يبدو في معاملة بعضهم من قلة وفاء أو وقوع في هفوات .

فمن تلك الجفوات ما حدث بين أبي الأسود الدؤلي وبين الشاعر أبي الجارود سالم بن سلمة الهذلي ، وكانا يتهاديان القصيد ، ثم ولي أبو الجارود ولاية ، فقصّر في صُحْبة الدؤلي ، وخفتت مودته القديمة ، فكتب إليه أبو الأسود :

أبلغ أبا الجارود عني رسالةً يروح بها الغادي لربعك أو يغدو
فيخبرنا ما بالُ صرمِك بعد ما
رضيتَ وما غيَّرتَ من خُلُق بَعْدُ

١) الكشكول ١/٢٩٤ ، وناظر بمعنى منظور : أي ما يراه البصر .

أإن لمتَ خيراً سرَّني أن تنالَه تنكّرتَ حتى قلت ذو لبدةٍ وَرْدُ
فمينالك عيناه وصوتك صوته تُمثّلُهُ لي غير أنك لا تعدو
لئن كنت قد أزمعتَ بالصرم بيننا لقد جعلت أشراط أوّله تبدو
فإني إذا ما صاحبٌ رثَّ وَصْلُهُ وأعرَضَ عني قلَّ مني له الوجد [1]

فهو يتساءل في رسالته عما وراء تغيّر سالم ، أأنّ قولي حُكْماً تنمّر واستأسد ؟! فإن يكن عزم القطيعة ، وبدت عليه أماراتُها ، فإن وداد أبي الأسود من جهته سوف يخفت أيضاً على عادته مع كل صاحب بدا له جفاء ، ويبدو أن أبا الجارود كان مشتغلاً في ولايته فلم يستجب لنداء صاحبه ، فعاد يسأله : « بأي زناد يُورِيْنَ عندكم قدحي ؟ » [2] ، فما كان جواب صاحبه إلا أن عدّ رسالة شاعرنا ناية « عوراء » ، وأصمّ عنها أذنيه وطوى لها كشحه [3] ، فغضب أبو الأسود للملابسة التي اختلطت على صاحبه ، فحسب العتاب هجاء .

ومضى يبين أنه ما كان يريد سوى العتاب ، « وذلك أمرٌ سنه الله فاغدُ » على حدّ تعبيره [4] ، ويتردد ـ في شعر الدؤلي ـ عتابه لأصحابه على هذا النحو [5] ، وسوف يأتي ذلك عند الحديث عن حياة الشاعر .

ومن القصائد الطريفة التي تتحدث عن جفاء الأصدقاء أبيات لإبراهيم النخعي يخاطب فيها صاحباً هجره أنّ مثله في الناس كثير ، وأن هجرانه لم يكن إلا ظلماً وجَوْراً ، فقد كان إبراهيم يزوره بينما هو يجفوه ، وما كان في الحقيقة بحاجة إليه لولا الإخلاص ، ذلك أن له أشقاء أوفياء ماجدين ، لا تدفعهم ندرة زيارته لهم إلى إقلالها من جانبهم ، بل يمضون في وفائهم ولقائهم ، وهنا ينوي إبراهيم ألا يقصد إلى صاحبه سنوات وسنوات ، فإن تاقت إليه نفسه وهتفت بالشوق إلى لقياه منعها ، وتذكّر ما حدث بينهما ، وعندئذ تثوب إلى مقابلة الهجران بالهجران ، بل يبلغ به

١) الأغاني (الثقافة) ١٢/٣٢٨ ، والورد : الأسد ، والاشراط : الدلائل .
٢) ديوانه ١٢٦ . ٣) ديوانه ١٢٦ .
٤) ديوانه ١٢٧ وما بعدها . ٥) انظر على سبيل المثال ديوانه ١٧١ .

الأمر أن بعدَ الزيارة والجفوة سواء إذ أن من عادته أن يقطع كل أمر يريبه:

وقلتُ لعبد الله إنك واحدٌ ... وثلثُك في هذا الأنام كثيرُ
قطعتَ إخائي ظالماً وهجرْتَني ... وليس أخي مَنْ في الإخاء يجور
أزور وتجفوني ولست بنازحٍ ... وإن الفتى تجفوه ثم يزور
فلا تحسبَنْ منحيك الودّ خالصاً ... لضُرٍّ ولا أني إليك فقير
فكم من أخٍ لي ماجدٍ وابن ماجد ... أغرَّ كضوء الشمس حين تنير
إذا لم أزُرْه لم يُغِبّ زيارتي ... وأعرفُ منه الودَّ حين أزور
عليك سلامٌ، سوف دون لقائكم ... ثمانٌ سنونٌ بعدهنّ شهور
وأكرم نفسي عنكم وأصونُها ... إذا كِدْتُ من شوق إليك أطير
فهيهات هيهات الزمان الذي مضى ... وقد حدثتْ بعد الأمور أمور
فدونَك حظي منك لستُ أريدُه ... طوال الليالي ما أقام بَعير
وما إن أبالي زرتَني أم جفوتَني ... وما منهما إلاّ عليّ يسير
ولو أنّ بعضي رابَني لقطعته ... وإني بقطع الرائبي لجدير [1]

ولعروة بن أذينة أبيات يعاتب فيها صديقاً له انطوى عنه، يقول في تضاعيفها:

ومِنْ مُؤاخٍ طوى كشحاً فقلت له ... إنّ انطواءك هذا عنك يَطْوِيني
لا تحسبَنْ مؤاخاتي مُقصّرةً ... ولا رِضاكَ وقد أذنبْتُ يُرضيني
لا خيرَ عندَك في غيْبٍ وفي حَضَرٍ ... إلا أهاويلُ من خَتْلٍ وتلوين
بأيّ رأيك في أمرٍ عُنيتُ به ... وفضل مالكَ بوماً كنت تكفيني؟

١) مجالس ثعلب ٤١/١.

فليت شعري وما أدري فتخبرني ... بأيّ قرضي من الأيام تجزيني؟
أبالذي كان مني مرّةً حسناً ... أم بالقبيح وما أقبحْت ترميني
عجزاً عن الخير تلويه وتَعْطُلُه ... بُخلاً عليّ به والشرّ تقضيني
لا تفضبنّ فإني غير مُعْتِبِهِ ... مَنْ كنتُ أوليتهُ ما كان يُوليني [1]

فهو يجفو صديقه الذي آثر الهجران لأن له من دونه خُلاناً كثيرين، ويصرح بأنه لن يعفو عن ذنب صاحبه حتى لو رضي هو وعاد إليه، ذلك أن عروة لم يكن بؤاخيه لخير يصيبه منه، ولا رأي يكسبه، ولا مال يكفيه، فبِمَ أمِنَ أن ينتقم منه؟ أبما قدّم من خير حسن؟ أم بعدّ الذي قدّمه له شراً قبيحاً فيرميه به؟ أم أنه يعجز عن وفاء الخير فيعطُله ويجزيه به شرّاً مُستطيراً؟ ولذلك لا يعذره عروة، ويؤثر أن يعامله بمثل معاملته.

ويمكن القول إن الشعراء الفقهاء بقصائدهم هذه فتحوا باباً جديداً في الشعر العربي، وكانوا الطليعة السابقة لمن طرقوه من بعد أمثال الشريف الرضي، وأبي العلاء المعري، وهو باب لسنا نشك أنّ كان يدفع إليه الدين الحنيف بما كان يحثّ عليه من حفظ المودّة بين الأشياء، فلا يفرط المسلم في صداقة إخوانه، ولا يقع في الهجران الذي حُرّم بنحو قول النبي ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجرَ أخاه فوق ثلاث ليالٍ: يلتقيان، فيُعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام»[2]، وذلك يفسر تمسّك الشعراء الفقهاء بصحبة الماضي، وتشبثهم بها، وحرصهم على استمرارها.

غير أن ثمة هفوات تبدر - أحياناً - من بعض الخُلاّن، وهي هفوات لا تبلغ حد القطيعة كما في القصائد المتقدمة، وإنما تشوبها قلة وفاء تقود إلى بعض الزلاّت، ومما عرضوه من مظاهر خفوت الوفاء أن يستكبر بعض الأصدقاء إذا

١) شعره ص ١٢٠ وما بعدها، وطوى كشحاً: أي أعرض، والأهاويل: الألوان المختلفة، وتلوين: تقلبه، ومعتبه: عاذره. ٢) رياض الصالحين ٣٩٥.

أصابوا من عرض الدنيا، فينسون « مَنْ كان يألفهم في المنزل الخشين »، فقد كان عيراك بن مالك وأبو بكر بن حزم وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبة يتجالسون بالمدينة زماناً، ثم إن ابن حزم وعراكاً توليا منصبين عاليَيْن فكانا يمران بابن عتبة فلا يسلمان عليه، ولا يقفان به، وكان ضريراً فأخبر بذلك فأنشأ يقول:

ألا أبلغا عني عِراكَ بن مالك ولا تَدَعا أن تَثنيا بأبي بكر
فقد جعلت تبدو شواكلُ منكما كأنكما بي مُوقران من الصخر
ولا تأنفا أن تسألا وتسلِما فما وُحشي الإنسانُ شراً من الكِبْرِ (١)

فهو يعتب عليهما قسوتهما وكأن لهما قلبين من حجر لا بلين، ويدعوهما أن يسلما عليه ولا يستكبرا، فشرّ الأخلاق الاستكبار.

ولأحمد بن المذلّ مقطوعة يعاتب فيها أبا حفص الرياحي، وكان أحمد اعتلّ فلم يعده أبو حفص، وكان صديقه، ولزمه في علته سليمان بن حرب، وبُسر بن داود المهلبي، فكتب إليه أبو الفضل احمد بن المذلّ:

سلامٌ أبا حفص عليك ورحمة وإن كنتَ عنا نائياً متجافيا
كفاكَ سليمانُ بن حرب عيادتي وما زال بُسْرٌ بالزيارة وافيا
وما منهما إلا تراخيتُ دونها وما كنتَ عن كلتيهما متراخيا
وقد قال بعضُ المنصفين مقالة مَضَتْ مثلاً بين الأخِلاّء جاريا
« وإني لأستحيي أخي أنْ أرى له عليّ من الحق الذي لا يرى ليا »(٢)

وكثيراً ما يلقانا في تضاعيف القصائد والمقطوعات صور من زلّات الأصدقاء وهفواتهم، على هذا النحو (٣)، وهي صور سبقوا بها إلى هذا الباب من الشعر،

١) الأغاني (الثقافة) ١٤٠/٩، وانظر أمالي المرتضى ٣٩٩/١، والمحبر لابن حبيب ٢٩٧.
٢) الموشح ص ٣٤٤، والبيت الأخير لجرير اقتبسه ابن المذلّ.
٣) وانظر في ديوان الدؤلي ١٤٤ و ١٦٨ و ٢٠٧ و ٢١٦ و ٢٤٥، وانظر قصيدة =

وفتحوه على مصراعيه للشعراء اللاحقين.

. . . .

٣ ـ الهجاء:

لاحظنا كثرة العتاب في شعر الفقهاء، وهي كثرة تلقي بعض الأضواء على موضوع الهجاء وما يتصف به من قلة وتأخّر عن كثير من الموضوعات الأخرى، ولا ريب أنهم تبدّلوا بكثير من مواقف الهجاء عتاباً رقيقاً يبني ولا يهدم، ويصلح ولا يفسد، ومن هنا كان الهجاء قليلاً كما ذكرت، ولم يكن يبلغ معشار الذي عرف لدى أهل النقائض والشعراء الهجّائين من أمثال ابن مفرغ، والحكم بن عبدل وثابت قطنة في العصر الأموي، وأبي عيينة المهلبي وعبد الصمد بن المذلّ في العصر العباسي الأول.

وكما بيّنت انطلاق الشعراء في عتابهم من نزعة إسلامية أصيلة، كذلك تبدو هذه النزعة نفسها في كثير من هجائهم، سواء السياسي، والاجتماعي، والخُلُقي.

وأقصد بالهجاء السياسي ما ينزع فيه الشعراء عن نظرية في الحكم أو رأي في السياسة، ومعروف ان أبا الأسود الدؤلي كان من شيعة الإمام عليّ، فلما تولى الأمويون شؤون الخلافة الاسلامية، بعد مقتل الامام، نكبوا شيعته، وثأروا منهم، وكان مما أصاب أبا الأسود من ذلك أن أُقيل من منصبين ارتقى إليهما في حكومة الإمام، هما ولاية البصرة وقضاؤها، وعُيّن زياد بن سُمَيّة «محافظاً» أو واليا للبصرة، وكان بينه وبين ابي الأسود جفاء قديم (١)، فجعل ينتقم منه (٢)، فقال:

أقول وزادني غضباً وغيظاً أزال اللهُ مُلْكَ بني زيادِ
وأبعدهمْ كما غدَروا وخانوا كما بعدتْ ثمودُ وقومُ عادِ
ولا رجعت ركائبهمْ إليهم إلى يوم القيامة والتّناد (٣)

= لبعي بن أكثم في أخبار القضاة ١٦٤/٢، وأبياتاً لابن عتبة في العقد الفريد ٢٣٢/٢، ومقطوعة لعلي بن حجر في تاريخ بغداد ٤١٧/١١.
١) انظر ديوانه ص ٢٠٦، إذ يذكر كيف ينتحيه زياد بشره، في زمن علي، وزياد هو زياد بن أبيه نفسه. ٢) انظر ديوان الدؤلي ٢١٩، حيث يشكو من قلة تنفيذ زياد لحاجته.
٣) ديوان الدؤلي ٢٤١.

ومن الهجاء السياسي ما قاله ابن شُبْرُمة في عبدالله بن علي عم المنصور ، وكان ثار عليه في جهات حلب وبايعه جنوده عام « ١٣٧ هـ » غير أن الخليفة وجّه إليه جنداً ضخماً بقيادة أبي مسلم الخراساني فمزّق جموعه وسحق ثورته :

وقلْ لأخي مكاثرةٍ وضِغْنٍ ... سَعَرْتَ الحربَ بين بني أبيكا
وأورثتَ الضغائن في بنيهم ... بني أبنائهم وبني بنيكا
فلو شاورتني وقبلت رأيي ... لسِرْتَ لهم بسيرة أوليكا
وأقررتَ الملامة حيث حلّتْ ... ولم تعرض لملك بني ابيكا
كأنّك قد أصابك سهمُ غربٍ ... وأسلمك المداةُ من ايديكا[1]

فهو يشنّع عليه فعلته التي أورثت العباسيين الخلاف والبغضاء .

وإلى جانب الهجاء السياسي نجد في شعر الفقهاء هجاء اجتماعياً ، فأبو الأسود يتذمّر من معاملة جاره ، وأذاه ، بل يضطر إلى بيع داره حتى يتجنب شره وفيه يقول :

فإن أعْفُ يوماً عن ذنوبي وتعتدي ... فإن العصا كانت لغيرك تُقْرَعُ[2]
وشتان ما بيني وبينك إنني ... على كل حال أستقيم وتَظْلَع
تصيح وتَسْتَشلي كلاباً تهرّني ... وتشرعني فيما أردتَ وتشرع[3]

ومما يدخل في الهجاء الاجتماعي استنكار ابن المبارك على المتعصّبين من ذوي الصدور الضيّقة والنظرات القريبة الذين يتشيّعون لعلي فيدفعهم تشيعهم إلى كره « العثمانية » ، أو يتنصرون لابن عفان فيحطّون من قدر الإمام علي ، فابن المبارك يعلن بصراحة كراهيته لهم جميعاً ، واستصغاره لما ابتدعوه من الشقاق في الصف

١) أخبار القضاة ٣/٩٤ ، ومكاثرة : عداوة ، وضغن : حقد ، وأصابه سهم غرب : أي لا يدرى راميه .
٢) يشير إلى المثل : « إن العصا قرعت لذي الحلم » ومعناه أن الحكيم إذا نبه انتبه .
٣) ديوانه ١٤٩ ، وظلع : غمز في مشيه ، تستشلي : تغري .

الإسلامي :

ما يعلم الله من قلبي مشايعةً ... للمبغضين علياً وابن عفانا
إني لأمنحهم بغضي علانية ... ولست أكتمهم في الصدر كتمانا
ولا أرى حرمة يوماً لمبتدع ... وهنا يكون إذن مني وإدهانا[1]

وكما شنع ابن المبارك على بدعة التفرّق نعى الشافعي على بعض القضاة الذين حكّموا أهواءهم وعتوا عن امر ربّهم :

قضاة الدهر قد ضلّوا ... فقد بانت خسارتهم
فباعوا الدين بالدنيا ... فما ربحت تجارتهم[2]

وإذا تركنا الهجاء السياسي والاجتماعي وجدنا نوعاً ثالثاً يفوقهما أبياناً ، وبعدّ أم ضروب الهجاء في شعر الفقهاء ، وهو ما يعرض للجانب الخُلُقي ، ويتناول الصفات الذميمة ويجرّحها تجريحَ مَنْ يريد أن يستأصلها من شأفتها . فالدؤلي - في أثناء هجائه - يعيب الضلالة والغواية[3] ، والثرثرة والحمق[4] ، والشح والمماطلة[5] ، وله أبيات في هجاء « أبي عمير » تسمه بالكذب والجهل ، وأنه مع كذبه يتراءى لمن يحدثه وكأنما أوتي العلم الجامع ، والمعارف النادرة :

لعمرك ما وجدتُ أبا عُمَيرٍ ... صَدوقاً في الحديث ولا عليما
يكلّمني ويخلج حاجبيه ... لأحسب عنده علماً قديما
جزاك الله ما يجزي كذوباً ... أثيماً قال بُهتاناً عظيما[6]

ومن سلكوا الهجاء الخلقي عروة بن أذينة ، فهو يستنكر ممّن يهجوه أن ينعى على الكرام الذين غمروه بفضلهم ، فيجحد ما قدّموه إليه ، وينسى مكرمتهم

١) تاريخ ابن عساكر (مخطوط) ج ٦ ، والوهن والادهان : الضعف واللين .
٢) ديوانه ٨ . ٣) ديوانه ١٠٩ . ٤) ديوانه ١٣٣ .
٥) ديوانه ١٩٩ . ٦) ديوانه ١٣٢ .

عليه[1]، ويعرض في أبيات أخرى أولى يحيء إلى نفسه فيتنكب الرشد، ويؤثر طريق الغواية والضلال، ولكن عروة يهديه نصيحته ويقوّم اعوجاجه فيثوب إليه وقد هجر الشرّ القديم[2]، ثم يهجو في نفس القصيدة قوماً يحسدونه ويثابونه، ويهجرون التقى ويقولون الخَنَا[3]، وواضح من هجاء عروة، وسائر الفقهاء أنهم يسلكون طريقة النقد المباشر لكل خصلة ذميمة غير خُلُقية فيمن يهجونهم، وهي الطريقة الغالبة على شعرهم في هذا الغرض إلا أنهم قد يسخرون منهم ويستهزئون بهم، فالدؤلي يصور «عُوَيْمِراً» وهو يهدده «صورة فنية ساخرة» فيجعله كالأسد الهصور يوعد ويزجر، ويتظاهر أبو الأسود بالهيبة منه والخوف من أن يقتله:

تلبّس لي يوم التقينا عُوَيْمِرٌ
«بجابَلَقٍ» في جِلْدِ أخْنَسَ باسِلِ

وأوعدني حتى ظننت بأنه مصيبي بمثل القتل أو هو قاتلي[4]

ومن طريف هذا النوع من الهجاء ما قاله أحمد بن أبي دؤاد، وقد بلغه أن شاعراً هجا الوزير ابن الزيات بسبعين بيتاً:

أحْسَنُ من سبعين بيتاً هجا جَمْعُك معناهنّ في بَيْتِ
ما أحوجَ المُلْكَ إلى مَطْرَةٍ تَغْسل عنه وَضَرَ الزيت[5]

وهما بيتان بلغا ابنَ الزيات، فردّ عليهما مشيراً إلى ما يقال من أنّ في أجداد أحمد بن أبي دؤاد مَنْ كان يبيع القار:

ياذا الذي يطمَعُ في هجونا عَرَّضْتَ بي نفسك للمَوْتِ
الزيت لا يُزري بأحسابنا أحسابنا معروفةُ البَيْتِ
قَيَّرْتُمُ الملك فلم يُنْقِهِ حتى غسلنا القارَ بالزيت[6]

١) انظر شعر عروة ١٨٢ وما بعدها.
٢) انظر شعر عروة ٢٩٨.
٣) شعر عروة ٢٩٦.
٤) ديوانه ١٩٠.
٥) انظر أبيات أحمد وابن الزيات في الطبقات السنية ٣٥٦/١، ووفيات الأعيان ٧٢/١.

وإلى جانب الأسلوب الساخر سلك الدؤلي طريقة «التعريض»، وقد رأينا عتابه لأبي الجارود الشاعر، وكيف عدّ أبو الجارود عتابه هجاءً، وردّ عليه، ثم تبادلا التعريض في هذا الشأن، وقد أرْتجَ على أبي الجارود مرّة فأجاب عنه عطية بن سمرة الليثي، فقال أبو الأسود يعرّض به:

ألَمْ تَرَ أني والتكرُّم شيمتي وكلّ امرىء جارٍ على ما تعوّدا
أطهّر أثوابي عن الغدر والخنا وأنحو إلى ما كان خيراً وأمجدا
وشاعرِ سُوْءٍ يهضم القولَ كلّه إذا قال أقوى ما يقول وأسندا
صفحتُ له بعد الأناة فرُعْتُهُ بحرباءَ لم يُعلمْ لها كيف أرصدا[2]

فهو يريد من عطية أن يتبع «ما كان خيراً وأمجدا»، فلا يتظلم مع الذين يهجونه، ومن ثمّ لا يكون مصيرُه مصيرَ أبي الجارود الذي راعه وأفحمه.

فقد استغنى الشعراء الفقهاء بالعتاب عن هجاء كثير، وكانت القيم التي ذمّوها - في جملتها - مما أوصد الإسلام أبوابه، وكان هجاؤهم على ثلاثة ضروب: سياسي، واجتماعي، وخلقي، ويسلك في النوع الأخير جمهرة ما تركوه في هذا الغرض من الشعر، وهم يهجون - في الغالب - هجاء مباشراً، غير أنهم قد يسخرون ممن يهجونهم سخرية، وقد يعرّضون بهم تعريضاً.

٤ - الرثاء:

كان الشعراء الفقهاء - كلما تخطّفت الموت لهم قريباً أو عزيزاً - فجعوا وبكوه - صنيع غيرهم من الناس - بكاءً حاراً، سواء كان خليفة عادلاً، أم عالماً جليلاً، أم أباً شفيقاً، أم أخاً وديداً، وربما رثوا أنفسهم، أو شيخهم أو أصدقاءهم، وفي كل ذلك يجعلون للاعتبار نصيباً كبيراً.

ومعروف ما كان عليه أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز من تقوى واستقامة حبّبته إلى فِرَق المسلمين كافة، فخفضوا له جناحهم، وأخلصوا له قلوبهم حيّاً وميتاً، ومما رثاه به محارب بن دثار، وكان من المرجئة[1]، قصيدتان تفيضان دماً

١) ديوانه ١٨٣.
٢) تهذيب التهذيب ٥٠/١٠.

وموجدة ، وهو يردد في أولاها أنّ الموت لو ترك مخلوقاً لعدله لترك عمر ، فقد نصر الحق وأيّده ، فكان أهلاً ان يكون مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر[1] ، وفي القصيدة الثانية يمدد له خصاله التي اتّسم بها ، وما بذله لشعبه من حدب ورعاية واهتمام ، فكفى الأرامل واليتامى والمساكين والفارمين ، وغمر برّه الفقراء والأغنياء ، وشمل حِلمه المستضعفين والأقوياء ، وإنك ما نظرت في بدو ولا حضر ، وما رأيت غازٍ مجاهدين ، إلا وجدتَ أمير المؤمنين يفيض عليهم من عدله وحِكْمته وسياسته الرشيدة التي سلكها الخلفاء في صدر الإسلام ، وذلك الذي بلّغه قلوب المسلمين ، فما هم بناسيه أبداً :

سلامُ الله والصلواتُ منهُ ... على عمرٍ يَرُحْنَ ويَغتدينا
وأفضلُ ما أثابَ وليَّ عهدٍ ... أثابك يا أمير المؤمنينا
جُزيتَ عن الأرامل واليتامى ... وعن مسكيننا والفارمينا
وعن فقرائنا وذوي غِنانا ... جزاء المُقسطين العادلينا
وسِعْتَ بفضل حِلْمك في وقار ... على الكبراء والمستضعفينا
على الحُضّار والبادين منا ... وللغازين ثغر المسلمينا
تقسّط بينهم حُكْماً وعَدْلاً ... به حَكَمَ الولاة الأوّلونا
أميرَ المؤمنين جُزيتَ خيراً ... فان نَفسالك آخر ما بقينا[2]

ويمضي في نفس القصيدة فيعيد على الأسماع رأفة عمر بالرعية ، وعدله في البرية ، وإحياءه السنن والأحكام ، وحثّه المهتدين على المزيد من الاستبصار ، وهديه الغافلين إلى سواء السبيل ، وما زال على هذا النهج القويم حتى نماه المعلوم .

ومن رثاء الشعراء الفقهاء أئمة العلم من أشياه الإمام مالك بن أنس الأصبحي

١) أنظر الأبيات في اخبار القضاة ٣/٣٢ ، وحلية الأولياء ٥/٣٢١ .
٢) أخبار القضاة ٣/٣٣ .

وكان ممن يقدّره قدره عبدُ الله بن المبارك ، فلمّا أنْ توفي سنة مائة وتسع وسبعين للهجرة قال في رثائه :

صموتٌ إذا ما الصّمتُ زيّنَ أهله ... وفتّاقُ أبكار الكلام المختّمِ
وعى ما وعى القرآن من كل حِكْمةٍ ... وسيطت له الآداب باللحم والدم[1]

فالإمام مالك يسكت في حين السكوت ، ولكنه ـ إذا تحدث ـ جاء بالنادر المُحبب من القول ، وقد استوعب حِكَمَ القرآن الكريم في صدره ، وتشرّب آدابه حتى انغمس فيها لحمه ودمه ، فما تراه يصدر فيما يقول ، أو يفعل ، إلا عن الذكر الحكيم ، وكأنما « كان خُلُقَه القرآن » .

وكما كان يفجعهم فقدان الخليفة العادل والعالم الجليل كان يفجعهم أيضاً فقدان أقاربهم الأعزّة من أمثال آبائهم ، فيشعرون باللوعة البالغة والحسرة المضنية . ومن رثوا آباءهم محمد بن أبي التناهية في قوله :

يا أبي ضمّك الثرى ... وطوى الموتُ أجمَعَكْ
ليتني يوم مُتّ صِر ... تُ إلى حُفرةٍ معكْ
رحم الله مصرعكْ ... بردّ الله مضجعكْ[2]

ولم يكن مصابهم بأشقائهم بقلّ عن مصابهم في آبائهم ، ومما احتفظت المصادر لعروة بن أذينة في رثاء أخيه بكر قوله :

سرى همّي وهمّ المرء يسري ... وغارَ النجم إلا قيسَ فِتْرِ
أراقبُ في المجرّة كل نَجْمٍ ... تعرّضَ للمجرّة كيف يجري
لهمٍّ ما أزال له مُديماً ... كأن القلب أضرم حرّ جمر

١) العقد الفريد ٢/٤٧٤ ، وانظر « عبدالله بن المبارك » للدكتور عبد المجيد المحتسب ١٦٩ ، وسيطت : خلطت .
٢) الاغاني (الثقافة) ٤/١١٤ .

على بكر أخي ولّى حميداً وأيّ العيش يصفو بعد بكر؟[1]

ويذكر أبو الفرج أن الوليد بن يزيد علّق على هذه الأبيات ـ لما سمعها ـ بقوله: «وأيّ العيش لا يصفو بعده؟ هذا العيش والله الذي نحن فيه على رغم أنفه»[2]، وكان في مجلس غناء[3]، ويعرض صاحب الأغاني رواية أخرى يعقّب فيها ابن أبي عتيق على أبيات عروة: «كل العيش والله يصلح بعده حتى الخبز والزيت»[4]، وكأنما غاب عن الوليد وابن أبي عتيق أن المرثي أخو الشاعر، وأن من فطرة الإنسان ـ شاعراً وغير شاعر ـ أن ينظر إلى أهله وأحبّته وذويه نظرة خاصة يجعلها العطف والمودة والقربى تمتاز دائماً من النظرة إلى مَنْ سواهم، وإن كانوا يأكلون مما يأكلون، ويلبسون مما يلبسون!

وعلى نحو ما رثى عروة أخاه بكراً، ندب حيّان بن علي شقيقه مِندلاً، وكانا فقيهين من أصحاب أبي حنيفة، فقال:

عجباً يا عمرُو من نهضتنا والمنايا مقبلات عنقا
قاصداتٌ نحونا مسرعةً يتخلّلْنَ إلينا الطُّرُقا
فإذا أذكر فقدان أخي أتقلّبْ في فراشي أرِقا
وأخي أيّ أخ مثل أخي قد جرى في كل حين سَبَقا[5]

ومن طريف ما ورثاه عن الفقهاء في هذا الموضوع مقطوعة الإمام الشافعي يرثي فيها نفسه رثاءً يذكرنا بالقصيدة الفذة التي سجّلها الشعر العربي لمالك بن الريب، وكان الإمام الشافعي «اشتكى بمصر شكوى عاده فيها بعض إخوانه، فلمّا وجدوه، وقيس: قدر.

١) و ٢) و ٣) و ٤) الأغاني (الهيئة المصرية) ٨ /٣٣٤، وسرى: هاج ليلاً،

٥) الجواهر المضية للقرشي ١/١٨٤ ـ ١٨٥، و ٢/١٨١.

تعزّوْا بالتصبّر عن أخيكم فضّجوا بالبكاء وودّعوني
فلم أدَعِ الأنينَ لقلّ سُقمي ولكني ضعفت عن الأنين
سأصبر للحِمام وقد أتاني وإلا فهو آتٍ بعد حين
وإن أسلمْ يَمُتْ قبلي حبيب وموت أحبتي قبلي يَسُوني[1]

ومعلوم أن الشافعي لم يؤمّ مصر إلا في أواخر حياته، فيكون ـ في أغلب الظن ـ قد قال الأبيات في مرض وفاته.

ومن ألوان الرثاء التي طرقها بعض الفقهاء في شعرهم الرثاء المذهبي، ومما بقي لهم في هذا اللون نعيُ أبي الأسود الدؤلي للشيعة وعلى رأسهم الحسين بن عليّ وحواريّوه الذين سقطوا معه في «الطفّ»، وله فيهم قصيدتان ينثّهم في الأولى قاتليهم بأنهم ظالمون ملعونون، ويعلن أنه سوف يجعل لهم من نفسه «جنّةً» ونصيراً، لعله ينهل من حوض الرسول ويفوز بالنعمة الدائمة[2]، وفي القصيدة الثانية يتفجع على شهداء الطفّ، ويدعو بني قشير أن يستنصروا لخير الناس من بني هاشم فيقول:

يا ناعي الدين الذي ينمى التقى قم فانْعَهُ والبيتَ ذا الاستارِ
أبني عليّ آل بيتِ محمدٍ بالطفّ تقتلهم جُفاةُ نزار
سبحان ذي العرش العليّ مكانُه أنّى يكابره ذوو الأوزار
أبني قشير إنني أدعوكمُ للحقّ قبلَ ضلالة وخَسار
كونوا لهم جُنَناً وذودوا عنهم أشياعَ كلّ منافقٍ جبّار
وتقدموا في سهمكم من هاشم خير البرية في كتاب الباري
بهمُ اهتديتم فاكفروا إن شئتمُ وهم الخيارُ وهم بنو الأخيار[3]

١) بهجة المجالس ١/٢٦٣، والحمى: السخونة والعرق. ٢) انظر ديوانه ١٨٠.
٣) ديوانه ص ١٨٢.

وكان إلى جانب الألوان المتقدمة من الرثاء، ساده ذوو شرف وكرم، وكان بعضهم أصدقاء مخلصين للفقهاء، فمضوا يندبونهم، بعد وفاتهم، ويذرفون عليهم الدمع السخي، وقد كان عروة بن أذينة يُعْجب بمصعب بن الزبير قائد كتائب أخيه عبدالله وبعامر بن حمزة بن عبدالله بن الزبير، وكان سيّداً شريفاً، ومفكراً لسناً، غير أن رحى الموت دارت بمصعب وبعامر، كما دارت بغيرهما، فقال عروة:

ذهب الزمان بمُصْعَبٍ وبعامرٍ وكذاك يَفْجَعُ رَيْبُهُ بنواقرِ
ذهبا وكانا سيّدَيْنِ كلاهُما في بيت مكرمة وعزٍّ قاهرِ (١)

ويبدو أن عروة كان على صلة طيّبة بعامر، إذ نراه في موضعين آخرين من ديوانه يتفجع عليه تفجعاً مراً، فيذكر في المكان الأول أرقه وحزنه لمصابه فيه، ويعدّد له من محامده الكرم والتسنّن والإقدام، ويدعو الله أن يجزيه خيراً، حيثما أمست أعظمه، ويشير إلى أنّ «ليس شيء من الدنيا وما فيها بدوم» (٢)، ويعود في الموضع الثاني إلى ذكر حزنه بل هملان عينه عليه، ويردد ما كان يتسم به من سخاء وتفوق، ويتألم أنْ ثوى في العراق رمساً غريباً، لا في دار أهله بالحجاز، ويمدح قومه «الزبيرية» وطيب خيلالهم، وسموّ أمجادهم، وعراقة محتدهم، وقد ورث عامر عنهم ذلك جميعاً واستقام عليه، ويختم عروة قصيدته بقوله:

مَنْ يَلُمْ في بكائه لا أُطِعْهُ وأقُلْ مثلُ عامرٍ أبكاني
منْ يصادي سُخْطي ويحلُمُ عني وإذا قلتُ منْ لأمري كفاني (٣)

ولعلنا لاحظنا فيما تقدم من الأشعار في الرثاء ما تتسم به من نزعة اعتبار واتعاظ بمرتبتهم، فليس شيء من الدنيا وما فيها بدوم - على حد تعبير عروة - والمنايا والمنايا لا يتخلّلْن إلينا الطرقا، كما يقول حيّان، وتزداد هذه النزعة جلاء في مثل قول الشافعي يعزّي عبدالرحمن بن مهدي في ولده الفقيد:

١) نسب قريش للمصعب بن عبدالله ٢٤١، والذواقر: الدواهي.
٢) شعر عروة ص ٣٦٩ وما بعدها. ٣) شعر عروة ص ٣٩٦، ويصادي: يسكن.

إني أعزّيك، لا أني على طمع من الخلود، ولكنْ سنّة الدينِ
فما المعزى بباقٍ بعد صاحبه ولا المعزّي وإن عاشا إلى حين (١)

فالموت - كما أنى على الفقيد - فإنه آتٍ لا محالة، على المعزّى والمعزّي سواء. ولأحمد بن أبي دؤاد أبيات يرثي فيها كاتبه أحمد بن شهاب الأنباري، وهي تفيض بالعبْرة والانماط، وتجري على هذا النمط:

إنّ المشيبَ نعى إليّ شبابي وحَدَتْ بموتي مينةُ الأترابِ
طوراً أُعادُ وتارة أنا عائدٌ أو دافنٌ حيناً من الأحباب
فإلى متى ألقى وأسمع نَاعياً أوْ شِكْ بقرع يد المنيّة بابي
لا بد من موت وبعث بعده وموافقٍ تُخشى وعرض كتاب
وجَلاً فيا حزناً لبعد مسافتي وقليل زادي واغتراب ذهابي (٢)

فكما مضى ابن شهاب في حلبة الموت؛ فإن أحمد لا بد سالك سبيله، فهذا شيبه ينعى إليه ربيع حياته، وهؤلاء أخلاؤه، الذين لا يصبّرهم عمراً، يُشيّعون إلى مثواهم، وهو يتلقى - كل يوم - من الموت نذيراً، من مرض يحل بـه أو بغيره، ومن وفاة أحبته فيدفنهم بيديه، ويدرك أن منيته قريبة دانية، وهي منية لا بد بعدها من بعث وحساب شامل لكل ما قدّم في دنياه، وهنا يتذكر بُعْد الشُّقّة أمامه، ومصاعب الطريق، فيلوم نفسه على قلة ما أعدّته ليوم الرحيل، وقد أزف أوانه.

فقد بكى الفقهاء - في رثائهم - الخليفة العادل، والفقيه العالم، والأب الشفيق، والأخ الودود، ونعوا أنفسهم، وشيعتهم، وأصدقاءهم، واعتبروا بموت هؤلاء جميعاً، وكانوا - كلما شيعوا واحداً منهم - هتفوا له هتاف الموت على لسان عروة:

١) معجم الأدباء ١٧/٣٠٨، وشرح المقامات للشريشي ٢/١٣٨، وتاريخ دمشق لابن عساكر (المهد) ١٠/٢٠٦، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/٩، والعقد الفريد ٣/٣١٠.
٢) أخبار القضاة ٣/٢٩٩، وجلا: مقصور من جلاء أي اتضاح الأعمال وتبيانها.

فنِعْمَ الشيءُ كنتَ وليس شيءٌ من الدنيا وما فيها يدوم (١)

المدح :

يعد المدح آخر الأغراض الشعرية التي طرقها الفقهاء ، وأعاب الظن أنهم لم يُفرطوا فيه خشية أن يقعوا فيما استكرهه الدين الحنيف من المبالغة في المدح مبالغة تؤدي إلى اغترار ساحبه وفيتنته ، وذلك ما ذمه النبي ﷺ وقال فيه عند ما سمع رجلاً يُثني على رجل ويُطريه في المِدْحة : « أهلكتُمْ الرجلَ أو قطعتم ظهر الرجل »(٢) ، ومن الحق أن جمهرة الذي خلّفه الفقهاء في هذا الباب تنكّبت المبالغة المكروهة ، وتخيّرت الموضوعات التي تنأى عما يحذّر منه الإسلام من الاغترار والافتتان ، فمدحوا النبي الكريم ، وفريقاً من الخلفاء ، وأهل العلم والتقوى ، والقادة ، والسّادة الأشراف .

فالنعمان بن بشير يصرّح بعزمه على ترك الشعر ليجعل اهتمامه كله في الإسلام ، فهو خير منه وأرشد ، وإذن ان يطرق من الشعر إلا ما كان ثناء على الله سبحانه أو مدحاً للنبي عليه الصلاة والسلام الذي دعا الناس إلى الهدى ، واعتصم بالحق في شبابه وكهولته :

فهذا وإني تاركُ الشعر بعدَها لخير من الشعر اتباعاً وأرشدا
سوى مدحة لله أو ذِكْرِ والدٍ على والد الأقوام فضلاً وسؤددا
إمامِ الهدى للناس بالحقِّ لم يزلْ
على ذاك كهلاً في المشيب وأمْرَدا (٣)

وعروة بن أذينة ـ عندما يفخر بالرسول ـ يذكر كيف اهتدى الناس به ، بعد أن كانوا يتخبطون في ظلمات الجاهلية ، فوضّح لهم السبيل ، وخفقت قلوبهم بمشاعر الإيمان :

منا الرسول نخير الناسَ كلّهم ولا نحاشي من الأقوام إنسانا

١) شعر عروة ٢٧٢ . ٢) رياض الصالحين ٤٣٧ . ٣) شعر النعمان ١٠٠ و ١٠١ .

وذاك نورٌ هدى الله العبادَ به من بعد خبطهمُ صمّاً وعُمْيانا
فأبصروا فاستبان الرشدُ مشعرَةً بعد الضلال قلوبُ الناس إيمانا (١)

وممّن حظي بمديح الفقهاء طائفة من خلفاء المسلمين ، فابن المبارك يصرح بحبه لعلي وعثمان ، فقد كان للإمام قدمُ صدق منذ فجر الدعوة ، وكان هؤلاء تقياً ورعاً ، فيدعو الله أن يثيبه مغفرة من لدُنْه ورضواناً (٢) ، وكان أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة لعهد المعتصم ، وزاه يكنيه بابن عم النبي ، ويذكر أن كل بقعة من الأرض ـ سوى التي يحل فيها الخليفة ـ قفر موحشة ، فهو نور الربيع ، والخير الذي يعم الناس كافّة ، وإن له في قلوب الأعداء لرهبة وخشية ، وإنه لزينة الدنيا وبهجة الحياة :

يابن عم النبي لا أُنسَ إلاّ حيثُ خيّمْتَ من جميع البلادِ
أنت نور الربيع تفتقر الأر ض إليه لحاضرٍ ولبادِ
فإذا خيّمَتْ ركابك أرضاً أزعجَتْ خيفةً قلوبَ العبادِ
زدتَها فاستزدتَ بهجة دنيا ك فوافيْتَها على ميعادِ (٣)

وعلى هذا النحو مضوا يمدحون الفقهاء العلماء والأتقياء الورعين ، وممّن برز في هذا المجال ابن المبارك فمدح الإمام أبا حنيفة وأشاد بدقة قياسه ، وغزارة اطلاعه ، وتمكّنه أن يسدّ الفجوة المتّسعة التي تركها موت شيخه حماد بن أبي سليمان (٤) ، ونراه في موضع آخر يثني أيضاً بمواهب الإمام فيقول :

لقد زان المسلمين وما عليها إمام المسلمين أبو حنيفهْ
بآثار وفقه في حديث كآيات الزبور على الصحيفهْ
فما في المشرقين له نظير ولا بالمغربين ولا بكوفهْ

١) شعر عروة ١٣٤ . ٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (ممهد) جـ٦ (عبدالله بن المبارك)
٣) أخبار القضاة ٣/٢٩٩ . ٤) انظر الأبيات في تاريخ بغداد ٣/٣٥٠ .

رأيت المـابين له سفاهـاً خـلافَ الحق مع حجج ضعيفه[1]

وتؤيد هذه الأبيات ما تقدم من أن أبا حنيفة كان يتزوّد بعتاد جمٍّ كثير من السنة النبوية ، وأنه لم يكن يسلك الرأي ما وجد كفايته في الحديث المروي ، والآثار الباقية .

ومن الذين مدحهم ابن المبارك أيضاً مسعر بن كدام[2] ، وحماد بن زيد ، وكان حماد شيخه فمضى يقول فيه :

أيها الطالبُ علماً إيْتِ حمادَ بن زيد
فخذ العلم بحكم ثم قيّده بقَيْد[3]

ومن مدحهم ابن المبارك جماعة أتقياء ورعون كانوا يجبون لياليه في عبادة الله يَرْجون رحمته ويخافون عذابه :

إذا ما اللّيلُ أظلمَ كابَدُوه فيُسْفِرُ عنهم وهم ركوعُ
أطار الخوفُ نومَهم فقاموا وأهْلُ الأمن في الدنيا هجوع[4]

ومن قالوا إعجاب الشعراء الفقهاء فأثنوا مدحاً حسناً فريق من القادة والسادة ذوي الشرف والنبل ، فشريح بن الحارث يمدح حبيب بن مَسْلَمة الفهْري ، الذي كان « يلي الولايات زمن عثمان ومعاوية[5] ، وهو الذي بعثه معاوية لنصرة عثمان فلم يدركه حتى قتل[6] ، وعروة بن أذينة يمدح أبا شاكر مسلمة بن هشام بن عبد الملك[7] ، ولعل أبا الأسود الدؤلي أبرز الذين أسهموا في هذا المجال ، ومردّ ذلك - في أغلب الظن - إلى ما ابتُلي به يوم انتصر بنو أمية ، وانطوى عهد

١) الفهرست ٢٨٤ ، وعيون التواريخ حوادث سنة ١٥٠ .
٢) انظر تذكرة الحفاظ ١٨٩/١ ، وتهذيب التهذيب ١١٥/١٠ .
٣) تاريخ الموصل للأزدي ٢٨٣ ، ومختصر جامع العلم وفضله ٦٤ .
٤) إحياء علوم الدين ٣٦٩/١ . ٥) المعارف ٦١٥ .
٦) انظر كتاب نسب قريش للمصعب بن عبدالله ٤٤٧ ، وأخبار القضاة ٢٠٤/٢ .
٧) الاغاني (الهيئة المصرية) ٣٢٠/١٨ .

الإمام علي بن أبي طالب ، وكان من شيعته ، فأفلتت من يده ولاية البصرة ، وأفلت منه قضاؤها . ويلقانا في ديوانه عدة مقطوعات في مدح أصدقائه الذين لم يضنّوا أن يقدموا إليه - وهو في نكبته - أيدي السخاء والوفاء ، ومن هؤلاء أبو مامر[1] ، وكان عاملاً لعبيد الله بن زياد على جنديسابور ، فأبرّ به إذ قصده وأكرمه ، وعبيدالله ابن أبي بكرة ، وكان قد « رأى عليه جبّة رثّة كان يكثر لبسها ، فقال : يا أبا الأسود أما تمل هذه الجبة ؟ فقال : رب ممول لا يستطاع فراقه ، فلما خرج من عنده بعث إليه مائة ثوب ، فكان ينشد بعد ذلك - وقيل إن هذه القصة جرت له مع المنذر بن الجارود - :

كساني ولم استكسِه فحمدتُه أخٌ لك يعطيك الجزيلَ وناصر
وإن أحقّ الناس إن كنت شاكراً بشكرك مَنْ أعطاك والعرض وافر[2]

وعلى هذا النحو يثني على بحير بن ريسان الحِمْيَري[3] ، وعبدالله بن أبي بكرة[4] .

وأغلب الظن أنه اتضح ما ذكرناه عن المدح واعتداله ، فهو لم يكد يتجاوز - في جملته - الثناء على الرجل إلا بما هو فيه ، على حد قول عمر أمير المؤمنين ، وقد كان مدح الفقهاء - على قلته - يتجه إلى النبي ﷺ ، وفريق من خلفائه ، وأهل العلم والتقوى ، وبعض القادة الأفذاذ ، أو السادة الشرفاء .

١) انظر ديوانه ١٦٤ . ٢) وفيات الأعيان ٢٠٧/٢ ، ومرآة الجنان ٢٠٥/١
٣) انظر تاريخ مدينة دمشق (دار الكتب) ٥١٠/١٨ . ٤) الأغاني (الثقافة) ٣١٧/١٢

الباب الثاني

الشعر: دراسة فنية ونقدية

الفصل الأول

الإبداع الفني في شعر الفقهاء

من الأحكام الشائعة التي لا تنهض على قواعد سليمة ما يردّده بعض القوم من أن شعر الفقهاء نظم عقيم ، ليس ثمة فيه نبضات حية ، ولا تدفق شعوري ، وليس فيه انفعال ولا تجربة ، وليس فيه خيال تصويري ، ولا إيحاء مليح ، ولا إيقاع موسيقي . . . وهي أحكام لستُ أتردد أيّ تردد ـ بعد أن رجعت بصري في شعر الفقهاء طويلاً ـ أن أرمي بها عرْض الحائط ولا أقيم لها وزناً ، وأن أسلكها مع أمثالها من الأحكام التي ابتُليت بالتعميم ، ثم زاد عليها ـ من بعد ذلك ـ الإهمال الخامل وغفلة التمحيص .

وأغلب الظن أن الذي أوقعهم في تعميمهم هو ما رأوه للفقهاء من منظومات في أصول هذا العلم وبعض احكامه ، وهي منظومات لم أر واحدة منها في شعر الفقهاء حتى نهاية العصر العباسي الأول ، اللهم إلا أبياتاً ممدودة لا تكاد تبين ، وسوف أعرض لها في ظاهرة النظم .

وأول ما ينبغي التنبه إليه في شعر الفقهاء أن الذين قرضوه لم يكونوا على مستوى واحد في الفن والإبداع ، فقد كان فيهم الشعراء الأفذاذ ، وكان فيهم دون ذلك ، وكان الخطّ البياني لآماد فنّهم يرتفع حتى يبلغ القمة ، كما كان يهبط ـ أحياناً أخرى ـ إلى مستوى النَّظْم ، بحسب الشعراء ومواهبهم ، وإذا وقفنا عند أغزر الفقهاء شعراً ، ولحيظنا تفاوت إجادة كلٍ منهم في قصائده وحده ، ثم نظرنا إليهم ، نظرة شاملة ، رأينا النمر بن بشير والدؤلي بطرفان بقوة باب الشعر ، ويأتي بعدهما ضريح وابن عتبة فيرتفعان به إلى أبعد غاية ، ثم لا يلبث محارب بن دثار أن يعود به إلى مستواه الأول يوم بدأ ، بل إلى أقل منه ، ويخلفه عروة بن أذينة فيصعد به إلى الصف الأول من القريض ، ويليه سابق البربري ، وكأنه كان لا يزال يحتفظ بشيء من بريقه فلم يستطع أن يثبت به في ذلك المستوى ، واستخفّ به شطر الانحدار ، وقد تعاقب على هذا الاتجاه ابن

شبرمة وابن المبارك ، وإن استطاع الامام الأخير أن يرتفع به قليلاً ، ثم تلاه الشافعي فاستمر هو ثم أبو يحيى الزهري في الارتقاء به ، وختم الرحلة القاسم بن إبراهيم الرّسي وعلى الرغم من فقداننا نتاجه ، فإن ما بقي لنا منه يعدّ من أحسن الشعر .

ومن أراد أن يتمتع بما أبدعه الشعراء الفقهاء وأجادوا فيه يجد مجموعة غزيرة من المقطوعات والقصائد تموج موجاً بالعواطف القوية والانفعالات المضطرمة والأحاسيس الشاعرة والتجارب النفسية ، كما يتألق فيها صورٌ خيالية بديعة ، ومشاهد فنية رائقة ، ويتجاوب مع أصدائها إيقاع موسيقي يتناسب والعواطف المتأججة أو الصور المروضة .

ومن الحق أنّ الشعر لا يعلو له شأن ما لم يقم على دعائم قوية كلها ، فينبُل موضوعه وتسمو أفكاره ، وتتدفق عواطفه ، وتتألق صوره ، وتحسُن صياغته ، وتتناغم موسيقاه ، فإن قعدت به دعامة من تلك الدعائم هبط مستواه على قدْر حظه من ذلك القصور ، ولن يكون شعراً رائقاً - في رأينا - ذلك الشعر الذي تنحطّ به أفكاره وتُرْدِيه خطاياه وأوْزاره ، وإن بلغ قمة الانفعال والتصوير والموسيقا ، وكذلك لن تتمكّن قصيدة من قلوب قارئيها ، ولو ارتقت فِكَرُها ونُبل موضوعها ، ما لم يكن لها من الشروط الفنية السابقة نصيب محمود ، وإنّ كنا - لمنهاج النظرة الشاملة - نفضل النوع الأخير على شعر الخطايا ، مهما اعترّ بفنّه ، تفضيلاً كبيراً .

ومن هنا يتضح أني لم أقصد من وراء تقسيم الإبداع الفني في شعر الفقهاء إلى عواطف وصور وإيقاع سوى تيسير الدراسة ، وتبيان أبرز مقومات الجمال فيه ، فما أدرسه في « العواطف » ليس يعني أنه يخلو من الصور البديعة أو الموسيقا الموقّعة ، وإن كانت العاطفة أبرز فيه من ذلك المنصرين ، وقس إلى ذلك ما يُدرس في الصور والإيقاع ، وأيضاً حين أعرض للابداع الفني وأبين عناصره الأولى من عواطف وإيقاع موسيقي لا يعني أن هذا الشعر سقيمُ الفِكر منحدر الأغراض ، أو أنه ركيك العبارات ضعيف السبك ، بل سوف نرى في الالتزام سموّ المعاني التي طرقها الفقهاء ، وارتقاءها إلى مقاصد الدين الحنيف ومبادئه السامية ، وسوف نجد أيضاً في ظاهرة النظم كيف هبطت صياغة هذا الشعر به ، في بعض الأحيان ، وحالت دون

انطلاقه إلى الآفاق الرّحبة الفسيحة التي بلغها في إبداعه الفني .

١ - أحاسيس عاطفية :

ليس من ريب أن أقوى الشعر تأثيراً في النفوس ما صدر عن عاطفة قوية متدفقة سواء كانت مضطرمة صاخبة أم مترقرقة هادئة ، وسواء بدتْ ظاهرة أم اختفت وخطّتْ مجراها في الأعماق ، وعندما نطالع شعر الفقهاء ، ونَخْبُرُ أسرار جماله ، نلق مجموعة منه تأخذنا بما فيها من تجارب شعورية ، وأحاسيس رقيقة ، وانفعالات ملتهبة ، وإن كانت مواقفها مختلفة وعواطفها شتى ، من دعاء صادق فائر ، ونفحة إيمانية مشرقة ، وحب قوي متمكّن ، لزوجة وفيّة ، أو والد حبيب ، أو شيمة مفضّلة ، ومن فخر بالمواهب الذاتية أو إجابة الملهوف ، ومن رثاء لعزيز ، أو عتاب لصديق ، أو تجاوز عن هفواته .

فالنعمانُ بن بشير يتضرع إلى ربه أن يغفر له فنستشعر في تضرعه خشية مهيمنة وخوفاً من عذاب الله :

ربِّ إني ظلمتُ نفسي كثيراً ... فاعْفُ عني أنت الغفور الودودُ

وقِني شرَّ ما أخاف فإني ... مُشْفِقٌ خائفٌ لما تَسْتَبيد[1]

والدؤلي يؤكد أن الأمر كله بيد المولى سبحانه ، فنحس في أبياته ، مشاعر الثقة المطلقة بالله ، والاعتماد التام عليه :

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً ... فادعُ الإلهَ وأحْسِنِ الأعمالا

فليطمئنّك ما أراد بقُدْرة ... فهو اللطيف لما أراد فعالا

إن العباد وشأنهم وأمورهم ... بيد الإله يقلّب الأحوالا

فدع العبادَ ولا تكن بطلابهم ... لَهِجاً تَضَعْضَعُ للعباد سؤالا[2]

ومن العواطف القوية ما كان يكنّه الشعراء الفقهاء لأزواجهم من حب ووَجْد ، وكنت عرضت لذلك في الغزل ، ومن آثارهم في هذا الشأن أيضاً ما قاله

١) شعر النعمان ٩٢ . ٢) الأغاني (الثقافة) ١٢/٣٠٦ .

تُريح بن الحارث بكرم زوجه وأهلها بل يمان في صراحة أنه مسالم لمن سالمتْ، ومحاربٌ لمنْ حاربت :

إذا زينب زارها أهلها ... حشدتُ وأكرمت زوّارها
وإن هي زارتهم زرتُهمْ ... وإن لم أجد لي هوىً دارها
فسلمي لمن سالمت زينب ... وحربي لمنْ أشعلت نارها
وما زلتُ أرعى لها عهدَها ... ولم اتّبعْ ساعة عارها [1]

وعلى هذا النحو نجد ابن عتبة يبث زوجته « عتمة » هيامه وأشواقه، وكان طلقها ثم ندم، فجعل يبكيها بكاء مراً، ويعاني من ألم الفراق الذي كان يظنّه من قبلُ حكمة وسَداداً :

كتمتَ الهوى حتى أضرّ بك الكتْمُ ... ولامَك أقوامٌ ولومُهم ظُلْمُ
ألا مَنْ لنفسٍ لا تموت فينقضي ... عَناها ولا تحيا حياة لها طَعْمُ
أأتركُ إتيان الحبيب تأثّماً ... ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذُقْ هجرها قد كنت تزعم أنه ... رشادٌ ألا يا ربتا كذب الزعم [2]

وقد انطلق في انفعاله يرفض أقوال الوشاة الذين يلومونه في لقائها ويقول :

وأقبلُ أقوالَ الوُشاةِ تجرّماً ... ألا إن أقوال الوشاة هي الجُرْم
وأشتاقُ لي إلْفاً على قرب داره ... لأن ملاقاة الحبيب هي النُعْم [3]

ولا يقلّ عن هذا التوقّد الشعوري ما عاناه عروة بن أذينة في حبّه سعدى، واستمعْ إليه يصور كيف أضرمت بين جوانحه ناراً لا يذلّ لها قياد :

١) الأغاني (الهيئة المصرية) ٢١٤/١٧ .
٢) الاغاني (الثقافة) ٩/ ١٤، وانظر الزهرة ١٨٤ .
٣) الاغاني (الثقافة) ١٤٦/٩، ومجالس ثعلب ٢٣٧/١ .

إذا وَجَدْتُ أوار الحب في كبدي ... عمدتُ نحو سقاء القوم أبتردُ
هذا بَرَدْتُ ببَرْد الماء ظاهرَه ... فمن لنارٍ على الأحشاء تتقد ؟ [1]

وفي موضع آخر نراه يعاني من تمزق نفسي ثقيل، فهو يتذكّر سعداء فيتوق إلى لقائها، ولكنه يصارع نفسه لملها تناساها، فلا يزيدها الصراع إلا شوقاً وصَبابة، وسعدى تدفو منه في بعض الأحيان غير أنه - لأسباب ما - يهجرها، حتى إذا نأتْ عنه أخذه من نأيها هول شديد، فهو تَعيبٌ على كل حال، في دنوها وفي ابتعادها :

فكِدْتُ لذِكْراها أطير صبابةً ... وغالَبْتُ نفساً زاد شوقاً غلابُها
إذا اقتربتْ سعدى لجَجْتَ بهَجرها ... وإن تغترب يوماً يَرُعْك اغترابها
ففي أيّ هذا راحة لك عندها ... سواء لعمري نأيُها واقترابُها ! [2]

وممن خفقت بحبّهم قلوب الفقهاء خفقاناً قوياً فلذات أكبادهم، وقرّة أعينهم، فقد كان الحسين بن علي يحب ابنته سُكَيْنَة حباً جماً، ويحب معها أمّها الرباب، ويهوى من أجل ابنته وزوجه الدار التي يحلاّن بها، ويبذل لها كلّ ما تثمر من مال وعتاد :

لعمرك إنني لأحبّ داراً ... تكون بها سكينة والرّباب
أحبهما وأبذل جلّ مالي ... وليس لعاتب عندي عتاب [3]

والشريح بن الحارث مقطوعة طريفة كتبها إلى شيخ ولده، يشكو فيها ابنه

١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٧٩/٢ .
٢) شعر عروة ٢٦٥ .
٣) الاغاني (الثقافة) ٨٩/١٦، ونسب قريش للمصعب بن عبدالله ٥٩ .

أنه انشغل بمهارشة الكلاب حتى فاتته الصلاة، يقول فيها:

تركَ الصلاةَ لأكلبٍ يلهو بها ... طلَبَ الهراشِ مع الغواة الرُّجَّس

فإذا أتاك فعضّه بملامة ... وعظنْهُ موعظة الأديب الكيِّس

وإذا هممت بضربه فبدرة ... وإذا ضربت به ثلاثاً فاحبس

واعلم بأنّك ما أتيت فنفسُه ... مهما يجرّعنا أعزّ الأنفس [1]

فهو حريص ألا يتهاون ابنه - وإن كان صغيراً - في صلاته، ولا يتردّد لشدة حرصه أن يوصي شيخه ليعظه وينصحه، بل بضربه وحبسه إن لزم الأمر، ولكنّ شعوراً - وهو في زحمة اهتمامه بولده، وغضبه لما رآه من تقصيره، يَشْعُر في قلبه حنانَ الأبوة فيذكّر الشيخ بما يحيط القضية من كل أطرافها، فولده ولده! ومهما أذاقه من عَنَتٍ فهو أهون الناس طُرّاً عليه.

ومن ألوان هذه المشاعر النافذة ما نلقاه عند أبي الأسود من حبّ شديد للنبي ﷺ وآلِ البيت، وهو حب يبلغ فيه - إذ يصوّره - أعلى مستوىً رقت إليه أشعاره، يقول في إحدى قصائده:

يقول الأرذلون بنو قشير ... طوال الدهر لا تنسى عليّا!

فقلتُ لهمْ وكيف يكون تركي ... من الأعمال مفروضاً عليّا

أحبّ محمداً حبّاً شديداً ... وعبّاساً وحمزة والوصيّا

بني عم النبيّ وأقربيه ... أحبّ الناس كلهم إليّا

فإن يك حبُّهم رشداً أُصِبْهُ ... ولستُ بمخطىء إن كان غيا

هم أهل النصيحة غير شك ... وأهل مودتي ما دمت حيا

١) صفة الصفوة ٣/٢٠، والمحاسن والمساوىء ٢/٢١٦، والعقد الفريد ٢/٤٣٠، وحلية الأولياء ٤/١٣٧، والعمدة ١/١٧، وثمار القلوب ١٧٣، وعيون الاخبار ٢/١٦٧.

هوىً أعطيته لما استدارتْ ... رحى الإسلام لم يُعدَل سويّا

أحبهم لحبّ الله حتى ... أجيء إذا بُعثتُ على هويّا

رأيت الله خالق كل شيء ... هداهم واجتبى منهم نبيا

ولم يخصص بها أحداً سواهم ... هنيئاً ما اصطفاه لهم مريّا [1]

وإلى جانب هذه المشاعر العاطفية المتمكنة نرى في شعر الفقهاء أحاسيس أخرى تعبق فيها نشوة الفخر والاعتزاز، ومن أطرف ما لهم في هذا الشأن أبيات للإمام الشافعي، وهي أبيات تمضي في الزهو إلى أبعد غاية، وكان الشافعي قد قصد في بعض أسفاره بلدة «سر من رأى» فقطع الفيافي الموحشة والقفار المهلكة، واقتات الحر والقرّ، فلما بلغ تلك المدينة بأطمار رثة وشعر أشعث أغبر، تقدّم إلى مُزَيِّن ليحلق شعره، فأبى أن يصلحه له لما رأى من شظفه وفقره، فغضب هنالك الإمام الحليم، والتفت إلى غلام كان معه وسأله كم لديه؟ فأجابه: عشرة دنانير فأمره أن يدفعها إلى المزيّن، ففعل، وقال الشافعي وهو منيطٌ مُحْنِق:

عليّ ثيابٌ لو تُباع جميعها ... بفَلس لكان الفَلْس منهن أكثرا

وفيهن نفسٌ لو تقاس ببَعْضها ... نفوسُ الورى كانت أجلّ وأكبرا

وما ضرّ نصلَ السيف إخلاقُ غمده

إذا كان عضباً حيث وجّهته برى [2]

وتتبدّى أريحية الكرم ونشوة العطاء في قول عروة وهو يحكي قصة ضيف قصد الحيّ في هدأة من الليل، وأراد أن يُشعر القوم بأمره فأرْعَى بعيره، فما كان منهم إلا أن أسرعوا يستضيفونه ويقدّمون إليه حقّه الذي ادّخروه لقرى

١) الاغاني (الثقافة) ١٢/٣٢٦، والوصي: علي بن أبي طالب، والطريق السوي: المستقيم، وهويا: هواي.

٢) طبقات الشافعية للسبكي ١/١٦٠، وشذرات الذهب ٢/١١، ونور الابصار ٢١٤، وحلية الاولياء ٩/١٣١، وبهجة المجالس ٢/٦٣، والمحدون من الشعراء ١٣٩، ومعجم الادباء ١٧/٣٢٠.

الأشراف ، ويصور عروة أيضاً أريحيته إذ أغاث بوجه بشرٍ بائساً محتاجاً استغاث به فأفاض عليه من ماله عطاءً يقيل عثرته ويصون كرامته :

وضيفٍ سرى أرْعى هُدُوّاً بعيره ... ليُقرى فعجّلنا القِرى غير عاتم
وكانت لنا دون العيال ذخيرةً ... نُخَصُّ بها حتى غدا غيرَ لائم
وداعٍ لمعروف فزعْنا لصوته ... بلبّيْكَ في وجه له غير واجم
فخيّرته مالاً طريفاً وتالداً ... يصون به عرضاً له غير نادم [1]

وواضح فرح عروة باستضافة الساري وتعجيل قراه ، وانتشاؤه بما قدّم للمحتاج المستغيث .

ومن المواقف الانفعالية التي زاها في شعر الفقهاء نكبتُهم بأعزّتهم ، وقد استعرضنا طائفة من ذلك في الرثاء ، ومن يقرأ الشواهد المتقدّمة يلمس الحزن العميق ، والأسى الكَمِيدَ المُلتاع .

ويشبه ذلك الأسى ما يكون من بعض الخُلطاء مِنْ تنكّر للصحبة وتناسٍ لأسباب المودة مما يجعل ذويهم يأسفون أسفاً شديداً على أهراسهم التي لم تؤتِ أُكُلَها إلا حطاماً هشيماً ، فيماتونهم ويلومونهم .

ولأبي الأسود الدؤلي أبيات يعاتب فيها زوجه فاطمة بنت دعمي ، وكانت أشبّ امرأتيه وأجلبها ، فالتوت عليه لمّا أسنّ وتنكرت له وساءت عشرتها ، فجعل يذكرها بسالف حياتهما الطويلة ، فهي حياة لو كان قضاها مع « أُرْوية » لاطمأنت إليه وحفظتْها .

وصاحبتُها ما لو صَحِبْتُ بمثله ... على ذُعْرها أُرويّةً لاطمأنّتِ
وقد غرّها مني على الشيب والبِلى ... جنوني بها ، جُنّتْ حيالي وجُنّتِ [2]

١) شعر عروة ١٥٣ ، وسرى : سار ليلاً ، والقِرى : طعام الضيف ، وعاتم : متبطىء ، وواجم : عابس ، والقزع : الاغاثة ، والطريف : الحديث من المال ، والتالد : ما ولد من المال عند صاحبه .
٢) ديوان أبي الاسود ١٦١ ، والاروية : انثى الوعول ، وجنت إتباع لجنت .

وقريب من هذه التجربة ما عاناه ابن عتبة من بعض أصدقائه من تنكّر وعقوق ، فقد كان يتجالس مع أبي بكر بن حزم وعراك بن مالك في المدينة زماناً ، ثم إنّ ابن حزم ولي إمْرَتَها وولي عراك القضاء فيها ، وكانا يمرّان بعبيد الله فلا يسلّمان عليه ولا يقفان ، وكان ضريراً ، فأخبر بذلك فأنشأ يقول :

ألا أبلغا عني عراك بن مالك ... ولا تَدَعا أن تَثنيا بأبي بكرِ
فقد جعلتْ تبدو شواكل منكما ... كأنكما بي مُوقَران من الصخر
وطاوعتما بي داهكاً ذا مَعاكةٍ ... لعمري لقد أزرى وما مثلُه يُزري
ولولا اتقائي ثم بُقيايَ فيكما ... لَلُتمُكما لوماً أمرّ من الجَمْرِ [1]

فقد أمضّته قساوة تنكرهما ، فعزم أن يلومهما « لوماً أمرّ من الجمر » ، فعصمته تقوى الله ، وإبقاؤه للمودة القديمة سبباً لعلها يثوبان إليه ، وكل ذلك انفعالات تضطرم في صدره ، وهي من أسرار الجمال الذي يتألق في الأبيات .

ولا يقلّ عن جمال هذا التباب جمال العفو ومشاعر الصفح النبيل ، ومن خير ما يمثل ذلك قول الشافعي :

لستُ ممن إذا جفاه أخوه ... أظهرَ الذمّ أو تناول عِرضا
بل إذا صاحبي بدا لي جفاهُ ... عُدْتُ بالوُدّ والوصال ليرضى
كنْ كما شئتَ لي فإني حَمولٌ ... أنا أولى مَنْ عَنْ مساويكَ أغضى [2]

فهو يكظم في صدره أذى صاحبه ، ولا ينفثه ذماً ولا شتماً بل يغالب نفسه ويصلُه ، وكأنّ شيئاً من جفائه لم يقع ، ذلك أن الصديق أولى الناس أن يتجاوز

١) الأغاني (الثقافة) ٩/ ١٤ ومجالس ثعلب ١/ ١١٤ ، وأمالي المرتضى ١/ ٣٤٠ ، والشواكل النواحي ، والداهك : الأحمق الأرعن ، والمعاكة : الحماقة .
٢) المناقب للرازي ٢٠٠ ، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٠ .

عما قد يبدر من صاحبه من هفوات .

٢ ـ صور شعرية :

سوف يتبدى خطأ الذين اتهموا شعر الفقهاء بالنظم أيضاً عنـــد ما نتأمل الصور الشعرية التي رسموها لا بالريشة والألوان وإنما بالكلمة المعبّرة ، وهي صورٌ تُسْهِمُ إسهاماً عريضاً في إيضاح التميم الذي سقط فيه عائبو هذا الشعر ، وتكشف مدى غفلتهم عنه .

والناظر في نتاج القوم يرى « لوحات فنية » كثيرة تتناثر خلاله ، فأبو الأسود يصور الحشرجة والنزع فيقول :

أفاطمُ ما تُغْنِينَ فيما ينوبني إذا صعدتْ حتى تمسَّ التراقيا
وقد أرسلوا فُرّاطهمْ فتأثلوا قليباً نزوعاً لا تَبِلُّ العراقيا (١)

فيُلقِي في الأخيلة مشهد الروح وهي تفارق الجسد ، وأوليـــاء الميت وهم يبادرون به إلى مثواه الأخير .

ولسابق البربري لوحة ترسم اقارثها أربعة مشاهد متساوقة عن الموت ، فتلك البيوت تمر إلى حين بنضارة الحياة ... ثم تتهدم ، وهؤلاء الأحياء ينعمون بريعان الشباب ورونقه .. ثم لا يلبثون أن يَحولوا ويَغيضوا ، وهذا الموت جسر منصوب ينتهي إلى دار الحساب ، ومن فوق ذلك الجسر تعبر الأجيال لتتلاقى على ارض المَحْشر :

وكلُّ بيتٍ خَرابٌ بعد جِدَّتِه ومنْ وراء الشباب الموتُ والكِبَرُ
والموت جِسْرٌ لمنْ يمشي على قَدَمٍ إلى الأمور التي تُخشى وتُنْتَظر
كلٌّ يمرّ عليـه ثم تجمعهم
دارٌ إليها يَصير البَدْوُ والحَضَرُ (٢)

١) ديوانه ص ١٦٠ ، والترقوة : العظم الذي بين نغرة النحر والعاتق ، والقارط : الرائد ، وتأثلوا : عمروا ، ورواية الديوان تأثلوا وهو ـ هو ، ونزوع : قريبة القعر . والعراق : ما ثني من المزادة ثم خرز . ٢) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤١ .

وهذه لوحة أخرى بارعة لابن عتبة ، هي ـ كما يقول أبو هلال العسكري ـ « أجود ما قيل في صفة السكران »(١) ، إذ يصوره وهو يشرب من خمر يشبه لونها الحِنّـاء ، ثم يعرض صورته وقد صُرع وتمدّد بين نداماه ، وجعل يسيل من فمه القيء والشـراب :

وشربُكَ من ماء الكروم كأنه إذا مُجَّ صِرْفاً في الإناء خِضابُ
صريعُ مُـدامٍ والندامى يلونه وفي الشِدْق في فيء سائل ولعاب (٢)

وهذه صورة لصحراء عجراء يضلّ فيها ـ لبُعْد امتدادها ـ القطا فلا يدري من أين الطريق ؟ ويُقلّب المرء فيها بصره فيرتدّ إليه دون أن يقف منها على نهاية ، ويلمع في المنظر سراب كثيف اتخذ هيئة سحاب متراكم على قواعـــده ، يقول أبو الأسود الدؤلي :

وصحراءَ سَخْتِيتٍ يَحارُ بها القطا ويرتدّ فيها الطَّرْفُ أو يتقصَّبُ
قطعتُ إذا كان السَّرابُ كأنه سحاب على أعجازه متنصِّبُ (٣)

وهذه لوحة طريفة لعروة بن أذينة يرسم فيها صورة ظباء مُطْفلات تسوق غِيْلَتها ، وتبدو الظباء ـ في صورته ـ بيض الظهور بارعات الجمال ، ترعى روضة نَضيرة ، وتنعم بظلالها الوارفة :

وعواطفَ الأرآم تَزْجي خُذُلاً فيه سواكن بالرُّبا أطفالها
من كل واضحة السَّراة فريدةٍ في روضةٍ أُنُفٍ تَمُجُّ ظِلالَها (٤)

وإذا دقّقنا النظر في هذه اللوحات الفنية في شعر الفقهاء وجدنا منها « لقطات »

١) ديوان المعاني ١/٣١٤ . ٢) ديوان المعاني ١/٣١٤ ، ومج الشراب من فيه : رمى به ، وبلونه : يقاربونه أي على مقربة منه ودنو . ٣) ديوانه ١١٥ ، والسخت : الشديد ، والسختيت : الغبار ، والقصب : القطع ، ومتنصب : قائم .

٤) شعر عروة ص ١٥٥ ، والارآم : الظباء البيض ، وتزجي : تسوق ، وخذلاً متخلفين ، وسراة كل شيء : أعلاه ، وأنف : لم يرعها أحد .

خاطفة في بعض الاحيان، و « صوراً متكاملة » أحياناً أخرى. وأريد بالقطات ما يعرضونه في أشعارهم من صور جزئية أو اوضـــاع عابرة، فأبو الأسود الدؤلي يعرض خطفة بارعـة لأبي عمير وهو يتعـالم « ويخلج حاجبيه » ليتظاهر بأنه ذو معـارف قيّمة :

لعمرك ما وجدتُ أبا عمير صَدوقاً في الحديث ولا عليما
يطلّعني ويَخلجُ حاجبَيْه لأحسَبَ عندَه علماً قديما[1]

ويرسم صورة أخرى لسيرٍ كان أودعه صدرَ صفيٍّ له، فادا به يشيعه بين الناس، ويبدو السرّ كنارٍ تتلهّب في قمة عالية فليست بخافية على أحد :

أمِنْتُ أمراً في السرّ لم يك حازماً ولكنه في النصح غير مُريبِ
أذاعَ به في الناس حتى كأنه بعلياء نارٌ أُوقدَتْ بثقوب[2]

وممن افتنّ في إخراج المواقف الخاطفة عروة بن أذينة، ومن مشاهده اللاقطة لوحة حيّة لطريدة قد سقطت فأخذها من الصياد هول شديد :

وغبرتُ بعدهمُ ـ ولستُ بخالدٍ ـ مثلَ الوقيعة تحذر النجّاشا[3]

فقاله بعد فناء عشيرته[4] مثل حال هذه الطريدة المصابة.

ويقدّم عروة لوحةً أخرى تصوّره وهو ينحني للخطب الذي نزل به ويخضع له :

ولقد عرفت، وإن حزنتُ عليهمُ
أنْ سوفَ أخفِض للحوادث جاشا[5]

ومن اقطات عروة البـارعة أيضاً منظر إبل قوية شتتها البعاد فجعلت تحنّ بعضها إلى بعض :

١) ديوانه ١٣٢. ٢) تهذيب ابن عساكر ٧/١١٥.
٣) شعر عروة ١٨٠، والوقيعة: الطريدة الواقعة، والنجاش: الصائد.
٤) انظر شعر عروة ١٧٩. ٥) شعر عروة ١٨١، والجأش: نفس الانسان.

وتفرّقوا بعد الجميع لنيّةٍ لا بدّ أن تتفرّق الجيرانُ
لا تصبرُ الإبلُ الجلادُ تفرّقتْ حتى تحنّ، ويصبر الإنسان[1]

وإلى جانب القطات الخاطفة نجد لوحات متكاملة من عدة صور تدور حول محور واحد، أو تتآزر معاً وتتواكب لتُخرج « صورة مركبة »، أو تنساب في حكاية شعرية تتوارد فيها المناظر تترى إلى أن تتم الحكاية.

ومن الصور الدائرة حول محور واحد لوحة للنعمان بن بشير يستعرض فيها فتور الودّ بينه وبين أم عبدالله، فإذا الود يبكي ويهتزء، والمُبْغض الماكر يحيك خطط انفصالها حياكة، فيُسْدي فيه ثم يُلحم، ورسم صورة قوم يبنون بيوتهم على آساس مهزوزة من القِلّة والهوان، ولا يبالون، فيأنف أن يصنع صنيعهم :

أرى أم عبدالله أخلَقَ ودّها فما ترعوي للوصل إلا توهّما
فلا تجعلي وصلي إلى قَوْل كاشحٍ إذا هو أسدى نيرةَ الشرّ ألحما
فلستُ كمن يبني على الهُوْن بيته إذا سيمَ يوماً خطّة الضيم خيّما[2]

ولعل من الواضح أن كل صور النعمان هذه تدور حول فتور المودّة بينه وبين أم عبدالله، فقد ابتدأتْ هي بالفتور المذكور، فأوصاها ألا تركن إلى أقوال الكاشحين، وألا تنسى ما فُطِر عليه من خُلُق يأبى المذلّة، وكل ذلك معالجة للموقف خشية أن ينهار.

ولعُرْوة بن أذينة مشهد مُتآلف أيضاً يعرض فيه عدّة صور من مفاخر قومه فها هم أولاء في الحرب جمرةٌ متقدة، وفي غير الحرب أسوةٌ متّبعون اتباع المِرْزَم نَظْمَ الجوزاء و « عرانين »، مضر وطليعتها المقدّمون :

وإنا في الوَغى ذوو نِقَمٍ وجَمْرةُ يُتّقى تَضَرُّمُها

١) شعر عروة ٤٠٣. ٢) شعر النعمان ص ١٢١ ـ ١٢٢، وأخلق: بلي وفتر، وترعوي: تكف، والكاشح: من يضمر العداوة.

يتبعُنا الناس في الأمور كما يتبع نظمَ الجوزاءِ مِرْزَمُها
نحن المَرانينُ من ذُرى مُضَرٍ أغزَرُها نائلاً وأحْلَمُها (١)

ومن الصور المركبة التي يتآزر لإخراجها عدة مشاهد منظر شاعر يخاط في كلامه أشتاتاً مثلما يجمع الأعشى - وهو يخطب ليلاً - الطيّب والخبيث معاً ، ولكن أبا الأسود يرميه بقصيدة بالغة لا يحول دون غايتها أيّ بحن واق ، فتمزّق كلّ ما كان قاله خصمه ، فيتبدد مثلما تتبدّد الكواكب وتغيب إذا تألّقت الشمس :

وشاعرٍ سُوءٍ يَهْضِبُ القولَ ظالمٍ كما اقتمّ أعشى مظلمِ الليل حاطبُ
عرضتُ له بعد الأناة فرعته بجَدْباء قد تَرْفَضّ عنها المجاوبُ
فضضْتُ بها ما كان جمّع قبلَها
كما انفضّ عن شمس النهار الكواكبُ (٢)

وهذه لوحة يبدو فيها مالكٌ ذو الدَّوْلِيّ وقد فترت سُخْنَتُه ، فكلما رآه امتقع لونُه ، وحوّل عنه بصره متظاهراً أنه يغضي إغضاء عادة ، إلا أن أبا الأسود يدرك أن ما يدفعه إلى إغضائه إنّ هو إلا اعتراء الودّ بينهما ، فيتشبّثُ من جانبه بالشحنة القديمة لعله يُحْييها ، ويُميرُ حبال الأخوّة من جديد كي تشتدّ وتقوى ، غير أنه كلما أحكم شيئاً وجد صديقه ينقضه أنكاثاً ، وعندئذ يذكّره ابو الاسود أنه لا يستطيع أن يتقلّب تقلّب غول الليل ، فنهجه واضح ، وسياسته بيّنة :

مَنْ مُبْلِغٌ عني خليلي مالكاً رسولاً إليه حيث كانَ من الأرضِ
فإنك مَسْؤومٌ إذا ما لقيتني
تُقَطِّعُ عني طرف عينيك كالمغضي

وما لي إذا ما أخلق الودّ بيننا
أمِرُّ القُوى منه وتَمْثَلُ في النقض
ألم تر أني لا ألوّن سيمتي تَلَوُّنَ غول الليل بالبلد المُغْضي (١)

ولابن أذينة لوحة تموج بالأعمال الحربية الفذّة ، فها هم أولاء يقدّمون لأعدائهم طعام الحرب : أسنّةً نافذة وسيوفاً ينقطع لهَوْلها نَسْلُ الخصوم ... ثم ينفكّ الاشتباك ويعود فرسانُ القوم وقد تكسّرت رماحهم ، بعدما أطعموا أسنتها الأعداء ، وانثلمت سيوفهم ، من شدة ما أبلوه ، أما أرض المعركة فقد بقيت تتوافد إليها الجوارح وتُتْخَمُ منها الضِّباع :

وقَرَنَاهم أسنتنا وسيوفاً تقتل الحَرِمَةْ
فرجعنا بالقنا قِصَداً وسيوف الهند مُنْثَلِمَةْ
وعتاق الطير عاكفةٌ وضباعُ الجِزْعِ مُتْخَمَةْ (٢)

ولعل من الملاحظ في هذه الأبيات توالي مشاهدها وتلاحق أخبارها ، وبذلك تشبه الصور المركبة الكثيرة التي تنساب في هيئة حكاية متتابعة ، ومن هذه الصور الأخيرة لوحة أو فلّ « مسرحية » تعرض شخص رجل احتلك عليه ظلام الليل ، ثم رأى نار عروة التي أوقدها كي يهتدي بها الضيفان ، فقصد إليها ، لقد كان يعاني من عثرات الطريق ووعورته ، وبَرْد الليل وقسوته حتى قبيل السَّحَر عند ما لمح النار ، ولما بلغ منزل عروة استبسح كلبه ، وقبل انْ يسمع نباحه بشّره الشاعر أنما قصد كراماً لا نهرّ كلابهم لما اعتادت عليه من كثرة الضيفان ، ثم احسن استقباله ، وقدّم له قراه :

هذا وطارق ليلٍ جاء مُعْتَسِفاً يعشو إلى منزلي لما رأى ناري

١) شعر عروة ٨٧ ـ ٨٨ ، ونظم الجوزاء : كواكبها ، والجوزاء من بروج السماء ، والمرزم : نجم ، والمرانين : السادة ، وعرنين كل شيء أوله .
٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي ١٨١ ، ويهضب : يخلط ، واقتم : كنس ، والأعشى : الذي يبصر بالنهار دون الليل ، وخدب : ضرب أو قطع اللحم دون العظم ، والمجوب : الفرس .

١) المصدر السابق ٢٤٥ ، واللهوم : التغير اللون ، وأمر : أفتل وأحكم .
٢) شعر عروة ٩٠٠ وما بعدها . والقرى : طعام الأضياف ، والحرمة : شهوة الضراب ، والقنا : الرماح ، وقصداً : متكسرة ، والجزع : منعطف الوادي .

يَسْري وتخفضه أرض وترفعُه في قارس من شَفيفِ البرد مِرّار
حتى أتى حين ضمّ الليلُ جَوْشَنَهُ
وقلتُ هل هو مُنْجابٌ بإسحار
فاستتبع الكلبَ منحازاً فقلتُ له حَيٌّ كرامٌ وكلب غيرُ هَرّار
أهلاً بمَسْراكَ أقبلْ غير مُحْتَشِمٍ
لا يُذهبُ النومُ حق الطارق السّاري (١)

ومن أبدع الحكايات المصوّرة مشهد للقاسم بن إبراهيم الرسّي تبدو فيه عادلة تلومه بينما الليل يغشى الكون ويبسط هيمنته، فيستهلها القاسم ويملؤها بالفرج القريب، ثم يعاتبها هو كيف ترضى له أن يرتع في المعاصي ويبقى في أرض الآثام؟ ويخبرها أنه إذا ضاقت عليه أرض كان له في غيرها فُسْحة وكِفاية، وهو لا يبالي إذا قصدها بالأخطار التي اعتادت أن تحيق به ثم تنفرج:

وعاذلةٍ تعاتبني وجنح الليل يَعْتَلِجُ
فقلت رُوَيْدَ معتبة لكل مُهِمّةٍ فَرَجُ
أَسَرَّكِ أن أكون رَبَعْتُ حيث الإثم والحَرَجُ
ذريني خلْفَ قاضية تضايَق بي وتنفرج
إذا أكدى جنى وطنٍ فلي في الأرض مُنْعَرَجُ (٢)

وإذا عدنا ننعم النظر في الصور الشعرية السابقة وجدنا منها ما يعتمد التجسيم، ومنها ما يؤثر التشخيص، ومنها ما يقوم على الإيحاء المصوّر.

١) المصدر السابق ٢٠٢. ويعشو: يستدل ببصر ضعيف، والشفيف: لذع البرد، والجوشن: الصدر، ومنجاب: ماض ومنقطع، ومحتشم: خجل.
٢) معجم الشعراء ٢١٧، وأكدى جنى وطن: قل خيره، ومنعرج: منعطف.

فمن التجسيم صور تعرض المعاني عرضاً حسياً، فيتملاّها القارىء بعد أن كان يتخيّلها تخيّلاً، فإصلاح ذات البين هو شَعْبٌ للصدْع، والفُرْقة انفتاق للوئام والوفاق، يقول النعمان:

فتطلبَ شَعْبَ الصَّدْع بعد انفتاقه
فتمّا به فالآن والأمر سالم (١)

واللؤم يحمل في بطن الأنثى، ثم يوضع كالقلادة في عنق حملها عندما يندو في المهد، يقول عروة بن أذينة:

لئيمٌ ربا واللؤمُ في بطن أمّه وقُلِّدَه في المهد قَبْلَ التمائمِ (٢)

وكأنما اللؤم توأمٌ للحمل يصحبه منذ نشأته الأولى، ثم يُشَدُّ إلى عنقه في المهد ليسبق المودّ والرفْق في اقتناصه!

والتماطف مع الأعداء هو «مَيْل» إليهم، كمَيْل العود المُنْتَصب، وصدود عروة عمّن مالت إلى خصومه يشبه ثواء القتيل الميّت، والأيام اتي تأتي على ذلك القتيل «تطاول» تطاولاً:

ولما بدا لي منكِ مَيْلٌ مع المدى
سِوايَ ولم يَحْدُثْ سواكِ بَديلُ
صددتُ كما صدّ الرميُّ تطاولتْ
به مُدّةُ الأيام وهو قتيل (٣)

ومن التجسيم أن يُعَبِّر عن الحالات النفسية بصور حسيّة تزيدها جلاء واتّضاحاً، فحالة الغفلة عند ابن المبارك كركوب الأهواء، وكأن الأهواء مطايا تحمل الأثقال، وهي ضحك ما إن ينقلب فيه على ظهره حتى ينطوي على بطنه:

١) شعر النعمان ١٥٣، والصدع: الشق، وشعبه: جمعه. ٢) شعر عروة ٢٥٦، وربا: نشأ.
٣) شعر عروة ٣٤٦، والرمي: العبد الذي رمي.

وكيف تحبُّ أن تُدعى حكيماً وأنت لكل ما تهوى رَكوبُ
وتضحك دائباً ظهراً لبطن وتذكر ما عَمِلْتَ ولا تتوب ؟[1]

ولذكر الله في الأجسام آثار ظاهرة وأمائر لا تخفى ، وليس في هـذا أي غرابة ، فالحبل في الحجر القاسي له « أثر » ، وسابق يلوم نفسه ألا يرى في جسده تلك الآثار والأمائر لذكر الله :

حتى متى أنا في الدنيا أخو كلف
في الخدّ مني إلى لذاتها سَمَرُ ؟
ولا أرى أثراً للذكر في جَسَدي
والحَبْلُ في الحجر القاسي له أثرُ [2]

ويصور ابن أذينة نجدة قبيلته فيذكر كيف يكشفون الغُمّة ، وكأنما هي غطاء ، ويشبههم في ذلك بالبدر المنير يكشف حُلكة الليل الدامس ، وكأنّ ظُلْمته حجاب :

نكشف الغُمّا إذا نزلتْ كشفَ بدرٍ ليلةَ الظُّلَمَهْ [3]

ويصور فساد أعدائه فإذا هم يهجرون التقى ، ويبحثون عن النواقص بحثاً حتى ينتهوا إليها :

لهم مجلس يهجرون التقى وينتجنون القبيح انتجاثا [4]

فالقبيح مجثم مدفون ، وهم ينقبون عنه تنقيباً حتى يبلغوه .

ومن الحالات التي جسّمها شعر الفقهاء أن يتيح المُناظر دون أن يستجيب للحق ، فالمجوج يريد أن يقود الحق قيادة ، فيجعل زمامه الباطل ، فيأبى أن يذعن

١) تاريخ ابن عساكر (معهد) ج ٦ ، عبدالله بن المبارك .
٢) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٤ ، وصعر : ميل .
٣) شعر عروة ١٠٧ . ٤) شعر عروة ٢٩٨ ، وينتجنون : يحفرون .

له ولو انقلب الشأن فجعل الحق هو الزمام لانقادت به الجبال ، ولكل أمر باب من قصده اهتدى إليه ، ومن ابتغاه من سبيل اخرى ضل من دونه ، يقول الإمام الشافعي :

متى ما تَقُدْ بالباطل الحقّ يأْبَهُ وإن قُدْتَ بالحق الرواسي تَنْقَدِ
إذا ما أتيتَ الأمرَ من غير بابه ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتد [1]

وإضافة إلى تجسيم المعاني والحالات نرى في شعر الفقهاء وصفاً حسياً مجسّماً لأشياء غير حسية ، فلؤم تغلب « بيّن » واضح ، قال النعمان :

أبلغ قبائلَ تغلبَ ابنةِ وائلٍ مَنّ بالفراتِ وجانب الترثار
فاللؤم بين أنوفِ تغلبَ بيّنٌ كالرّقم فوق ذراع كل حمار [2]

والودّ نازح بعيد ، يقول ابن عتبة :

إذا هي حلّتْ وسط عُودِ ابنِ غالبٍ
فذلك وُدٌّ نازحٌ لا أطالُهُ [3]

وإلى جانب التجسيم في الصور الشعرية نجد التشخيص أي بث خصائص الأحياء في غير الاحياء كالمعاني المجردة والحالات المختلفة والجمادات الساكنة .

ومن المعاني التي استعرضها ابن أذينة على هذه الشاكلة المودّة ، فهي كأيّ حيّ تقتال وتُصْرَم ، ورضى الأعداء يستقبل القادمين إليه ، فهو يؤتي إليه :

أنّى وكيف لها بذلك بعدما غالَ المودّةَ عندها ما غالها
وأتتْ رضى أعدائها بصديقها عمداً لتقطع ودّها ودلالها [4]

ويريد عروة أن ينفي عن نفسه الضعف ، فيعلن إباءه أن يخضع خضوع الناقة

١) تاريخ ابن عساكر (معهد) ٢/١٠ .
٢) شعر النعمان ١٤٩ ، والترثار : نهر بالعراق ، والرقم : الختم .
٣) الأغاني (الثقافة) ١٤٣/٩ ، ونزح : بعد . ٤) شعر عروة ١٤٩ .

الظؤور التي عصبوا عينها ، وجعلوا يمرونها فتدر :

لَسْتُ الظؤور التي تعطي إذا عُصِبتْ
بعد الإباء على مَسْح وإنساسِ
إني كذلك آباء لما كَرِهَتْ
نفسُ المُشاحِنِ شَكْسٌ عند إشكاسِ (١)

وإذا انتقلنا إلى الحالات التي بنوا فيها خصائص الأحياء وجدنا منها الحرب ، فها هي ذي تحلب ، وتمرى حتى آخر قطرة ، يقول عروة بن أذينة :

هُمُ يَحْلبون الحَرْبَ أخلافَ دَرِّها وَيَمْرُونها حتى يَغيضَ حِلابُها (٢)

ويصور الحرب مرة أخرى فإذا بالحادثات تقرع القوم وتدق أبوابهم ، وكأنما هي بشر يدقون بأيديهم الأبواب ، ويستجيب لها أبناء كأنها ولدتهم ، فيحملون أثقال الديات ، ويكشفون الغُمَّة كشف النجوم لأسداف الظـــلام ، وينهض الفيء بهذه الاحيـاء نهوضاً :

إذا قرعَتْنا الحادثاتُ سَما لنا بنو الحرب والكافون ثقل المَغارمِ
نجوم أضاءتْ في البلاد بأهلها وقام بها في الحقّ في المَقاسم (٣)

والمنايا في شعر سابق تنادر مغادرة الأحياء (٤) :

ورُبَّ أصيد سامي الطرف مُعْتَصِبٍ
بالتاج نيرانُـه للحرب تَسْتَعِرُ

١) شعر عروة (٣٣٥) ، والظؤور : الناقة تعطف على ولد غيرهـا ، والانباس : التلطف بالناقة عند الحلب ، والشاحن : المبغض . ٢) شعر عروة ٢٨٣ ، والخلف : حلمة الضرع ، ويمرونها : يمسحون ضرعها لتدر ، ويغيض : ينضب . ٣) شعر عروة ٢٣٨ .
٤) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٢ .

يَظَلُّ مفترشَ الديباج مُحْتَجِباً عليه تبنى قبابُ الملك والحُجَرُ
قد غادرته المنايا وهو مُسْتَلَبٌ
مُجَنْدَلٌ تَرِبُ الخَدَّيْن مُنْعَفِرُ (١)

ويصور الهذلي حالة الهرم ، فاذا بالشباب يموت ، والجهل يفرّ ، وإذا به يشري بفتوته شيئاً فلا تربح معه الصفقة ، ولا ترد إليه بضاعته :

بان الشباب كَبَيْنِ المالكِ المُؤْدي وعَرَّد الجهلُ مني أيَّ تعريد
بِعْتُ الشبابَ بشَيْبٍ بيعةً غبناً يالك بيعاً حراماً غيرَ مردود (١)

ومن الجمادات التي انبث فيها خصائص الأحياء ديار الأحبّـة ، فهي تتحدث وترد التحية ، أو يرجى لها ذلك ، يقول عروة :

ولقـد وقفت على الديار لعلّها بجواب رَجْعِ تحيّةٍ تتكلّمُ (٢)

والكواكب يقترن بعضها ببعض ، وهذا مأمور شرعي يعقد قران سهيل والثريا ، يقول النمان :

أيُّها المُنْكِحُ الثريّا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان ؟
هي شامية إذا ما استقلّتْ وسهيل إذا استقلّ يمانِ ! (٣)

وكما رأينا في شعر الفقهاء صوراً تعتمد على التجسيم وأخرى على التشخيص كان ثمة مجموعة ثالثة تقوم على الإيحاء الرامز المُلمِح المصوِّر وما يمكنه في الخيال من أشعة وامتداد .

فهذا « رجلٌ متفحِّشٌ يكثر الاستهزاء بمَنْ يمرّ به » (٤) يصوره الهذلي

١) ديوانه ١٩٦ ، والمودي : الهالك ، وعرد : فر ، وغبناً : مخدوعاً خاسراً .
٢) تاريخ الاسلام ١٠٩/٥ . ٣) شعر النمان ١٢٩ ، وينسب البيتان أيضاً إلى ابن أبي ربيعة ، انظر شرح ديوان عمر لمحمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة ص ٥٠٣ .
٤) الأغاني (الثقافة) ٣٠٧/١٢ .

وهو يأكل لحوم الناس ، بل يجعل هذا الطعام « أكثر زاده » ، وهو يسعى وراء فجوره وهواه ، ويحتال لذلك مكائد يحرص ألا يقف عليها أحد ، ويبالغ في حرصه فإذا هو « همّاس » متقن عمله ، وأبو الأسود لا يتقن لنفسه منه ولا يجزئ على فعلته مثلها ، بل يذره ينهش منه ، ويترك لحمه لأشباهه النهمين ، ذلك أن هذا الفتاب - وإن أمعن في شراهته - لن ينال من الشاعر شيئاً ، ولوف بقي « بعض بضمّ من صفا جندل راسي » فهل يُمكنه أن يحدث منها خدشاً ؟

وخبٍّ لحومُ الناس أكثر زاده ... كثير الخنا صَعْب المحالة همّاس

تركت له لحمي وأبقيت لحمه ... لمن نابه من حاضر الجن والناس

فكثّر قليلاً ثمّ صدّ كأنما ... يعضُّ بضمٍّ من صفا جبل راسي[1]

ولو تبدّل بقوله « لحوم الناس أكثر زاده » (مفتاباً) ، و « بهمّاس » (حريصاً على ستر مكائده) ، وبصورته وهو « يعض بضم من صفا جندل راسي » (لم ينل شيئاً) ؛ لغابت من الخيال ثلاث صور طريفة لمن يأكل لحوم الناس ، والهمّاس ، والذي يعضّ الصخور الصمّ الملساء من الجبل الراسي ، فلا تتمكن منها أسنانه ، ولا تعود بغير التهشّم والانثلام

ويرسم سابق صورة للبخيل ، فإذا هو يُسأل « الشيء لا يسوى فتيلا » فيعتذر بعجزه عنه ويقول « لا أجد السبيل إليه يكره أن يُنيلا » :

ولربّما سئل البخيـــــل الشيء لا يسوى فتيلا

فيقول لا أجـد السبيـــــل إليه يكره أن يُنيلا[2]

والخيال يتصور ذاك الشيء الذي « لا يسوى فتيلا » ويتمثل حجة البخيل الذي أعياه السبيل دون أن يلبّي سائله ، ولعله ، من ثمّ ، يُؤمّن دعاء سابق عليه:

وكذاك لا جعل الإلـــــه له إلى خير سبيلا[3]

١) المصدر نفسه ١٢/٣٠٨ ، والخب : الخادع ، والمحالة : الحيلة ، وناب : قام مقامه ، والصفا : جمع أصم وهو الحجر الصلت الصمت ، والصفاة : جمع صفاة وهي الصخرة الملساء .

٢) ٣) تهذيب ابن عساكر ٦/٤٠ ، وحلية ٥/٣١٨ .

وكان مر معنا فراق ابن عُتبة لزوجه « عتمة » وندمه عليها ، ولا بأس أن نقرأ أبياته في ذلك :

غُراب وظبْيٌ أعْضَبُ القَرْنِ ناديا ... بصُرْمٍ وصِرْدانٍ المَشيّ نصيحُ

لعمري لئن شطّتْ بعتمة دارُها ... لقد كدتُ من وشك الفراقِ أليحُ

أروح بهمٍّ ثم أغدو بمثله ... ويُحْسَبُ أني في الثياب صحيحُ[1]

فتذير بينهما « غراب » جرتْ عادة الناس أن يتشاءموا منه ، وظبي « أعضب » انحطم قرنه فليس يثير في النفس إلا التنغّص والحسرة ، وصِرْدانٌ كانت تنعب عشيّة « وتصيح » وابن عتبة كان يوشك أن يلقى حتفه إذا افترت ساعة البعاد ، وحَقّ الطلاق ، فهو كمِدٌ حزينُ القلب يتنابه التشاؤم والتنغّص والهم والعويل ، الأمر الذي انعكس في صورة الغراب القاتم ، والظبي الأعضب ، والصردان الصائحة بعد انصرام النهار .

ويصور النمان عفاف عشيرته الأقربين فإذا هم « خُرْسٌ عن الخنا » لا يستطيعون أن يخوضوا فيه ، ويصوّر سخاءهم فإذا جفناتهم تفيض فيضاً « إذا طرقتْ جَدْبا » وعافى الناس من شظف العيش وضنكه ما عافوا ، هنالك ترى معنى برّهم يقصدون إليهم ، ويتركون - لترادهم المستمر - آثاراً طُرُقاً :

مواهبُ للممنوع خُرْسٌ عن الخنا ... مَتاريعُ للشِّيزى إذا طرقتْ جَدْبا

١) الاغاني (الثقافة) ٩/ ١٤ ، والأعضب : المكسور ، والصردان : طائر أبيض ، وأليح : أتعب ، ويريد الموت .

فقد جعل الباغون فضلَ نوالهم
لأبياتهم من حولهم طُرُقاً لحبّا [1]

ويشيد ابن المبارك بعلم أبي حنيفة ، فهو « بحر غزير » يحلّ المشكلات التي « يتدافعها رجال العلم » فلا تستعصي عليه :

رأيت أبا حنيفة حين يؤتى ويُطلب علمُه بحراً غزيرا
إذا ما المشكلات تدافعتْها رجال العلم كان بها بصيرا [2]

والذي يخجل أن يسألَ وينفقـــه « يرجع بخفّي حنين » ولو حزم أمره وسأل وجد الشيخ « يلتقيه بالراحتين » ، والخيال يتملّى الصورتين ، صورة من يلتمس العلم فيخجل ويبوء بخفّي حنين ، وصورة استقبال الشيخ لسائله ، وإذ تمثّث ، بالراحتين . يقول ابن المبارك :

إن تلبست عن سؤالك عبد الله ترجعْ غداً بخفي حنينِ
فاعنُتِ الشيخ بالسؤال تجدْهُ سَلِساً يلتقيك بالراحتين [3]

ومن الصور الإيحائية الرامزة إلى فناء الدنيا ، تقطّع حبالها ، يقول سابق :

مالي أرى الناسَ والدنيا موليّةً وكلُّ حَبْلٍ عليها سوف يبتتر
لا يشعرون بما في دينهم نقصوا
جهلاً وإنْ نقصتْ دنياهمُ شعَروا ؟ [4]

وأنتقل الآن في دراسة الصورة الفنية إلى عناصرها ، ولعلنا لاحظنا من خلال الشواهد السابقة أنها مختلفة بصرية وذوقية ولمسية وسمعية وشمّية ومتآلفة من

١) شعر النعمان ٨١ ، والحنا : الفحش ، وأترع : ملأ ، والديزى : خشب أسود يتخذ منه قصاع ، ولحبا : واضحة .
٢) عبدالله بن المبارك للدكتور عبدالمجيد المحتسب ١٥٨ .
٣) المصدر السابق ١٧٧ ، وتلبست : من اللبس وهو اختلاط الأمر .
٤) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٤ .

غير عنصر واحد ، وأضرب مثالاً للصورة البصرية انبثار حبال الدنيا ، في الشاهد الأخير ، وللصورة الذوقية هجاء الذؤلي « لآكل لحوم البشر غيبةً » ، وللصورة اللمسية الطؤورَ التي يُمسح ضرعها لتدرّ في شعر عروة ، وأسوق للصورة السمعية بغام الناقة وزئم راكبها في قول النمان :

فَسَلِ لبانات الهوى بجُلالةٍ جماليّة تكسو الكلالَ بَغامُها
إذا اندفعت تمشي المَنَسّة بالفتى وبالرَّحْلِ طابتْ نفسُه فترنّما [1]

وللصورة الشمّية قول عروة :

لا أجعل الجارَ المَلولَ وذا الشَيمة لا يَستقيم مَنسِمُها
كَجِلْدَةِ البَوِّ لا تزال بها مفرورةً أمُّهُ تُشمِمُها
يَعرفها أنها وتُنكرُها بالعين منها فكيف تَرأمُها ؟ [2]

ومن الواضح في هذه الصورة اشتراك البصر - مع الشمّ - فيها ، إذ تنكر الناقة بالعين منها جِلْدَةَ البوّ ، وكثيراً ما نلقانا عدة عناصر متآزرة لإخراج الصورة ، فالذؤلي يعرض صورة بصرية شميّة في قوله :

أبو بَحْرٍ أمَنُ الناس طرّاً علينا بعد حيّ أبي المُغيرة
كأنا إذ أتيناه نزلنا بجانب روضة ريّا مطيرة [3]

فبينما تتمتع العين بالروضة المطيرة ، يشم المرء عبيرها العبق وأريجها الفوّاح .

ودائماً يشفّ من ثنايا الصور مشاعر هي - في أغلب الأحيان - منطلقها الذي تنزع منه ، وتعتمده ، فما كان الشعراء - وهم يضطرمون انفعالاً - ليجعلوا

١) شعر النمان ١٢٣ ، ولبانات : حاجات ، والجلالة : الناقة الضخمة ، ومثلها الجمالية ، والكلال : الأعياء ، وبغامها : صوتها ، والمنسة : السير الشديد .
٢) شعر عروة ص ٨٣ ، والبو : جلد الحوار يحشى تماماً فتعطف عليه الناقة إذا مات ولدها ، ترأمها : تحبها .
٣) ديوانه ص ٢١٤ و ٢١٥ .

« الصور » غايتهم ومقدارهم، وما هو - في واقعه - إلا رجع لأصداء نفوسهم و « تجسيم » لما يدبّ في خبايا من أحاسيس ومشاعر .

ولا بأس أن أسوق - إلى ما تقدم من أمثلة - أمثلة اخرى ، فالدؤلي يستثير الكآبة ويستدعي طيراً ساجعاً فيقول :

وساجعٍ في فروع الأيك هيّجني ... لم أدرِ لمّا ناح ممّا بي ولِمْ سَجَعا
أباكياً إلفَهُ من بعد فُرْقَتِه ... أمْ جازعاً للنوى من قبلِ أن يقعا
يدعو حمامته والطير هاجعة ... فما هجعْتُ له ليلي وما هجعا
شكا النّوى فبكى خوف الأسى فرمى
بين الجوانحِ من أوْجاعه وَجَعا [1]

والصورة كحال الدؤلي كئيبة دامية ، فالطير ينوح ويجزع ليعيد ويثأر ويشكو ويحاب ويأسى ويتألم ... وهو إذا ينوح مما أصاب أبا الأسود ، وأبو الأسود يهجر الرقاد من أجله ، والمشاهد كلّها تشفّ عما كان يعانيه الشاعر .

ويصوّر ابن عُتبة حبه لعثمة امرأته فيقول :

تَغَلْغَلَ حبُّ عثمةَ في فؤادي ... فبادِيه مع الخافي يسيرُ
تَغَلْغَلَ حيث لم يبلغ شرابٌ ... ولا حزنٌ ولم يبلغْ سرور
أكاد إذا ذكرت العَهْدَ منها ... أطير لو انّ إنساناً يطير
غنيّ النفس أن أزدادَ حبّاً ... ولكني إلى صلةٍ فقير [2]

فحبّها يستقر في سواد قلبه ويتمكّن ، وذكراها - إذا دبّت في أوصاله - هزّته وأرعشته حتى ليظنّ أنه سيطير . والصورة كلها ترف بمشاعر الودّ الصادق

١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ٢/٢٤٨ ، والنوى : البعد .
٢) الأغاني (الثقافة) ٩/١٤٧ ، وتغلغل : دخل .

والحبّ الأصيل .

. . . . .

وإذن في شعر الفقهاء صور بارعة كثيرة ، منها لقطات سريعة ، ومنها مشاهد متكاملة ، وتقوم هذه الصور على التجسيم ، والتشخيص ، والإيحاء الملح الرامز ، وتختلف عناصرها فهي بصرية وذوقية ولمسية وسمعية وشمية ومتآلفة من غير عنصر واحد ، ودائماً تشدّ إلى الشاعر والحالات النفسية بأواصر محكمة متينة .

٣ - خصائص موسيقية :

إلى جانب الأحاسيس العاطفية والصور الفنية في شعر الفقهاء تلفتنا خصائص موسيقية ، وهي خصائص جعلت المغنين يترنمون بطائفة منه ، كالأبيات البائية لشريح ابن الحارث في امرأته ، فهي « مما يغنّى فيه من الأشعار » [1] . ومرّ بنا كذلك سؤال ابن عائشة لعروة بن أذينة أن يؤلّف له أبياتاً يغني فيها . وإذ عروة أنشده أبياته التي أولها :

سليمى أجمعتْ بَيْنا ... فأين تقولُها أينا ؟ [2]

ومن بعد إلى الأبيات يجد ابن أذينة قد تعمّد فيها أن تكون صالحة لتوقيع والتغنّي ، فجعل عدّتها لا تزيد على سبعة ، والتفعيلة على بحر خفيف رشيق هو مجزوء الوافر .

وكثيراً ما نرى في شعر الفقهاء مقطوعات لا تتجاوز عدد أبيات عروة ، في الوقت الذي تختار فيه البحور المجزوءة ، وممّن نظموا في مجزوء الوافر ، غير هذا الشاعر ، القاسم بن إبراهيم الرسّي في أبياته :

ونَفى الهجير والدّلَجُ ... وأقصر في الهوى اللّججُ
وطاف بعارضي وَضَحٌ ... عليه للبلى نَهَجُ [3]

ومن مجزوءات بحور المهزّج ، وهو لا يستعمل تامّاً أبداً ، ومنه قول النعمان بن بشير :

١) الأغاني (الهيئة المصرية) ١٢/٢٢٣ . ٢) نفسه ١٨/٣٢٧ . ٣) معجم الشعراء ٢١٧

إذا ما أمُّ عبد اللـــــه لم تحلُلْ بواديه [1]

ومنها مجزوء الرمل، ولابن المبارك قصيدة فيه يقول في تضاعيفها :

كم ببطن الأرض ثاوٍ من شريف ووزير
وصغير الشأن عبد خامل الذكر حقير [2]

ولعل مجزوء الكامل أن يكون أكثر هذا الطراز من الفن نصيباً في شعرهم، وللدؤلي مقطوعة تجري على سياقه، يقول فيها :

أعَصَيْتَ أمرَ ذوي النُّهى وأطعْتَ أمر ذوي الجهالة
أخطأتَ حين صرمتني والمرء يعجز لا محالة
والعبدُ يُقرع بالعصا والحرّ تكفيه المقالة [3]

وإلى جانب البحور المجزوءة أرْجَى الفقهاء فئات أشعارهم على بحور خفيفة كثيرة من مثل المنسرح [4] والتقارب [5] والسريع [6] . . .

وقِصَر البحر سواء كان لتجزئته أم لخفته يمكّن للشعبيه أن يتحكّموا بوَفْرة من أنفاسهم، فيصرفوها بتزيين الإنشاد، وتزويق الإلقاء، وإلباس أصواتهم تعبيرات إيحائية تواثم معاني الشعر، وتموّجاته وموافقه، على عكس ما يصنع هؤلاء المنشدون في البحور الطويلة التي تتقطّع دون قوافيها أنفاسهم، ويضطرّون أن يقسموا كل بيت أقساماً، وهي أقسام لا تحظى معاني الشعر فيها وتموّجاته وموافقه أن يصرفوا لها حقّها من أنفاسهم، وإيحاءات أصواتهم.

ومع البحور تتواكب القافية برويّها [7] الأخير لتقدّم الإيقاع الختامي للبيت،

١) شعر النعمان ١٦٢ .
٢) تاريخ ابن عساكر (المهد) ج ٦ (ابن المبارك) .
٣) خزانة الأدب ٢٨٦/١ .
٤) انظر القصيدة الأولى في شعر عروة ص ٧٥ .
٥) انظر شعر عروة ، القصيدتين الثامنة ٢١٣ والحادية عشرة ٢٨٨، وشعر النعمان ١٠٥ ، ١٣٧
٦) شعر النعمان ١٤٤ .
٧) القافية في رأي الخليل - هي الساكن في آخر البيت مع الحرف المتحرك قبل الأول منهما . وهي في رأي الأخفش آخر كلمة من البيت .

ومن طبائع الإنسان أن يتذكّر ما اقترب إليه به العهد أكثر مما بعد، فإن حَسُن وقْع الخاتمة في أذنه ازداد لمحاسن البيت تقديراً وعن هفواته تغاضياً، وإن قبح وقْعها انكفأ يزن الشعر بآخر ذكرياته عنه، وتصبح خاتمة البيت - بعد إنشاده - منطلق السبيل إلى نقده.

وأهم شروط الخاتمة أن تكون نهاية طبيعية للبيت غير مُقْتحَمة عليه، ولا دخيلة « للضرورة »، واقرأ هذه الأبيات للنعمان بن بشير تجد خواتمها تنساب منها انسياباً وتتلاءم مع حشوها دون أيّ افتسار :

يا سَعْدُ لا تُعْدِ النداء فما لنا نسبٌ نجيبُ له سوى الأنصار
نَسَبٌ تخيّره الإله لقومنا أثقل به نسباً على الكُفّار
إن الذين ثووا ببدر منكمُ يوم القليب هم وقود النار [1]

فإذا انضاف إلى انسياب الخاتمة مع الحشو خصائص فنية أخرى ازدادت حُسْناً في النفس وبقاء في السمع، ولا بأس أن نقرأ قول الدؤلي :

تعاتبني عِرْسي على أنْ أطيعَها لقد كذبتْها نَفْسها ما تمنّت
وظنّتْ بأني كلّ ما رضيتْ به رضيتُ به ياجهلها كيف ظنّت؟ [2]

فانظر هل ترى في الخاتمين عِوَجاً أو التواء؟ أوَ لستَ تستشعر في تاء « تمنّت » همس العتاب، وفي تاء « ظنّت » سكوت الطبع الراضي؟

ولعل الأمر يزداد اتضاحاً إذا سمعنا أبيات عروة بن أذينة :

وكلُّ هوىً وإنْ عنّى زماناً له مِنْ بَعْدِ مَيْعَتِه تَجَلّي
كأني لم أكنْ من بَعْد إلْفٍ عذلتُ النفسَ قبلُ على هوىً لي
فإن أقْصِرْ فقد أجْرَيْتُ عَمْراً وبَلاني الهوى فيمَنْ يبلّي [3]

١) شعر النعمان ١٤٧ ، والقليب : البئر قبل أن تطوى .
٢) ديوانه ١٦١ .
٣) عيار الشعر ١٠٩ ورواية البيت الأول فيه « دان عني » ، والبعة : النشاط ، والتجلي : الانكشاف ، وبلاه : جربه .

فاللسان يريد أن يلفظ اللام ، فيضغط مخرج الحرف ، فينحبس النَّفَس ، حتى إذا زال الضغط انفجر النفس المحبوس مُحْدِثاً رِنَّةً عالية ، وهي رنّة تزداد حدّة وذلاقة بإدغام المتماثلين في « تجلّي » و « يلتي » وإدغام اللام بنون التنوين في « هوىً لي » ، وبالياء التي تمدّ الحدّة فتستطيل ، هذا انقطعت عن الأذن ذكرتها بها الوشوشة الباقية فعاودها الميل الى استماعها من جديد . وهذه الخواتم متساوقة وحشوَ الأبيات ، وهي تكسبها تأثيراً في النفوس ، وطرباً في الأسماع .

وإذا انتقلنا من الأوزان والقافية إلى الموسيقا الداخليـــة الأبيات وجدناهم يتخيرون ألفاظاً تملك ـ بجرسها أو انسجامها ـ طاقات موسيقية معبّرة ، ولا بأس أن نلحظ جرس « تجمجمها » في مطلع القصيدة الأولى من شعر عروة :

أعرضةُ الدار أم توهمُها هاجتكَ أمْ غُلَّةٌ تجمجمُها[1]

والجَمْجَمة تلتجئُ الكلام دون إبانة ، ولهذا اختار ابن أذينة حروفاً تَصْدُر على نحو غير متسلسل مِنْ مخارج مختلفة ، فبينما تنبعث التاء من أول اللسان وأصول الثنايا العليا تنبعث الجيم من وسطه ومما يحاذيه من الحنك الأعلى ، والميمُ من الشفة ، والهاء من أقصى الحلق ، فسيرتها ـ كما هو واضح ـ قلقة مضطربة متلجلجة ، مثل قلق الحجمة واضطرابها وتلجلجها ، إذ تبـــدأ من أول اللسان ، وتتوالى من وسطه ، ثم من الشفة ، وتعود إلى وسط اللسان ، وتنقلب ثانية إلى أوله ، ثم ترتد إلى أقصى الحلق من الجهة الأخرى ، ويزيد من لجاجة هذه الحروف تعاقب الهمس في التاء ، فالجهر في الجيم ، فالغُنَّة في الميم ، فتكرار هذين الحرفين ، فالهمس في الهاء ، ويأتي حرف المدّ إيقاعاً ختامياً لذلك الاضطراب فيناسب السكونَ الذي يعقب الحجمة القلقة .

ومن الكلمات ذات الجرس الموسيقي المعبر : « يُرَقْمِصُ » في قول عروة أيضاً :

هذا ومُهْلكةٍ يُرَقْمِصُ شمسُها كالرَّجْعِ في رَهَجِ الوديقةِ آلها

١) شعر عروة ٧٥ ، والعرصة : الساحة بين الدور ، والغلة : حرارة العطش ، وتجمجم الرجل إذا لم يبين كلامه .

غبراء ديموم يحار بها القطا عُصَباً يُفَرِّقُ بُعدُها أرسالَها[1]

فلقوله « يرقمص » جرس لشيط ، وهو يبدأ بصوت منساب من الياء المضمومة ، ثم ترتفع النغمة بالراء المجهورة ، ويأتي سكون القاف فاصلة موسيقية صامتة ، ويتتابع الرنين عندما تضجّ القاف القابية بحدة ، فيتمزق الصمت ، ثم تميل النغمة إلى الانخفاض عند الصاد المهموسة .

ويقول أبو الأسود الدؤلي :

ولكنْ أنتَ لا شَرِسٌ غليظ ولا هَشْمٌ تنازعه خؤورَةْ[2]

فجَرْس هَشْم يُوْذن بتهدّم مُسْتَرْخٍ ، وكما يطّرد التهدّم ويتلاحق ؛ كذلك تخرج الماء من أقصى الحلق ، وتواكبها الشين من وسطه ، والميم عند الشفتين ، في تدفّع وتقابع ، وكما يُحدث التهشّمُ وَشْوشةً ورقمة ؛ نجد الهاء « تهمس » منذرة بالانحطام ! ولا تلبث الشين حتى تُسمعنا بتفشٍّ واسترخاء أطيط الانهدام المتباطىء ، وتليها الميم فتملن بحدة تمام الهَشْم ، بينما يُرَجِّع التنوين « الأغنّ » صداه .

وعلى نحو انسجام « هشم » بالإضافة إلى جرسها ، تلفتنا ألفاظ كثيرة تمتاز بهذا الانسجام المتآلف ، فمن ذلك « فحاً » في قول أبي الأسود :

وعندي له إنْ فار فَوَّارُ صدره فَحاً جبليٌّ لا يُعاوده الحاسي[3]

فالفاء والحاء همسيّتان ، وللفاء حدّة وذلاقة ، وللحاء حفيف وفحيح ، وللتنوين غُنّة ورنين ، وكلها تضرب على أوتار متقاربة ، وينساب منها إيقاع متآلف .

ومن الألفاظ المنسجمة الحروف كلمة « لُبّ » في قول أبي الأسود أيضاً :

وما كلُّ ذي لُبٍّ بمؤتيك نصحه وما كلُّ مؤتٍ نصحه بلبيب

ولكنْ إذا ما استجمعنا عند صاحب فحُقَّ له من طاعة بنصيب[4]

١) شعر عروة ١٦٤ ، والمهلكة : الصحراء الواسعة ، والرهج : الغبار ، والديموم : البعيدة ، والارسال : الجماعات . ٢) ديوانه ٢١٥ ، والهشم : الرخو .

٣) الاغاني (الثقافة) ١٢/٣٠٨ ، والفحا : البصل . ٤) المؤتلف والمختلف ١٥١ .

فاللام تنطلق من طرف اللسان متجهة إلى « باب الخروج » فتشبّعها الياء عند الشفتين ، وتمضيان معاً سهلاً رَهْواً ، بينما يعود اللسان ليعزف « بالتنوين » لحن الوداع الشجيّ .

وأغلب الظن أننا لاحظنا من خلال الأمثلة المتقدمة أن الألفاظ لم تكن تنفرد في جمالها دون سائر البيت ، وإلا تَقوّضَ ما تبنيه بأيدي الكلمات الشجية المتآخية ، وما استبان لها رونق ولا اكتمال ، ذلك أن حال الكلمة من السياق هو ما يؤدي دقة وضعها أو تخلخله ، ولعلّ هذه الأمثلة توضّح ذلك :

يقول أبو الأسود الدؤلي :

تَعَوّدْتُ مسّ الضُّرّ حتى ألِفْتُه
وأسْلَمَني طولُ البلاء إلى الصبر
ووسّع صدري للأذى كثرة الأذى
وكان قديماً قد يضيق به صدري [1]

فالقول يتتابع في انسياب متدفق ، وتساوُقٍ متعاضد ، دون أن يعوق تدفّقه نشوز ولا شذوذ . ويقول عروة بن أذينة :

إن التي زعمت فؤادك ملّها — جُعِلَتْ هواكَ كما جعلت هوىً لها
فَبِكَ الذي زعمت بها وكلاكما — يُبدي لصاحبِهِ الصبابة كلّها
وبَيِيتُ بين جوانحي حب لها — لو كان تحت فراشها لأقَلّها [2]
ولعمرها لو كان حبُّك فوقها — يوماً وقد ضَحِيَتْ إذن لأظلّها
وإذا وجدت لها وساوس سَلْوَةٍ — شفَع الفؤاد إلى الضمير فسَلّها
بيضاء باكرها النعيم فصاغَها — بلباقةٍ فأدقّها وأجلّها

١) ديوانه ٢٢٧ . ٢) أقلها : أصابها وأنهبها .

لمّا عرضْتُ مسلماً لي حاجة — أرجو معونتها وأخشى دلّها
مَنَعَتْ تحيّتها فقلت لصاحبي : — ما كان أكثرَها لنا وأقلّها
فدنا فقال : لعلّها معذورة — من أجل رِقْبَتِها . فقلت : لعلها [1]

والأبيات تَدفّق بعدودها الكثيرة المتوالية ، فترى - منذ مطلعها - الحروف الهوائية الطليقة في « التي » و « فؤادك » و « ملّها » و « هواك » و « كما » و « لها » و « الذي » و « كلاكما » ... فتمكّن من الإلقاء الغنائي الإيحائي ، بينما تتوالى الحركات في نحو « جعلتْ » و « فبكَ » و « زَعَمَتْ » ... لتلائم تغلغل الحب في قلبه ، والأبيات تنثال بكلماتها انثيالاً دون مرقلة ولا حَجْر ولا تعثّر ولا تبطّؤ .

ومع التدفق يحتوي السياق أحياناً تقسيماً موسيقياً لافتاً ، ومن ذلك قول ابن شبرمة :

الأمْرُ يا عَمْرُو بالمعروف مُفْتَرَضٌ
والقائمون به لله أنصار [2]

فيتوالى على كلٍ من « الأمْرُ » و « يا عَمْرُو » فتحٌ فسكون فتح آخر فسكون فضم ، وتتقابل فيها « أمْ » و « عَمْ » ، وتتحد الخاتمتان منها بالراء المضمومة ، ويبقى كل ذلك لحناً يربح - برتابته - السمع ، ويجوي على هذا النمط : « الْ » « أمْ » « رُ » « يا » « عَمْ » « رُ » ،

ومن هذا التقسيم اللافت قول النمان بن بشير :

وأفيحَ ذي سَرَبٍ حازمٍ — صَرومٍ وَصولٍ حبالَ الخُلَلْ
كريم البلاء ، صبور اللقا — ء صافي الثناء ، قليل العِلَلْ
عظيم الرّمادِ طويلِ العِما — دِ واري الزّناد بعيد القَفَلْ

١) الاغاني (الهيئة المصرية) ١٨/٣٣٠ . ٢) أخبار القضاة ٣/٩١ وانظر ٣/٩٢ .

أقمتُ له ولأشباهه عمودَ الثرى بذَمولٍ رَمَلْ[1]

وواضح تساوق هذه المقاطع «كريم اللقاء، صبور اللقاء، صافي الثناء» ثم «عظيم الرماد، طويل العماد، واري الزناد» فهي تترك في الأذن وقعاً رتيباً فترتاح لتكراره.

ومن التقسيمات الموسيقية أيضاً تكرار بعض الكلمات بصيغتها أو بصيغة مشتقة منها على نحو ما نقرأ في أبيات الدؤلي:

أيُّها الآملُ ما ليس له ربما غرَّ سفيهاً أملهْ

رُبَّ مَنْ باتَ يُمَنِّي نفسَه حال من دون مُناه أجلُه

والفتى المحتال فيما نابَهُ ربما ضاقت عليه حِيَلُه

قل لمن مثَّلَ في أشعاره يهلك المرء ويبقى مَثَلُه

نافس المُحْسِنَ في إحسانه فسيكفيك سَناءً عَمَلُه[2]

وهو ما كان يسمى «رد العجز على الصدر».

ولعل أبرع حالات التساوق الإيقاعي أنْ تتواج النغمة الموسيقية الأبيات مع موضوعها الشعري وجيوانه، وقد مرَّ بنا بعض ذلك من قريب في أبيات عروة ان أذينة اللامية، وأيضاً فإن عروة يشجي لابتعاد سعداه، فيرسل هذا الغناء الحزين:

صَرَمَتْ سُعَيْدَةُ وُدَّها وخِلالَها

منا وأعجبَها البِعادُ فمالها ؟

سمعَتْ من الواشي البعيد بصُرْمنا قولاً فأفْسَدَها وغيَّر حالها

١) شعر النعمان ١٠٧، وأفيح: واسع الصدر، وذي سرب: أي يجري في الأمور، والخلة: الصداقة، والقفل: العودة، والذمول: الناقة السير الذميل وهو ضرب من السير ومثله الرمل.

٢) العقد الفريد ٣/١٩٠ - ١٩١.

وإذا المودَّة لم تكن مصدوقةً كَرِهَ اللبيبُ بعقلِه استقبالَها

ولقد بلوتُ وما ترى من لَذَّةٍ في العَيْش بعدك قربها ووصالَها

عَصْرَ الشبابِ وما تُجِدّ مودَّةً للغانيات ولا هوىً إلاّ لها

حتى رأينا للصَّريمة آيةً مثل النهار وعدَّدت أشغالها

وتجرَّمَتْ عِلَلَ الذَّنوب فأصبحت قد زايلَتْك وزوَّدتْك خَبالَها

وطوت حِبالاً مِنْ حِبالك بعدما وصلت به أخرى الزمان حبالها[1]

وإذا كان لطريقة الإنشاد دورٌ جوهريٌّ في إيضاح التساوق بين نغمة الأبيات وجوّها، فإن موضوعها وما تردّد فيه من عبارات الكَمَد الحزين وصور الأنين الشاكي من أقوى دواعي الموسيقا الآسية في الأبيات، وقد يتضح هذا التساوق إذا قرنا المقطوعة السابقة لعروة بقوله في قصيدة أخرى:

وضيفٍ خرجْتُ إلى صوته أُرَحِّبُ لم يَرَ منّي التباثا

أناخ فمجَّلْتُ حقَّ القِرى وكنت به لا أحبُّ اللَّبَاثا[2]

فالبيتان يجريان جرياً ويحكيان حال الشاعر وهو ينهض لضيفه ويرحّب به دون «التباث»، و«يمجّل» له قِراه من غير تأخّر ولا «لباث»، ويجمل رويه ثاء ثنوية لتكون على مقربة من المخرج الأخير، فما هو إلا أن يلفظها حتى تدبّ معه لاستقبال ضيفه، بينما سحبت اللامَ في القصيدة السابقة هناء بعيدة الغور فهي تُسلّي رحلتها الطويلة بأنغام تشبه حنين القصب الحزين.

. . . .

ولا ريب أن هذه الخصائص الموسيقية تنضم إلى «الأحاسيس العاطفية» و«الصور الشعرية» لتميط عن قريض الفقهاء تهمة النظم التي حاول «التصميم» وصمه بها.

١) شعر عروة ص ١٣٩، والحبال: الصداقة، وتجد: تقطع، وآية: علانة، وتجرمت: اقتضت، وزايلتك: فارقتك، والذنوب: الدلو الملأى ماء، والخبال: الفساد.

٢) المصدر السابق ٢٩٥، والتباث: تأخر.

الفصل الثاني

ظاهرة النظم

رأينا في الفصل السابق نماذج شعرية بارعة من قصائد الفقهاء ، وهي نماذج كانت تدفعني دفعاً إلى رفض التهمة التي ألحقتها « التعميم » بهذا الضرب من الفن ، ومن الحق أن قريض الفقهاء لم يكن كله « إبداعاً فنياً » ، فقد كان إلى جانبه نظم سوف أقف على أبرز خصائصه ، ولو كان نظر إليه الذين جرحوه « نظرة شاملة » لتمكنوا أن يميزوا « النظم » من « الابداع الفني » ، دون أن يحيفوا عليه شيئاً ، ولو كان تذكر هؤلاء النقاد أن الفقهاء - كغيرهم من ضروب البشر - منهم مَنْ يقرع في القصيد حتى يبلغ القمم الشعرية الشامخة ، ومنهم مَنْ يَهْبط دون ذلك درجاتٍ قد تصل به إلى حضيض هذا الفن ؛ لابتعدوا من « تعميمهم » ابتعاداً كبيراً ، ولو هم درسوا أعلام الشعر العالمي - في كلّ عصوره - لأبْصَروا أن شاعراً لم يُخرج ديواناً متكاملاً على قالب واحد ، ولا بد أن يكون له قصائد رائعة وأخرى غير ذلك ، أفليس جديراً إذن ألا ينظروا إلى النظم وحده عندما يصدرون أحكامهم الأدبية على شعر الفقهاء ؟

وإذا أردنا أن نحدد المسيرة العامة لظاهرة النظم في شعر الفقهاء حتى نهاية العصر العباسي الأول وجدناها تطرق هـذا الشعر - على استحياء - منذ نشأته الأولى ، ثم أخذت تتموج مع الزمن دون أن يُبسط لها سلطان قاهر ، حتى إذا انقضى العصر الأموي طمحت إلى تحقيق رغائبها ، وتمّ لها - على أيدي طائفة من الشعراء - بعض الذي طمحت ، غير أن القاسم بن ابراهيم الرسيّ زلزل لها أحلامها في نهاية العصر ، فانكفأت تطويها للمستقبل المجهول ، وسوف يبدو نصيب كلٍ من الشعراء الفقهاء من ظاهرة النظم في الباب الأخير .

١ - النزعة العقلية :

على عادة ما يردده الناس مِنْ أن « الصنعة لا بدّ أن تظهر على صاحبها »

نسرّب إلى شعر الفقهاء طائفة من أحكام الفقه ومصطلحاته وأصوله ، فمن الأحكام التي عرض لها الفقهاء في أشعارهم ما قاله الحسن البصري حين سئل عن القُبْلة ، وقال السائل :

يا حسنَ البصريّ ياذا النُّهى ... إني إلى وجهك مشتاق
قلْ لي وأنت المرء ذو حكمةٍ ... في كل ما تُفتيه مِصداق
هل جائز تقبيل معشوقةٍ ... خلاّسة الأرواح سرّاق

فكان جوابه :

أقول والرحمنُ لي شاهد ... ما أنا بالفحشاء نطّاق
إن كنت في التقبيل ذا إربةٍ ... مشتهياً للهـــو توّاق
حُرِمْتَ في الجنة حُورِيّةً ... ورديـــة الخدّين رقراق
فاستشعرِ التقوى وكن خاشعاً ... فإن تقوى الله ترياق [1]

ومن تلك الفتاوى ما عرضه ابن شُبْرُمة من حُرْمة الخمر والطِّلاء [2] ونبيذ الزبيب إذا اشتدّ :

يا خليليْ إنّما الخمرُ ذنبٌ ... وأبو جعدة الطِّلاء المُريبُ
ونبيذ الزبيب ما اشتد منه ... فهو للخمر والطلاء نسيب
حُرِّمت هذه فلا شكّ فيها ... ولهـــذا مَعرّة وذُنوب [3]

ومن هذه الأحكام ما استعاره الإمام الشافعي من أن الطلاق ثلاث مرات ليس غير ، وقاس عليه شأنه مع صديق له كان تولى إمرة السيبين فتغيرت عاداته

١) السؤال وجوابه في كتاب عطف الألف المألوف على اللام المعطوف الديلمي ص ٥٢ .
٢) الطلاء : عصير العنب إذا طبخ حتى ذهب أقل من ثلثيه ، وقيل الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه ، وقيل ما ذهب ثلثه (انظر اللباب ٨٣/٢ .
٣) أخبار القضاة ٩٨/٣ ، وانظر العقد الفريد ٣٣٥/٦ .

عما كانت عليه ، فقال فيه :

خذها إليكَ فإنّ وُدّكَ طالقٌ ... مني وليس طلاق ذات البينِ

وإن التويت فإنها تطليقة ... ويدوم ودّكَ لي على تِنْتَيْنِ

وإن امتنعتَ شفعتُها بمثالها ... فتكون تطليقين في حَيْضَتَيْنِ

وإذا الثلاث أتتك مني طائعاً ... لم تُغْنِ عنك ولاية السِّيْبَيْنِ[1]

وكما تسربت هذه الاحكام إلى شعر الفقهاء تسرّب إليه أيضاً مصطلحات فقهية كثيرة ، من مثل « الحرام والزكاة والنصاب » في قول الإمام الشافعي :

فدع عنك سوءات الأمور فإنها ... حرامٌ على نفس التقيّ ارتكابها

وأدّ زكاة الجاه واعلم بأنها ... كمثل زكاة المال تمّ نصابها[2]

ومن ذلك « الشرط والواجب » في قوله أيضاً :

العلم من شرطه لمَنْ خدمهْ ... أن يجعل الناس كلهم خدمهْ

وواجب صونه عليه كما ... يصون في الناس عرضه ودمه[3]

وعلى هذا النحو بيّن عبدالله بن شبرمة بعض الأصول الفقهية التي يعتمدها في قضائه وهي القرآن الكريم والاجتهاد والقياس ، فيقول :

أقضي بما في كتاب الله مجتهداً ... وبالنظائر أقضي والمقاييس

إذا قضيت بأمرٍ الحق مجتهداً ... فلست أجهل أقوال الضغابيس[4]

١) مناقب البيهقي ٢/٩٦ ، ومناقب الشافعي للرازي ٢٠٤ ، وتاريخ بغداد ٤/٤٣٨ ، والسيب : كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الأعلى والأسفل .

٢) مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ١٦ .

٣) طبقات الشافعية للسبكي ١/١٥٩ ، وهدية الأمم ٣٦ .

٤) اخبار القضاة ٣/٩٢ .

ويفصل هذا الموضوع مرة أخرى فاذا به يحتكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فإن لم يجد نصاً في ذينك المصدرين الأساسيين للفقه طرق باب الاجتهاد والقياس :

ما في القضاء شفاعة لمخاصم ... عندَ اللبيب ولا الفقيه الحاكمِ

أهونْ عليّ إذا قضيت بسُنّةٍ ... أو بالكتاب برغم أنف الراغم

وقضيت فيما لم أجدْ أثراً به ... بنظائر معروفة ومعالم[1]

وإذا صدّقت الأمثلة المتقدمة « ظهور الصنعة على صاحبها » ، وشهدت لهؤلاء الشعراء بالفقه ، فقد ضيقت عليهم - من ناحية أخرى - حلبة القول ، وحصرتهم في زاوية مهما ضيقوا فيها فيكرّم وأطلقوا خيالهم فإنهم ملتزمون أن يطوّفوا من حولها غير بعيد ، وأن يستعرضوا أحكامهم فيها ومصطلحاتهم بدقة لا تمكّن لهم أن ينطلقوا بعواطف مدفقة وتصوير طريف وفكر لا يحدّها موضوع « يقبض الطبع متعارف السيّات ، على عكس ما كانوا يفعلون في المجالات الاخرى للقول ، عندما لا يكون الموضوع أحكاماً واصطلاحات ، إذ تتفسح أمامهم الآفاق فينوصون في عُباب الفكر أو يطيرون بعيداً على أجنحة الخيال ، ثم يعودون بجميل القول ، وطريف البيان .

ودائماً يعوق انطلاقة الشعر إدخالُ العلوم الأخرى فيه ، وخصائص تلك العلوم ، وليس من ريب أنّ الخيال الذي جرت عادة الشعراء أن يسبّحوا في عالمه طويلاً حتى يؤوبوا بالدرر الحسان يحتاج إلى فسحة من الزمن لم يكن يملكها كثير من الفقهاء ، إذ عكفوا على كنوز العلم وشغلهم التكاثر منه ، فتنافس على عقولهم متنافسان : معارف الفقه ، ووساوس الخيال ، وإذا كان طائفة منهم أوتوا نصيباً الواهب فاستوعبوا الأمرين جميعاً ، فإن آخرين منهم رجحت كفة لديهم الأخرى ، وغلبت عليها ، بينما كان فريق ثالث أميل إلى أحدهما لفكرة سابقة لديه عن الشعر[2] .

١) عيون الأخبار ١/٦١ ، وأخبار القضاة ٣/٩٧ .

٢) انظر رأي الشافعي في إزراء الشعر بالعلماء : نور الأبصار ٢١٥ ، ونزهة المجالس ٢/٢١١ =

وإلى جانب أحكام الفقه ومصطلحاته تلقانا في طائفة من شعر الفقهاء نزعة فكرية مجرّدة من التوقد العاطفي والسبحات الخيالية والإيقاع الموسيقي ، إنما هي نظم مُرْسل دون أيّ حلية سوى إصابته لمعانٍ فكرية ثمينة .

ومن الحق أنّ إصابة المعاني الشريفة ليس بالأمر اليسير ، فمَنْ أوتي ذلك استوفى به سبباً قوياً من أسباب الجمال ، وهو لن يُحْرم هذا السبب إذا قعدت به شرائط الشعر الباقية ، غير أنه إذا جمعها معاً انطلق بشعره إلى قمم الفن الشامخة ، على حين لا يقدر أن يرتقي بجانبيه وحدها إلى تلك القمم .

ومن الخطأ أن يهجر الدارسون شعراً - أيّ شعر - طابت معانيه وشرفت أفكاره ، ومن الخطأ أن يبخسوه حقّه الذي نال من الجمال ، وهل يَسْتوي ذلك الشعر وما فقدَ أسباب الخير كلها ، فانحطّ مضموناً ، وانحط قالباً وصياغة ؟ إنّ النقد العربي - من قديم - قدّر المعاني قدْرها فكان كثير من أعلامه لا يفصلون المعنى من الشكل ، ويشترطون للجيد الأمرين معاً (١) ، لكن أصواتاً شردتْ عن حقيقة المعنى أو بعض حقيقته مجملت تردد : أن « الدين بمعزل عن الشعر » (٢) . فكيف يروق من الشعر معنىً هتك عنه أستار القداسة ؟ وهل يطيب قول خلع شمائر اخلاقــه ومضى على غير استحياء يهدّم خير ما تملكه البشرية ؟ سيّان في الحقيقة لا يلغان القيم الفنية المقدّسة ، شعر طابت معانيه وعوّقته قوالبه ، وشعر تألّق مبناه وفسد مضمونــه ، غير أن الأول يُسْهم في نهوض الأمم ، خِلافَ ما يصنعه الآخر ، وهو لذلك يُفضّل عليه تفضيلاً كبيراً .

= وقد تقدم في الفخر ، وانظر شعر النعمان ١٠٠ - ١٠١ وقد مضت الأبيات في المدح .

١) يقول الجاحظ : « وقال بعضهم - وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه - لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه » (البيان والتبيين ١/١١٥ الطبعة الثالثة) بتحقيق عبدالسلام هارون . ويقول ابن طباطبا : « وكم من معنى حسن قد شين بعرضه الذي أبرز فيه ، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح أنبه » (عيار الشعر ص ٨) . ويقول أبو هلال العسكري : « يحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ . . . لان الدار بعد على اصابة المعنى . . ولان المعاني تحل من الكلام محل الابدان ، والالفاظ تجري منها مجرى الكسوة وحرتبة إحداهما على الاخرى معروفة » (كتاب الصناعتين ص ٥١ طبعة الآستانة الاول) .

٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٦٢ .

وقد مرّت بنا عند الحديث عن « الإبداع الفني في شعر الفقهاء » أمثلة وافية من « شعر القمم » ، وأسوق الآن أمثلة أخرى من شعر المعاني المجرّدة .

فهذه نصيحة رشيدة يقدمها الدؤلي لابنه :

أحببْ إذا أحببتَ حباً مُقارباً ... فإنك لا تدري متى أنتَ نازعُ ؟
وأبغض إذا أبغضت غير مباعدٍ ... فإنك لا تدري متى أنت راجع
وكن مَعْدِناً للحلم واصفحْ عن الخنا ... فإنّك راءٍ ما حييتَ وسامع (١)

وهذه حقيقة راسخة يعرضها أبو الأسود أيضاً ، فليس أحد من الناس بضارٍ أحداً إلا بإذن الله :

رأيت أبا سَهْلٍ وما كنت مذنباً ... إليه ولا أني خرَقْتُ له سِتْرا
يريد فساد الرحم بيني وبينه ... فدونك قد أبلغت فيما أرى العذرا
فباعدْ طوالَ الدهر إن كنت صارماً ... لتضرر من لا تستطيع له ضُرّا (٢)

وهذه حكمة مستنيرة للإمام الشافعي :

أرى راحة للحقّ عند قضائه ... ويَثْقُل يوماً إن تركتَ على عَمْدِ
وحسْبُك حظاً أن تُرى غيرَ كاذبٍ ... وقولُكَ لم أعلم وذاك من الجَهْدِ
ومن يقضِ حق الجار بعد ابن عمه ... وصاحبه الأدنى على القرب والبعد

١) ديوانه ١٣٨ . ٢) ديوانه ص ١٥١ ، وأبو سهل جاره كان يؤذيه .

يعش سيداً يستعذب الناس ذِكْرَه وإن نابَهُ حقٌ أتَوْه على قصد[1]

وهذه حكمة أخرى له :

إذا لم أجد خلاً تقياً فوحدتي ألذ وأشهى من غَوِيٍّ أعاشره
وأجلِسُ وحدي للسَّفاهة آنساً أقرُّ لعيني من جليس أحاذره[2]

وهذه قاعدة أساسية في تحصيل العلم للإمام الشافعي أيضاً :

أخي لن تنال العلم إلا بستةٍ سأنبيك عنها مخبراً ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبُلْغة وصحبةُ أستاذ وطول زمانِ[3]

وكل ذلك شواهد على شعر المعاني المجرّدة ، ولعلنا لاحظنا صواب فيكتورها، وما تنزع إليه من الاخبار والتقرير ، ومن الشرود القريب من النثر .

ولعل من أبرز خصائص هذا الشعر ميله إلى « الخطاب المباشر » ، وقد مرّت بنا نصيحة الدؤلي لابنه ، وهي مما يتضح فيها هذا الميل ، ومن دون أبيات الدؤلي شواهد كثيرة ، فمن ذلك قول سابق :

إنْ كنتَ متّخذاً خليلا فتوقَّ وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً في الود فابْغِ به بديلا
وعليك نفسك فارعها واكسب لها عملاً جميلا
ومن استخف بنفسه زرعتْ له قالاً وقيلا

١) معجم الادباء ١٧/٣١٨ ، وقد قال الابيات بعد أن أخبر بمرض صاحب له . وفي الشطر الاخير من البيت الثاني : « وفوقك لم أعلم وذاك من الجهد » ترداد لمعنى طرفه عبدالله بن مسعود من قبل في قوله : من علم فليقل ، ومن لم يعلم فليقل الله اعلم . فان من العلم أن يقول لما لا يعلم لا أعلم » (التحرير الصريح ٢/١٠٩) . ٢) نور الابصار ٢١٤ ، وغرر الخصائص ٤٦٢ .
٣) مرآة الجنان ٢/١٦ ، وهدية الامم ١٢ ، ونسب في تعليم المتعلم ص ٢١٤ إلى الامام علي بن أبي طالب .

وأقلّ ما تجد اللئـــيم عليك إلا مستطيلا
والمرء إن عرف الجميـــل وجدته يأتي الجميلا[1]

فهو يعظ وعظاً صريحاً مباشراً ، ويكرر ضمائر الخطاب ، ومن أمثلة المخاطبة المباشرة أيضاً قول الامام الشافعي :

زِنْ مَنْ وزَنْكَ بما اتزنت وما وزْنكَ به فزِنْهُ
مَنْ جا إليك فرُح إليه ومن جفاك فصُدَّ عنهُ
مَنْ ظنَّ أنك دونـه فاترك هواه إذن وهِنْه
وارجـع إلى رب العباد فكلّ ما يأتيك منه[2]

وجملة هذه الخطابات المباشرة وعظ ونصائح ، وكأنما أعيب اهتمام الفقهاء على إصلاح الناس أكثر من أن ينصب على اقتناص منهم بإخراج أشعارهم مخرّجاً حسناً ، ويجيئوه المباشرة الصريحة ، غير أن من الخير أن نتساءل ما ضير هذه المباشرة الصريحة ؟ وعلام يشتد في نقدها الناقدون ؟ إن ثمة قيماً يبتدعها الناس ثم يكون لها في أنفسهم وزن وهيمنة ، وذلك بعوقان الكثير منهم أن ينطلقوا ويحلّقوا بعيداً ، ليبصروا ـ في نظرة شاملة ـ حقيقة ما هم فيه ، ولو تمكنوا من تلك النظرة لرأوا المتهدي من قيمهم والسقيم والذي جعلوا له نصيباً من التقدير أكبر مما ينبغي له .

وقد لا يظلم الباحث المشتدين في نقد الخطاب المباشر إذا سلكهم في الذين يقيمون لأشياء وزناً أكبر مما ينبغي لها ، وإذا كان الشعراء الفقهاء قد عدوا ـ في بعض أشعارهم ـ وعظاً صريحاً فما كان يدفعهم إليه سوى إخلاصهم الصادق ورغائبهم أن يستوي من المجتمع كلّ عيوج ، والواقع أن كثرة الناس ردّوا نصائحهم بالعجاب ، ولا يزالون ، ويعلقون طائفة منها في بيوتهم ومحاشهم [3] ، ومن العدالة أن يلتفت الناقدون إلى ذلك ، ويفيدوا من هذا النقد « الشعبي » المريض .

١) تهذيب ابن عساكر ٦/٤٠ . ٢) نور الأبصار ٢١٤ .
٣) رأيت أبيات الامام الشافعي :

٢ ـ البساطة :

سوف يزداد انضاح النقد الشعبي عندما نلاحظ « البساطة » في ظاهرة النظم وهي بساطة تلقى في نفوس الكثرة الغالبة من المجتمع فهماً واستساغة ، ومن طبائع البشر أنهم كثيراً ما يستجيبون لما يفهمون .

وأول مظاهر البساطة سهولة الألفاظ ووضوحها ، وأسوق الآن عدة أمثلة ليس فيها كلمة غامضة ، قال أبو الأسود الدؤلي :

ذكرتُ ابن عباسٍ بباب ابن عامرٍ
وما مرَّ من عيشي ذكرتُ وما فضَلْ

أميران كانا صاحبيَّ كلاهما فكلٌّ جزاه الله عني بما عَمِلْ
فإن كان خيراً كان خيراً جزاؤه وإن كان شراً كان شراً كما فعل (١)

وقال ابن شبرمة :

إذا قلت جدُّوا في العبادة واصبروا أصَرّوا وقالوا للخصومةُ أفضلُ
خلافاً لأصحاب النبي وبدعةً وهم بسبيل الحق أعمى وأجهلُ (٢)

وقال الإمام الشافعي :

لما عفوتُ ولم أحقد على أحد أرحتُ نفسي من همِّ العداواتِ
إني أحيِّي عدوي عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحيّات

= « عفوا تعف نساؤكم في المحرم وتجنبوا ما لا يليق بمسلم »
مكتوبة بخطيط جيل في « كشك » في سامة التحرير بالقاهرة ، كما رأيت أبياته :
« إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى . . . »
في مواضع متفرقة من القاهرة وحلب . وسمعت الناس كثيراً ينشدون قوله : « شكوت الى وكيع سوء حفظي . . . » وغير ذلك من شعره أو شعر الفقهاء سواه .

١) خزانة الادب ١/٢٨٥ ، والأغاني ١٢/٣٢٢ وكان ابن عباس يكرمه بينما كان ابن عامر ـ فيما بعد ـ يجفوه لتشيعه . ٢) أخبار القضاة لوكيع ٣/ ٩ .

وأحسن البِشْرَ للإنسان أبْغِضهُ كأنما قد حشا قلبي محبات
ولستُ أسلم من خلّ يخالطني فكيف أسلم من أهل العداوات (١)

وقال أيضاً :

يا مَنْ يُعانق دنيا لا بقاء لها يُمسي ويصبح في دنياه سفّارا
هلا تركتَ لذي الدنيا معانقةً حتى تعانقَ في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها فينبغي لك ألا تأمن النارا (٢)

ومع السهولة في الألفاظ نجد البساطة في التراكيب فلا يكاد الباحث يرى في ظاهرة النظم صورة بارعة ولا إبقاعاً متناغماً ، ولا قوة تعبيرية متدفقة ، وإنما يجد كلاماً مرصوفاً يؤدي معناه حسب ، وكأنما هو يتحدث في الحياة العامة بلا صَنْعة ولا تزويق ؛ قال الدؤلي :

لعمري لقد وصّيْتُ أمسِ بحاجتي
فتىً غيرَ ذي قصدٍ عليَّ ولا رؤُفْ
ولا عارفاً ما كان بيني وبينه
ومن خير ما أولى به المرء ما عُرِفْ
وما كان ما رجّيت منه ففاتني
بأول خير من أخي ثقة صَرِفْ (٣)

وقال أيضاً :

جزى الله ربُّ الناس خير جزائه أبا ماعزٍ من عاملٍ وصديقِ

١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٨٧ وانظر أدب الدنيا والدين ١٦٧ وروضة العقلاء ١٤٧ .
٢) نور الابصار ٢١٤ — ٢١٥ . ٣) ديوانه ١٥٧ .

قضى حاجتي بالحق ثم أجازَها بصدقٍ وبعض القوم غير صدوق
ولمّا رآني مقبلاً قال : مرحباً ألا مرحباً واديك غير مضيق
بنى لك « عبدُ الله » بيتاً بيافعٍ على كل وادٍ حولَهُ وطريق [1]

وكتب ابن شبرمة إلى الحجاج بن أرطاة :

تنادَوا له : هل من خصيم، ودونه خصوم كثير ، والرياء قبيح [2]

وكتب إلى أخ له جفاه :

كلانا غني عن أخيه حياتَه ونحن إذا متنا أشد تغانيا [3]

ومن ملاح البساطة في ظاهرة النظم الفكر القريبة العامة فيها ، فليس يحتاج قارئها أن يغوص على دقيق معنى ، وليس يكدّ ذهنه بخفي عبارة ، فهذا النعمان يفخر بمجد قومه الذي يزيده خيراً ونبلاً ، وها هوذا يخلص لمن استقام في وده معه ويحذر الحاقد الخادع وزلله :

وبمجدٍ تليد قدّمتْهُ أوائلي أبى لي إلا عفة وتكرّما
أودّ صديقي ما استقام بودّه
وأحذر ذا الضغن الحتوفَ الملوّما [4]

ويهجو الدؤلي رجلاً ، فيصوّره كثير الكلام ، غير أن كلامه سخف وهذر ، ويبين أن من شر الرجال الأحمق الشرس :

لنا صاحب لا كليلُ اللسان فيصمُتُ عنا ولا صارمُ
وشرّ الرجال على أهله وأصحابه الحَمِقُ المارمُ [5]

ولعل من أهم أسباب البساطة في ظاهرة النظم تأليف طائفة منها ارتجالاً ،

١) المصدر السابق ١٦٤ . ٢) اخبار القضاة ٣/٩١ . ٣) روضة العقلاء ١٨٤ .
٤) شعر النعمان ١٢١ . ٥) ديوانه ١٣٣ ، والمارم : الفرس المؤذي .

وهو ارتجال لا يقبح الأذهان أن تقلّب الفكر وتستدبر كل وجوهها ، وتدر أن برع شاعر دون أن يجيّر قريضه وينقّحه ويبدّل بشائبه حسناً ومناشزه ساثراً متآلفاً ، وحقاً يسترسل الشاعر في بعض قصائده فتدفق بها انفعالاته أو تنساب بها تأملاته دون كدٍّ منه ولا روية ، إلا أن لاسترسال الشعراء دواعي وآفاتٍ ، وليس بمكنة شاعر أن ينطق بالدرر في كل حين ، ومن هنا يعود على نتاجه برقشٍ منه ما كان ناقصاً ، ويستوفي له ما استطاع من الكمال والجمال ، وأيضاً فإن مبقات الاسترسال بين الشعراء متفاوت ، فمنهم من يغلب على كثرة شعره ، ومنهم من لا يحظى به إلا قليلاً .

ومما قاله الشعراء الفقهاء ارتجالاً أبيات لشريح بن الحارث الكندي قضى فيها بين جدّةٍ وأمٍّ في صبي توفي عنه أبوه ، وتزوجت من بعده أمه [1] .

وللإمام الشافعي مقطوعة نظمها عندما سمع بوفاة صديق له وأراد أن يمضي لعزائه ، فقيل له ، إن الموضع بعيد ، يقول فيها :

لئن بعدت دار المعزّى ونابه من الدهر يومٌ والخطوب تنوبُ
لمشيٌ على بعد على علّة الوَجا أدِبّ ومن يقضي الحقوق دَبوبُ
ألذّ وأحلى من مقال وخلفه يقال إذا ما قمت أنت كذوب
وهل أحد يمضي إلى عذر كاذب
إذا قال لم تأتِ المقال قلوب [2]

ومن الأبيات المرتجلة أيضاً ما أورده ابن عساكر في تهذيبه للدؤلي عندما اختصم وزوجه التي طلقها أمام معاوية في ولدهما [3] .

. . . .

١) انظر الابيات في أخبار القضاة ٢/٢١٠ ، وحلية ٤/١٣٥ ، وطبقات ابن سعد ٦/١٣٧ .
٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٠٣ .
٣) تهذيب ابن عساكر ٧/١١٣ .

فالى جانب الابداع الفني في شعر الفقهاء كان ثمة « تنظيم » كثير ، غير أنه – حتى نهاية العصر العباسي الأول لم يكن يبلغ مقدار الذي بلغه الابداع الفني ولم يكن يملك نصيبه ، ويتجلى النظم في النزعة العقلية وما أدّت إليه من استعراض أشياء علمية ، أو فكر مجرّدة ، كما يتجلى في البساطة وما تنزع إليه من الألفاظ السهلة ، والتراكيب اليسيرة ، والفكر العامة ، والارتجال في بعض الأحيان .

الفصل الثالث

شعر الفقهاء والمجتمع

١ – الشعر والحياة :

الشعر – كثيره من ظواهر الحياة – يمتّ اليها بأواصر شتى ، ذلك أن مادته التي تقوّمه منها ، وما نظر دارس في شعر قوم إلا تصوّر من بيئتهم ملامح ومعالم ، غير أنه لن يتصوّر كل ملامحها ومعالمها ، بل يحتاج إن أراد ذلك أن يكشف على آثارهم الاخرى ، إضافة إلى الشعر ، فيدرس كتب عقائدهم وفقههم وقوانينهم وتاريخهم وفلسفتهم واجتماعهم وأدبهم النثري ونتاجهم الحضاري وما تُرك لهم من شيء يهدي اليهم . وليس من مهامّ الشعر أن يجمّعي تلك الجوانب ويسجّلها بأمانة للأجيال ، وليس من طبيعته أن يفعل ذلك ، حتى الذي يتناوله منها إنما يتناوله – في أغلب الأحيان – وهو منفعل تأثر او متأمّل حالم ، وكلتا الحالتين تبتعد بالقريض أن يعكس حياة بيئته عكساً مطابقاً ، وتأتي أجنحة الخيال الشعري فتطير به ، وتزيد من شقّة الخلاف مع الواقع .

وكان فريق من الباحثين والأدباء والفلاسفة دعوا الشعراء ليضاعفوا اهتمامهم بمجتمعهم (١) ، فأحسنوا الدعوة ، فإن من واجب هؤلاء الأذكياء أن يشعروا بآمال الناس وآلامهم ، وهمومهم وأشواقهم ، وشؤونهم كافة ، وان يجعلوا دكاءهم في بناء المجتمع لا في إنكاسه ، وإرشاده لا إرداته ، فما أكثر أنّ تتنوّر قوم بذكائهم فاهتدوا وهدوا ، وما أكثر أن ضلّوا عنه وأضلّوا . ولكنّ باحثين آخرين حاولوا أن يلزموا الشعراء بمجتمعهم إلزاماً خانقاً ، فردّ عليهم أمرهم ، وسقطوا في خطئين ، أولهما غموض تصوّرهم للمزاج الشاعري الذي يهوى أن يبدع في حريّة وطلاقة ، وثانيهما غفلتهم عن أنّ الذين يتغنون بأمانيّهم وأحلامهم ويندبون لأشجانهم وتراحيم ،

١) انظر التيارات المعاصرة في النقد الأدبي للدكتور بدوي طبانة (الطبعة الثانية) ٣٥ ، والادب والمجتمع لمحمد كمال الدين علي (القاهرة ١٩٦٢) ص ١٠ .

حتى لو كانوا من أهل « الفن للفن »، إنما هم في مجتمع محيط، وأن آثارهم - مهما عافت المشاكل الاجتماعية - ليست إلا تصويراً لجوانب من تلك المشاكل.

ويمكن القول إن الماركسية المادية كانت من أشدّ دعاة الإلزام الاجتماعي، إذ عادت الأدباء أن يجعلوا فنهم سلاحاً في الكفاح الطبقي [1]، وبعضت تعد الآداب والفنون انعكاساً لأوضاع الاقتصاد في المجتمع [2]، وتؤكد أن هذا الاقتصاد أساس أو « بناء أدنى » يقوم من فوقه كلّ المثل الفكرية والثقافية، وأن التناقض والصراع يتحكمان في بناء المجتمع الأدنى وفي بناء المجتمع الأعلى [3]. وقد حاول بعض الدارسين أن يُقحموا هذه الآراء لا في أدبنا الحديث فحسب، بل أيضاً في أدبنا العربي القديم، فاندفع الشوباشي يقسم المجتمع الاسلامي في عصر الأمويين قسمين أبترين، ويفسّر الحركات الدينية فيه تفسيراً مادياً، ويقول: «كانت الأمة العربية تنقسم في عصر الأمويين إلى طبقتين رئيسيتين: طبقة ذوي السلطان والمال، وطبقة الجياع المراة... لم يكفّوا (الفقراء) عن مقاومة الحكم الاموي، ولكن نضالهم الثوري السياسي الطابع الاقتصادي الهدف تغلف بالمعتقدات الدينية، مسايرة لاتجاهات العصر، فظهرت الأحزاب في شكل أحزاب مذهبية يعتنق كل منها مبادىء لبسوه عقيدية، وهي في حقيقة أمرها سياسية اجتماعية» [4].. وينتقل إلى العصر العباسي فاذا المال - في رأيه - قوة ليس كمثلها قوة، وإذا هو عصر « تحكمت المطامع في الضمائر ودارت المعارك ضارية في سبيل المال والسلطان... أما شعراء ذلك العصر وأكثرهم ارتفع بأدبه من الطبقة الدنيا إلى الطبقة الوسطى، فيعبرون - على الأغلب - عن معتقدات هذه الطبقة الأخيرة ويبرّرونها بمختلف التبريرات» [5]. وعلى نحو ما حاول أن يفرض الشوباشي المصطلحات المعاصرة كالنضال الثوري والطبقة الدنيا والوسطى على الأدب القديم كان كلما لمح للاقتصاد أثراً ألبسه كسوة المفاهيم الحالية من مثل الفلسفة التجريبية الوافعية [6] والتفاوت الطبقي [7] وفكرة أن الحياة

١) انظر فن الشعر للدكتور احسان عباس (الطبعة الثالثة) ص ١٢٦.
٢) انظر الادب والفن في ضوء الواقعية لفريفيل، ترجمة الشوباشي (طبع دار الفكر العربي) ص٥٨
٣) الادب والفن في ضوء الواقعية ١٤٠. ٤) الادب ومذاهبه للشوباشي (الهيئة المصرية العامة) ٥٥ و٥٦. ٥) الادب ومذاهبه ٥٨ و٥٩.
٦) الادب ومذاهبه ٧٢. ٧) الادب ومذاهبه ٧٠.

صراع بين الناس [1].

ومن الحقّ أن تقسيم المجتمعات الاسلامية هذه القسمة الطبقية ينطوي على غير قليل من الحيف والاجحاف، فالى جانب أن « حجار الطبقات مرن ينفتح في كل جيل لطائفة من الأمة يدخلون منه أو يخرجون. ويتبدّلون من ثمّ طبقة غير الطبقة، وعملاً غير العمل في المجتمع أو البيئة» [2]؛ فان من الخطأ أن يظن باحث أن الشعر - حتى في المجتمعات الطبقية - إنما هو حكر لطبقة واحدة دون سواها، وكذلك لا بدّ أن نتساءل: هل يبقى مجال القول رحباً فسيحاً إذا عُلّقت من دونه السبل إلا فيما كان من أمر طبقته الأدنين؟ أو ليس للأديب ذاتية مُنطلقة ومشاعر متميّزة؟ وإذا أعجبه من غير طبقته مُعجب؛ هل يملك مزاجه ألا يرضى عنه ويرتاح إليه؟ وأيّ الأسباب توارى خلف انتحار فلاديمير مايا كوفسكي، شاعر الثورة الروسية، عام ١٩٣٠ [3]، غير انحصار الحلبة أمامه وتقلّص الضمار؟ وعادا أدعى بألكسندر سولجنتسين، الأديب، إلى المنقلات السوفياتية، ثم النفي، إلا نحو اعتقاده بمناصرة الحقّ أنى وجده مما أعلنه في رسالته إلى مؤتمر الكتاب السوفيات عام ١٩٦٦ فقال: « لا أحد يستطيع أن يقطع الطريق أمام الحقيقة، أنا مستعدّ لمجابهة الموت لكي أتقدّم» [4]؛

ومن ينظر - بنصفة - إلى تاريخ المجتمع الاسلامي في تراثه « طبقات الشعراء »، أو « طبقات الصحابة »، أو « طبقات الفقهاء »، أو « طبقات المحدثين »، أو طبقات الفئات الأخرى التي اجتمعت على اختصاص واحد، غير أنه لن يجد فيه طبقات متنازعة في سبيل الاقتصاد متصارعة لوجهه، وما كان لأمّة قوام كيانها الايمان بالله، لا بالمادّة، أنْ تهوي في شقاق ليس ينبعث عن تلك القاعدة المريضة، بينما آيات الذكر الحكيم وأحاديث رسول الله ﷺ تتلى عليهم آناء الليل

١) الادب ومذاهبه ٥٩.
٢) الشيوعية والانسانية لعباس محمود العقاد (القاهرة - الطبعة الاولى) ص ١٣٩.
٣) انظر في جديدة للدكتورة عائشة عبد الرحمن (القاهرة ١٣٨٦) ص ٢٦٥.
٤) مجلة الصياد (شباط ١٩٧٤) ص ٦٩.

وأطراف النهار وتنهاهم أن يختلفوا (١ أويتهاجروا أو يتآذوا (٢)، في الوقت الذي تدعوهم أو يتعاونوا (٣) على البرّ والتقوى، ويتعاضدوا صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص.

وليس في هذا نكران لأثر الاقتصاد في الحياة والمجتمعات، إلا أن « النظرة الشاملة، تؤكد، وصحائف التاريخ تشهد أن الاقتصاد لم يكن قاعدة المجتمع الاسلامي ولا أساس انقسامه، ومن الخطأ أن نقحم نظريات عصرية في تاريخ قديم، ونفسّره على أهوائها، ونُسقط عظاماً نخيرة بمصطلحات لم تتولّد إلا بعدها بمئات السنين، ومن الخطأ أيضاً أن يظنّ دارس أنّ الأدب العربي في العصر العباسي أو غيره من العصور المتقدّمة كان يصوّر طبقة واحدة أو فئة واحدة، أو لا يعرض من المجتمع الاسلامي ملامح وسمات تمتّ إلى جوانبه شتى، وإنّ لم يكن يستعرض تلك الجوانب مُخصّصة مفصّلة، إذ ليس من طبيعته ذلك كما رأينا، وليس لباحث أن يطلبه منه.

٢ - صورة المجتمع الاسلامي في شعر الفقهاء:

ومن يقرأ في شعر الفقهاء يجد مصداق ما ذهبت إليه من استعراضه لجوانب شتى من المجتمع الاسلامي، دون أن يحصيها إحصاء ولا يفصّلها تفصيلاً، ومن تلك الجوانب فيه قائمةٌ من أسماء بلدانه، وأشتاتٌ من تضاريسه وطقسه ونباته وحيوانه وسكانه، وأطراف من العقيدة والعبادة، ومعيارٌ الانسان الصالح وغير الصالح، وحوادث سياسية، وشؤون فكرية، وجوانب مالية، وطائفة من العادات الاجتماعية.

---

١) من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » (سورة آل عمران ١٠٥) وانظر المسند ٣/٧٠ ...

٢) انظر أحاديث تنهى عن ايذاء المسلمين (المسند ١١/٦٠) وتضييقهم (رياض الصالحين ٣٨٧) والتحاقد بينهم (رياض ٣٩٥) والنميمة (رياض ٣٧٦) والتحاسد (رياض ٣٨٨) والغش (رياض ٣٩٢) وسوء الظن (رياض ٣٩٠) والشحناء (رياض ٣٩١) والتجسس (رياض ٣٨٩) والغيبة (رياض ٣٦٩) والغدر (رياض ٣٩٣) والافتخار (رياض ٣٩٤) ...

٣) انظر على سبيل المثال سورة الحجرات ١٠، والنحل ٧١، والمسند ١٤/١٠٤، و٧/٥٩، والزهد والرقائق ١١٨ ورياض الصالحين ١٦٧ و ١٧١، والتجريد الصريح ١/٩٠ و ١٠٢/١ ...

فمن البلدان الاسلامية في شعر الفقهاء الحجاز (١)، ومكة (٢)، والمدينة (٣)، ومِنى (٤)، والعقيق (٥)، وشوطئ (٦)، والشرى (٧)، وقُديد (٨)، وحُفَير (٩)، وغَمْرة (١٠)، وثُغْرة (١١)، وحِسْمَى (١٢)، وشِعب المُشاش (١٣)، وتلعة الرُّخَمة (١٤)، وقُنّة السُّلَمة (١٥)، وذو الأجارع (١٦)، والغَميم (١٧)، وضاحك وعُشُود (١٨)، والرَّوحاء (١٩)، واليمن (٢٠)، والعراق (٢١)، والطَّفّ (٢٢)، وواسط (٢٣)، والكوفة (٢٤)، وبغداد (٢٥)، وسرّ من رأى (٢٦)، والثوبة (٢٧)، وميْسان (٢٨)، وجِيّ (٢٩)، وجابلَق (٣٠)، والشام (٣١)، ودمشق (٣٢)، وهضاب بردى (٣٣)، ودَيْر سِمْعان (٣٤)، ودَوْمة (٣٥)، والجِسرين (٣٦)، ولبنان (٣٧)، ومصر (٣٨)، وطنجة (٣٩)، وأماكن أخرى، وكل ذلك يرسم للقارىء لوحة عريضة للديار الاسلامية تمتدّ من طنجة في المغرب حتى فارس في المشرق.

---

١) انظر أبياتاً للزهري في ترتيب المدارك ١/٥١٩ ٢) انظر ديوان أبي الأسود ١٨٥ وشعر عروة ٣٨٠. ٣) انظر شعر النعمان ١٠٩ و ١١٩ وسماها يثرب، وأبياتاً لزيد بن علي في تاريخ الموصل ٤٤، وشعر عروة ٢٨٣ وسماها طيبة. ٤) انظر شعر عروة ٢٨٣.

٥) انظر شعر عروة ١٧٥، والعقيق موضع بالمدينة. ٦) انظر شعر عروة ٣٥١ و٣٧٩

٧) شعر عروة ٣٠١. ٨) شعر النعمان ١٢٣. ٩) شعر النعمان ١٢٩.

١٠) شعر النعمان ١٣٩. ١١) شعر عروة ٢١٦. ١٢) شعر عروة ٢٩٤.

١٣) شعر عروة ٩٦ و ١٧٥. ١٤) شعر عروة ٩٦.

١٥) شعر عروة ٩٧. ١٦) شعر عروة ١١١.

١٧) انظر شعراً لابن هبة في الأغاني (دار الثقافة) ٩/١٤٧

١٨) شعر عروة ٣١٨. ١٩) شعر عروة ١٩١، وكل المواضع السابقة في شبه جزيرة العرب. ٢٠) شعر النعمان ١٣. ٢١) انظر شعراً لزيد بن علي في تاريخ الموصل ٤٤ وشعر عروة ٣٩٣. ٢٢) ديوان أبي الاسود ١٨٢. ٢٣) شعر عروة ٣٧٢.

٢٤) انظر شعراً لابن المبارك في الفهرست ٢٨٤. ٢٥) و ٢٦) انظر شعراً لابن أبي دؤاد في أخبار القضاة ٣/٢٩٩. ٢٧) شعر النعمان ١٤٢.

٢٨) ديوان أبي الاسود ١٤١، وهذه كما هو واضح، أماكن عراقية.

٢٩) ديوان أبي الاسود ١٠٩. ٣٠) ديوان أبي الاسود ١٩٠، وجي وجابلق بأصبهان

٣١) شعر النعمان ١٣٠. ٣٢) شعر النعمان ١٣٧. ٣٣) شعر النعمان ١٤٣.

٣٤) انظر أبياتاً لمحارب بن دثار في أخبار القضاة ٣/٣٢. ٣٥) شعر النعمان ١٥٣.

٣٦) شعر النعمان ١٤٢. ودومة والجسرين في الشام. ٣٧) شعر عروة ١٢٦.

٣٨) انظر أبياتاً للشافعي في معجم الادباء ١٧/٣٢٠. ٣٩) انظر أبياتاً للشافعي في =

وما إن يرجع القارىء بصره في تلك اللوحة الواسعة حتى تلقاه تضاريسها وجواؤها ، فهذه جبال القنان (١) ، والجرّد (٢) ، والإكليل (٣) ، وثبير (٤) ، وحِسْمى (٥) ، وهضابٌ بردى (٦) ، وسهولٌ منبسطة فسيحة (٧) ، وصحارٍ يرتدّ عنها الطرْف (٨) ، بينما يزدال سرابها (٩) ، وتنتشر في أماكن منها شتى سهوبٌ رملية وكثبان (١٠) ، وعلى فترات من الزمن يعُجُّ في سمائها غبارٌ خانق ثقيل (١١) ، وإذا ما حان الصيف وجدت فيها لفحاتٍ لهيباً محرقاً (١٢) ، فإذا مضى وحلّ الشتاء شهدت بعض المناطق تياراً بارداً يهبّ عليها من الشرق والشمال (١٣) ، وليس هو الوحيد في البلاد ، فثمة رياح أخرى هي الدّبور والجَنوب (١٤) ، وربما اشتدّت تلك الرياح وشكّلت إعصاراً يملأ الآفاق البعيدة (١٥) ، وما أكثر أن تزجي الرياحُ إلى الأراضي العطاش سحاباً (١٦) ، ينهمر عليها وابلاً (١٧) زكيّاً ، فإنْ لم يكن وابلاً فطلٌّ (١٨) ، ومن صيّب السماء تجري أنهار غزيرة كالفرات (١٩) ، وقد تذهب بكرور الأيام وتحول أودية كسيل حسين الغيث فحصب ، كمثل الثرثار (٢٠) ،

= مناقب الشافعي للبيهقي ٦٧/٢ . ١) شعر النمان ١٢٩ ، والقنان : جبل بنجد .
٢) شعر النمان ١٤٣ ، والجرّد في ديار بني سليم بالحجاز . ٣) شعر النمان ١٦٣ ، والاكليل في ديار همدان باليمن . ٤) شعر عروة ١٢٦ و ١٦٤ وانظر شعراً لابراهيم النخعي في مجالس ثعلب ١٤/١ ، وثبير : في ظاهر مكة .
٥) شعر عروة ٢٦٤ وحِسمى أرض بالبادية بها جبال شواهق لا يكاد القتام يفارقها . ٦) شعر النمان ١٤٣ . ٧) شعر عروة ١٦٦ .
٨) شعر النمان ٧٩ و ١٢٤ و ١٤٠ وديوان أبي الأسود ١٤٥ .
٩) ديوان أبي الأسود ١١٥ ، وشعر عروة ١٦٤ . ١٠) ديوان أبي الاسود ١١٥ وشعر عروة ١١٤ و ١٩٦ . ١١) شعر عروة ١٦٤ و ١٩٣ و ٢٥٣ .
١٢) شعر عروة ١٦٤ . ١٣) وهما الصّبا والشّمال ، انظر شعر النمان ١١٠ ، و ١١٧ ، وشعر عروة ١٥٠ . ١٤) شعر عروة ١٥٠ ، والدّبور : ريح تقابل الصّبا ، والجَنوب تقابل الشّمال . ١٥) ديوان أبي الأسود ١٤٥ .
١٦) ديوان أبي الأسود ١١٦ . ١٧) شعر النمان ١١٧ ، وديوان أبي الاسود ١٢٥
١٨) ديوان أبي الأسود ١١٥ . ١٩) شعر النمان ١٤٩ ، وانظر أبياتاً للشافعي في معجم الأدباء ٣١٠/١٧ . ٢٠) شعر النمان ١٤٩ ، وهو واد بالعراق .

وقَنَاة (١) ، وبَرَهوت (٢) ، وريم (٣) .

ودائماً ينضر بالغيث نبات مختلف ألوانه ، ويتناثر في لوحة المجتمع الإسلامي منه أيْنُك (٤) ، وخمائل (٥) ، ونُوّار (٦) ، ورَيْحان (٧) ، وخُزَامَى (٨) وأزاهير غيرها (٩) ، ورزّ (١٠) ، وشمير (١١) ، وعِنب (١٢) ، ونخيل (١٣) ، وبُرْسٌ (١٤) ، وأراك (١٥) ، وبَرير (١٦) ، وكَبَاث (١٧) ، وعَضا (١٨) ، وحَوْدان (١٩) ، وصابٌ (٢٠) ، ومُرار (٢١) ، وحَنْظل (٢٢) ، وثمام (٢٣) .

وكثيراً ما يلقانا في تلك الفياض والرياض وفي الصحارى والانهار حيوانات متنوّعة ، منها :

١) و ٢) شعر النمان ١٣٩ ، وقَناة واد بالمدينة ، وبَرَهوت واد باليمن .
٣) شعر عروة ٣٧٦ ، وريم واد بالحجاز . ٤) انظر أبياتاً للذؤلي في نهاية الأرب ٢٤٨/٢ ، والأيْنك : الشجر الملتف الكثير . ٥) شعر عروة ١٥٧ و ٢١٩ . ٦) شعر عروة ١٩٩ و ٢١٩ ، والنُّوّار : أزهار الشمس .
٧) انظر شعراً للشافعي في مناقب الشافعي للرازي ٢٠٦ . ٨) شعر عروة ٢٦٤ ، والخُزامَى نبتٌ أو خبيريٌ البَرّ زهره أطيب الأزهار نَفْحة .
٩) شعر عروة ٢١٩ ، وديوان أبي الأسود ١١٩ . ١٠) و ١١) انظر شعراً لابن المبارك في تاريخ ابن عساكر (المهذب) ٦ ـ . ١٢) ديوان أبي الأسود ١٩٧ .
١٣) شعر النمان ١٥٤ وانظر شعراً للشافعي في مناقب الشافعي للرازي ١٩٩ .
١٤) شعر عروة ٢٧٤ ، والبُرْس : القطن . ١٥) و ١٦) و ١٧) شعر عروة ٢٩١ ، والأراك : شجر يُستاك به ، والبَرير : ثمر الأراك قبل أن ينضج ، والكَبَاث : ما نضج منه . ١٨) شعر عروة ٢٩٣ وشجر الغضا مشهور بشدّة اتقاده . ١٩) شعر النمان ١٦٤ ، والحَوْدان : نبت له زهرة حمراء في أصلها صفرة . ٢٠) ديوان أبي الاسود ١٤٣ و ١٩٩ والصاب شجر مرّ مفرده صابة .
٢١) ديوان ابي الاسود ١٤٣ والمُرار شجر مُرّ . ٢٢) شعر النمان ١٠٤
٢٣) ديوان أبي الاسود ١٥٨ .

الابل (١) ، والخيل (٢) ، والمها (٣) ، والصيابر (٤) ، والضأن (٥) ، والمعز (٦) ، والغيرلان (٧) ، والنعام (٨) ، والظون (٩) ، والأسود (١٠) ، والثعالب (١١) ، والذئاب (١٢) ، والكلاب (١٣) ، والوعول (١٤) ، والحيتان (١٥) ، والثعابين (١٦) ، والحراني (١٧) ، وخشاش الأرض (١٨) ، والضب (١٩) ، والخطاف (٢٠) ، والجراد (٢١) ، والذباب (٢٢) ، ومن الطيور الحمام (٢٣) ، والقطا (٢٤) ، والقمري (٢٥) ، والحبارى (٢٦) ، والنسور (٢٧) ، والعقبان (٢٨) .

١) شعر النعمان ٨١ و ١٠٨ و ١٢٣ ، وديوان أبي الأسود ١١١ .

٢) شعر النعمان ٧٩ و ١٥٢ و ١٥٣ ، وانظر شعراً لابن عباس في حياة الحيوان ٣٧٩/١ ، وشعراً لشريح بن الحارث في كتاب نسب قريش ٤٤٧ ، وشعر عروة ٢٠٥.

٣) شعر النعمان ١٠٨ ، وشعر عروة ٨٠ و ١٢٨ و ٢٧٥ ، والمها البقرة الوحشية.

٤) ديوان أبي الأسود ١١٦ و ١٥٤ . ٥) ديوان أبي الأسود ١٤٧ ، وانظر شعراً للشافعي في حماسة الظرفاء ١٧٥/١ . ٦) ديوان أبي الأسود ١٣٧ .

٧) شعر النعمان ١٦٣ و ١٦٤ وانظر شعراً لابن عتبة في الأغاني (دار الثقافة) ١٤٥/٩ ، وشعر عروة ١١٤ . ٨) شعر عروة ١٥٨ و ٣٣٣ .

٩) شعر عروة ١٦٠ والظون : حمر الوحش . ١٠) ديوان أبي الاسود ١١٧ و ١٢١ ، وشعر عروة ١٧٨ و ٣٠١ . ١١) ديوان أبي الأسود ١٥٨ ، وشعر عروة ٢١٢ و ٣٠١ . ١٢) شعر النعمان ١٢٦ ، وديوان أبي الاسود ١١٨ ، وشعر عروة ٢٧٤ و ٣٠٧ و ٣١٠ . ١٣) ديوان أبي الأسود ١٥٠ و ١٦٧ ، وانظر شعراً لشريح في المحاسن والمساوىء ٢١٦/٢ . ١٤) ديوان أبي الأسود ١٦٢

١٥) شعر عروة ١٢٣ . ١٦) ديوان أبي الاسود ٢٤٠ وشعر عروة ٢٤٢.

١٧) شعر عروة ٢٧٥ . ١٨) شعر عروة ١٧٩. ١٩) شعر عروة ١٢٣

٢٠) انظر شعراً للشافعي في الفتوحات الوهبية ٢٥١ . ٢١) شعر عروة ٢٤٩ و ٢٧٥ . ٢٢) ديوان الامام الشافعي ٧٧ . ٢٣) انظر شعراً للدؤلي في نهاية الارب ٢٤٨/٢ . ٢٤) شعر النعمان ٧٩ و ١٥٢ ، وديوان أبي الاسود ١١٥ ، وشعر عروة ١٦٤ . ٢٥) شعر النعمان ١١٩ ، والقمرية ضرب من الحمام .

٢٦) ديوان أبي الاسود ١٨٨ . ٢٧) ديوان أبي الاسود ٢٥٠ .

٢٨) ديوان الامام الشافعي ٧٧ .

والغيرلان (١) ، والعصفور (٢) ، والبومة (٣) ، والأيتنق (٤) ، والبغاث (٥) .

وإذا عدنا لنتأمل لوحة المجتمع الاسلامي في شعر الفقهاء وجدنا فيها أشتاتاً من القبائل المعروفة تحيا وتدب في تلك البيئة المرسومة ، ووجدنا الأزد (٦) ، والأوس والخزرج (٧) ، واليمنيين (٨) ، وبني كلب (٩) ، والثعابين وقبائل معد بن عدنان (١٠) ، ونزار بن معد (١١) ، وحيي نزار ربيعة ومضر (١٢) ، وبني قشير بن كعب بن ربيعة (١٣) ، وقيس عيلان بن مضر (١٤) ، وخندف (١٥) ، وخزيمة (١٦) ابن مدركة بن إلياس بن مضر ، وكنانة بن خزيمة (١٧) ، وبني مالك بن كنانة (١٨) ، وبني بكر بن كنانة (١٩) ، وبني عبد مناة (٢٠) بن بكر ابن كنانة . وتغلب (٢١) ولؤي بن غالب (٢٢) بن فهر ، وقريش (٢٣) بن النضر بن كنانة ، وعبد شمس (٢٤) وهاشم (٢٥) .

١) انظر شعراً لابن عتبة في الأغاني « الثقافة » ١٤٥/٩ ، وشعر عروة ٢٦٦ .

٢) شعر عروة ٣٠١ . ٣) انظر شعراً للشافعي في مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ١٦ . ٤) شعر عروة ٢٣٢ ، والايتنق جمع الاتوق وهو طائر الرخمة .

٥) شعر عروة ٣٠١ ، والبغاث طائر دون الرخمة يطير الطيران يميل لونه إلى الغبرة.

٦) شعر النعمان ١٤٥ و ١٥٠ . ٧) شعر النعمان ١٥١ . ٨) شعر عروة ٩٠.

٩) شعر النعمان ١٣٥ . ١٠) شعر عروة ٩٠ و ١٣١ و ٢٠٨ و ٢٢٥ و ٢٣٥ و ٢٤٠ . ١١) ديوان أبي الاسود ١٨٢ . ١٢) شعر عروة ٢٢٧ . ١٣) ديوان أبي الاسود ١٨٢ . ١٤) شعر عروة ١٣١ و ٢٢٧ و ٢٣٤ . ١٥) شعر عروة ١٣١ و ٢٠٥ و ٢١٠ و ٢٢٥ و ٢٢٧ و ٢٣٤ ، وخندف بنت حلوان زوج إلياس بن مضر وقد نسب إليها بنوها . ١٦) شعر عروة ٩٠ . ١٧) شعر عروة ٢٢٥ و ٢٣٧ و ٢٤٠ . ١٨) شعر عروة ٢٧٨ . ١٩) شعر عروة ٢١١ و ٢٢٥.

٢٠) شعر عروة ٢٧٨ . ٢١) شعر النعمان ١٣٥ و ١٤٩ . ٢٢) شعر النعمان ١٨٥ . ٢٣) شعر النعمان ١٥٤ و ١٥٦ ، وشعر عروة ٨٩ و ١٣٥ و ١٣٦ و ٢٢٥ .

٢٤) شعر النعمان ١٥٧ . ٢٥) شعر النعمان ١٥٧ ، وديوان أبي الأسود ١٨٠.

ومن يدرس عقائد هؤلاء القوم من سكان المجتمع الإسلامي ؛ يجدهم قوماً ربانيين موحّدين مؤمنين بالله ، شاهدين أنه مالك الملك [1] الكريم [2] الرزاق [3] المنعم [4] المنّان [5] ، الرحمن [6] ، الرحيم [7] ، العفو [8] ، الغفور [9] الودود [10] المجيد [11] ، السبّوح [12] ، المحمود [13] ، الناصر [14] ، المعين [15] ، العزيز [16] ، الخالق [17] ، البارىء [18] ، الحازي [19] ، الحسيب [20] ، الموفّق [21] ، الحق [22] المبين [23] ، العظيم [24] ، الجليل [25] ، القدير [26] ، الخبير [27] ، الحكيم [28] العدل [29] ، المتعالي [30] ، له الحكم [31] ، وله الأمر [32] ، وله الفضل [33] ،

---

١) شعر النعمان ٨٥ .
٢) انظر شعراً للإمام الشافعي في هدية الأمم ٣٠ وحماسة الظرفاء ١/١٧٥ .
٣ و٤) شعر النعمان ٩٨ و ٩٩ . ٥) شعر النعمان ٨٥ . ٦) ديوان أبي الاسود ٢٢٩ . ٧) شعر النعمان ٩٢ ، وانظر شعراً لابن المبارك في تاريخ ابن عساكر (معهد) ج ٦ (عبد الله بن المبارك) . ٨) تاريخ ابن عساكر (معهد) ج ٦ (عبد الله بن المبارك) . ٩) و ١٠) شعر النعمان ٩٢ . ١١) و ١٢) و ١٣) شعر النعمان ٨٥ . ١٤) و ١٥) شعر النعمان ٨٢ . ١٦) ديوان أبي الأسود ١٥٣ . ١٧) انظر شعراً لمحارب بن دثار في أخبار القضاة ٣/٢٩ ، وشعراً للامام الشافعي في المناقب للرازي ٧٥ . ١٨) ديوان أبي الاسود ١٨٢ .
١٩) و ٢٠) انظر شعراً للدؤلي في الاغاني (الثقافة) ١٢/٣١٤ .
٢١) انظر شعراً لعمر بن عبدالعزيز في سيرة عمر بن عبدالعزيز ٢٣٠ .
٢٢) انظر شعراً لمحارب بن دثار في أخبار القضاة ٣/٢٩ ٢٣) انظر أبياتاً للشافعي في نور الأبصار ٢١٦ ٢٤) انظر ابياتاً للشافعي في نقيحة الأفكار ٨ .
٢٥) شعر النعمان ٨٥ . ٢٦) و ٢٧) و ٢٨) و ٢٩) انظر تاريخ ابن عساكر (المعهد) ج ٦ (عبد الله بن المبارك) . ٣٠) شعر النعمان ٨٦ .
٣١) شعر النعمان ٨٥ .
٣٢) انظر ابياتاً للدؤلي في الأغاني (الثقافة) ١٢/٣٠٦ ، وديوانه ٢١٠ .
٣٣) انظر أبياتاً للشافعي في حماسة الظرفاء ١/١٧٥ ، وهدية الامم ٣٠ .

وله الحمد [1] ، لا ندّ له [2] ، ذو العرش [3] ، الباقي [4] ، يقلب الليل والنهار [5] وهو الذي بنى سبعاً طباقاً ومن الأرض مثلهن [6] ، ومرج البحرين [7] هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج .

ومع إيمانهم بالله يؤمنون باليوم الآخر ، وانبعاث الناس من قبورهم ليوم الحساب والفصل [8] ، وشهادتهم هول ذلك اليوم العصيب [9] ، إذ تأتي كل نفس معها سائق وشهيد [10] ، ليس لها من دون الله من عاصم [11] ، وهنالك يشهد على المرء جلده وسمعه وبصره [12] بما قدّم من عمل ، يتلقى صحيفته الجامعة [13] ، فأما الأبرار الصالحون فيدخلون جنات لهم فيها ما اشتهت أنفسهم [14] من نعم باقية [15] ، ولؤلؤ وزبرجد [16] ، وحور عين [17] .

وأما المكذبون الضالون فيتهدون عذاباً مقيماً [18] ، ويطعمون ضريعاً وصديداً [19] ، وكلما رجوا مخرجاً من غمّ جهنم ردّدت على أسماعهم : « هل من مزيد » [20] ؟

وكما يؤمن المجتمع الإسلامي بالله واليوم الآخر يؤمن أيضاً بالأنبياء من لدن آدم حتى محمد عليه السلام ، ذلك أنهم بعثوا بحق [21] ، على حد تعبير القاضي محارب ابن دثار ، وبدهيٌّ أن يكون لصاحب الرسالة الخاتمة في قلوب القوم ميزة واختصاص ، ذلك أنه المختار [22] ، ليحمل عبء الدعوة ، ويبلغ البشرية هداها الرشيد [23] ، ومقاصدها الحكيمة [24] ، وقد ترك من بعده سنة فاضلة [25] ، يستنير بأشعتها

---

١) شعر النعمان ٨٧ . ٢) شعر النعمان ٩٤ . ٣) شعر النعمان ٨٥ .
٤) شعر النعمان ٩٨ . ٥) شعر النعمان ٩٥ . ٦) شعر النعمان ٩٨ .
٧) شعر النعمان ٩٢ ، وانظر أبياتاً لسابق في شعر الدعوة ٣٤٢ .
٨) شعر النعمان ٩١ . ٩) شعر النعمان ٩٣ . ١٠) و١١) و ١٢) انظر شعراً لابن المبارك في تاريخ ابن عساكر (المعهد) ج ٦ (عبدالله بن المبارك).
١٣) شعر النعمان ١٠٠ . ١٤) ديوان أبي الأسود ١٨١ . ١٥) شعر النعمان ١٠٠
١٦) انظر أبياتاً للشافعي في نور الأبصار ٢١٤ . ١٧) و ١٨) شعر النعمان ٩٠.
١٩) شعر النعمان ٩١ وانظر شعراً لابن المبارك في تاريخ ابن عساكر (المعهد) ج ٦ عبدالله بن المبارك . ٢٠) أخبار القضاة ٣/٢٩ . ٢١) شعر النعمان ٩٤
٢٢) شعر النعمان ٩٤ . ٢٣) شعر النعمان ٩٦ . ٢٤) شعر عروة ٩١ و ١٣٤.

العباد [1]. وقد أنزل عليه من ربه نوراً.

وعلى نحو اختصاص آخر الأنبياء بميزات ومكارم اختص القرآن في قلوب المؤمنين بمكانة عالية، فهو الآمر والناهي [2]، وهو الحكيم الصادق [3]، يهدي إلى الرشد [4]، ويفيض بالحكمة [5]، وينذر بالوعيد [6]، فتقشعر منه جلود الذين آمنوا [7].

والمجتمع الإسلامي يؤمن كذلك بالملائكة البررة [8]، وبقضاء الله وقدره [9]، ويؤمن أن ثمة مخلوقات أخرى هي الجن [10] وزعيمها إبليس [11].

ودائماً يدفعهم الايمان إلى جملة صالحة من العبادات كالصلاة [12]، والزكاة [13]،

---

١) انظر في سيرة عمر بن عبدالعزيز ص (٢٣٠) شعراً للخليفة العادل.

٢) شعر النعمان ٩٦. ٣) ديوان أبي الأسود ١٩٤.

٤) انظر شعراً لابن المبارك في العقد الفريد ٢/٤٧٤. ٥) شعر النعمان ٩٣.

٦) شعر النعمان ٨٩. ٧) انظر شعراً لعامر بن صالح في تاريخ بغداد ١٢/٢٣٥، وأبياناً لابن المبارك في تاريخ ابن عساكر (المهد) ج ٦ (عبدالله بن المبارك)

٨) انظر شعراً لزيد بن علي في المنتظم ١/٣٢٦، ولسابق في شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٣٩، وللشافعي في مناقب الشافعي للرازي ٧٩ و ٢٢٧، وروضة العقلاء ١٠٨. ٩) تاريخ ابن عساكر (ج ٦) عبدالله بن المبارك.

الجن صنف من المخلوقات لا يملك الإنسان من الحواس ما يستطيع أن يدركها بها، وقد أخبر الذكر الحكيم عن فريق صالحين من عالم الجن قد آمنوا برسالة محمد ﷺ وصدقوها، كما أخبر عن فريق ثان لم يؤمنوا، وهؤلاء هم المفاربت والشياطين المتمردون الذين لا يبالون الإضرار بمن سواهم، والوسوسة بخواطر السوء لبني آدم. قال تعالى يحكي كلامهم: «وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك، كنا طرائق قددا» (سورة الجن ١١). ١٠) ديوان الامام الشافعي ٢٧ ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/٨٩. ١١) انظر ابياناً لتبريح بن الحارث في المحاسن والمساوىء ٢/٢١٦.

١٢) انظر ابياناً للشافعي في مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ١٦.

١٣) شعر عروة ٢٨٣.

وحج البيت الحرام [1]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [2]، والجهاد في سبيل الله [3]، ونشر شريعته [4]، وطاعته [5] ومجانبة [6] ومهجران المعاصي والآثام [7]. وكذلك كان يزودهم بشحنة عامرة من المشاعر الشفيفة من ورع [8]، وتقوى [9] وخشية الله [10] وذكر له [11]، وثقة به [12]، وتوكل عليه [13]، ومن زهد [14] وقناعة [15] وعفاف [16].

وأيضاً كان للإيمان هيمنة نافذة في معيار الإنسان الصالح في المجتمع الاسلامي ومعيار القيم، فمن الخصال الصالحة التي يرتفع بها المرء درجات في نظر ذلك المجتمع الموحد أن يكون مسلماً [17] يخشى الله [18]، ويتوكل عليه [19]، رفيع السجايا طيب الشمائل [20]، متفكراً [21]،

---

١) شعر عروة ٢٨٣. ٢) انظر أبياناً لابن شبرمة في أخبار القضاة ٣/٩١.

٣) شعر عروة ٢٣٥ و ٢٤٣. ٤) شعر عروة ٢٨٦.

٥) شعر النعمان ٩٢، وانظر أبياناً للدؤلي في الأغاني (الثقافة) ١٢/٣٠٦.

٦) شعر النعمان ٩٠، و٩٧، واقرأ أبياناً لابن المبارك في أدب الدنيا والدين ص ٨٨

٧) انظر شعراً لابن المبارك في مختصر جامع بيان العلم وفضله ٨٥.

٨) انظر أبياناً لعبدالله بن المبارك في جامع بيان العلم وفضله ١/٢٣٦.

٩) انظر شعراً لسابق البربري في شعر الدعوة ٣٣٩ و ٣٤٠، وشعر النعمان ٩٠و٩٧

١٠) شعر النعمان ٩٢، وانظر أبياناً لأبي الأسود في أخبار القضاة ١/٢٨٩.

١١) انظر أبياناً لسابق في شعر الدعوة الاسلامية ٣٤١ و ٣٤٨.

١٢) ديوان أبي الأسود ١٢٨ و ٢٢٧. ١٣) المصدر السابق ١٢٩ و ٢٢٧

١٤) اقرأ أبياناً لابن شبرمة في تاريخ الاسلام للذهبي ٥/٢٩٣، ولابن المبارك في جامع بيان العلم وفضله ١/٢٣٦. ١٥) لابن المبارك في بهجة المجالس ١/٣٠٤

١٦) شعر النعمان ١٠٢. ١٧) ديوان أبي الأسود ١٢٨ و ١٥٠، وانظر شعراً لابن عتبة في الأغاني (الثقافة) ٩/١٣٩. ١٨) ديوان أبي الأسود ٢١٠.

١٩) المصدر السابق ٢١٠. ٢٠) انظر شعراً لابن المبارك في الورقة ١٦.

٢١) ديوان أبي الأسود ١٧٠، وشعر عروة ٢٤٥، وانظر شعراً لابن عتبة في =

عالماً (١) ، فقيهاً (٢) ، بصيراً (٣) ، متأنياً (٤) ، حليماً (٥) ، سديد القول (٦) ، خبيراً في تمييز سائله من فاسده (٧) حراً (٨) غني النفس وإن احتاج (٩) ، براً (١٠) ، مخلصاً (١١) ، صادقاً (١٢) وفياً (١٣) ، صابراً (١٤) ، واسع الخير ، كثير المعروف (١٥) ، صالح العمل (١٦) ، ناصحاً (١٧) حيياً (١٨) سهلاً ليناً لطيفاً (١٩) ، عفواً (٢٠) ، حافظاً للسانه غير ثرثار (٢١) ، حازماً (٢٢) ، شجاعاً (٢٣) ، أبياً للضيم (٢٤) ، متمهلاً إذا أحب ، متمهلاً إذا أبغض (٢٥) ، لا يستطيع الحقد إليه سبيلا (٢٦) .

ومن الخصال التي تهوي بالمرء إلى درك الذم والاستنكار أن يكون ضالاً (٢٧) ، ملوماً (٢٨) ،

= الاغاني (الثقافة) ٩/١٣٩ . ١) ديوان أبي الأسود ١٣٢ و ٢٢٥ .
٢) و ٣) المصدر السابق ١٤٣ ٤) و ٥) المصدر السابق ١١٨ و ١٣٨ و ١٨٣ و ١٨٥ ، وشعر النمان ١٠٧ ، وشعر عروة ٢٤٥ . ٦) شعر النمان ٩٣ .
٧) ديوان أبي الأسود ١٢٢ و ١٢٣ و ١٩٨ . ٨) ديوان أبي الأسود ١٧٠ .
٩) شعر عروة ١٢٠ . ١٠) ديوان أبي الأسود ١٥٣ .
١١) شعر النمان ١٠٧ و ١٢١ و ١٥٩ . ١٢) ديوان أبي الاسود ١٣٢ و ٢٠٠ .
١٣) المصدر السابق ١٩٨ . ١٤) المصدر السابق ٢٢٧ .
١٥) شعر النمان ١٠٧ وديوان ابي الاسود ١١٨ و ١٥٠ و ٢١٥ ، وشعر عروة ١٧٠ و ٢٤٥ . ١٦) شعر النمان ٩٣ .
١٧) ديوان أبي الاسود ١٢٨ و ١٤٣ . ١٨) المصدر السابق ١٥٠ و ٧٣ .
١٩) المصدر السابق ٢١٥ . ٢٠) المصدر السابق ٢٠٧ .
٢١) المصدر السابق ١٢٣ ، وانظر شعراً لابن المبارك في كتاب الورقة ١١ ، وفي ابن عساكر ـ ٦ (ابن المبارك) . ٢٢) شعر النمان ١٠٧ .
٢٣) شعر النمان ١٠٧ و ١٠٩ و ١١٠ . ٢٤) شعر النمان ١٢٢ و ١٤٦ .
٢٥) ديوان أبي الاسود ١٣٨ ٢٦) انظر أبياتاً للشافعي في أدب الدنيا والدين ١٦٧ .
٢٧) ديوان أبي الأسود ٢٠٠ . ٢٨) شعر النمان ١٢١ .

آثماً (١) مناقاً (٢) غادراً (٣) خائناً (٤) خبثاً (٥) كذاباً (٦) غاشاً (٧) فاسقاً (٨) منقاباً (٩) ، لئيماً (١٠) ، حقوداً (١١) ، حسوداً (١٢) ، مهين النفس ولو غمره المال (١٣) ، طاغياً إذا قدر (١٤) ، فظاً غليظاً (١٥) ، كثير الشر (١٦) ، بخيل إذا ملك (١٧) ، ويمن إن أعطى (١٨) ، مسرفاً (١٩) ، أحمق (٢٠) ، مغفلاً (٢١) جاهلاً (٢٢) سفيهاً (٢٣) يلج في المجادلة (٢٤) ويشتط في المزاح (٢٥) وينهى عن السوء ويأتيه (٢٦).

وكما تعرض صورة المجتمع الإسلامي في شعر الفقهاء جوانب من العقيدة والعبادات والقيم ، فإنها تعرض أيضاً مجموعة من الحوادث التاريخية والسياسية والفكرية مما كان يجري على مسرح ذاك المجتمع .

---

١) ديوان أبي الأسود ١٣٢ و ١٥٣ ، وانظر شعراً لسابق البربري في حلية الأولياء ٥/٣١٨ . ٢) ديوان أبي الأسود ١٨٢ .
٣) المصدر السابق ١٦٨ و ١٨٣ . ٤) المصدر السابق ١٦٦ و ٢٠٦ و ٢٢٤
٥) المصدر السابق ١٦٦ ، الخب : أي الخادع .
٦) المصدر السابق ١٣٢ و ١٦٦ و ١٦٨ و ٢٢٤ .
٧) شعر النمان ١٦٠ ، وديوان أبي الأسود ١٨٤ .
٨) انظر شعراً للدؤلي في نهاية الأرب ٣/٢٩٥ . ٩) شعر عروة ٢٩٧ .
١٠) شعر النمان ١٤٩ ، وانظر شعراً لسابق البربري في حلية الأولياء ٥/٣١٨ وشعر عروة ٣٤٥ . ١١) شعر النمان ١٢١ . ١٢) ديوان أبي الاسود ٢٣٢ وشعر عروة ٢٩٦ . ١٣) شعر عروة ١٢٠ . ١٤) شعر النمان ١٤١ .
١٥) ديوان أبي الأسود ١٨٢ و ٢١٥ . ١٦) شعر عروة ١٢٢ .
١٧) ديوان أبي الأسود ١٣٣ و ١٣٧ . ١٨) المصدر السابق ١٤٩ ، وشعر عروة ٣٣٣ . ١٩) شعر عروة ١١٦ . ٢٠) ديوان أبي الأسود ١٣٣ و ١٣٧
٢١) المصدر السابق ١٩٩ . ٢٢) المصدر السابق ١٧٠ وانظر شعراً لمسعر ابن كدام في حماسة البحتري ٢٥٣ . ٢٣) ديوان أبي الاسود ٢٣٣ .
٢٤) و ٢٥) انظر أبيات لمسعر في حماسة البحتري ٢٥٣ . ٢٦) ديوان أبي الأسود ٢٣١ .

فالنعمان بن بشير ينتصر لعبدالرحمن بن حسان من مروان بن الحكم أن أقام عليه الحدّ من دون أخيه ، وكانا تهاجيا ، فيرفع الأمر إلى معاوية ، ويذكّره يوم السقيفة ، إذ كان بشير ، أبو النعمان ، أول أنصاري بايع الخليفة القرشي دون قومه ، ويذكره أيضاً بدر ، وما أبلى الأنصار فيها من بلاء حسن ، بينما كان يوم معاوية ، أو جلّهم ، في صف الخصوم ، ثم يسأله أن يأمر ابن الحكم ليجري القصاص على طرفي النزاع :

واذكر غداةَ الساعديّ الذي آزركمْ بالأمر فيها بشيرْ
فاحذر عليهم مثلَ بدر وقدْ مرَّ بكم يوم ببدر عسيرْ
إن ابن حسان له ثأرَ فأعطه الحقّ تصحّ الصدور[1]

ومحارب بن دثار يُفجع بعمر بن عبدالعزيز أمير المؤمنين فيندبه ويؤرخ وفاته بقوله :

أتانا من دمشق له نعيٌ فلما أن أناخ بنا دعينا
وأسمعنا المنادي من قريبٍ سراعاً راغبين وراهبينا
نبكّي الدينَ والدنيا جميعاً لخمسٍ كُنَّ من رجب بقينا[2]

وابن شبرمة يرتاع لانشقاق الصف العباسي الحاكم ، فيلوم عبدالله بن علي عمّ المنصور ، أن ثار على بني أبيه - على حد تعبيره - وأورثهم الضغائن والأحقاد[3] ومعنى هذا أن شعر الفقهاء لم يغفل التجمّعات السياسية لعصره ، ويؤكد هذه الظاهرة فيه أنه لم يعرض لثورة عبدالله بن علي في العصر العباسي فحسب ، وإنما أيضاً لجملة الفرق التي انبثت آنذاك في المجتمع الإسلامي . فهو ، مثلاً ، يعالج السيدة عائشة وطلحة والزبير علناً بدم عثمان ، رضوان الله عليهم ، يسجّل هذا الخلاف[4] ، ثم تظهر على مسرح السياسة نظريات متعدّدة في الحكم ، ويكون لكل

١) شعر النعمان ١٤٤ .
٢) أخبار القضاة ٣/٣٣ .
٣) انظر الأبيات في أخبار القضاة ٣/٩٤ ، وقد تقدمت عند الحديث عن الفقهاء .
٤) انظر ديوان أبي الأسود ٢٣٠ .

منها أنصار مؤيّدون ، وفي شعر الفقهاء يلوّح بطائفة صالحة منها .

ويُعدّ الشيعة من أقدم الفِرَق المتألقة في الإسلام ، وقد تعرّض الذين ناهضوا الأمويين منهم - بعد مقتل الإمام علي رضي الله عنه - إلى بعض الاضطهاد أو الهوان - وفي أبا الأسود الدؤلي يشكو من إهمال زياد بن أبيه له ، بعد أن آل أمر العراق إليه فيقول :

رأيت زياداً صدّ عن بوجهه ولم يَكُ مردوداً عن الخير سائلُهْ
ينفّذُ حاجات الرجال وحاجتي كداء الجوى في جوفه لا يُزايله
فلا أنا ناسٍ ما نسيت فآيسٌ ولا أنا راءٍ ما رأيتُ ففاعلُه
وفي اليأس حزم للبيب وراحة من الأمر لا يُنسى ولا المرء نائله[1]

وفي موضع آخر من ديوانه يرثي الحسين بن علي ومن أصيب معه من بني هاشم في الطف فيقول :

أقولُ لعاذليّ مرّة وكانت على وُدّنا قائمة
إذا أنتِ لم تبصري ما أرى فبيني وأنت لنا سارمة
ألستِ تَرَيْنَ بني هاشم قد افتنهمُ الفئة الظالمة
فأنتِ ترثيهمُ بالهُداء وبالطفّ هامُ بني فاطمة
فلو كنت راسخةً في الكتاب وبالحرب خابرةً عالمة
علمت بأنهم معشر لهم سبقت لعنةٌ حاتمة
سأجعلُ نفسي لهم جُنّةً فلا تكثري لي من اللائمة

١) المصدر السابق ٢١٩ ، والجوى : المرض المتطاول ، وما نسيت وما رأيت : أي مدة نسياني ورؤيتي ، بمعنى مدة بقائي حياً أنسى وأرى .

أرجّي بذلك حوضَ الرسو ل والفوز بالنعمة الدائمة
لنهلك إن هلكت برّةً وتخلص إن خلَصَتْ فاتمة [1]

على أن الشيعة حاولوا من جانبهم قلب نظام الحكم ليؤول شيعيـاً علوياً ، وممن سعوا إلى هذه الغاية زيد بن علي ، وكان قد وخرج بالكوفة سنة ١٢٢ هـ ... وتابعه بشر كثير فيهم أهل العلم والسِّير .. وكتب زيد إلى أهل الموصل ، وبعث إليهم رجلاً يدعوهم إليه ، فقتله يوسف بن عمر في صفر في هذه السنة [2] ، وزيد هو الذي يقول :

خليليَّ عني بالمدينة بلّغا بني هاشم أهل النهى والتجارب
لكل قتيل معشر يطلبونه وليس لزيد بالعراق بطالب [3]

وإلى جانب الشيعة كان في المجتمع الإسلامي خوارج كثير ، وبدهي أن يختلفوا مع الشيعة ، وفي ديوان أبي الأسود أبيات يستنكر فيها على نصر بن مالك خروجه مع الحَرُورية أو « العوراء » على حد تعبيره ، يقول فيها :

لعمرك ما نصرٌ فلا تحسبنّه من المسلمين بالقويِّ ولا الجلْدِ
خرجْتَ مع العوراء تلتمس الهدى وكان الهدى فيما تركت على عمد
وقد كان في الفرقان لو كنتَ باغياً
لنفسك منه ما يدلّ على الرشد [4]

وكما اختلف الخوارج مع الشيعة اختلفوا أيضاً مع الأمويين ، ويمكن القول

١) انباه الرواة ١/٢٠٠ ، وصارمة : هاجرة ، والهذاء : الهذيان ، والطف : أرض قرية من الكوفة وفيها كان مقتل الحسين . ٢) تاريخ الموصل ٤٤ .
٣) تاريخ الموصل ٤٤ . ونسب البيتان إلى ابن زيد يحي في رثائه ، وهو الراجح ، انظر هامش فوات الوفيات (مكتبة النهضة المصرية ، بتحقيق محمد محي الدين عبدالحميد) ١/٣٣٦.
٤) ديوانه ١٩٤ .

إن عهد أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بعد خير آونة للتهادن بين الفريقين ، ومما احتفظت به المصادر من تلك الفترة المستقرة مناقشة الخليفة العادل لرجل من الشراة يدعى عمراً كان قد وجّه إليه هذه الأبيات لما استخلف :

قل للمُوَلّى على الإسلام مؤتنفاً وقد يرى أنه رثُّ القُوى واهي
إنا شَرَيْنا بدين الله أنفسنا نبغي بذاك إليه أعظم الجاه
ينهى الولاة بحد السيف عن سرَفٍ كفى بذاك لهم من زاجر ناهي
وإن قصدت سبيل الحق يا عمراً آخاك في الله أمثالي وأشباهي
وإن لحقت بقوم كنتَ واعظهم في جور سيرتهم فالحكم لله [1]

فأجابه عمر بن عبد العزيز :

يا أيها الرجل المهدي نصيحته إن المحاسن والتوفيق بالله
إن كان أمر من السلطان تُنْكِرُه فما هوى الدين والإسلام بالواهي
هذا الكتاب كتاب الله نقرؤه مصدّق الوحي فينا آمر ناهي
فقد نزل الذي يبغي الهدى رهقاً عند الشريعة وهو العالم الداعي
الملك يا عمرو ملك الله خالقنا والحكم يا عمرو مردود إلى الله [2]

وكان مع الشيعة والخوارج والأمويين جماعة ابن الزبير ، وسوف نرى كيف دعا النعمان بن بشير إليه وبايعه ، وخاض معركة مرج راهط في صفوف أنصاره ، مما كان له أثر في مقتله بعدها ، وبدهي أن يكون لابن الزبير - شأن كل عظيم - خصوم مشاقّون ، ويمكن أن نعد من هؤلاء نصر بن عاصم الليثي الذي يصرّح في شعره بخلافه له [3] .

١) و ٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٢٩ - ٢٣٠ .
٣) انظر معجم الأدباء ١٩/٢٢٤ .

ومن الفِرَق التي ألمح إليها شعر الفقهاء المرجئة، وممن يعد فيهم محارب بن دثار وكان لا يرى خيراً في تأخير خلافة الإمام عليّ إلى المرتبة الرابعة بعد أبي بكر وعمر وعثمان ويقول في ذلك :

يعيب عليّ أقوام سفاهاً لإرجائي أبا حسن عليا
وإرجائي أبا حسن صوابٌ على العُمَرَيْنِ برّاً أو شقيا (١)

وهو لا يريد من تأخيره على هذا النحو انتقاصاً من قدره ولا مذمّة، وكل ما ينبغي احترام السلف الصالح، وترك الحكم على أفعالهم لمن له الحُكْم، وألاّ ينالَ سائر الصحابة بسوء من أجل أن تبيّن مكانة الإمام علي، وهو يستنكر أن يتخاصم الناس في قوم مضوا وقضوا، ولا يعلم مصيرَهم عند بارئهم أحد، يذكّر ينجون هم إن عُذّب الماضون السابقون، ويبرؤون من أن يرموهم بسوء إذا كانوا على هدى وبصيرة :

مضى عمر وصاحبه حميداً هما فازا بحكمهما هنيئا
فلما أكثروا حدثتْ أمور أراني عن تسنّمها غنيا
وسار الناس بعدهم صفوفاً يطاعن بعضهم بعضاً مليا
فإن تابعت هذا قال هذا أسأتَ وكنت كذاباً مسيئا
فإن خِفْتُ الإلهَ وصُنْتُ ديني
دعيت بهيمةَ يُدعى نضيا
لقيلي لست أدري ما فلان وأين يصير إذ حضروا جثيا ؟
إلى الفردوس يخلد أم تراه إذا استعر الجحيم لها صليا ؟
وما كان ابن عفان رسولاً وما إن كان صاحبه نبيا

١) أخبار القضاة ٣/٢٩ ، والاغاني (دار الكتب ١٩٣٥) ٧/٢٤٨ .

هما عبدان إن هلكا بذنب نجوتُ من الذي ركبا بريا
فإنْ سلما سلمتُ لقيل عدل ولم أنحلهما قولاً فريّا (١)

ويعد المعتزلة من أبرز الفرق الفكرية التي عرفها المجتمع الإسلامي، ومعروف ما تورّطوا فيه من امتحان العلماء واضطهادهم في مسألة خلق القرآن، وكان الامام أحمد بن حنبل ممن أصابتهم شظاياها إصابات جعلته يلوم أشدّ لوم دعاة الفتنة والمستجيبين لها (٢).

وعلى نحو ما تبديه صورة المجتمع الاسلامي في شعر الفقهاء من الحوادث التاريخية والسياسية والفكرية تستعرض طائفة من الشؤون المالية، فنجد القوم ينشطون في أعمال مختلفة من أجل أن يكسبوا معاشهم، ومما ذكره شعر الفقهاء من تلك الاعمال التجارة (٣) وصناعة النسيج (٤) والأسلحة (٥) ونقش الدراهم (٦) والاحتطاب (٧) وحفر الآبار (٨) والنحت بالفأس (٩) والقضاء (١٠) والطب (١١) والكحالة (١٢) والاصطياد (١٣) والتحميم (١٤).

وإذا استمر القارىء يجيل الطرف في لوحة المجتمع الاسلامي من خلال شعر الفقهاء يقف على طائفة من العادات الاجتماعية لعهودهم، فمن ذلك أن منازلهم كانت مروحاً (١٥).

١) أخبار القضاة ٣/٣٠. ٢) انظر أبياتاً له في شعر الدعوة الاسلامية في العصر العباسي الثاني ٣٥
٣) ديوان أبي الأسود ١١١ و ١١٣ و ١٤٦ ، وانظر شعراً لابن المبارك في عيون التواريخ حوادث سنة ١٨١ . ٤) شعر النمان ١٢٢ ،
٥) شعر عروة ٢٠١ . ٦) شعر عروة ٢٤٥ . ٧) ديوان أبي الأسود ١٨٤
٨) انظر أبياتاً للامام الشافعي في مناقب الشافعي للرازي ١٩٩ .
٩) ديوان أبي الأسود ٢٠٥ .
١٠) انظر شعراً لابن شبرمة في عيون الاخبار ١/٦١ .
١١) شعر عروة ١٩٠ ، وانظر أبياتاً للشافعي في إتحاف السادة المتقين لمرتضى الزبيدي ٩/٥٢١ . ١٢) انظر إتحاف السادة المتقين ٩/٥٢١ .
١٣) ديوان أبي الأسود ١١٧ ، وشعر النمان ١٦٣ ، وشعر عروة ١٨٠ .
١٤) انظر شعراً لأبي حنيفة في الطبقات السنية ١/١٥٨ . ١٥) شعر عروة ٢٢٢

أو قباباً (١) أو خيماً (٢)، وكان معروفاً لدى رجالهم التمشّم (٣)، وعند نسائهم لُبْس الرَّيط (٤) والتحلّي بالحُجول (٥)، وشكّة الطِّياب (٦)، وكان من أسلحتهم الحربية السيوف (٧) والرماح (٨) والقِسِيّ (٩) والسهام (١٠) والدروع (١١) والتروس (١٢)، ومن عاداتهم الاهداء (١٣)، والمراسلة (١٤)، والتعزية (١٥)، والرحلة (١٦)، ومنع الجار (١٧)، والاستضافة (١٨)، وإتراع الجفان (١٩)، وإكرام الخيل (٢٠)، وبناء الخيام (٢١)، ودخولها بالمآزر (٢٢).

. . . .

١) شعر عروة ٢٥٩. ٢) شعر النمان ١٢٣، وشعر عروة ١١١
٣) شعر النمان ١٥٠. ٤) ديوان أبي الأسود ١٢٠، والرَّيط جمع رَيْطة وهي كل مُلاءة غير ذات لفقتين، كلها نسج واحد وقطعة واحدة.
٥) شعر النمان ١٥٢، والحِجْل : الخلخال.
٦) شعر عروة ٢٦٩، والطِّيابة سير يكون في أسفل القِرْبة بين الخرزتين.
٧) شعر النمان ١٠٥ و ١١٠ و ١٥٣. ٨) شعر النمان ١١٠ و ١٥٤، وانظر شعراً لزيد بن علي في المستطرف ١/٢٢٦، وشعر عروة ١٨٩.
٩) ديوان أبي الاسود ١٢٩، وديوان الامام الشافعي ١٥.
١٠) ديوان الامام الشافعي ١٥. ١١) شعر النمان ١٥٣، وانظر أبياتاً لعامر بن صالح في تاريخ بغداد ١٢/٢٣٥. ١٢) ديوان أبي الاسود ١٨٥، وشعر عروة ١٦٦. ١٣) ديوان أبي الاسود ١٩٥. ١٤) المصدر السابق ١٤٠ و١٩٩
١٥) انظر أبياناً للشافعي في تاريخ دمشق (معهد) ١٠/٢٠٧
١٦) شعر النمان ١٢٣ و ١٣٨ و ١٣٩، وديوان أبي الأسود ١١٦، و ١١٨، وشعر عروة ١٩٢. ١٧) شعر عروة ٢٥١. ١٨) شعر عروة ١٨٢ و ٢٠٤ و ٢٥٣. ١٩) شعر النمان ١١٠. ٢٠) انظر شعراً لابن عباس في حياة الحيوان الكبرى ١/٣٧٩.
٢١) و ٢٢) انظر شعراً لأبي حنيفة في الطبقات السنية ١/١٥٨.

ولا نظن أننا لو تكلفنا إقحام نظرية الطبقة في أدبنا العربي القديم كنا نخرج بمثل هذه اللوحة التي رسمها شعر الفقهاء، وما صوّرته المجتمع الإسلامي في ذلك العهد من جوانب شتى، عقدية وعبادية وخلقية وسياسية وفكرية واقتصادية واجتماعية، وهي جوانب تشهد للمجتمع الإسلامي القديم بغير ما شهد به الدكتور طه حسين حين مضى يعدّه القرن الثاني للهجرة «عصر شك في كل شيء... وعصر مجون وإباحة، وتهتّك في الحياة العملية وفي القول أيضاً»، (١)، وهو عصرٌ خير من يمثله - في رأيه - أبو نواس، وعصابة المجان بشار ومطيع والرقاشي وحماد عجرد ويحيى بن زياد وابن المقفع وأبان بن عبدالحميد (٢)، إذ افتتن الناس بأبي نواس في بغداد، وفي الشام ومصر حين ذهب إليها، وإذن فهو «لسانهم الصادق ومرآتهم الصافية (٣)»... أما الفقهاء وأمثالهم من المحافظين فقد كانوا يعكفون على علومهم ولا ينطقون بلسان أحد، ولا يعبرون عن رأي أحد، ومع ذلك لم يسلم بعضهم من أشنع تهمة على نحو ما يروى عن يحيى بن أكثم من روايات (٤).

ويمضي الدكتور طه حسين في تجريحه فيقول: «لقد آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه في أمر الرشيد، وأمثال الرشيد، فقد تحدثوا أن الرشيد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة، وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو، فظن ابن خلدون أن هذا وحده يكفي لتبرئة الرشيد مما أضيف إليه من أنه كان يلهو ويسكر. وكذلك ذكروا عن المأمون خلالاً نقية وخصالاً طاهرة، ربما صحّت كلها، ولكنها لم تمنع المأمون من أن يلهو ويشرب الخمر» (٥). ومع أن ابن خلدون عُرف بين المؤرخين بالتحقيق والنصفة، والباحث نفسه يشهد له بذلك (٦)، فإنه لا يلبث حتى يسمه بالميل والانحياز والتأثر بمجد القدماء، والاعجاب بالرشيد (٧)، وينتهي من العصر كما كان قد بدأ بأنه كان «عصر شك ومجون وكان عصر رياء ونفاق (٨)».

١) حديث الاربعاء ٢/٢٩. ٢) حديث الاربعاء ٢/٨٨. ٣) و٤) حديث الاربعاء ٢/٤٣
٥) حديث الاربعاء ٢/٤٣ - ٤٤. ٦) حديث الاربعاء ٢/٨٢.
٧) حديث الاربعاء ٢/٨٢ - ٨٣. ٨) حديث الاربعاء ٢/٤٤.

ومما يؤسف أن هذه الصورة التي رسمها الدكتور طه حسين لعهد الرشيد والمأمون تختلف اختلافاً تاماً عن الصورة التي رسمها له غوستاف لوبون عندما قال :

« بلغت بغداد ذروة الرخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد الشهير وابنه المأمون ، وصارت (بغداد) أمّ مدن الشرق ، وذاع صيت الرشيد ، وطبق الآفاق ، فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رُسُلاً إلى بلاطه ، وأرسل عاهل الغرب الحقيقي وصاحب الحَوْل والشَّوْكة الامبراطور شارلمان الذي كان يملك ما بين المحيط الأطلنطي ونهر الالب ، وهو الذي لم يَملك غيرَ أناس من الهَمَج ، وفداً ليبلّغ الرشيد أطيب تحياته ، ويلتمس منه الحماية لحجيج القدس ، فأجابه الرشيد إلى سؤاله ، وردّ إليه وفدَه مع هدايا عظيمة ومن بينها فيلٌ مجهّز بأفخر جهاز ، والفيل كانت تجهله أوربة تماماً ، ولآلىء وجواهر وحُليٌّ وعاجٌ وعطور ونسائج حريرية وساعة دقاقة تدل على الوقت وقد قضى إمبراطور الغرب شارلمان المحبّب من هذه الساعة هو وحاشيته المتبربرون الذين لم يكن بينهم من قَدَر على إدراك كُنْهها ، والذين حاول شارلمان عبثاً أن يحملهم على إحياء حضارة الرومان »[1].

ومن الحق أن المجتمع الاسلامي لعهد العباسيين الأوائل لم يكن مجتمع شك ولا مجون ، فقد كان الناس - كما رأينا في شعر الفقهاء - ينعمون بحلاوة الايمان وبرد اليقين ، وكانت مكارم الأخلاق تحفّهم بسياج آمن حفيظ ، وإذا كان الباحث قد وقف على أمثال أبي نواس ومطيع والرقاشي وحماد ... من عصبة المُجّان ، فما كان ينبغي له أن يعمم المصر كله بالاباحة ولا المجانة ، فقد كان يقابل هؤلاء في مجتمعهم مئات الصالحين وآلاف الأتقياء ، وإذا أردنا النَّصَفة وألقينا على تلك الحقبة نظرة شاملة أدركنا أن المارقين لم يكونوا يتجاوزون معشاره ولا أقل من المعشار ، واقرأ في تراجم العلماء والصالحين أعلام الموقعين لابن قيم ، وطبقات الفقهاء للشيرازي ، وطبقات الفقهاء لطاش كبرى زاده ، وطبقات فقهاء اليمن لابن سمرة الجعدي ، والطبقات السنية للغزي ، والفوائد البهية للكنوي ، والجواهر المضية للقرشي ، والديباج المذهب لابن فرحون ، وطبقات الشافعية للسبكي ، وطبقات الشافعية للأسنوي ، وطبقات

١) حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الرابعة) ص ١٧٢ .

الحنابلة لابن أبي يعلى ، وأخبار القضاة لوكيع ، وطبقات المفسرين للسيوطي ، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ، وطبقات الحفاظ لابن حجر العسقلاني ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ، ومشاهير علماء الأمصار لابن حبان ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ، والتاريخ الكبير للبخاري ، وميزان الاعتدال للذهبي ، ولسان الميزان لابن حجر ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ، وطبقات ابن سعد ، وصفة الصفوة لابن الجوزي ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ، والطبقات الكبرى للشعراني ، وطبقات الصوفية للسلمي ، وسير أعلام النبلاء ، وتاريخ الاسلام ، والعبر في أخبار من غبر ، للذهبي ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للخطيب ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، والفهرست لابن النديم ، وشذرات الذهب لابن العماد ، ومرآة الجنان لليافعي ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وفواته لابن شاكر ، والوافي للصفدي ، ومؤلفات التراجم الاخرى ؛ تقف على عشرات الآلاف من العلماء والفقهاء والقضاة والمفسرين والقرّاء والمحدّثين والبررة الأتقياء ، أفيرضى هؤلاء أن نرشّح عنهم أبا نواس ممثلاً ؟ .

حقاً لقد عرف المجتمع ماجنين وعرف مرتابين ، ويمكن أن نجمعهم معاً فنؤلفوا تياراً وحدهم ، ولكنْ ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن المجتمع الاسلامي كان يضم ثلثي الأرض لذلك العهد أو يكاد ، وليس غريباً أن يفتز من ملايين سكانه أفراد موزّعون أو عصابات متآمرون ، وليس غريباً أن نؤلف من هؤلاء الناشزين لفيفاً على مَسْلك واحد ، أو رأي واحد ، لكنا سوف نخطىء خطأً بعيداً إذا شغلنا أولئك عن المجتمع العريض كله ، وما كان في ذلك المجتمع من مواطنين راشدين ورعايا صالحين .

وكذلك لم يكن أبو نواس يمثل عصراً ، ولم يكن يمثل أمة ، إنْ يمثل إلا عصبة بائت من المجتمع بالسخط والاستنكار ، أوَ لَمْ يرو الباحث أن أبا نواس حبس في عصر الرشيد كما حبس في عصر الأمين[1] ؟ أوَ لم يكن أبو نواس ،

١) حديث الأربعاء ٢/١٣ ، وانظر قصة حبسه لمجونه في أخبار أبي نواس لأبي هفان بتحقيق عبدالستار فراج (مكتبة مصر) ص ٤٦ .

وعصابة الجبّان ، يتحرّون لوَيْلهم الليل [1] ، فيُدلجون ، وهم يترقّبون [2] ، إلى مَشْكرة نائية [3] ، حتى إذا بلغوها دُهر الخمّار [4] الطنبه إيام شرطة حكومية !! أوْ يقصدون بستاناً بعيداً [5] أو بعض الأديرة في الضواحي [6] ؟

وإذا كان أبو نواس قد وجد له في بغداد لعيفاً يحيا على منواله ، أو كان لا يعدم آخرين يرحبون به في الشام ومصر ؛ فهل معنى هذا أنّ الفقهاء وجماعة المحافظين كانوا في انزواء عن الناس وعكوف على علومهم لا يمثلون سواها ؟ شهد التاريخ أن هؤلاء العلماء كانوا يجْهرون في أقوالهم وأعمالهم في وضح النهار ، بينما كان الماجنون يستخفون ، وكان يجتمع إلى أئمة الدين خَلْق لا يحصون عـدداً ولا يُستقصى لهم منشأ ؛ وتروي الروايات أن مالك بن أنس مرّ ، في أثناء طلبه العلم ، على ابن حازم وهو يحدّث في المدينة ، فجازه ، ثم سئل عن ذلك فقال : « إني لم أجد موضعاً أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم » [7]. ولما بلغ مالك في علمه ما بلغ كان كما يقول ابن فرحون « كالسلطان له حاجب يأذن عليه ، فإذا اجتمع الناس ببابه أمر آذنه فدعاهم ، فحضر أوّلاً أصحابه ، فادا فرغ من يحضر أذن للعامة » [8] ، « وكان الغرباء يسألونه عن الحديث والحديثين فيجيبهم الفئة بعد الفئة » [9] ، وقد قصده قوم من أقاصي المغرب يسألونه [10] ، كما قد قصد أحمد بن حنبل « في بغداد » بقيّ بن مَخْلَد الأندلسي « على قدميه » ليأخـذ عنه [11] ؛ ولما توفي صاحب المسند « كانت الصفوف من الميدان (في بغـداد) إلى قنطرة باب القطيعة ، وحُزِر مَنْ حضرها من الرجال ثمانمائة ألف . . » [12] وكان في المجتمع من أمثال ابن حازم ومالك وابن حنبل علماء كثير كثير .

---

١) و ٢) و ٣) انظر ديوانه ٢١٣ . ٤) انظر ديوانه ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٢٤ ، ولا بأس أن نظر قوله :

إلى بيت خمّار ودون محلّه قصور منيفات لنا ودروبُ
ففُزّع من إدلاجنا بعد هجمة وليس سوى ذي الكبرياء رقيب

ديوانه ص ٢١٣ . ٥) انظر ديوانه ٢ ٢ و ٢٣٠ . ٦) انظر ديوانه ٢٣١ .
٧) حلية الأولياء ٣١٨/٦ . ٨) و ٩) و ١٠) الديباج المذهب ٢٣ .
١١) النهج الأحد للحليمي (مطبعة الندي) ١٧٧/١ . ١٢) صفة الصفوة ٢٠١/٢ .

أما الذي يروى عن يحيى بن أكثم فقد مر بنا عند الحديث عن الغزل أنما هو بهتان قذفه به خصومه ليعزلوه عن « وظيفته الحسّاسة » في الدولة ، ولقد برّأ يحيى من بهتانهم اثنان من كبار الائمة الثقات لذلك العصر هما أحمد بن المعدّل وأحمد ابن حنبل ، وكفاه شهادتهما ، ولكنّهب أنّه لم يحظ بتبرئتهما ؛ فهل يصحّ أن نزن بوزره أحداً من الفقهاء سواه ؟ أفتبني القواعد على الجمهور أم على الشذوذ ؟

وأما الرشيد والمأمون فإننا لا نخدع أحداً إذا نقلنا إليه ما سجّله التاريخ من أنّ ما كانا يتعاطيانه إنّما هو إلا ضرب من النبيذ ، لا الخمر ، ومعروفٌ مذهب فقهاء العراق فيه [1]. وإذا كان الباحث يأبى إلا أن يصمهما بمعاقرة أم الخبائث وبتهمها ، في جملة خلفاء القرن الثاني ووزرائه ، بالتناقض ، وأنهم كانوا يحْيون حيـاتين مختلفتين : حياةً المحافظة للشعب ، وحياةً الاثم لأنفسهم [2] ، فما كان له أن يرمي العصر كلّه بالمجانة ، لأن معنى « حياة المحافظة للشعب » أن ثمة سلطاناً قوياً يهيمن على المجتمع بعامته وحكومته وخليفته ليس يجرؤ على المجاهرة بخدْشه إلا المغامرون ، وهذا السلطانُ المهيمن هو الذي يمثل العصر لا نشوزُ الماجنين ولا خلاف المخالفين. وإنّ الرواة قد أثبتوا للرشيد والمأمون انصياعهما لذلك السلطان وحرصهم على تأييده وكتمان نفوذه ، فقد حبس الرشيد أبا نواس لاباحته كما رأينا وعزل المأمون قاضي دمشق لانزلاقه في كلمة باطلة [3] ، صنع أبيه من قبل .

---

١) قال ابن خلدون : « وإنما كان الرشيد يشربه نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ، وفتاويهم فيها معروفة ، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ، ولا تعتبد الأخبار الواهية فيها ، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند اهل الملة » (تاريخ ابن خلدون ١٤/١) . وقال طيفور للؤرخ : « كان المأمون يحضر يحيى ابن أكثم وهو يشرب فلا يسقيه ويقول : لو أراد يحيى أن يشرب ما تركته . وربما وضعت الصحفة قدام المأمون فيها مطبوخ ، ويحيى يأكل معه ، فيقول له المأمون : فيها مطبوخ ، اني لا أتركك قاضي بشرب النبيذ » (كتاب بغداد ١٤) . فالشراب الذي يتعاطاه المأمون هو النبيذ المطبوخ ، وهو ما يسمى بالطلاء ، أي النبيذ الذي طبخ حتى ذهب ثلثاه ، وبقي ثلثه ، وهو ما لا يرى بعض الفقهاء فيه بأساً . (انظر نهاية الأرب ١٠٦/٤) .
٢) حديث الأربعاء ١٣/٢ . ٣) روى طيفور عن محمد علي القمي قال : « كنا قدام أمير المؤمنين (المأمون) بدمشق فقفى عليه :

برئتُ من الاسلام إن كان ذا الذي أتاكَ به الواشون عني كما قالوا
ولكنّهم لمّا رأوك سريعةً إليّ تواصَوْا بالنميمة واحتالوا =

إن من سداد الكلام أن يقال في عصر هذا أمره : هو عصر انتباذ الخمر والإثم ، واستخفاء أصحابها وراء الحُجُب أو هروبهم من سلطان المجتمع إلى حيث ينجون منه بإثمهم بين المقابر والآكام والظلام ، وليس ثمة حاجة أن نتهم صاحب المقدمة ، فهو يكره الغرض والهوى كما يقول الدكتور طه حسين [1] ، وهو صريح الرأي ولو أدى به ذلك أن يسلكه بعض الدارسين في الذين جحدوا فضل العرب، قوم الرشيد ، وتعصّبوا عليهم [2] .

. . . .

وعلى هدي شعر الفقهاء وسيَرهم نستطيع أن نتصوّر موقفهم من الغناء وخلافهم لما ذهب إليه الدكتور نجيب البهبيتي في قوله : « كان علماء الدين في الحجاز يقبلون على هذه الموسيقى ويحبّونها ويقفون دروسهم لسماعها ، هذا في الوقت الذي كان العراق يتحرّج من الغناء ويتكره » [3] . ويقول في موضع آخر : « فالحجازيون كانوا يتعصّبون للغناء تعصّبهم للرأي ، والعراقيون يكرهون الغناء كراهة تزمّت وضيق أفق وانحصار تفكير » [4] .

ومن يَمُدّ إلى علماء الحجاز يجد بالفعل أئمة كانوا يحبّون الغناء ، ومن هؤلاء إبراهيم بن سعد الذي يحكى أنه كان يضرب بالعود [5] ، وعروة بن أذينة الذي كان يصوغ ألحان الغناء على شعره وينحلها المغنّين [6] ، وقد رجحت أن تكون جملة ما صاغ فيها في الفترات الأولى من حياته ، قبل أن يتفقه ، على أننا إذا تركنا ذينك الفقيهين وجدنا كثرة علماء الحجاز لا يتقبّلون هذه الموسيقا ولا يحبونها ولا يقفون

= فقال : يا علويه لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضي . فقال : أي قاض ويحك ؟ قال : قاضي دمشق. فقال : يا أبا اسحق اعزله . قال : قد عزلته . قال : فيحضر الساعة . فأحضر شيخ مخضوب . . . فقال (المأمون) : هذا الشعر لك ؟ قال نعم يا امير المؤمنين ، ونساؤه طوالق وكل ما يملك في سبيل الله ان قال هذا الشعر منذ ثلاثين سنة الا في زهد أو معاتبة صديق . فقال يا أبا اسحق اعزله ، فما كنت أولي رقاب المسلمين من يبدأ في هزله بالبراءة من الاسلام » . (كتاب بغداد ١٥٢) .

١) حديث الأربعاء ٢/٨٢ .
٢) انظر تيارات ثقافية بين العرب والفرس للدكتور احمد الحوفي (دار نهضة مصر) ٣٣٢ و ٢٣٨ .
٣) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري (القاهرة ١٩٥) ص ١٢١ .
٤) المصدر السابق ١٢٣ .
٥) نهاية الأرب ٤/١٦٧ .
٦) المستطرف ٢/١٤٨ .

دروسهم لسماعها ، ولا يبيحون من الغناء إلا ما كان بغير آلة [1] ، وقد سئل الامام مالك بن أنس « عمّا يترخّص فيه أهل المدينة من الغناء فقال : إنما يفعله الفسّاق » [2] وقد « نهى عن الغناء وعن استماعه وقال : إذا اشترى (المسلم) جارية فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب . وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده » [3] .

ومن الحقّ أنه لا بد أن ينظر الباحث في نوع الغناء الذي كان يقبله علماء الحجاز : أهو بآلة أم دون آلة ؟ وما صنف تلك الآلة ؟ وهل موضوع الغناء طيب حلال أو فاتن حرام ؟ وهل كانوا يستحبّون الغناء في مناسبات خاصة ذكروها أو كانوا لا يرون به أي بأس في أي وقت ؟

يقول ابن الجوزي : « الغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج . . . أشعاراً يصفون فيها الكعبة وزمزم . . . فسماع تلك الأشعار مباح . . . فأما الأشعار التي ينشدها المغنون المتهيئون للغناء ، ويصفون فيها المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرّك الطباع ويخرجها من الاعتدال . . . ينبغي للعاقل أن ينصح نفسه وإخوانه ويحذر تلبيس إبليس في إجراء هذا الغناء مجرى الأقسام المتقدّمة التي يطلق عليها اسم الغناء ، فلا يحمل الكل محملاً واحداً ، فيقول : قد أباحه فلان وكرهه فلان » [4]

وقد يؤيّد قولَ ابن الجوزي ما أخرجه عن الزبير بن بكار قال : « حدثني عمي قال : أدركت الناس بالمدينة وهم يغنون لحناً ينسبونه إلى عمر بن عبدالعزيز :

كأنْ قد شهدت الناس يوم تَقسّمتْ
خلائقَهم فاخترتَ منهن أربعا
إعارةَ سمعٍ كلَّ مغتابِ صاحبٍ وتأبى لعيب الناس إلا تتبّعا
وأعجب من هاتين أنّكَ تدّعي السّلامةَ من عيب الخلائق أجمعا

١) العمدة ١/١٨ .
٢) و ٣) تلبيس إبليس ٢٢٢ .
٤) تلبيس ابليس ٢١٥ .

وأنّك لو حاولت فعلَ إساءة وكوفئتَ إحساناً جحدتهما معاً[1]

وأغلب الظن أنّ "من" مال إلى الغناء من علماء الحجاز لم يكن بمجاوز مثل هذه الأشعار في اللوم النفسي والتهذيب الخلقي.

وإذن كان ينبغي للباحث أن يميز ما أحلّ سماعه وما حرّم، وألاّ يعمّم القول بإباحته على مالك وأمثال مالك ممن كانوا يرمون المترخّصين فيه بالفسق، ومن الغريب أنه ينعت أهل الحجاز بالتعصب للرأي، والمعروف أن أهل العراق هم الذين أعلوا من شأنه، وكان الامام العراقي أبو حنيفة، أكبرُ فقهاء الرأي في عصره، يقابل مالكاً فقيه الحديث في دار الهجرة في ذلك الحين.

٣ ـ محاولات لإصلاح الانحراف الاجتماعي :

رأينا عند الحديث عن « الشعر والحياة » أنّ من واجب الشعراء أن يرتقوا بالمجتمع من حولهم لا أن يرتكسوا به، ومن يطالع أشعار الفقهاء السالفة في الحكمة وغير الحكمة يجدهم يرسلون النصائح تترى لكي يتحلّى الناس بمعيار الانسان الصالح، ويتجنبوا الانتكاس في « خصائص المرء غير الصالح ».

وكان من إسهامهم في هذا الجانب الإصلاحي طائفة من النقد الاجتماعي لبعض الحُكام والبطالة والانشقاق الديني والانحراف في الزهد والميل في القضاء، ومعاقرة الخمر وجريمة السرقة وأساطير المنجمين.

فابن المبارك ينعى على عوج الحكام أو بعض الحكام وإيثارهم جيفة الدنيا على الآخرة فيقول :

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ وأحبارُ سوء ورهبانُها
وباعوا النفوس فلم يربحوا ولم تغلُ في البيع أثمانها

١) سيرة عمر بن عبدالعزيز ٢٣٠. وانظر في الغناء كتيب « حكم الاسلام في الغناء » للشيخ محمد الحامد (الطبعة الرابعة، دار الدعوة بحماه)، وأحياء علوم الدين ٢٦٦/٢ وما بعدها، ونهاية الأرب ١٥٦/٤ وما بعدها.

لقد رنّح القوم في جيفة يبين لذي اللبّ إنتانُها[1]

ويعود مرة أخرى فيتهمهم برقة الدين والإسراف في الاقبال على الدنيا فيقول:

أرى أناساً بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا بالعيش بالدونِ
فاستغنِ بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين[2]

وكان ابن المبارك كان يريد أن يقاطع هؤلاء الحُكام مقاطعة تامة، أو يغيّروا « قناعتهم بأدنى الدين » فوجه رسالته المشهورة إلى ابن علية لما ولي عملاً حكومياً في البصرة وكان فيها :

يا جاعلَ العلم له بازيا يصطاد أموال المساكين
احتلتَ للدنيا ولذّاتها بحيلة تذهبُ بالدين
وصرتَ مجنوناً بها بعدما كنتَ دواءً للمجانين
أين رواياتك فيما مضى عن ابن عون وابن سيرين
أين رواتك في سَرْدها في ترك أبواب السلاطين
إن قلت أكرهتُ فما كان ذا زلّ حمار العلم في الطين[3]

ويروى أن ابن علية بكى لما بلغته الأبيات واستعفى وقال :

أفٍّ لدنيا أبتْ تواتيني إلا بنقضي لها عرى ديني
عيني لحيني ضمير مقلتها تطلبُ ما ساءها لتُرضيني[4]

وكأنما كان لابن المبارك حساسية خاصّة في هذا الشأن، وهي حساسية لا

١) حلية الأولياء ٢٧٩/٨.
٢) كتاب الورقة ١٤، وبهجة المجالس ٣١٣/٢، والمستطرف ٩٠/١.
٣) الطبقات الكبرى للشعراني ٥٩/١ ومحاضرات الأدباء ٣٤/١ والورقة ١٥.
٤) « « « ٥٩/١ وطبقات الشافعية للسبكي ١٥٠/١.

تتبدّى في شعره فحسب ، بل أيضاً في حياته ، فقـــد وجاء عبدالله بن أبي العباس الطرسوسي ـ وكان والياً بمرو ـ إلى منزل عبدالله بن المبارك بالليل ، ومعه كاتبه والدواة والقرطاس . . . فسأله عن حديث فأبى أن يحدّثه ، ثم سأله عن حديث فأبى أن يحدثه ، ثلاث مرار ، فقال لكاتبه : اطْوِ قرطاسك ، ما أرى أبا عبدالرحمن يرانا أهلاً أن يحدّثنا ، فلما قام يركب مشى معه ابن المبارك إلى باب الدار ، فقال له: يا أبا عبدالرحمن ، لمَ لمْ ترَنا أهلاً أن تحدّثنا ، وتمشي معنا ؟ فقال : إني أحببت أنْ أذلّ لك بدني ولا أذلّ حديث رسول الله ﷺ » (١) .

وليس من شك أن مثل هذه الأعمال من أبي عبد الرحمن تدعو إلى التساؤل عن دواعيها عنده ، ولا سيما أنه عاش بين سنتي ١١٨ و ١٨١ ، وشهد ـ منذ استوى عوده ـ أيام أبي جعفر المنصور ثم ابنه محمد المهدي ثم الهادي بن المهدي ثم الرشيد أخي الهادي وابن المهدي ، وكلّهم تمتّع بكثير من عظيم الخصال التي ينبغي أن يتحلى بها الحاكمون ، وأغلب الظن أنّ أهمّ ما كان عبدالله بن المبارك ينقمه من هؤلاء توريثهم الخلافة وتوليتهم العهد ، وعلى الرغم من أن التاريخ يثبت للمنصور والمهدي والرشيد خاصّة ، ممن عاصرهم ابن المبارك ، محامد ومواهب ليس يُستبعد معها ألا ينتخب الناس سواهم لو انتخبوا ، فان استخلافهم بولاية العهد يخالف مخالفة صريحة لشريعة الاسلام ومنهاجه الذي يجعل الأمر شورى ، لا وراثة ، بين المسلمين ، فيتولى الحكم من هو أكفء له وأجدر به ، ولو كان عبداً حبشياً كأنّ رأسه زبيبة . ومن هنا أطلق عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق على هذا الخطأ التاريخي « سنّة كسرى وقيصر »(٢) لا سنة رسول الله ﷺ ، وقال سعيد بن المسيب لما دُعي للبيعة للوليد وسليمان بعد عبدالملك بن مروان : « لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار »(٣) ، واثنى عبدالله بن المبارك بعبدالرحمن وسعيد وكثير من أمثالهما فنقم نقمته العاتية . ومع هذا فانّ نقمته لم تكن جداراً صلداً ولا برزخاً حاجراً دون رضاء عمن تطيب سيرته وتحمد أفعاله من أولي الأمر ، فقد كان يشكر لمثل هؤلاء حراستهم لدين الله وعباد الله فيقول :

١) حلية الأولياء ٦/١٦٩ . ٢) تاريخ الخلفاء ١٩٦ . ٣) حلية الأولياء ٢/١٧٠

الله يدفع بالسلطان مُعْضلةً عن ديننا رحمةً منه ورضوانا
لولا الأئمةُ لم تأمنْ لنا سُبُلٌ وكان أضعفُنا نهباً لأقوانا (١)

ومن بدت في أشعارهم هذه النزعة الراغبة عن الملوك والحكام ، المفرطين منهم ، الامام الشافعي ، فهو ينهى أن يقف المرء على ابوابهم ذليلاً مَهيناً يَرتجي برّ الناس إن غضبوا عليه جاروا عليه ، وإن حظي برضاهم لم يلبثوا حتى يملّوه ويسأموه (٢) ، وأشعار الفقهاء في هذا المضمار وأشعار غير الفقهاء فيه ترد مزاعم الذين يقذفون تلك العصور المتقدّمة بأنها طبقة بلاط فحسب ، وهو بلاط يبسط جبروته على الشعراء فلا يشتغلون بشيء سواه (٣) ، ولا يَعدو مثل هذا القول ـ في الحقيقة ـ أن يكون رجماً بالغيب ، وجهلاً بتاريخ الشعر ، و « دعوى » ليس « يُؤيّـــدها أي برهان أو « بينة » ، بل يدحضها دحضاً ما رأيناه من تصوير الشعراء الفقهاء لجوانب متشعبة من أحوال المجتمعات الاسلامية ، لا من احوال البلاط ، ومواعظهم الفلاحقة للحاكمين وغير الحاكمين ، وحبّ الناس لهم حبّاً جماً مرّ بنا أمثلة منه في ابن حازم ومالك وابن حنبل ، وذكر ابنُ خلكان منه في أمر عبدالله بن المبارك الذي رأينا من قرب تبكيته المنحرفين منهم ، فقال : « قدم هارون الرشيد الرقة ، فشغل الناس خلف عبدالله بن المبارك ، وتقطّعت النعال ، وارتفعت النعرة ، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج الخشب ، فلما رأت الناس قالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبدالله بن المبارك ، فقالت : هذا والله الملك لا ملك هارون ...(٤)

وكما حمل الفقهاء على بعض المنحرفين من رجال الحكم حمـــل الدؤلي على البطالة ، وقد تقدّم نهيه لولده « عن كسل التمنّي »(٥) ، وحمل ابنُ المبارك على الانشقاق المهني ، وقد مرّت أبياته التي تحذّر المسلمين أن تتفرّق بهم السبل ، جماعة تنفد من أجل علي سابقيه من الخلفاء الراشدين ، أو تنالي تزعم أنه لم يمت وأنما

١) حلية الأولياء ٨/١٦٤ ، وانظر بهجة المجالس ١/٣٣٢ .
٢) انظر نتيجة الافكار ١١ . ٣) انظر الادب للشعب ٢٦ و ٦ .
٤) وفيات الاعيان ٢/٢٣٨ . ٥) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/١١٥ .

هو في السحاب ، وطائفة جهمية ، وأخرى مبتدعة [1] . ويستنكر أن يتهم في السالفين أحد فيقول :

شُغلي بقوم مضَوا ، كانوا لنا سلفاً وللرسول مع الفرقان أهوانا
فما الدخول عليهم في الذي عملوا بالظن مني وقد فرطت عصيانا [2]

ومما ناقضه ابن المبارك - سوى الاختلاف بين المسلمين - الانحراف في مفهوم الزهد وأن يظن أنه خشونة في المظهر أو نحو ذلك فحسب ، وقد مرّت بنا أبياته التي كتبها لأبي التناهية ينصحه بالجهاد ملازمة الثغر والتشدد فيه ، ويشبه هذه الأبيات رسالته التي أنفذها مع بعض الحجيج إلى الفضيل بن عياض سنة تسع وسبعين ومائة ، وفيها :

يا عابدَ الحرَمين لو أبصرتَنا لعلمتَ أنّك في العبادة تلعب
مَنْ كان يخضِبُ خدَّه بدموعه فنحورُنا بدمائنا تتخضّب
أو كان يُتعب خيلَه في باطل فخيولنا يوم الكريهة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عَبيرُنا رهَج السَّنابك والغبار الأطيب
لقد أتانا من مقال نبيّنا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبارَ خيل الله في أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميّت ، لا يكذب [3]

فهو ينكر أن يحول الزهد تعبّداً جامياً فحسب ، بل لا بدّ أن يذوق الزاهد طعم الجهاد فيرابط في الثغور ، ويدفع عن دار الإسلام أعداءه ، ولو أدمى به الأمر أن ينضخَبَ دماً ويجابه بأس المعارك ، ويشير ابن المبارك إلى الحديث

١) انظر طبقات الشافعية للسبكي ١٥١/١ ، وتاريخ ابن عساكر (المنهد) ج ٦
٢) تاريخ ابن عساكر (المنهد) ج ٦ .
٣) طبقات الشافعية للسبكي ١٥٠/١ والنجوم الزاهرة ١٠٣/٢ .

النبوي الذي رواه في كتابه « الجهاد » وهو : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخرَي عبد مسلم أبداً » [1] ، ويشير أيضاً إلى قوله تعالى : « ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يُرزقون » [2] .

وممن اشتدّ عليهم الإمام الشافعي بعض القضاة الذين يؤثرون عَرَض الدنيا على الدّين بدل أن يحكموا بالحقّ خالصاً [3] ، وأنكر أبو الأسود على مولى له أن يتعاطى الخمر ، ويأمره أن يستقي عنها بعصير العنب ، فكلاهما من النخيل ، غير أنها - خلاف العصير - لا يشربها إلا الغواة الآثمون :

وإنّ امرأً قد قال في الحقّ خُطّة لَمُلتَمِسٌ تصديقَها ببيانِها
دع الخمر يشربها الغواةُ فإنني وَجَدْتُ أخاها مُجزياً لمكانها
فإلاّ يكنها أو تكنه فإنه أخٌ أرضعته أمُّه بلبانها [4]

وعلى هذا النحو يأخذ أبو الأسود على السَّرَقة فعلتهم الشنيعة [5] ، ويهزأ بهم ، يقول لحارثة بن بدر الغداني لما خرج ليتولى « سُرَق ورامهرمز » اللتين ولاه عليها عبيد الله بن زياد وكان حارثة من أهل التراب :

أحارِ بن بدرٍ قد وَليتَ ولايةً فكُنْ جُرَذاً فيها تخون وتَسرق
ولا تحتقرْ يا حارِ شيئاً وجدْتَهُ فحظُّك من مال العراقين سُرَّق
وباهِ تميماً بالغنى إنّ للغنى لساناً به المرء الهَيوبةُ يَنطق [6]

ومن باء بسخَط الشعراء الفقهاء كذلك المنجّمون الذين يفترون على الكواكب

١) كتاب الجهاد ٤٣ . ٢) سورة آل عمران ١٦٩ .
٣) ديوانه ١٩ . ٤) ديوانه ١٨٩ ، وأخوها عصير العنب ، وقد يقصد نبيذ الزبيب ، ومعلوم أنه إذا طبخ أدنى طبخ حلال اذا شرب منه ، دون لهو ولا طرب ، ما يغلب على ظنه أنه لا يسكره (انظر اللباب ٨٤/٢) وانظر في حرمة الخمر وتقبيح شاربها شعراً كذلك لابن شبرمة في العقد الفريد ٣٣٥/٦ ، ويبين لابن عتبة في ديوان المعاني ٣١٤/١ .
٥) انظر الأغاني (دار الثقافة) ٣١٥/١٢ . ٦) وفيات الأعيان ١٨٩/٢ ، والعقد الفريد ٦٠/٣ . ونسبت في جمهرة أنساب العرب ص ١٨٥ الى أنس بن أبي انس .

زوراً ، والشافعي يبيّن أساطيرهم ويدحض شبُهاتهم ، فليس الأمر ولا القضاء إلا بيد الله القويّ العزيز :

خبِّرا عني المنجِّمَ أني كافرٌ بالذي قضتْه الكواكبْ
عالمٌ أنّ ما يكون وما كا ن قضاء من المهيمن واجب (١)

. . . . . .

فشعر الفقهاء يعرض لنا ظواهر صالحة من المجتمع الاسلامي ، وهي ظواهر ترسم له لوحة واسعة عريضة تتبدّى فيها جمهرة من بُلدانه وتضاريسه وطقوسه ونباته وحيوانه وسكانه ، كما يُستنبط منها أطراف من العقيدة الإسلامية وما ينبثق منها من عبادات ومعايير للإنسان الصالح وغير الصالح ، ويُلمح في تلك اللوحة أيضاً حوادث تاريخية وأخرى سياسية وقضايا فكرية وأعمال مالية وعادات اجتماعية ونصائح نقدية ، وكل ذلك يشهد للمجتمع الإسلامي بغير ما شهد له بعض الدارسين المعاصرين من أنه كان مجتمعاً طبقياً ، أو أن القرن الثاني كان عصر إباحة ومجانة ، أو أنّ علماء الحجاز كانوا يتعصّبون للغناء أيّ غناء ، أو أن الأدب العربي القديم كان أدب بلاط لا يتعدّاه .

١) قلية الافكار ٤ .

الفصل الرابع

الالتزام

١ - الالتزام في الإسلام :

يكثر في نصوص الذكر الحكيم وسنة المصطفى تقرير المسؤولية التي فاطبها الإسلام بالانسان ، وهي مسؤولية تشمل كل ما يقوم به من عمل ، قال تعالى : « وقفوهم إنهم مسؤولون » (١) . وقال أيضاً : « فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ، ولنسألنّ المرسلين » (٢) ، وقال عز من قائل : « فوربّك لنسألنّهم أجمعين عما كانوا يعملون » (٣) ، وقال سبحانه : « ولا تقفْ ما ليس لك به علمٌ ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » (٤) .

وكذلك تشمل المسؤولية كل كلمة ينطق المرء بها ، قال عزّ وجل : « ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد » (٥) ، وجاء في الحديث الصحيح : « عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم » (٦) ، وقال طاووس ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا أحصي عليه حتى أنينه في مرضه (٧) .

ولم يؤاخذ الإسلام بالأعمال والاقوال فحسب ، وإنما آخذ أيضاً بآثار تلك الأفعال والأقوال ، فقال تعالى : « إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (٨) ، وقال عمر : « من حدّث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل » (٩) ، وآثر النبي ﷺ الصمت على الكلام

١) سورة الصافات ٢٤ . ٢) سورة الاعراف ٦ . ٣) سورة الحجر ٩٢-٩٣ .
٤) سورة الاسراء ٣٦ . ٥) سورة ق ١٨ .
٦) التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح ٢/١٤٤ . ٧) حلية ٤/٤ .
٨) سورة يس ١٢ . ٩) احياء علوم الدين ١/١٨ .

الذي لا يجتدي خيراً : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »(١) ، وقال في ذلك أيضاً (لمعاذ) : « كفّ عليك هذا . قلت يا نبي الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك ! وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ »(٢) .

وقد مضى الإسلام وهو يبيّن مسؤولية الناس أمام خالقهم فناط تلك المسؤولية أيضاً بحياة المرء النفسية القلبية التي ينزع المرء عنها في حديثه وفي سلوكه ، قال تعالى : « إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فان الله بكل شيء عليماً »(٣) ، و « إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله »(٤) ، وقال عزّ من قائل : « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم »(٥) ، وقال عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى »(٦) ، وقال : « لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »(٧) ، ونهى عن الحسد ، والحقد ، والكبر والغرور ، والرياء والنفاق(٨) ، وغير ذلك من الاعمال الخافية التي لا يطلع عليها إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ومعنى هذا أن المسلمين ، شعراء وغير شعراء ، ينبغي أن يلتزموا حياة إسلامية تهيمن على أفعالهم وأقوالهم ونواياهم كلّها ، ذلك أن وراء المسؤولية والحساب عذاباً أو نعيماً ، ولا يصيب أحدهما امرؤ إلا بما أسلف به : « من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون »(٩) ، ولا تكسب كلّ نفس إلا عليها ، ولا تزرُ وازرة وزرَ أخرى »(١٠) ، فالنار للطاغين جزاء وفاقٌ (١١) ، والجنة للمتقين كذلك جزاء وفاق (١٢) ، والأمران معاً يرجعان إلى سرّ خلق الإنسان »

١) الأربعون النووية ١٩ . ٢) الاربعون النووية ٢٩ ، والمشار اليه « بهذا » هو اللسان
٣) سورة الأحزاب ٥٤ . ٤) سورة البقرة ٢٨٤ . ٥) سورة البقرة ٢٣٥
٦) الاربعون النووية ١١ . ٧) الاربعون النووية ٣٦ .
٨) انظر على التوالي في رياض الصالحين ص : ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ١٨٣ ، ٤٠١ .
٩) سورة الروم ٤١ . ١٠) سورة الانعام ١٦٤ .
١١) انظر سورة النبأ الآيات ٢١ حتى ٢٦ ، والنساء ١١٥ ، والحجر ٣ ، والنمل ٨٤ ، والمطففين ٣٦ . ١٢) سورة النبأ من ٣١ ـ ٣٦ ، والدهر ١٢ ، والمرسلات ٤٣ .

وهو امتحانه ليُعلم أيّ السبيلين يسلك في حياته : سبيل الرشد أم الضلال(١) ؟

وهنا قد يتساءل بعض الدارسين : أليس من مزاج الشاعر أن يهوى القول في حريّة وفُسحة وطلاقة ؟ أوليس التزامه بالإسلام ينقص فُسحة القول أمامه ويحد المجال ؟ ! وهنا ينبغي ألا يغفل عن أمور بها يمتاز دعاة الالتزام بالدين الحنيف من دعاة الالتزام بغيره ، وبها يتضح أنّ مجال القول أمام الأولين يبقى رحباً فسيحاً ، ولو التزموا .

الأمر الأول : ما بيّنه الإسلام من أن الأصل في الأشياء الإباحة ، ولا حرام إلا ما ورد فيه من المشرع نص صريح صحيح بنهى عنه ويحرّمه ، « فاذا لم يكن النص صحيحاً كبعض الأحاديث الضعيفة أو لم يكن صريحاً في الدلالة على الحرمة ، بقي الأمر على أصل الإباحة »(٢) وذلك ما يغيّر قيلاً ما هو حرام في الشريعة الاسلامية ورحابة ما هو حلال .

والأمر الثاني : هو أن في الحلال دائماً ما يغني عن الحرام ، وما نتبع دارس شيئاً مما حرّم الدين الحنيف إلا وجد له في الحلال « غنية وبديلاً » ، ومن يرجع إلى الكتاب والسنة لا يكاد يقف على أمر لم « يسنّ » له حدّه ومنهاجه ، على نحو ما رأينا في التمهيد . ومعنى هذا أن بمكنة الناس شعراء وغير شعراء أن يحيوا في ظلال الدين حياة ربانية خالصة . قال تعالى : « قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين »(٣) وهم ، خلال هذه الحياة الحلال ، يثابون على كل شيء فيها ثواباً من ربهم ، قال عليه السلام : « المؤمن يُؤجر في كلّ شيء ، حتى في اللقمة يرفعها إلى امرأته »(٤) ، وروى البخاري « عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت يارسول الله : ألي أجرٌ أنّ أنفق على بني أبي سلمة ، إنما هم بنيّ ؟ ! فقال : أنفقي عليهم ، فلكِ أجر ما أنفقت عليهم »(٥) ، وروى أيضاً « عن أبي مسعود الأنصاري رضي

١) قال تعالى : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » الملك ٢ ، وانظر سورة الكهف ٧ .
٢) الحلال والحرام للدكتور يوسف القرضاوي « الطبعة الخامسة » ص ٢٠ .
٣) سورة الانعام ١٦٣ ، ونسكي : عبادتي . ٤) المسند ٤٩/٣ .
٥) التجريد ١٠١/١ .

الله عنه عن النبي ﷺ قال : إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة »[1] . وعلى هذا النحو يبين خاتم الأنبياء أن الشهادة في سبيل الله لا تقتصر على من يُقتل في هذه النية أو الغاية فحسب ، بل تشمل أيضاً مَنْ يموت موتاً في سبيل الله ، ومن يُقتل دون ماله ، ومن يغيض في الطاعون ، وصاحبَ الهَدْم ، والمبطونَ ، والغريق[2] ، وأنّ « مَنْ خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع »[3] ...

والأمر الثالث ما يتم به الدين من مبادىء كلية لا تستنكر تنوع الفروع الداخلة فيها ، ما سايرتها ولم تخرج على خطوطها العريضة اللاحبة ، فادا كان في الشعراء من هو أميل إلى التنقيني الذاتي ، أو التمتع الفني ، أو النزعة الشعبية ، أو كشف الزيف والزيْغ ، أو إرجاء الموعظة الحسنة ... فإنّ كلاً من هؤلاء يجد في ظلّ الدين فُسحة رحبة ومكاناً أميناً ، ما استظلّ هو به ، واعتصم بسبيل من سُبُل حلاله .

والأمر الرابع : أن الدين يبارك قوى الخير وجوانب الارتقاء في الانسان ، وينصرها على نوازع الشرّ وعناصر الضعف فيه ، وقد مرّ بنا عند الحديث عن المجتمع أن الفن الأصيل لا بدّ أن يبني - على كل حال - ولا يهدم ، أي لا بدّ أن يهتف للقوى السامية في الإنسان ويدفعها ما استطاع إلى الرقيّ والسموّ ، في الوقت الذي يقبّح أهواءه الهابطة ورغائبه المنتكسة . ومعنى هذا أن الفنان ، إذا استقام على ذلك ، إنما يعمل عملاً يحظى برضاء الدين وثنائه ؛ يقول توفيق الحكيم : « إن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفني ... من أجل هذا كان لا بدّ للفن أن يكون مثل الدين قائماً على قواعد الأخلاق »[4] .

٢ - الالتزام في شعر الفقهاء :

ولم أُطل كلّ هذه الاطالة إلا لأبيّن أن شعر الفقهاء في التزامه الدين

١) التجريد ٢/١٢٦ . ٢) انظر كل ذلك في رياض الصالحين ٣٣٢ .
٣) رياض الصالحين ٣٣٨ . ٤) فن الادب ٧٤ ، وانظر الدين والجمال لأبي النصر أحمد الحسيني ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٤ ، ٦٧ ، وفن الشعر ١٧٩ وما بعدها .

الحنيف إنما كان ينزع عن أمر دعاه إليه الاسلام ، فمضى في موضوعاته المختلفة من الحكمة والغزل والفخر والوصف والعتاب والهجاء والرثاء والمدح وتصوير المجتمع يعلي الشعائر الدينية ويرعى عن مبادئها ويكون أشبه بالترداد لمعاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ولا يكاد يقابل القارىء لهذا الشعر معنىً يخالف ما في تلك الآيات والأحاديث ، اللهم إلا نحو ما كان لعروة بن أذينة من غزل حسي أو عصبية جاهلية .

وما من شكّ أنّ تغزّل شاعر بامرأة ميّتة - غير حلاله - تغزلاً حسياً أمر حرّمه الاسلام ، ذلك بما يكون فيه من تصوير مثير الأعضاء ، وقد قال النبي ﷺ في مثل هذا التصوير : « لا تباشر المرأةُ المرأةَ فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها »[1] ، وبما يكون فيه من هتك للحُرمات التي حرص الاسلام على صونها ، فقال عليه السلام : « إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام »[2] ، وبما يؤدّي إليه من نشر الفحشاء في المحيط الاجتماعي ، ومعلوم أن ما أدى إلى حرام فهو حرام ، قال تعالى : « إنّ الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب في الدنيا والآخرة »[3] . وإذنْ فما تغزّل عروة فيه بسعدى قبل قبرانها ، إنْ كان زوجها ، وما شبّب فيه بغيرها ، ممن ذكرهن ، إن كنّ محبوبات قبلها ولسْنَ أسماء خيالية ، تغزّلاً واصفاً مثيراً ، وتشبيباً مشهراً مصوراً ، هو حرام منهيٌّ عنه[4] .

وكذلك الشأن في أمر العصبية ، فقد نهى الدين الحنيف عن كل صورها ، وحرّم على المسلمين أن يحبوا أيّ نزعة من نزعاتها أو يدعوا إليها ، وأعلن النبي ﷺ براءته ممن يفعل ذلك فقال : « (ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية) - رواه ابو داود - فلا

١) التجريد ٢/١٢٤ . وباشر الأمر : وليه بنفسه ، أي لا تطلع منها على ما لا تبديه لغرباء الرجال ثم تنقل صفاتها إلى زوجها هي . ٢) المسند ٣/٢٧٣ ٣) سورة النور ١٩ .
٤) قال الامام الشافعي : « من شبب بامرأة بعينها ، ليست ممن يحل له وطؤها حين شبب ، فأكثر فيها وشهرها ، وشهر مثلها بما يشبب ، وإن لم يكن زنى ردت شهادته ، ومن شبب فلم يسم أحداً لم ترد شهادته ، لأنه يمكن أن يشبب بامرأته وجاريته » (الام ٦/٢١٢) .

امتياز للون معيّن من البشرة ، ولا لجنس خاص من الناس ، ولا لرقعة من الأرض »[1].

على أنّ وقوع شاعر في بعض قوله في الإثم لا يخرجه من دائرة الالتزام ، لأنه لا يخرجه من ساحة الاسلام الذي لا ينسى له - إذ ينظر إلى فعلته - حسناته الأخرى ، وما أكثر ان يتجاوز عنه إذا ما تاب وآب ؛ قال سبحانه في الحديث القدسي : « يابنَ آدم إنك لو أتيتني بقُراب الارض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »[2] ، وقال عليه السلام : « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل الجنة . قيل كيف ؟ قال : يكون نصبَ عينيه ثابتاً قارّاً حتى يدخل الجنة »[3]. ولعل عروة أن يكون قد قرّ نصب عينيه ما زلّ فيه ، وأنه كان يدفعه إلى مثل قوله :

نُراع إذا الجنائز قابلتنا ... ويحزُننا بكاء الباكيات
كروْعة ثلّة لمُغار ذئب ... فلما غابَ عادتْ راتمات[4]

كما كان يدفعه إلى التصدّي لقبائل معدّ في سبيل الله ، بعد ما كان قد افتخر بها من قبل ، وقد تقدّم ذلك عند الحديث عن هذا الغرض .

وإذا تركنا قضيتي الغزل الحسي والعصبية الجاهلية في شعر ابن أذينة واجهتنا مشكلة ابتكار القصص التقليدي الخيالي غير الواقعي ، مما رأيناه عند الحديث عن غزله ، وهي مشكلة قد يسلكها بعض الدارسين في الكذب الذي نهى عنه الاسلام وذمّه ، فيتفلون بذلك أن يميزوا بين الكذب الحرام وبين ابتكار الحكاية ونحوها مما هو أشبه بأن يكون ضرباً الأمثال .

فابتكار الحكاية - في حدّ ذاته - لا يعدّ كذباً محرّماً ولا إثماً موبقاً ما لم يتجاوز من الاسلام أشياء ثلاثة :

الشيء الأول : ان يكون ابتكار الحكاية طيّب المغزى حميد الغاية ، لقوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى »[5] .

١) الحلال والحرام ٢٣٧ . ٢) الاربعون النووية ٣٧ .
٣) الزهد والرقائق ٥٢ . ٤) شعر عروة ٣٠٩ .
٥) الاربعون النووية ١١ ، وقد مر الحديث من قريب .

والشيء الثاني أن يكون محمود الأثر ، قال تعالى : « ونكتب ما قدّموا وآثارهم »[1] ، وقال عليه السلام : « مَن سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرُها وأجر من عمل بها بعده من غير ان ينقُص من أجورهم شيء ، ومن سنّ في الاسلام سنة سيّئة كان عليه وزرُها ووزر من عمل بها مِن بعده ، من غير أن ينقُصَ من اوزارهم شيء »[2].

والشيء الثالث أن يكون أسلوب الحكاية لا يغوي بمُنكر ولا يزيّنه ولا يبرّره ولا يدافع عنه ، ذلك أنّ ما أدّى إلى الحرام فهو حرام . وليس يعني هذا أنّ ليس باستطاعة فنان ان يتناول في آثاره باطلاً ولو كان مبتغاه أن يكشف مضاره واخطاره ؛ وإنما يعني ألاّ يتناول ذلك الباطل على نحو يزيد منه ولا ينقصه ، ويحبّبه إلى النفوس ولا يكرّهه .

يقول توفيق الحكيم : « إني لأشدّ الناس تمسّكاً بحرمة الفن وإدراكاً لقدسية هذه الحرمة ، ولا أتصوّر فنّاً لا يصور الرذيلة ، كما يصوّر الفضيلة ، ولا يبرز القبيح ، كما يبرز الحسن . وإنّ الفن ايضاً - في تنزيله - يصوّر لنا رجس المشركين ، وإثم الكافرين ، وقبح الاشرار والمفسدين ، كما يبرز لنا فضل المؤمنين ، وإحسان المحسنين ، ولكن المقصود ليس حرية التصوير ، فهذه مكفولة في الفن ، ملحوظة في الدين ، إنما المقصود هو ذلك الاحساس الأخير الذي ينقله الفن والدين إلى النفوس . ما من ريب في أن الإحساس الاخير الذي ينقله الدين إلى النفوس ، مهما يكن لون الصورة ، ونوع التصوير ، هو إحساس أخلاقي ؛ فهل هذا هو واجب الفن ايضاً ؟ أو ان الفن حر حتى في إحداث الأثر الذي يريد غير مقيّد حتى في إقرار المشاعر غير الأخلاقية في نفوس الآخرين ؟ .. يقول جويو : إن الفن غير الاخلاقي هو على كل حال أحطّ مرتبة حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة ، ذلك أن الفن العالي ليس ذلك الذي يثير في النفس أحرّ المشاعر واعنفها فحسب ، ولكنه ذلك الذي يثير فيها أكرم المشاعر وارحمها . . . »[3] .

وإذا كان أدب الحكيم إذ يعالج الرذيلة لم يبرأ من تزيين لها في مواضع غير

١) سورة يس ١٢ . ٢) رياض الصالحين ٦٣ .
٣) فن الأدب ٧٤ .

قليلة ، فإن من الممكن ان نتخذ الأسوة الهادية في هذا الشأن من القرآن ، فهو يصوّر أشدّ المواقف إثارة ، بيد أنّ القارئ - مع إحساسه بحيويّة المشاهد - لا يستشعر حرجاً ، ولا يضطرم له غريزة ولا هوىً ، انظر مثلاً قصة امرأة العزيز ويوسف (١) ، تجد شحنات انفعالية كثيرة ، إلا ان مواقف التقوى ولفتات الايمان المتناثرة بين تلك الشحنات الانفعالية بحكم ، تجعل القارئ يحسّ حيويّتها دون أن تهيج غرائزه (٢) ، ومن يقرأ هذه القصة القرآنية ير في نهايتها كيف يرتفع الذكر الحكيم بامرأة العزيز زليخا من سقطتها ، فيفتح لها ابواب التوبة (٣) ، لتلج سبيل الاستقامة من جديد (٤) .

وإذا أردنا ما يدلّ على حيلّ الابتكار - في حدّ ذاته - وجدنا ثمة أمرين : أولهما ان الابتكار - كالتصوير - من خصائص اللغة وطبيعتها في تشقيق الكلام ترجمان الحياة ، وثانيهما ما نراه في آيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية من هذه الظاهرة (٥) .

ومعنى هذا أن عروة بن أذينة لم يكن يكسب إثماً ، وبعبارة أخرى ، لم يكن يخرج من الالتزام الاسلامي وهو يبتكر قصصاً تقليدياً خيالياً لا واقع له في حقيقة

١) سورة يوسف الآية ٢٣ وما بعدها .

٢) من ذلك : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك » ويقف قولها جواب يوسف : « قال معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، انه لا يفلح الظالمون » فيقف جوابه شحنة الاثارة لتحول خشية وتفكيراً . ومن ذلك : « واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر » وفي هذه الطاقة المثيرة بغتة المفاجأة : « وألفيا سيدها لدى الباب » ويتبعها عطف القارئ على يوسف وهو يتهم ، وتعجبه من كيدها : « قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » فيثير الانفعال الأول مرتين . انظر سورة يوسف ٢٣ و ٢٥ .

٣) انظر قوله تعالى : « واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » سورة يوسف ٢٩ .

٤) انظر حكاية القرآن الكريم لقولها : « وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، ان ربي غفور رحيم » . سورة يوسف ٥٣ .

٥) انظر ابتكار الشخصيات والحوادث في قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ » (سورة = النحل ٧٥ و ٧٦) . فالعبد المملوك ، والمرزوق رزقاً حسناً . والابكم ، والآمر بالعدل ، شخصيات مبتكرة . وعجز المملوك ، وانفاق المرزوق ، وفقدان الابكم القدرة والنجح والكفاية ، وأمر العادل بالرشد ، حوادث مبتكرة . وقد ضرب الله سبحانه هذين المثلين لنفسه وللأصنام التي يعبدها المشركون ، وقيل للمؤمن والكافر (انظر تفسير البيضاوي ٣٦١ و ٣١٢) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الانبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها الا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون : لولا موضع اللبنة ، فانا اللبنة وأنا خاتم النبيين » (التجريد ٢/٥١) فالرجل الباني ، والناس ، شخصيات مبتكرة ، وتعمير الدار ، واكمالها ، واحسانها ، ودخول الناس ، وتعجبهم ، وقولهم لولا موضع اللبنة حوادث مبتكرة ، والآيتين والحديث - كما للحكاية - مغزى واضح ، فالله تعالى يلفت الى الفرق بين مقام الاله وقدرته وعدله وبين مقام العبد وعجزه وقصوره ، أو الفرق بين الكافر المخذول والمؤمن الموفق ، على التفسير الآخر ، ويبين الحديث حاجة الناس الى المصطفى عليه السلام . وانظر امثلة أخرى للابتكار في القرآن والحديث في سورة الأنعام ٧١ والرعد ١٥ ، وفي رياض الصالحين ١٢٣ و ٢٧٤ و ٢٧٦ ، والتجريد ٢/١١٧ و ١١٨ و ١٢١ ، وأعلام الموقعين ١/٢٨١ . ١) انظر على سبيل المثال شعر عروة ٩٥ . ٢) انظر القصيدة الخامسة من شعره الأبيات من ٩ حتى ١٦ ص ١٤٢ وما بعدها ، والقصيدة السابعة الابيات من ١٧ حتى ١٩ ص ١٩٦ وما بعدها . ٣) انظر شعر عروة ١٠٤ وما بعدها ، الأبيات من ٢٣ حتى ٢٨ ، ومعلوم قول خاتم الانبياء : « ان الله تعالى أوحى الي ان تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد » (رياض الصالحين ٣٩٤) . ٤) الاسس الجمالية في النقد العربي ١٨٥ .

٥) المصدر السابق ١٨٦ . ٦) المصدر السابق ١٨٧ . ٧) المصدر السابق ١٨٤ .

الأمر (١) ، غير أنه يؤاخذ بما قد نراه في قصصه أحياناً من غزل حسيّ مصوّر في أنثى معيشة غير حلاله على نحو ما تقدم (٢) ، او ما فيه من بَغْي وافتخار (٣) ، او ما يشبه ذلك مما اوصدت الشريعة أبواب الخوض فيه .

وننتهي مما سلف إلى أن شعر الفقهاء لهذه الفترة كان في جملته شعراً إسلامياً ملتزماً يرعى عن مبادىء الدين الحنيف ويستنير بهَدْيه . واغلب الظن ان الدكتور عز الدين إسماعيل كان يغفل عن مثل هذه الاشعار حين ذهب إلى « أن الاسلام لم يكن له اي تأثير إيجابي على الأدب والنقد » (٤) ، وان الشعراء لم يكونوا يتأثرون القرآن إلاّ في ناحيته الشكلية فحسب (٥) ، « أما ما فيه من اخلاقية فقد كانوا عنها بعيدين كلّ البعد » (٦) ، وأنّ النقاد لم يأبهوا للهدف الأخلاقي « على الاطلاق » (٧) ، وأنهم أصرّوا في كل حالة على أنّ « الفن القولي لا يمكن ان يعيش في كنف الدين

او الأخلاق » (١)، و « أن هذا الموقف لم يكن غريباً في أمة تفصل فصلاً تاماً بين الدين والشعر، أو تجعل النزعة الدينية من معطلات الشعر » (٢).

ومن دون ريب قد وقع الباحث في سهو كبير في تفكيره تأثير الاسلام في الشعراء أو النقاد على السواء. أما الشعراء فمن الحق أنهم تأثروا الإسلام في معانيه وأفكاره واساليب تعبيره جميعاً، وإن كان ذلك التأثر متفاوتاً بينهم بطبيعة الحال، وقد رأينا خلال هذا البحث كيف التزمت مجموعة الشعراء الفقهاء في جمهور نتاجها بالإسلام الحنيف، وردّدت مضامينه ومقاصده، واستوحت آياته وأحاديثه، وإذا تركنا شعر الفقهاء وجدنا كبار الباحثين يقرّون لتأثير الإسلام في الشعر ما حاول الدارس أن ينكره؛ يقول الدكتور شوقي ضيف: « أثر هذا الكتاب العظيم آثاراً بعيدة في اللغة العربية، فقد حوّل أدبها من قصائد في الغزل والحماسة والأخذ بالثأر والفخر ووصف الابل والخيل والسيوف والرماح ومن حِكَم متناثرة لا ضابط لها ولا نظام، إلى أدب عالمي يخوض في مشاكل الحياة والجماعة، وينظم أمورها الدينية والدنيوية » (٣). ويعود الباحث مرة أخرى فينقض فكرة أن الاسلام انحسر عن أثر ضئيل في أشعار المخضرمين، ويقول: « هو زعم غير صائب، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق » (٤).

ويقول الدكتور يوسف خليف: « كان هذا التأثير (الاسلامي) يظهر في الألفاظ والمعاني، كما كان يظهر في الأساليب والصور » (٥). وتقول الدكتورة بنت الشاطئ: « التطوّر الهام الذي حدث هو أن الاسلام أراد لشاعر القبيلة أن يصير شاعر الأمّة، فلم يهدر بهذا ذاتية الشاعر، بل أراد لها ان ترحب فلا تعود محدودة بنطاق الاسرة أو القبيلة » (٦). وقد استطاع ان يهتدي إلى هذه الحقيقة طائفة من المستشرقين، فقال غوستاف فون غرنباوم: « لم يمض جيلان على ظهور الاسلام حتى امتلأ الأدب العربي بالموضوعات وبصور التعبير المتصلة بالدوافع الدينية » (٧).

١) المصدر السابق ١٨٠. ٢) المصدر السابق ١٨٣.
٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٤٦. ٤) العصر الاسلامي، وانظر صفحة ٣٢.
٥) حياة الشعر في الكوفة ٦٥٨. ٦) قيم جديدة ٨٣.
٧) دراسات في الادب العربي، ترجمة احسان عباس، طبع بيروت ١٩٥٩) ص ٤٠. =

وإلى جانب ما أكشف هؤلاء الباحثون نجد دراسات موسّعة جادّة تبيّن آثار الاسلام في الشعر، وتجعل المجادلة في ذلك ضرباً من اللغو والتكرار، ومن تلك الدراسات موسوعة شعر الدعوة الإسلامية التي يشرف على إخراجها الدكتور عبدالرحمن الباشا، والتطور والتجديد في الشعر الأموي، والعصر الإسلامي، للدكتور شوقي ضيف، والأدب في موكب الحضارة الاسلامية للدكتور مصطفى الشكعة، وشعر الفتوح، والفِرَق الاسلامية في الشعر الاموي، للدكتور النعمان القاضي، والاسلام والشعر للدكتور يحيى الجبوري، وأثر الاتجاهات الدينية في الشعر العربي للدكتور شوقي حمادة، وشعر الزهد في العصر العباسي الأول للدكتور شوقي رياض أحمد، وأثر القرآن في الادب العربي للدكتورة ابتسام مرهون الصفار، وأثر القرآن الكريم في اللغة العربية لأحمد حسن حمد، والأدب في خدمة الحياة والعقيدة لعبد الرحمن المويشق . . .

وأما النقاد فلا نكران أن فريقاً منهم نقدوا الشعر « ولم يتخذوا من الدين أو الأخلاق أساساً يرفعون به شاعراً ويخفضون آخر » (١)، غير أن الذي يستنبط من هذا أنهم لم يأبهوا للهدف الأخلاقي « على الاطلاق »، أو انهم أصرّوا في كل حالة على أن « الفنّ القولي لا يمكن أن يعيش في كنف الدين أو الأخلاق » إنما يقع في خطأ بالغ. ذلك أن النقاد في الوقت الذي لم يتخذوا معيارهم في النقد فيه من الدين أو الاخلاق، لم يتخذوا ذلك المعيار أيضاً مما يعاند الأخلاق أو الدين. ولم يشدّوا أسباب الجمال إلى كفر ولا مجانة. وأهم من هذا أنّ ليس كل النقاد كانوا يعتمدون المقاييس الفنية دون ان يربطوها بالاسلام، بل قد كان إلى جانب هؤلاء نقاد يزكّون الهدف الخُلُقي ويُعلون من شأنه ويصرّون إصراراً على ان الفن القولي لا بدّ أن يعيش في كنف الدين والأخلاق.

ويمكن القول إن هذا التيار قد ابتدأ منذ عهد الرسالة، فقد روي أن النبي ﷺ كان يحثّ حسان بن ثابت ليردّ على الشعراء المشركين ويقول: « إنّ الله

= وانظر تأثير الاسلام في الشعر أيضاً: أثر القرآن في الادب العربي للدكتورة ابتسام الصفار ص ٣ وما بعدها و ص ٥٩.
١) الاسس الجمالية ١٨٥. وانظر أمثلة من آراء هؤلاء النقاد في الوساطة ٦٢، ونقد الشعر ٤ و٥.

ليؤيّده روح القُدُس ما نافح عن نبيّه » (١) . وكان يقدّم راشد الغزل المكشوف ويقول فيه : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار » (٢) ، « كما جاء عنه أنه توعّد الشعراء الهجّائين الذين ينهشون أعراض الناس بالباطل قوله : « من قال في الإسلام هجاءً مقذعاً فلسانه هَدَر » ـ العمدة ٢/١٧٠ ـ » (٣) .

وقد اهتدى الصحابة في نقد الشعر بطريقة رسول الله فكان الفاروق يعاقب على الهجاء ، ومن المعروف كيف حبس الحطيئة عندما هجا الزبرقان بن بدر ، وأيضاً فقد تقدم إلى الشعراء ألاّ يشبب احد بامرأة إلا جلده (٤) ، وكان عثمان بن عفان يحبس في الهجاء (٥) ، وكان عمر بن عبدالعزيز كجدّه الفاروق يؤاخذ الشعراء إذا شبّبوا ، وقد ذُكر ابنُ أذينة يوماً عنده فقال : « نعم الرجل ابو عامر ، على أنه القائل يقول :

وقد قالتْ لأترابٍ لها زُهْرٍ تلاقيْنا (٦)

وهو يريد القصيدة التي منها هذا البيت ، وقد مرّ بنا ضحك ابن عائشة مما فيها . ومن الذين يُسْلكون في هذا التيار من النقد الإمام الشافعي ، وقد بلغ به إعلاء الشعر الخُلُقي أن أفتى بحِلّ الزواج على مثل بيت من الشعر لأبي الدرداء عندما سئل : « أيجوز ان يتزوّج الرجل على بيت شعر ؟ قال : إذا كان البيت مثل هذا فنعم :

يريد المرء أن يعطى مُناهُ ويأبى الله إلا ما أرادا (٧)

ويعود في كتابه الأم فيبيّن القول في الهجاء والمدح والتشبيب ، فيردّ شهادة من ينقص في شعره المسلمين ، ويكثر الوقيعة بين الناس ، أو يمدحهم مدحاً كاذباً

١) زهر الآداب ١/٢٠ . ٢) طبقات الشافعية للسبكي ١/١١٩ .
٣) شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه « بغداد ١٣٨٤ » ص ٤٢ .
٤) انظر الأغاني « دار الكتب » ٤/٣٥٦ .
٥) انظر معاهد التنصيص لعبدالرحيم العباسي « طبعة السعادة بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد » ١/١٨٩ . ٦) الأغاني (الهيئة المصرية) ١٨/٣٢٧ .
٧) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٠٠ .

محضاً بما ليس فيهم ، أو يشبب بامرأة بعينها ليست تحلّ له حين التشبيب ، ويكثر من ذلك حتى يشهرها (١) . وقد رأينا عند الحديث عن المجتمع كيف عزل المأمون قاضي دمشق لقوله شعراً باطلاً ، من دون أن تشفع له سلاسة شعره . ويستمر هذا التيار النقدي ، وفي كل حين ينضمّ إليه أنصار مؤازرون ، ولعل مما يلفت النظر أن نجد الإمام الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » إذ يجعل الأشعار من العلوم المباحة ، ويعدّها من فرض الكفاية ، بشترط ألاّ تشتمل على سخف ، فيقول : « وأما المباح منه (العلم غير الشرعي) فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها . . . » (٢) .

ولا ريب أنّ هذه الأمثلة من النقد الديني تصحح ما رآه الباحث من أن الأمة الاسلامية تفصل فصلاً تاماً بين الدين والشعر ، فهذا نبيّها يشدّ الشعر إلى الدين شدّاً محكماً ، وها هم أولاء أئمتها ينهجون سبيله ، وأغلب الظنّ أن الدارس قد غفل ، وهو يصدر رأيه ، عن مادة الشعر الأولى ، وهي الكلمة ، وغفل عن الحدود والضوابط التي وضعها الدين الحنيف للكلمة ، أي كلمة ، وغفل عن الحديث الذي يحكم على الشعر بحسب قيامه ومادّته ، وهو قوله عليه السلام : « إنما الشعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب » (٣) .

وإذا انتقلنا إلى ما يراه الباحث من أن هذه الأمة تحمل النزعة الدينية من معطلات الشعر علمنا أنه يريد شيئين . الأول ما أثر عن الأصمعي من أن الشعر نكيد بابه الشرّ ، فإذا دخل في الخير لان وضعف (٤) . وهي عبارة غريبة بقيمة استدلّ عليها بما وجده من ضعف أشعار حسان بن ثابت في الإسلام عنها في الجاهلية ، وهو بذلك يغفل مما دخل شعره من وضع ، ويغيب عن باله بُعْدُ الشقة بين دِيار قوم حسان في يثرب وبين الضاحية أو المناذرة الذين كان يمدحهم في الجاهلية وهو بُعدٌ كان يوفّر له من الوقت ما يحتص به أشعاره وينقّحها ، الأمر الذي لم يتمكن منه في شعره الاسلامي الذي ألّف كثرته أيام المعارك أو إبّان الإعداد لها ، ومع كل هذا يستطيع الدارس أن يقف على قدر صالح من قريضه الجديد يبلغ فيه

١) الأم ٦/٢١٢ . ٢) الاحياء ١/٢٣ .
٣) العمدة ١/١٤ ، وانظر دلائل الاعجاز ٢٠ .
٤) انظر تاريخ النقد الادبي عند العرب لطه أحمد ابراهيم ٧٠ .

مستوى فنياً راقياً .

والشيء الثاني الذي يلمح إليه الباحث ما ينحو العبارة المشهورة : « أصدق الشعر أكذبه »(١) ، ولذلك لا يفرّق الدكتور عز الدين اسماعيل بين الكذب الفني والكذب الخُلُقي (٢) ، مع ما وجدنا بينهما من اختلاف ومن أنّ الضرب الأول إنما يُسْلك في الابتكار وهو من خواص العربية ، وهو ما لا يجعل الدين فيه من حرج ، وهو ما نُرَجّح أن العبارة المشهورة « أصدق الشعر أكذبه » لم تكن تقصد سواه .

١) نقد الشعر ٥٦ ، وانظر العمدة ١/١٠٠ . ٢) الاسس الجمالية ١٨٤ .

الباب الثالث

الشعراء

الفصل الأول

في العصر الإسلامي

١ ـ العصر الراشدي : تمهيد أولي لبداية شعر الفقهاء

رأينا عند حديثنا عن نشأة الفقه كيف كان بين الصحابة فئة حملت عبء هذا العلم الناشىء بعد موت النبي ﷺ ، وقد كان من هؤلاء الصحابة الفقهاء من يقول الشعر ، ويمكن أن نعد منهم الخلفاء الاربعة الذين « ما منهم إلا من قال الشعر » (١) ، إلا أن ما نسب إليهم منه يسير قليل ، وفيه ، إلى ذلك ، موضوع كثير زيفه عليهم أهل المآرب والأهواء ، او الجهلة بتاريخ الشعر ، او المدفوعون الذين لا يبالون إذا أحبّوا أمراً ان يُعطنيوا له في الحمد والثناء ، ويبالغوا في ذلك ، ويزيدوا عليه ما قد يكون هو له اول المنكرين ، ولكن هذا لا ينفي أنّ نقترب على اشمارهم الاستار ، فان من الممكن ـ بالبحث والنقد ـ أن نميز ما قالوه حقاً ، وما حمل عليهم مسترشدين بالمصادر المعتمدة القريبة من عهودهم ، ولا سيما انّي انّهما اهل الدراية والتحقيق .

ومما روي لأبي بكر الصديق مقطوعة في رثاء النبي عليه السلام تبين نجيعة المسلمين برحيله ، وانقطاع الوحي بوفاته ، وما ترك فيهم من سنة طاهرة :

فجعنا بالنبي وكان فينا ... إمام كرامة ، نعم الإمامُ
وكان قِوامَنا والرأسَ منا ... فنحن اليومَ ليس لنا قِوامُ
نموج ونشتكي ما قد لقينا ... ويشكو فقده البلد الحرامُ
فَقَدْنا الوحيَ إذ ولّيْتَ عنا ... وودّعنا من الله الكلامُ

١) العمدة ١/١٤ وانظر تاريخ الخلفاء ١٨٣ .

لقد أورثتَنا ميراث صِدْقٍ ... عليك به التحية والسلامُ (١)

ومما احتفظت به المصادر للخليفة الأول أيضاً ثلاث مقطوعات يبكي فيها النبي ﷺ (٢) ، وابيات يهنئ فيها بلال بن رباح بعتق أمية بن خلف ، وقد كان يسومه سوء العذاب بمكة ، فيخرجه إلى الرمضاء فيلقي عليه الصخرة العظيمة ليفارق دين الإسلام فعصمه الله من ذلك :

هنيئاً زادك الرحمن خيراً ... فقد أدركت ثأرك يا بلالُ
فلا نَكْساً وُجِدْتَ ولا جباناً ... غداة تَوشُكَ الأسَلَ الطِوالُ
إذا هاب الرجال ثبتَّ حتى ... تخالط أنتَ ما هاب الرجالُ
على مَضَضِ الكُلُوم بِمَشْرفيٍّ ... جلا أطراف متنيه الصِقالُ (٣)

على أنه لا بد من الإشارة إلى ان القصيدة التي رويت له عن ابن اسحق ومطلعها :

أمن طيف سلمى بالبِطاحِ الدمائثِ
أرِقْتَ أو آمرٍ في العشيرة حادثِ (٤)

إنما هي محمولة عليه ، وقد تعقبها ابن هشام في سيرته ، وبيّن أنّ « أنبر اهل العلم ينكر هذه القصيدة لأبي بكر رضي الله عنه » (٥).

ومما صحّ لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب بيتان قالهما بعد أن طعنه المجوسي وشعر بدنوّ الأجل :

١) أنساب الاشراف للبلاذري ١/٥٩٢ ، وقد أشار الى انه نقلها عن ابن سعد عن الواقدي عن اسماعيل بن ابراهيم بن عقبة . ٢) انظر الطبقات الكبرى ٢/٣١٩ و ٣٢٠ .
٣) زهر الآداب ١/٣٤ ، وانظر البيتين الاولين في أنساب الاشراف للبلاذري ١/١٩٣ ، والنكس : الضعيف ، والاسل : الرماح . ٤) العمدة ١/١٣ ، وسيرة ابن هشام ٢/٣ .
٥) سيرة ابن هشام ٢/٣ ، هذا وقد روى له السهيلي مقطوعة يذكر فيها قصة الغار في الروض الانف ٢/٦ .

فأوعدني كعب ثلاثاً أعدّها ولاشكّ أنّ القول ما قال لي كعب
وما بي حذارُ الموتِ إني لميّتٌ ولكن حذارُ الذنب يتبعه الذنب[1]

وكذلك روى له الحصري قوله يوم فتح مكة :

ألمْ ترَ أن الله أظهر دينَه على كلّ دين قبل ذلك حائدِ
وأمكنه من أهل مكة بعدما تداعَوا إلى أمْرٍ من الغَيّ فاسد
غداة أجال الخيل في عرصاتها مسوّمة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عزّ نصرُهُ وأمسى عداه من قتيل وشارد[2]

وما من شك أن بعض الرواة نحلوا الفاروق شعراً لم يقله ، ويمكن أن نعدّ منه هذه الأبيات في رثاء أبي بكر :

ذهب الذين أحبّهم فعليك يا دنيا السلامُ
لا تذكرين العيش لي فالعيش بعدهم حرام
إني رضيع وصالهم والطفل يؤلمهُ الفطام[3]

فالفعل المضارع الذي لم يجزم بلا ، والإفتاء بتحريم الحياة بعد وفاة الصديق وتعبير « رضيع وصالهم » كل ذلك لا يتآلف مع الفترة التي عاش فيها عمر ، ولا تتصوره من الفاروق أمير المؤمنين .

وممن روي لهم بعض الأبيات ـ لهذه الفترة ـ أبو الدرداء عويمر بن عامر المتوفى سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ـ وهو أول قاض لدمشق ـ وهو الذي يقول :

يريد المرء أن يؤتى مُنَاه ويأبى الله إلا ما أرادا

١) تاريخ الطبري ٤/١٩٢ والعمدة ١/١٤ ، وكعب هو كعب الاحبار وكان أنذر عمر .
٢) زهر الآداب ١/٣٦ .
٣) المستطرف ٢/٢٨٨ ، وانظر اشعاراً أخرى لعمر في أنساب الاشراف ١/٥٩٢ ، وأدب الدنيا والدين ٢٦٦ ، وشعر الدعوة الاسلامية في عصر النبوة والخلفاء الراشدين ٦٥ .

يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أحسن ما استفادا[1]

وكان يعاصر أبا الدرداء الخليفة ذو النورين عثمان بن عفان ، وقد رويت له هذه الحكمة الرشيدة :

غِنى النفس يغني النفس حتى يكفّها وإن مَسّها حتى يضرّ بها الفقر
وما عُسْرَةٌ فاصبرْ لها إنْ لقيتَها بكائنة إلا سيتبعها يُسْرُ[2]

كما كان يقول إذا سمع الأذان :

يا مرحباً بالقائلين عدلاً وبالصلاة مرحباً وأهلاً[3]

ويعد الإمام علي في طليعة الخلفاء الراشدين شاعرية ، وقد روي عن الشعبي أنه قال : « كان أبو بكر يقول الشعر ، وكان عمر يقول الشعر ، وكان عثمان يقول الشعر ، وكان علي أشعر من الثلاثة »[4] .

والمصادر المعتمدة التي احتفظت بأشعاره تجعل الباحث يطمئن تماماً إلى اكتساب الخليفة أبي السبطين لهذه الموهبة[5] ، غير أنه ـ في الوقت ذاته ـ لن يطمئن إلى الديوان المنسوب إليه ، فمن المؤكد أن فيه موضوعاً كثيراً[6] ، ومن الحق أن شعر الإمام سواء في الديوان المنسوب إليه أو في غير الديوان تعرّض لتزييف كبير ، ويدلنا على ذلك خمسة أمور :

الأول : ما لاحظه الدكتور السيد يعقوب بكر من طابع شيعي في بعض الأشعار على نحو لا يمكن صدوره عن الإمام علي[7] .

١) الفتوحات الوهبية ١٧٥ . ٢) معجم الشعراء ٨٨ والعمدة ١/١٤ .
٣) معجم الشعراء ٨٨ وانظر مقطوعة اخرى لعثمان في ادب الدنيا والدين ٢٦٤ ، رواها عن « بعض الادباء » . ٤) تاريخ الخلفاء ١٨٣ .
٥) انظر اعيان الشيعة ٣/١٦٨ ، وعلي بن ابي طالب لأحمد تيمور ١٦ وما بعدها ، ومقدمته للشاعر علي الجندي ٢ ، وبحثاً للسيد يعقوب بكر في الرسالة السنة العاشرة ص ٦٢٢ و ٦٦٣ ، والاسلام والشعر (مكتبة النهضة ببغداد ١٣٨٣ هـ) ص ١٢٦ .
٦) انظر اعيان الشيعة ٣/١٧١ ، والرسالة السنة العاشرة ص ٧١٨ وما بعدها ، وعلي لأحمد تيمور ص ١٦ ومقدمته ٩ ، والاسلام والشعر ١٢٦ و ١٢٧ . ٧) انظر الرسالة ص ١٠ ص٧١٩

والثاني : ما يبدو فيه أحياناً من ركاكة لفظية يُستبعد أن تسلك في شعره، ويمكن أن نعد من ذلك أبياته التي يقال إنه خاطب بها معاوية :

محمد النبيُّ أخي وصهري ... وحمزةُ سيِّدُ الشهداء عمي

وجعفرٌ الذي يضحي ويمسي ... يطير مع الملائكة ابن عمي

وبنت محمد سكني وعرسي ... مشوب لحمها بدمي ولحمي

وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكم له سهم كسهمي

سبقتكم إلى الإسلام طُرّاً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمي [1]

وهي أبيات تخالف في مستواها الفني مخالفة واضحة ما سوف نراه من أشعاره.

والثالث : ما يلمح في بعض الأبيات من معان يُستغرب انتسابها إلى الامام، ويمكن أن نمثّل لذلك بأبيات روي أنه قالها في وفاة رسول الله ﷺ :

غرَّ جهولاً أمَلُهْ ... يموت مَنْ جا أجَلُهْ

ومن دنا من حَتْفِهِ ... لم تُغْنِ عنه حِيَلُهْ

وما بقاء آخرٍ ... قد غاب عنه أوَّلُه ؟

والمرء لا يصحبه ... في القبر إلا عمله [2]

ومعاني الأبيات ، في حد ذاتها ، شديدة القرب إلى نفس الإمام علي وفكره، ولكنَّ المناسبة التي ارتبطت بها تجعل الباحث يستغرب أن يُروى فيها للإمام حكم هادئة أو تأمُّلٌ حالم، إذ ليس ذلك مما يُؤلف قولُه ساعة الشدة وآن المصيبة ، وأيضاً فإن علياً كان يُؤثر معاني غير التي نراها في البيتين الثاني والرابع ، لو قد كان الشعر حقاً لأبي السبطين في وفاة رسول الله ﷺ . واغلب الظن أننا سوف نطمئن إلى ما ذهبنا إليه حين نفرد الأبيات السابقة بقوله يرثي النبي ﷺ :

١) معجم الأدباء ١٤/٤٨ . ٢) أدب الدنيا والدين ص ١٠٨ .

ألا طَرَقَ النّاعي بليلٍ فراعَني ... وأرّقني لما استقلَّ مُناديا

فقلتُ له لما رأيتُ الذي أتى ... لغير رسول الله إنْ كنتَ ناعيا

فو الله لا أنساك أحمد ما مشتْ ... بيَ العيسُ أو جاوزت في الأرض واديا

وكنتُ متى أهبط من الأرض تَلْعَةً ... أرى أثراً منه جديداً وعافيا [1]

ولا شك أن فرقاً واضحاً بين هذه الثلوعة الدامعة وبين حِكَمه المتقدمة التي تصلح أن توجَّه إلى مغرور أو لاهٍ أو جهول . . لا أن تقال في تأبين النبي ﷺ

والأمر الرابع ان طائفة مما نسب إليه قد نصَّ الرواة على أنها لغيره ، فمن ذلك البيتان اللذان رواهما له محسن الأمين العاملي في جملة ما صحت روايته له :

ومن البلاء وللبلاء علامة ... ألا يُرى لك عن هواك نُزوعُ

العبد عبد النفس في شهواتها ... والحر يشبع مرَّة، ويجوع [2]

فقد نسبا في تاريخ ابن عساكر [3] وبهجة المجالس [4] إلى ابن المبارك ، ومن ذلك البيتان اللذان ذكرهما له سبط ابن الجوزي :

اغن عن المخلوق بالخالق ... تغن عن الكاذب والصادق

واسترزق الرحمن من فضله ... فليس غير الله من رازق [5]

نسبا إلى ابنه الحسين [6] ، وقد ذكرتهما في شعر الحكمة ، وكذلك الأبيات

١) أنساب الأشراف ١/٥٩٣ ، وانظر البيتين الاخيرين في الفاضل ٦٤ .
٢) أعيان الشيعة ٣/١٩٤ . ٣) عبدالله بن المبارك ج ٦ (معهد المخطوطات)
٤) ٢/٣٠٦ ، وانظر ذيل الجواهر ٢/٥٠٠ . ٥) تذكرة خواص الامة ١٦٥ .
٦) انظر شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ٤٣٢ نقلاً عن تهذيب ابن عساكر ٤/٢٢٤ وابن كثير ٨/٢٠٩ .

التي تنسب إليه في الإفتخار بالعلم والنظر [1] ، عزيت إلى ابي الأسود الدؤلي [2] وإلى أبي حنيفة [3] ، وإلى الامام الشافعي [4] ، وإن كان هذا لا يبتّ في انها ليست له ، إذ قد تكون من شعره ونُسبت إلى غيره .

والأمر الخامس : أن من الرواة القدماء من أشاروا إلى بعض الأشعار التي تنسب إليه - وهي في حقيقتها لغيره - فابن هشام ينكر القصيدة التي رواها له ابن إسحاق في إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف والتي مطلعها :

عرفت ومن يعتدل يعرفِ وأيقنتُ حقاً ولم أصدف

ويبين أن الذي « قالها رجل من المسلمين غير علي بن أبي طالب رضوان الله عليه » فيما ذكر بعض اهل العلم بالشعر ، ولم أر احداً منهم يعرفها لعلي رضوان الله عليه » [5] . وكذلك يتعقب ابياناً بائية ذكرها له ابن إسحاق في قتل عمرو بن عبد ودّ فيقول : « وأكثر اهل العلم بالشعر ينكر فيها لعلي بن أبي طالب » [6] . وقد أورد الحميري الأبيات ثم قال : « وبعض الرواة ينفيها عن علي رضي الله عنه » [7] .

ونخرج من هذا إلى أن الامام علي بن أبي طالب كان يقول الشعر حقاً ، إلا أنه نُحِل عليه موضوع كثير ، وهو موضوع يمكن للناقدين ان يميزوه وينتفوه ويستخلصوا البقية النقية التي يطمأنّ إليها ، مما احتفظت بـــه المصادر المعتمدة ، ورواها العلماء المحققون ، وآلفت سيرته وعصره .

ومَنْ يرجع إلى تلك البقية يجدها دائرة حول الحِكَم والجهاد والرثاء وما ينحو ذلك من الشعر الديني ، وأهمّ تلك الموضوعات الحِكَم ، إذ يوصي الامام عليّ أن يحفظ كل امرىء سِرّه حتى لا يكون حديث المُبْطلين [8] ، ويدعو إلى مواساة الناس وأن يؤدّي أولو الفضل حقوق السائلين ، ويحذّرهم ، إنْ بخلوا ، بعقاب الله ،

١) انظر الابيات في تذكرة الخواص ١٦٨ ، وزهر الآداب ١/٤٠ .
٢) انظر ديوانه ٢٥١ . ٣) انظر المناقب للرازي ١٩٥ .
٤) انظر توالي التأسيس ٧٤ ، وطبقات الشافعية للسبكي ١/١٥٨ ، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/٦٤ ، ومعجم الادباء ١٧/٣٠٩ . ٥) سيرة ابن هشام ٢/١٣٠ .
٦) المصدر السابق ٢/١٤٢ . ٧) زهر الآداب ١/٤٠ وانظر الابيات أيضاً في حماسة البحتري ٣٧ ، ودستور معالم الحكم للقضاعي ١٨٦ . ٨) انظر تاريخ الخلفاء ١٨٤ .

ويذكّرهم ، إذا سخطوا ، أنه يحلف بالحبّة أثقالها [1] . وفي المحاسن والمساوىء بيتان لأمير المؤمنين يحضّان على الصبر وما يكون له دائماً من محمود الأثر [2] ، وفي تاريخ الخلفاء مقطوعة اخرى ، في هذا الغرض ، يقول في تضاعيفها :

إذا اشتملتْ على اليأس القلوبُ وضاقَ بهنّها الصَّدْرُ الرَّحيبُ
وأوطنت المَكارهَ واطمأنّتْ وأرْسَتْ في أماكنها الخُطوبُ
ولم يُرَ لانكشاف الضُّرّ وَجْهٌ ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قُنوط منك غَوْثٌ يجيء به القريبُ المُستجيب
وكلُّ الحادثات إذا تناهتْ فموصولٌ بها الفَرَجُ القريب [3]

ومما يمكن إلحاقه بأدب الحِكَم وصاياه في الصداقة الكريمة وما ينبغي أن تقوم عليه من نُصْرة وقت الشدّة وتفريج للهموم [4] ، وأيضاً له أبيات ينهى فيها عن صحبة الجاهل ؛ لأنّه لا بدّ إن ماشاه من ان يماثله ويكافئه ، يقول :

فلا تَصْحَبْ أخا الجهل وإياك وإيّاهُ
فكمْ من جاهل أردى حليماً حين آخاه
يُقاسُ المرء بالمرء إذا ما هو ماشاه
وللقلب على القلب دليلٌ حين يلقـــاه [5]

ومن شعر الامام في الجهاد ما قاله حين تقدّم إلى عمرو بن عبد ودّ ليبارزه بعد أن تراءى عمرو للمصاولة :

لا تعجلنّ فقد أتا كَ مجيبُ صوتكَ غير عاجزْ

١) انظر روضة العقلاء ٢٣٤ . ٢) انظر المحاسن والمساوىء ٢/١٣٣
٣) تاريخ الخلفاء ١٨٣ . ٤) انظر تاريخ الطبري ٥/٦٣ .
٥) تاريخ الخلفاء ١٨٣ ، ودستور معالم الحكم للقضاعي ٢٠٠ .

ذو نهـــــةٍ وبصيرةٍ والصدقُ منجى كل فائز
إني لأرجـــــو أن أقيـ ـم عليك نائحـــــة الجنائز
من ضربةٍ نجـلاء يبـ ـقى ذِكرُها عند الهَزَاهِز"[1]

وفي مقطوعة أخرى يفتخر بما أبلاه في نصرة الرسول يوم أحد مبتغياً مرضاة الله وجنّاته ، يقول فيها :

أفاطمُ هاكِ السيفَ غير ذَميمِ فلستُ برِعْديدٍ ولا بلئيمِ
لعمري لقد جاهدتُ في نصر أحمد ومرضاةِ ربٍّ بالعباد عليم
أريد ثوابَ الله ، لا شيء غيره ورضوانه في جنة ونعيم[2]

وعلى هذا النحو يذكر مبارزته لمرحب اليهودي في يوم خيبر[3] ، وعقده لواء صفين للحُضَيْن ابن المُنْذر[4] ، ويتحـــدّث في بيتين آخرين عن عنت بعض القرشيين ممن ناوؤوا عليه ، واستعداده للمغالبة والموت على السواء :

تلكم قريشٌ تمنّاني لتقتلني ولا وجَدْتَ ما بَرّوا ولا ظفروا
فإنْ هلكتُ فرَهْنٌ ذمّتي لهمُ بذاتِ رَوْقَينِ لا يعفو لها أثرُ[5]

وقد قال المازنيّ في هذين البيتين : « لم يصح عندنا أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام تكلّم من الشعر بشيء غير هذين البيتين »[6] إلا أن هـذه النصوص المرويّة عن المصادر المعتمدة تدفع إلى خلاف قوله .

وإلى جانب الحِكَم وشعر الجهاد كان لأمير المؤمنين عدّة مقطوعات في الرثاء ، وقد مر بنا تفجّعه على النبي الكريم ، ولمّا توفيت زوجه فاطمة بنت محمد ﷺ جزع

١) المستدرك ٣/٣٢ . ٢) معجم الشعراء ١٣٠ ، وقد رواها مرسلة عن سعيد ابن المسيب ، وانظر تاريخ الطبري ٢/٥٣٣ . ٣) معجم الشعراء ١٣٠ .
٤) انظر جمهرة انساب العرب لابن حزم ٣١٧ ، وزهر الآداب ١/٤٠ .
٥) معجم الشعراء ١١ ، ومعجم الادباء ١٤/٤٣ . ٦) معجم الادباء ١٤/٤٣ .

عليها كثيراً ، وصوّر في شعره مُصابه المضاعف وألمَ فقدان الأحبّة فقال :

لكلِّ اجتماعٍ من خليلَيْن فرقةٌ وكلُّ الذي دون الفراق قليلُ
وإنّ افتقادي واحداً بعد واحد دليلٌ على أنْ لا يدومُ خليل[1]

. . .

فقد شهد عهد الخلفاء الراشدين بعض فقهاء الصحابة الذين يقولون الشعر ، غير أنّ نتاجَهم فيه كان قليلاً جدّاً ، وهو - مع قلّته - لا يُمكن أن نعتمدَ إليه الأبدي ما لم تنزع من حوله اشواك الوضع والانتحال ، وذلك ما جعلني أعدّ هذه الفترة تمهيداً أوّلياً للمرحلة التي بزغ فيها شعر الفقهاء ، واقيمُ الدراسة على تلك المرحلة الواضحة السنينة التي شهدت منذ مطلعها فقيهين كبيرين وهبا للشعر وقتاً كافياً واهتماماً خاصاً ، وخلّفا كل منهما ديواناً كاملاً ، هما النعمان بن بشير وابو الأسود الدؤلي.

٢ - الشعراء الفقهاء في العصر الأموي :

ما إن طوى عهد الخلفاء الراشدين سنة اربعين للهجرة ، أي بمقتل الامام علي ، حتى كانت الطلائع الأولى من أعلام الشعراء الفقهاء قد أخذوا يتوافدون إلى ساحة الفن ، وبينما كان أوائلهم يدخـــلون على تردّد واستحياء كان الذين يلونهم يقتحمون الميدان بقوة وثقة ، وكان كل منهم يحمل لواءين عاليين ، احدهما لواء الفقه ، والآخر لواء الشعر ، ويمثل الأوائل الحسنُ بن علي وعقبـــة بن عامر ، والحسين السبط ، واولئك ليس لهم بين أيدينا إلا ابيات ممدودات ، ويمثل التالين النعمان ابن بشير ، وابو الأسود الدؤلي .

ويبدو ان حياة الحسن بن علي بما اتسمت به من هدوء وقرار لم تضرم في صدره جذوة الشعر ، ومعروف أنه منذ تنازل عن الخلافة لمعاوية آثر ان يعود إلى

١) المستدرك ٣/١٦٣ وزهر الآداب ١/٤٥ وانظر اشعار الامام علي في العقد الفريـــد ١/١٢٣ و ١/١٣٩ و ٢/٧ و ٣ و ٢/٣٥٦ و ٢/٤٢١ و ٣/٣٩٠ و ٥/٢٨٧ ، وتاريخ الخلفاء ١٨٣ وأدب الدنيا والدين ١٤ ، ومعجم الشعراء ١٣ ، وإحياء علوم الدين ١/١٤ ، وتذكرة خواص الامة ٣٥ و ١١٧ و ١٦٤ وما بعدها ، وقد لاحظت ان تذكرة خواص الامة لسبط ابن الجوزي ودستور معالم الحكم للقضاعي يجودان له شعراً موضوعاً فلم اطمئن الى شيء منهما اذا لم تورده المصادر الموثوقة .

المدينة وبعيش عيشة أمان ودعة حتى وفاته سنة خمسين للهجرة ، وكنت قد رويت له أبياتاً ثلاثة في الحكمة أما عقبة بن عامر الجهني وهو الصحابي القارئ الفقيه الذي تولى مصراً لمعاوية ثم ندبه لفتح جزيرة رودس وتوفي سنة ثمان وخمسين[1] فمع كثرة ما أشارت المصادر إلى أنه كان يقول الشعر[2] لم أعثر له إلا على شطر بيت رواه له ابن قتيبة وذكر أنه « كان يصبغ بالسواد ويقول :

تُغيِّرُ أعلاها وتأبى أصولها »[3]

ومن الغريب أن هذا الشطر لم يسلم خالصاً له ، فقد نازعه فيه الحسن بن علي الذي أورد ابن رشيق أنه « هو القائل ، وقد خرج على أصحابه مختضباً ، رواه المبرد :

تُسَوِّدُ أعلاها وتأبى أصولُها

فليت الذي يسودُ منها هو الأصلُ »[4]

وأما شهيد كربلاء الذي سقط سنة إحدى وستين فقد مرَّ بنا بيتاه في زوجه الرباب وابنته سكينة ، وبيتاه اللذان شرك والده في نسبتهما ، ومما ذكر له في المصادر ايضاً رجز حماسي مشطور يؤثر فيه الموت على ركوب العار[5] . وروى المسعودي ان الحسين طولب البيعة ليزيد بالمدينة فسأم التأخير وخرج بنهاري بين مواليه ويقول :

لا ذَعَرْتُ السَّوامَ في فَلَقِ الصُّبْحِ

مغيراً ولا دعيت يزيـــــداً

يوم أعطي مخافة الموت ضَيْماً والمنايا ترصدني أن أصيدا[6]

والبيتان ـ إن ثبتا له ـ أيّدا ما كان يتّصف به من بسالة وإباء ، مما بدا

١) الاصابة ٤/٢٥١ . ٢) المصدر السابق وصفحة ٤/٢٥٠، وتاريخ الاسلام ٢/٣٠٦
٣) المعارف ٢٢٩. ٤) العمدة ١/١٤ .
٥) انظر شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ٨١ . ٦) مروج الذهب ٢/٨٦

في صموده أمام جيش ابن زياد ، غير أنّ دعوته نفسه « يزيد » يلفي ظلاً من الشك حولها ، ومن الحق أن الناظر فيما يعزى إلى سبط الرسول لا بد أن يستغرب انتساب بعض الأشعار إليه ، ذلك أنّ فيها ما كان ينشده إنشاداً[1] ، وفيها ما تنقطع فيه همزة الوصل في نحو « الاشتغال »[2] ، وفيها ما يتأفف من الدهر ويتهمه بالغدر[3]. فأما الذي كان ينشده فهو في الغالب يرويه عن غيره رواية ، وأما المضطرب الذي يقطع همزة الوصل فلم يكن يعرفه ذلك العصر ، وأما ما يذمّ الدهر فلا نظن الحسين ينطق به ويخالف ما بلّغه جدّه ﷺ من الحديث القدسي : « قال الله تبارك وتعالى : « يؤذيني ابنُ آدم يسبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر اقلب الليل والنهار »[4].

وإذا تركنا الذين طرقوا أبواب الشعر لهذه الفترة على استحياء وجدنا شاعرين كبيرين بدويي نتاجهما في كل أقطار الساحة الفنية ، هما النعمان بن بشير الذي اغتيل سنة خمس وستين ، وأبو الأسود الدؤلي الذي توفي سنة تسع وستين ، وسوف استعرض الحديث عنهما مع أعلام الشعراء الفقهاء في العصر الاموي . وكان يناصر النعمان والدؤليَّ الفقيه الفذّ عبدالله بن عباس المتوفى سنة ثمان وستين للهجرة[5] ، وقيل سنة تسع وستين[6] ، وكنتُ ذكرتُ له في الفخر اربعة أبيات ، وقد روى له المبرد هذه المقطوعة في إكرام الخيل :

أحبُّوا الخيل واصطبروا عليها فانّ العز فيها والجمالا

إذا ما الخيل ضيَّعها أناسٌ ربطْناها فأشركت العيالا

نقاسمها المعيشة كل يَوْمٍ ونكسوها البراقع والجلالا[7]

١) انظر شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ص ٢٨٣.
٢) المصدر السابق ٣٢٨ . ٣) نفسه ٣٢٨ .
٤) التجريد ٢/١١١ ، وانظر أبياتا اخرى للحسين في شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ٦ ، و ٣٢٧ . ٥) و ٦) مروج الذهب ٢/١١٥ .
٧) حياة الحيوان ١/٣٧٩ ، وذكر انه نقله عن التمهيد لابن عبدالبر .

ومن المعروف كيف أصيب هذا الصحابي الجليل بحبيبتيه ، ورثاه يذكر ذلك في بيتين من شعره يقول فيهما :

إنْ يأخذ الله من عينيَّ نورَهُما ففي لساني وقلبي منهما نورُ
قلبي ذَكيٌّ وعقلي غيرُ مُدَّخَلٍ وفي فمي صارمٌ كالسيف مأثور (١)

وكان يلمع في تلك الفترة اسم القاضي شريح بن الحارث الكِنْدي ، وهو تابعي (٢) ، إلا أنه ادرك الجاهلية (٣) ، وكان يقيم في أول امره في اليمن (٤) ، حتى إذا كان عهد الصديق غادرها إلى المدينة (٥) ، حيث التقى بكبار الصحابة من أمثال عمر وعلي (٦) فأخذ عنهم ، ثم قصد الكوفة ، وكان فيها الفقيه الصحابي عبدالله بن مسعود ، فتنهل من معينه الفيّاض (٧) ، وما زال شريح عاكفاً على الدراسات الفقهية حتى حذقها واستوعبها (٨) .

ويروى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أخذ من رجل فرساً على سَوْم ، فحمل عليه شخصاً ، فعطب الفرس ، فقال عمر : اجعل بيني وبينك من يقضي ، فاختار شريحاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخذته صحيحاً سليماً على سَوْم فعليك أن تردّه كما أخذته . فأعجبه ما قال ، وبعث به قاضياً على الكوفة (٩) ، فأمضى في هذا العمل سحابة عمره ، وكانت تنضم إلى قضائه احياناً البصرة ، ولذلك لقب « قاضي المصرين » (١٠) .

وتؤكد لنا المصادر أن شريحاً قد صدّق ظنّ الفاروق به فكان قاضياً عالماً نزهاً ، يحكم بالحق ولو على أحب الناس إليه (١١) ، وتخبرنا تلك المصادر أن أبا أمية

١) مروج الذهب ٢/١١٥ ، والعقد الفريد ٥/٢٨٧ ، ونكت الهميان ٧١ ، والفتوحات الوهبية ١٨٠ ، وانظر هامش الشعر والشعراء (بتحقيق احمد محمد شاكر) ٢/٨٥٤ اذ يذكر المحقق انتساب البيتين الى غير ابن عباس أيضا .
٢) و ٣) وفيات الأعيان ٢/١٦٧ .
٤) و ٥) سير أعلام النبلاء مجلد ٤ / ج ٢ / ١٥٧ .
٦) و ٧) تذكرة الحفاظ ١ / ٥١ .
٨) شذرات الذهب ١/٨٥ ، وسير اعلام النبلاء ٤/٢/١٥٧ ، ووفيات ٢/١٦٨ .
٩) انظر الأغاني ط (الهيئة المصرية) ١٧/٢١٧ .
١٠) سير أعلام النبلاء ٤/٢/١٥٧ .
١١) انظر شذرات الذهب ١/٨٥ ، ووفيات ٢/١٦٨ ، وتاريخ الخلفاء ١٨٤ .

شريحاً كان رقيق الإحساس حادّ التأثر حتى كان الذي حفزه إلى الخروج من اليمن ان أمه تزوجت بعد أبيه (١) ، وكان إذا سئل ممن انت ؟ يقول : « ممن أنعم الله عليه بالإسلام ، عديد كندة » (٢) ، فيحرص في دقة أن ينتسب إلى الاسلام ، لا إلى القبيلة ، ومما يدل على رهافة إحساسه أيضاً تأثره الشديد لانشقاق الصف الاسلامي بين عبدالله بن الزبير وبني أمية ، وهو تأثر جعله يطلب من الحجاج أن يقبله من القضاء (٣) الذي أفنى فيه من عمره خمسة وسبعين عاماً (٤) ، وما إن استجاب إلى رغبته حتى انكفأ « لا يُخبر ولا يُستخبر » (٥) عن امر الفتنة شيئاً حتى مات ! .

وقد اختلف الرواة في سنة وفاته ، فذكروا (٦) أنها كانت سنة ست وسبعين أو ثمان وسبعين او تسع وسبعين او ثمانين او اثنتين وثمانين او سبع وثمانين ، إلا ان استقالته عقب الفتنة التي نشبت بين الأمويين وابن الزبير - ومعروف انها انتهت بمقتله سنة ثلاث وسبعين للهجرة - تجعل الباحث يستبعد الروايات التي تؤخر وفاته إلى ما بعد سنة ثمانين ، وقد يؤيد ذلك أنه مات بعد سنة واحدة من تركه منصبه (٧) وأن كثرة الرواة ذكروا وفاته سنة ثمان وسبعين (٨) ، ويأتي في مقدمة هؤلاء الامام البخاري (٩) ، وهي السنة التي يمكن الاطمئنان إلى ان شريحاً ابى نداء ربه فيها ، بعد أن طوى ما يزيد على القرن (١٠) . وقد روبت لأبي أمية عدة مقطوعات متفرقات خلال البحث ، ومما احتفظت به المصادر من شعره ايضاً قوله لما بعث معاوية حبيب ابن مسلمة الفهري لنصرة عثمان ولكن لم يدركه حتى قتل :

ألا كلُّ مَنْ يُدْعى حبيباً ولو بدتْ
مُرُوَّتُه يَفْدي حبيبَ بني فِهْرِ
هُمامٌ يقود الخيلَ حتى يُثيرها حياضَ المنايا لا تَبيتُ على وتر

١) و ٢) اخبار القضاة ٢/١٩٩ .
٣) تهذيب الاسماء واللغات القسم الاول ١/٢٤٤ .
٤) المعارف ٤٣٣ ، ووفيات ٢/١٦٧ .
٥) حلية ٤/١٣٣ ، وطبقات ابن سعد ٧/١٤٠ .
٦) انظر وفيات ٢/١٦٩ ، إذ يذكر الخلاف في سنة وفاته .
٧) تذكرة الحفاظ ١/٥١ .
٨) انظر المصدر السابق وصفحته ، واخبار القضاة ٢/١٩٩ ، وطبقات ابن سعد ٦/١٤٥ .
٩) انظر تهذيب الأسماء واللغات ١/٢٤٤ .
١٠) المصدر السابق وصفحته ، والمعارف ٤٣٤ .

نصوبْنَ واستصعدْنَ حتى كأنما
يَطَأْنَ بِرَضْراضِ الحصى جاحمَ الجمر (١)

ومن دون شك لا يمثل ما في أيدينا من أشعاره كلّ نتاجه ، واغلب الظنّ انّ كثيراً منه قد ضاع في جملة ما ضاع من تراثنا ، وإذا كان الرواة لم يشيروا إلى هذا الضياع فحَسْبُهُ شهادتهم انه شاعر محسن (٢) .

وممن كان يقول الشعر في هذه الفترة نصر بن عاصم المتوفى بالبصرة سنة تسع وثمانين (٣) ، وهو من فقهاء التابعين (٤) ، ومن أوائل واضعي النحو (٥) ، وكان في بداية أمره يرى رأي الخوارج ثم ترك ذلك وقال في تركه :

فارقتُ نجدةَ والذين تزرَّقوا وابنَ الزبير وشيعة الكَرَّابي
وهوى النَّجاريّينَ قد فارقْتُهُ وعطيَّةَ المتجبر المرتاب (٦)

وممن روي لهم أبيات معدودات الفقيه المراقي إبراهيم بن يزيد النخعي المتوفى سنة ست وتسعين (٧) ، وكان ينصر فقه الحديث ويكره الرأي والقياس (٨) ، وقد أثبتَ له أبياته في الصداقة والصديق عند الحديث عن العتاب .

وكان يعاصر النخعي من أهل المدينة عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، وسوف أقف عنده مع الأعلام ، وكان فيمن تفقـــه على ابن عتبة من يقول الشعر ، ويأتي في مقدمة هؤلاء خامس الخلفاء الراشدين أبو حفص عمر بن عبدالعزيز ، ومعروف أنه ولد بحلوان من مصر ، في أثناء تولي ابيه عبد العزيز بن مروان لها ، وكانت ولادته سنة إحدى وستين ، أو ثلاث وستين للهجرة (٩) ، وقد استظهر آيات الذكر الحكيم منذ نعومة أظفاره (١٠) ، ولم يلبث ابوه أن بعث به إلى المدينة فتفقه حتى بلغ مرتبة الاجتهاد (١١) ، ولما ولي الوليد بن عبدالملك الخلافة أمّره على المدينة من سنة

١) أخبار القضاة ٢٠٤/٢ ، وكتاب نسب قريش ٤٤٧ .
٢) وفيات ١٦٧/٢ . ٣) و ٤) و ٥) و ٦) معجم الأدباء ٢٢٤/١٩ .
٧) سير أعلام النبلاء ٢٦٧/٢/٤ . ٨) حلية الاولياء ٢٢٢/٤ .
٩) و ١٠) تاريخ الخلفاء ٢٢٨ . ١١) شذرات ١١٩/١ .

ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين (١) ، ثم قدم الشام واقترن بفاطمة بنت عبدالملك حتى إذا توفي سليمان بويع بالخلافة في صفر سنة تسع وتسعين ، فمكث فيها سنتين وخمسة أشهر « ملأ فيها الأرض عدلاً ، وردّ المظالم ، وسنّ السنن الحسنة » (٢) . وقد كان عمر أمّة في زهده وتقواه . وروى أنه كان يقول : « أيها الناس ، أصلحوا أسراركم تصلُحْ علانيتكم ، واعملوا لآخرتكم تُكْفَوْا دنياكم ، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب حيٌّ لسريع في الموت » (٣) ، ويقول : « مَنْ عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه » (٤) ويقول أيضاً « إذا سمعت كلمة من امرىء مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محْمَلاً من الخير » (٥) . وتوفي بدير سِمعان من أعمال حمص في رجب سنة إحدى ومائة (٦) .

وقد احتفظت المصادر للخليفة العادل بمقطوعات كثيرة منها ما كان يؤلفه بنفسه ، ومنها ما كان ينشده لغيره اعتباراً وتمثلاً ، مما أدى ببعض الرواة أنْ يخلطوا بعض ما تمثّله فيما ألّفه ، ولكن أصحاب النقد والتحقيق تمكّنوا المييْز بين المجموعتين ونصوا على ما كان عمر يتمثل به تمثّلاً ، فمن ذلك أبياته : « يُرى مُسْتَكِيناً وهو لِلْمُلْكِ ماقِتٌ » (٧) ومنها « لما زوّدَ مما كان يجمعه » (٨) ، ومنها : « ألمْ ترَ أنّ الموت أدرك مَنْ مضى » (٩) ومنها : « نهارُكَ يا مغرور سهوٌ وغفلة » (١٠) ومنها : « أبقظانُ أنت اليوم أم انت حالم » (١١) ومنها : « من كلأ حين تصيبُ الشمسُ جبهته » (١٢) .

وإذا تركنا ما كان ينشده إنشاداً وجدنا الرواة يثبتون له أبياتاً اخرى تدور حول النفس وأخذها بأسباب التربية والشعور بالمسؤولية والحساب ، فهو يحذّر من إتباع النفس هواها ، دون ان تعتبر لا بشيب ولا كهولة فيقول :

١) تاريخ الخلفاء ٢٢٩ . ٢) تاريخ الخلفاء ٢٣١ . ٣) نفسه ٢٣٨ .
٤) نفسه ٢٤٣ . ٥) نفسه ٢٣٩ . ٦) نفسه ٢٤٦ .
٧) الحلية ٣١٨/٥ . ٨) نفسه ٣١٩/٥ . ٩) نفسه ٣١٩/٥ .
١٠) نفسه ٣١٩/٥ و ٣٦٣/٥ ، وأدب الدنيا والدين ١٠٣ .
١١) حلية ٣١٩/٥ وانظر سيرة عمر لابن الجوزي ٢٢٥ « نص على تمثله بها » .
١٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز ٢٢٦ .

إنـهَ الفؤادَ عن الصِّبا وعن انقياد للهوى
فلعمر ربّـك إنّ في شيب المَفارق والجَـلى
لك واعظاً لو كنت تـــــعظ اتعاظ ذوي النهى
حتى متى لا ترعوي وإلى متى ، وإلى متى ؟
مِنْ بَعْدِ أن سُمّيتَ كهلاً واستُلِبْتَ اسم الفتى !
بَلِيَ الشباب وأنتَ إنْ عُمِّرْتَ رهْنٌ للبلى
وكفى بذلك زاجراً للمرء عن غيّ كفى [1]

ويتول عمر الخلافة فإذا هو يشعر بعبء المسؤولية التي نيطت به فيقول :

قـد جاء شغل شاغـل وعدلت عن طرق السلامـة [2]
ذهب الفراغ فـلا فرا غ لنا إلى يوم القيامـــــة

وعلى الرغم من انشغاله بأمر الخلافة والقيام بأثقالها ، فإنه لم يكن يكفّ عن ذكرى الموت المورود الذي لا يعصم منه رئاسة ولا خلافة ، بل يأتي على كل شيء إلا وجه الملك الباقي :

أنا ميّتٌ وعزّ مَنْ لا يموتُ قـد يَقّنتُ أنني سأموتُ
ليس ملك يزيـله الموت ملكاً إنما الملك مُلْكُ من لا يموتُ [3]

ويستغرب ألا يتفكر الناس في مصيرهم ، بينما الموت يغدو على أشياعهم من بينهم ويروح :

ومن النـاس من يعيش شقيـاً جيفـة الليل غافل اليقظـة

١) العبدة ١/١٧ ، وسيرة عمر ٢٣١ ، وتاريـخ الخلفاء ٢٤٤ ، والجلى : الخطب مقدم الرأس دون الصلع . ٢) سيرة عمر ٢٣٠ ، والبداية والنهاية ٩/١٩٨ .
٣) حلية ٥/٢٦٤ ، والبداية والنهاية ٩/٢٠٦ .

فإذا كان ذا حياء ودين راقب الله واتّقى الحفظةَ
إنما الناس ظاعن ومقيم فالذي سار للمقيم عظةُ [1]

وعن كان يقول الشعر لهذه الفترة عامر بن شراحيل [2] الشعبي وهو فقيه تابعي [3] ينتسب إلى أصول حِمْيَرية ، وعداده في هَمْدان [4] ، ويروى أنه كان نحيلاً ضئيلاً ، وأنه كان إذا سئل عن ذلك يقول : « زوحمت في الرحم ، ذلك أنه ولد هو وأخ له في بطن واحد » [5] ، على أنّ عامراً كان مضرب المثل في الذكاء وقوة الحافظة وغزارة العلم ، وقد كان يقول : « ما أنا بشيء من العلم أقل رواية مني للشعر ، ولو شئت أن أنشد شهراً ، كلّ يوم ، لا أعيد قصيدة ، لفعلتُ » [6] وهو يعدّ من كبار الفقهاء لعهده ، بل يعدّه الزهري رابع ثلاثة هم أعلم أهل زمانهم [7] ، ويُسلك في فقهاء الحديث إذ كان يكره الرأي والقياس [8] ، وأكثر الروايات على أنه توفي سنة أربع ومائة [9] . والذي بقي من أشعار أبي عمرو يسير جداً ، ومما روي له قوله عندما سئل عن عمره :

نفسي تَشَكّى إليّ الموتَ مُزْحِفةً
وقـد حملتُك سهماً بعد سبعينا
إن تُحْدثي أملاً يا نفس كاذبةً
إن الثلاث وقَيْن الثمانينا [10]

وروى وكيع عن سمه بن بويه الكاتب أنه سمعه يقول :

١) سيرة عمر ٢٣٠ ، وحلية ٥/٣٢٠ ، وقد مرت بنا خلال البحث مقطوعات أخرى لعمر ، وانظر تاريخ الإسلام ٤/١٦٨ ، وعيون التواريخ حوادث ١٠١ ، وشعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ص ٣٥٥ .
٢) وفي رواية أنه اسم أبيه عبدالله ، انظر شرح المقامات الحريرية ٢/٢٤٥ .
٣ و ٤) وفيات ٢/٢٢٧ . ٥) المعارف ٤٥٠ . ٦) أخبار القضاة ٢/٤٢٠ .
٧) وفيات ٢/٢٢٣ . ٨) الحلية ٤/٣١٩ . ٩) اخبار القضاة ٢/٤٢٦ ، وقيل غير ذلك انظر ابن سعد ٦/٢٥٥ ، ووفيات ٢/٢٢٨ ، والمعارف ٤٥١ .
١٠) طبقات ابن سعد ٦/٢٥٥ ، وتهذيب ابن عساكر ٧/١٥٥ ، وحلية ٤/٣٢٤ .

أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدق ما تقولْ
لا خير في كذب الجوا د وحبذا صدق البخيلْ (١)

وممن نسب إليه بعض الأبيات في هذه الفترة الحسن بن يسار البصري المتوفى سنة عشر ومائة (٢)، واعظ البصرة وفقيهها المشهور، وقد مرّ له في ظاهرة النظم أربعة أبيات. ومنهم ايضاً عون بن عبدالله بن عتبة المتوفى سنة خمس عشرة ومائة، وقد أخذ عن أبيه عبدالله بن عتبة وشقيقه عبيدالله بن عبدالله وابن عباس وسعيد بن المسيب والسيدة عائشة وأبي هريرة وعبدالله بن عمرو (٣)، فكان من أدب اهل المدينة وأفقههم (٤)، وكان يقول بالارجاء، ثم رجع عنه وقال:

فأوّلُ ما أُفارقُ غير شكّ أفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا مؤمن من أهل جور وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمن دمه حلال وقد حرمت دماء المؤمنينا (٥)

ويبدو أن الدعوة إلى الارجاء كانت مستحكمة قوية لذلك العهد، إذ نجد شاعراً آخر يمتنق آراءها من دون أن يرجع عنها هو محارب بن دثار السدوسي المتوفى سنة ست عشرة ومائة (٦)، رهو فقيه كوفي تابعي سمع ابن عمر وابن مسعود وجابر بن عبدالله من الصحابة (٧)، وتولى قضاء الكوفة لخالد بن عبدالله القسري (٨) ومحارب من قدماء المرجئة الذين كانوا يتجنبون الحكم على علي وعثمان ولا يشهدون فيهما بشيء (٩)، وزاه يوضح نظريته في الارجاء في شعره، فهو لا يرى بأساً في تأخير الامام عليّ في توليه الخلافة إلى ما بعد سابقيه، أبي بكر وعمر

١) اخبار القضاة ٤٢٢/٢. ٢) المعارف ٤٤١.
٣) تاريخ الاسلام ٢٧٧/، والتاريخ الكبير للبخاري ١٣/٤.
٤) تاريخ الاسلام ٢٨٨/٤. ٥) الأغاني، دار الثقافة، ١٣٥/٩، والمعارف ٢٥٠
٦) تهذيب التهذيب ٥٠/١٠. ٧) تهذيب الأسماء واللغات ٨٤/٢.
٨) شذرات ١٥٢/١. ٩) تهذيب التهذيب ٥١/١٠، وطبقات ابن سعد ٣٠٧/٦

وعثمان، ويقص اختلاف الناس في عثمان ـ رضي الله عنه ـ ثم يصدر في موقفه عن فكرة الارجاء، وأنّ مردّ الأمر إلى الايمان والعقيدة، وينبرأ من الحكم على أعمال غائبة عنه لا يعلم حقيقتها ولا أسرارها:

وإرجائي أبا حسن صواب على المُمَرين برّاً أو شقيّا
وعثمانٍ فقال الناس فيه: فقالت فرقة قولاً بَذيّا
وقال الآخرون إمام عدلٍ وقد قتلوه مظلوماً بريّا
وليس عليّ في الإرجاء بأس ولا نقصٌ ولست أخاف شيّا
إذا أيقنتُ أنّ الله حق وأن محمداً جانا نبيّا
وأن الرسل قد بعثوا بحق وأن الله كان لهم وليا
إذا حُشر القُرانُ حشرت معه وأرجي بعدهم أمراً خفيا
وما علمي بما فَعَلَتْ رجال مضوا قبلي وكنت لهم عميا؟ (١)

وممن احتفظت لهم المصادر ببعض الأبيات زيد بن علي زين العابدين الذي ثار على هشام بن عبدالملك في الكوفة فقتله يوسف بن عمر سنة اثنتين وعشرين ومائة (٢) وهو مؤسس المذهب الزيدي في الفقه، وكان هشام لما أحسّ بنواياه في الخروج طلبه ولامه وقرّعه فخرج زيد من عنده وقال:

شرّده الخوفُ وأزرى به كذاكَ مَنْ يكره حرّ الجلادْ
يحتفي الرِّجْلينَ يشكو الوجى تفرعه أطرافُ مَرْوٍ حِداد
قد كان في الموت له راحةٌ والموت حَتْمٌ في رقاب العباد (٣)

ومنهم ابن شهاب الزهريّ محمدُ بن مسلم المتوفى سنة أربع وعشرين ومائة،

١) أخبار القضاة ٢٩/٣، وانظر الأغاني (دار الكتب) ٢٤٨/٧. ٢) تاريخ الموصل ٤٤
٣) العقد الفريد ٤٨٣/٤، و ٨٩/٥، والمرو: حجارة بيض رقاق.

وكان مقرباً إلى عبدالملك بن مروان وابنه هشام ويزيد ، وهو القائل لعبدالله بن عبدالملك بن مروان :

أقول لعبد الله لما لقيتُه يسير بأعلى الرَّقَّتين مشرِّقا
تبغَّ خبايا الأرض وأرْجُ مليكَها لعلك يوماً أن تجاب وترزقا (١)

وقد عهدت أواخر هذه الآونة أشعار ابن أذينة المدني ، وسابق بن عبدالله البربري وسوف أدرسهما مع الاعلام :

٣ ـ إعلام الشعراء الفقهاء في العصر الأموي :

أ ـ النعمان بن بشير :

هو أبو عبدالله (٢) النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري ، الخزرجي ، وأبوه بشير هو أول من بايع أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، من الصحابة الأنصار يوم السقيفة ، وكان قد شهد بيعة العقبة وبدراً وأحداً والخندق ثم لزم جيش خالد ابن الوليد فاستشهد يوم عين التمر (٣) ، وأمه عمرة بنت رواحة شقيقة عبدالله (٤) ، وكانت وضعته في المدينة ، للسنة الثانية للهجرة (٥) ، وما إن ترضرع حتى صار يروي الحديث عن النبي ﷺ ، ولم يلبث المصطفى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى فأخذ ينهل أحاديثه عن أئمة الصحابة من أمثال خاله عبدالله بن رواحة وعمر وعائشة ، رضي الله عنهم (٦) ، وبلغ ما رُوي له مائة وأربعة عشر حديثاً (٧) ، نقلها عنه ابناه محمد وبشير والشعبي وسماك بن حرب ومحمد بن عبدالرحمن الزهري وأبو سلام ممطور وأبو قلابة ، وعروة وخيثمة بن عبدالرحمن وغيرهم (٨) .

وقد كان النعمان ممن تأثروا لمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، تأثراً بالغاً ،

١) معجم الشعراء ٣٤٥ .
٢) انظر كنيته في تهذيب الأسماء والصفات ١٢٩/٢ ، والاصابة ترجمة ٨٧٢٢ ، والمعارف ٢٩٤ .
٣) الأغاني (الثقافة) ٤/١٦ .
٤) أسد الغابة ٢٢/٥ .
٥) سير أعلام النبلاء ١٠٠/١/٤ .
٦) الاصابة ت ٨٧٢٢ .
٧) تهذيب الاسماء والصفات ١٢٩/٢ ، وانظر بعضاً منها في كتاب الجهاد ٤٢ ، والتجريد ١٢٨/١ و ١٤٢/٢ .
٨) انظر تلامذته في أسد الغابة ٢٢/٥ ، وسير أعلام النبلاء ١٠٠/١/٤ ، والاصابة ت ٨٧٢٢ .

ورى نائلة ـ امرأة عثمان ـ توجعه بقميص الخليفة الشهيد إلى معاوية في الشام (١) ، ومنذ ذلك الحين انعقد بينه وبين مؤسس الخلافة السفيانية موالاة قوية ، ويصبح من كبار أعوانه ، وخلف معاوية ابنُه يزيد ، وكان النعمان حينئذ يتولى عاصمة أبي السبطين فأبقاه عليها فترة ، ثم عزله .. ولم يلبث ان أمَّره على حمص مرة ثانية (٢) .

وعلى الرغم من مناصرة النعمان لمعاوية ، وخوضه معه حرب صفين (٣) ، فإنه لم يكن يتردد أن يقول أمامه ما يراه من الحق ، فهو يأبى ان يقبل استئذانُ حاجب معاوية بلقب الأنصار أولادَ عمرو بن عامر أو الأوس والخزرج ، وكان معاوية أمره بهذا مستجيباً لرأي عمرو بن العاص (٤) ، وهو يستنكر على مروان بن الحكم أن ينفذ الحد في عبدالرحمن بن حسان ، دون أن ينفذه بأخيه عبدالرحمن بن الحكم ، عندما لجّ المجلد بينهما واستفحش ، وكان ابن حسان كتب إلى النعمان بمظلمته ، فدخل على معاوية يخاطبه :

يابنَ أبي سفيان ما مثلُنا جارَ عليه مَلِكٌ أو أميرُ
اذكر بنا مقدَّم أفراسنا بالجنو إذ أنت إلينا فقير (٥)

ويذكّره بمكرمة أبيه بشير بن سعد يوم تقدّم الأنصار لمبايعة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وبما أبلوه يوم بدر ، ويطلب إليه إعطاء ابن حسان حقه لتصحّ صدور الثائرين لمظلمته ، ويلوّح له بقوة الأزد وإبائهم الضيم (٦) ، ويستجيب له معاوية ، فيكتب إلى مروان ، ويعزم عليه ، أن يضرب أخاه مائة ، فضربه خمسين ، وبعث إلى ابن حسان بخمسة ، وسأله أن يعفو عن خمسين ، ففعل ، وقال لأهل المدينة : إنما ضربني حدّ الحرّ مائة وضربه حدّ العبد خمسين ، فشاعت الكلمة حتى بلغت ابن الحكم ، فجاء إلى اخيه فأخبره وقال : لا حاجة لي فيما عفا عنه ابن حسان ، فبعث إليه مروان : لا حاجة لنا فيما تركت فهلُمّ فاقتصّ من صاحبك ،

١) المحبر ٢٩٤ .
٢) انظر اعماله التي تولاها : سير أعلام النبلاء م ٤ ج ١/١٠٠ ، وأنساب الاشراف ٣٦٤/١ .
٣) أنساب الاشراف ٣٦٤/١ .
٤) انظر الأغاني ، الثقافة ، ١٣/١٦ .
٥) شعر النعمان ١٤٤ .
٦) الصدر السابق ١٤٤ وما بعدها .

لحضر فضربه مروان خمسين أخرى[1].

ويمكن القول إن فائرة النعمان لم تلتهب مرة كما التهبت حين هجا الأخطل الأنصار بقصيدته التي يقول فيها:

ذهبت قريش بالمكارم كلّها واللؤم تحت عمائم الأنصار[2]

ويروى أن النعمان عندما سمعها دخل على معاوية وحسر عمامته عن رأسه، وقال: يا أمير المؤمنين أترى لؤماً؟ قال: لا، بل أرى كرماً وخيراً؛ فما ذاك؟ قال: زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائم الأنصار، ثم أنشد قصيدته التي يطلب فيها القِصاص من الأخطل، أو عبدِ الأراقم - كما يسميه - ويبيّن نوع قصاصه وهو قطع لسانه الذي ابتنى في الأنصار الدنيّة، ويبلغ الغضب بالنعمان أن يهدّد معاوية - إن تردد في عقابه - بقومهم الضخمة، فيقول:

معاويَ إلا تُعْطنا الحق تعترفْ لحى الأزد مشدوداً عليها العمائمُ
أيشتمُنا عبدُ الأراقم ضِلّةً وماذا الذي تُجْدي عليك الأراقم
فمالي ثأر غير قطع لسانه فدونك من يرضيه عنك الدراهم
وارْعَ رويداً لا تَسُمْنا دنيّة لملك في غِبّ الحوادث نادم
متى تلقَ منا عصبة خزرجيّة أو الأوسَ يوماً تخترمْكَ المخارم
وتلقك خيل كالقطا مُسْبَطِرّةٌ شماطيطُ أرسال عليها الشكائم[3]

ويصور صنيعة هذا الجيش وما يكون له من هَوْل وطَوْل، ويلفت معاوية إلى أنه سوف يرى أن رأب الصدع إذا انفتق، ويدعوه إلى المسارعة في القصاص،

١) الأغاني (الثقافة) ١٠/١٦ و ١١.
٢) انظر البيت والحادثة في المصدر السابق ٨/١٦ و ٩.
٣) ديوانه ص ١٥٠ وما بعدها، ومشدوداً عليها العمائم: مستعدة للقتال، والأراقم: أحياء من تغلب، وضلة: ضلالاً، والغب: العاقبة، وتخترم: تهلك، والمخارم: الطرق في الجبال، ومسبطرة: طويلة سريعة، وشماطيط، وأرسال: متفرقة متتابعة.

وكأنما يتخيل النعمان منه تبطّؤاً، فيكرّ في تهديده والتلويح بقوى الأنصار، وما أثبتوه من جدارة حربية يوم بدر، وما امتهجوه من كراهية المرأة، ويؤكد له طلبته ويعدّ التهاون فيها شتماً صراحاً، فيقول:

فما إنْ رمى رامٍ فأوهى صَفاتَنا ولا ضامنا يوماً من الدهر ضائمُ
فلا تشتُمَنّا يابن حرب فإنما تُرقّى إلى تلك الأمور الأشائم[1]

ويذكره بفضل بني هاشم على قومه، وكيف بعث الله منهم خاتم النبيين[2]، وقد تأثر معاوية بالأبيات تأثراً شديداً، إلا أنه تحمّل كل ما فيها، وآثر لشَعرته دوام الاتصال، وأمر بدفع الأخطل إلى النعمان ليقطع لسانه، فاستجار بيزيد بن معاوية، فمنعه وأرضوا النعمان حتى كفّ عنه[3].

ومَنْعُ يزيدَ للأخطل لا يعني أنه لم يكن يقدّم النعمان ويؤثره، فقد جرى في ذلك على سَنن أبيه، ورأينا كيف ولاّه حمص بعد الكوفة، ثم مضى يزيد وخلفه ابنه معاوية الثاني، ولم يلبث أن توفي بعده بقليل تاركاً الخلافة شورى بين المسلمين، وكانت دعوة عبدالله بن الزبير آنئذ في أوج نفوذها، وكان الذي يلوح في الأفق أن ابن ذات النطاقين هو خليفة الند لا محالة، وقد رغّب المسلمين فيه ما كان عليه من صلاح وهداية[4]، فبايعته كثرة الأقطار الشرقية والغربية، وبايعه النعمان بن بشير أمير حمص، وفجأة ينتصر مروان بن الحكم الأموية في الشام[5]، ويقضي على شيعة ابن الزبير في مرج راهط، ويتعقب مَنْ نجا منهم فراراً، ويؤلّب عليهم، وكان من هؤلاء النعمان، وقد أدركه جماعة من أهل حمص فقتلوه سنة أربع وستين للهجرة[6].

وقد خلّف النعمان من بعده ابنتين وخمسة صبية[7] تزوجوا له من امرأتين،

١) شعر النعمان ١٥٦ و ١٥٧، وأوهى: أضعف، والصفاة: الصخرة للماء، والأشائم: من الشؤم.
٢) المصدر السابق ص ١٥٧. ٣) الأغاني «الثقافة» ١٦/١٦.
٤) تاريخ الخلفاء ٢١١. ٥) نفسه ٢١٢.
٦) تهذيب الأسماء واللغات ١٢٩/٢، وأنساب الاشراف ٣٦٤/١. وقيل سنة خمس وستين انظر الاغاني «الثقافة» ٤/١٦ والاصابة ت ٨٧٢٢.
٧) انظر في ابنائه الاغاني «الثقافة» ١٩/١٦ و ٢٠ و ٢١؛ وأسد الغابة ٢٢/٥، =

إحداها أم عبداة بنت هانيء الكندية التي يخاطبها بقوله حين ولي اليمن:

إني لعمرُ أبيكِ يابنة هانيء ... لو تَصْحَبِين ركابي لشَقِيتِ
ونُصِرْ أمَّك أنّنا لم نصطحبْ ... فدعي التبسُّط للقباء نسيت
واقْنَيْ حياءكِ واقصدي مكفيَّةً ... إنْ كنت للرشد المُصيب هُديت
ولعلَّ ذلك أن يُرادَ فتكرهي ... وهناك إنْ عِفْتِ السِّفارَ عُصيت
أنّى تذكّرها وغَمْرةُ دونها ... هيهات بطن قناة من بَرْهوت
لو تسلكين به بغير صحابة ... عصراً طرار سحابِ طه سَتُبْكيت (1)

فهو يؤثر لها أن تبقى عند أهلها ولا تتجشم عناء السفر معه، فبذلك تحقق رغبة أمها، وتقصد مصبا مكفية الحوائج، ميسرة العيش، وينبهها إلى أنها قد تكره الارتحال - بعد الشروع فيه - وتتمنى لو كانت مكثت، وهنالك لن ينفعها الندم شيئاً، ولن يرجعها بعد تقدم السفر، ويعود النعمان فيذكرها بِبُعْد الشقة ومصاعب الطريق لعلها تؤوب إلى الراحة، وتقنع بالبقاء.

وفي ديوان النعمان قصيدتان أخريان يذكر فيهما زوجه أم عبداة الكندية، وقد كنت رجحت في إحداهما - عند الحديث عن النزل - أن يكون قد عرض بينهما شيء من «سوء التفاهم» في بعض فترات حياتهما الطويلة، فإذا هو يعالج الأمر على سبيل النزل التقليدي، مازجاً الواقع بالخيال، وهو مزج لم يكن يغيب

= وتفصيلاً فيما في مقدمة شعر النعمان الدكتور يحيى الجبوري ص ١١ وما بعدها.

١) شعر النعمان ١٣٨ وما بعدها، والسفار: السفر، وغمرة: موضع بين نجد وتهامة، وقناة: واد بالمدينة، وبرهوت: واد بحضرموت، والطرة: القطعة الطويلة من السحاب تبدو في الأفق، وفي الديوان عصراً طرار سحابة، وبالتاء ينكسر الوزن.

عن أم عبداة أي عنصريه يريد (1). أما القصيدة الثانية فهي تعبر عن حزنه لفراقها الذي كان يضطر إليه - في أغلب الظن - بسبب وظائفه (2).

وامرأة النعمان الثانية هي فاتكة الكلبية (3)، وهو لا يذكرها في شعره على نحو ما يذكر أم عبداة، ولكنه في غزله يكني امرأة بأم الحويرث، ويطلق عدة مقطوعات غزلية أخرى دون تعيين، وليس بعيداً ان تكون فاتكة هي أم الحويرث نفسها، فإن لم تكن هي أم الحويرث فقد تكون بعض المقطوعات السالفة تعنيها.

ولم يترك النعمان أسرته من بعد فحسب، وإنما ترك أيضاً ديواناً من الشعر قام بتحقيقه الدكتور يحيى الجبوري، وذكراً حسناً بما حظي به من صُحْبة وتفقه وحديث، وبما كان عليه من كرم (4) وإيثار للعدل ونصيحة للمسلمين، وبما وُهب من لَسَنٍ حاذق في الخطابة (5) والشعر، وكان مما أعان على استمرار ذكره أن بلدة «المعرة» قد أضيفت إلى اسمه وكان اجتاز بها فتوفي له ولد فيها فدفنه، فسميت «معرة النعمان» (6).

ويبدو أن مراقة أسرة النعمان في قول الشعر كانت من دواعي ميله إليه، ذلك أن جده سعد بن الحصين، وأباه بشير بن سعد، وعمه الحصين بن سعد كلهم شعراء، وكان في أولاده وأسباطه ممن يقرضون الأشعار كثير (7)، ومعروف أن خاله عبداة بن رواحة كان ممن تصدّوا بأشعارهم مع حسان وكعب للمشركين، وناضحوا عن النبي ﷺ ودعوته.

ويروي أبو الفرج قصة الأبيات الأولى من شعره فيقول: «خرج النعمان بن بشير في ركب من قومه، وهو يومئذ حديث السن، حتى نزلوا بأرض من الأردن يقال لها حفير وحاضرتها بنو القين، فأهدت لهم امرأة من بني القين يقال لها ليلى هدية، فبينا القوم يتحدثون ويذكرون الشعراء إذ قال بعضهم: يا نعمان هل

١) انظر ديوانه ص ١١٧ وما بعدها. ٢) انظر ديوانه ص ١٦٢ وما بعدها.
٣) الطبري ٢/٧٤٣. ٤) انظر على سبيل المثال قصة إكرامه لأعمش همدان عندما شكا إليه حاله، وكان النعمان على حمص فجمع له عشرين الف دينار. الأغاني (التفاقة) ٧/١٦
٥) تهذيب التهذيب ١٠/٤٤٨؛ وسرت سائر صفاته من قريب.
٦) القاموس المحيط ١/١٨١؛ وتقع معرة النعمان على بعد «٩٠ كم» من حلب على طريق حماة.
٧) الأغاني «التفاقة» ١٦/١٤ و ١٩ و ٢٠ و ٢١.

قلت شعراً ؟ قال : لا والله ما قلت ، فقال شيخ من بني الحارث بن الخزرج يقال له ثابت بن سياك : لمْ تقل شعراً قط ؟ قال : لا ، قال : فأقسم لتُرْبِطَنَّ إلى هذه السَّرحة فلا تفارقها حتى يرتحل القومُ أو تقول شعراً . فقال عند ذلك وهو أول شعر قاله :

يا خليلي ودّعا دار ليلى ... ليس مثلي يحلّ دار الهوانِ
إن قينيّةً تحلّ مُحِبّاً ... فحقيراً فجنّتَيْ نَرْفلانِ
لا تواتيكَ في المغيب إذا ما ... حال من دونها فروع القَنانِ
إنّ ليلى ولو كَلِفْتَ بليلى ... عاقها عنك عائقٌ غيرُ وانِ

قال : وضرب الدهرُ على ذلك وأتى له زمن طويل ، ثم إن ليلى القينيّة قدمتْ عليه بعد ذلك وهو أمير على حِمْص ، فلما رآها عرفها فأنشأ يقول :

ألا استأذنتْ ليلى فقلنا لها لجي ... وما لَكِ أنْ لا تدخلي بسلام
فإن أناساً زُرْتِهمْ ثم حرّموا ... عليك دخول البيت غيرُ كرامِ

فأحسن صلتها ورفدها طول مقامها إلى أن رحلت عنه »[1] .

وتدور أهم الموضوعات التي طرقها النعمان في شعره حول الحكمة والغزل والفخر والوصف ، وأهم ما ترك في الموضوع الأول القصيدتان الثالثة والرابعة من ديوانه ، وقد ذكرتْ أولاهما في مواضع متفرقة من البحث ، وسوف أتحدث عنها في نهج القصيدة عند النعمان ، أما القصيدة الأخرى فتبدأ بتسبيح الله الذي أنزل الدين على الناس واصطفى منهم محمداً ﷺ رسولاً مبلغاً ونذيراً مبيناً ، وخلق من السموات سبعاً طباقاً ، ومن الأرض مثلهن ، ومهّد السبل ، وأرسى الجبال ، وأسبغ النعم ، ثم كان عالمُ الذرّ ، قبل أن تخلق البشرية ، فأخرج الله من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، عهداً علينا مؤكّداً ، ويبين النعمان سبب هذا الإشهاد فيقول :

١) الأغاني « الثقافة » ١٢/١٦ - ١٣ .

لئلا يقولوا إنما ضلّ قبلَنا ... القرون نصارام ومن قد تهوّدا
وكنا خلوفاً بعدهم لم يكن لنا ... كتاب ، ولم يجعلْ لنا الله موعدا
فهذا كتاب صادقٌ يدرسونه ... لمن خاف منكم ربه ثم سدّدا[1]

ثم يدعو النعمان إلى اتباع النبي وما أنزل إليه من ذكر حكيم وقول حق فيقول :

ألم تعلموا أنْ قد أتاكم رسولُه ... بقولٍ حكيم صادقٍ ثم وصّدا
وبلّغكم ما قد أتاكم من الهدى ... وعمّ عليكم بالنداء ونَدّدا
فلا تك صدّاداً عن القصْدِ والهدى ... أصمّ إذا تدعى إلى الحق أصْيَدا
عليكم بعادات التقى واتّباعها ... وكلّ امرىء جارٍ على ما تعوّدا[2]

ويتابع النعمان بن بشير ذكرَ نعم الله فهو مقلّب الليل والنهار ، وهو الكريم الرازق ، وهو الذي مرَج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملحٌ أجاج ، ويؤكد أنّ أحداً لا يستطيع أن يحصي آلاء الله ، فقد غمرت الناس غمراً .

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن نعيم الآخرة ، بعد أن ذكر نعيم الدنيا ، فإن للمتقين بما أسلفوا من صالح الأعمال جناتٍ لهم فيها ما تشتهيه أنفسهم ، وتقرّ به أعينهم ، وكأنما يثير حديث الجنة في نفسه كوامن الوجد ، فإذا هو يعزم ألا يقول الشعر فيما سوى الثناء على الله ، سبحانه ، أو مدح النبي عليه الصلاة والسلام .

وإلى جانب الحِكمة في شعر النعمان غزلٌ كثير ، وغالباً ما يصرح باسم التي

١) شعر النعمان ٩٥ ، وهو يتأثر قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ؛ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، او تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون » الأعراف ١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٤ .

٢) شعر النعمان ٩٦ . ووصد : ثبت . وندد : أمعن في ندائه وتبليغه . والأصيد : المتكبر .

يوجه إليها غزله على نحو ما يصنع في مخاطبة زوجه أم عبدالله أو أم الحارث أو ليلى القينية ، ولكنه أحياناً يثقل تحديد مراده ، وكانت مرت بنا القصيدة التي يحن فيها إلى أم عبدالله ببعض أسفاره ، كما مرت الإشارة إلى قصيدته المائرة التي يعاتبها فيها على سبيل الغزل التقليدي ، ويذكر ابتعادها منه ، ووجده عليها ، وضنها بجميل القول عليه ، وجوده بأحلى الحديث لها ، وهجرانها الطويل المستمر ، ومشقة أن يمر عليه يوم دون لقائها ، ومحاولتها - مع كل ذلك - أن تبقى مودة النعمان ! لكنه - بعد أن قدّم دونها من الصبر ما قدّم ، فلم تقدّره ، يأبى أن يذل أو ان يُظلم :

على تأيها مني وإن كنت عاتباً ... عليها وكانت في التجنب أظلما
تجود لها نفسي بحلو حديثها ... وتبذل بعد البخل نزراً مترجما
يطول عليّ اليوم دون لقائها ... ويهجرني حولاً جديداً مجرّما
تحاول ودّي إذ تولّت ودّها ... أبى الله قبل اليوم أن أتهضّما (١)

ويريد النعمان أن يُقرّ هذه الفكرة في ذهنها فيلفتها إلى غناه الذي منّ عليه به مولاه ، وإلى أن سعيه في الماضي لم يكن إلا رغبة في القرب ورفقاً بالوصال ، أما وقد صار التباعد أحزم وأسلم ، فإنه لو عزم وأيد وتحمّل للفراق أو تيقظ إلى ما عملت ، وتندّم على ما أسلفت :

وإني - بحمد الله - لم تمس ليلة ... من الدهر ألفى عارياً متقسّما
ولكن رفيق بالوصال ومرتحل ... عزوف إذا كان التجنب أحزما
فصبراً على شحط النوى ولعلّها ... من الدهر يوماً أن تفيق وتندما (٢)

ويشبه غزله بأم عبدالله ما قاله في أم الحويرث ، فهو يحن لذكراها ، وينوق - إذ فرّقت بينهما النوى - إلى لقياها ، ثم يتحدث عن وشاة يحاولون فصم عرى قُربهما ، وأنهم جعلوها تنزع إلى الصرم ، ولكنه يهديها إلى طبائعه ، فهو يحرص

١) شعر النعمان ص ١٢٠ . والعتب : الموجدة . والنزر : القليل . والمترجم : المفسر . والمجرم : التام . وأتهضم : أظلم . ٢) نفسه ١٢٦ ، ومرتحل : مباعد . والشحط : البعد .

على الوصال وعلى اللقاء ، إلا أنه - إذا النوى - صعب المقادة ، يأبى الهوان ، ولو ضحّى بهواه (١) . وقد أشرت إلى احتمال تكنيته بأم الحويرث لزوجه ثالثة بنت همام الكلبية ، ضرّة أم عبدالله ، واحتمال مراده بها أم عبدالله نفسها ، لترديده أنغام قصيدته السابقة .

أما ليلى القينية فنزله فيها - كما هو واضح من خير الأبيات الأولى التي قالها - تقليدي محض ، نظمه في حداثة سنه ليتخلص من يمين شيخ القبائلة الذي أقيم عليه - كما رأينا - « لتربطنّ إلى هذه السرحة فلا تفارقها حتى يرتحل القوم أو تقول شعراً » (٢) ، وكانت ليلى أهدت القوم حين نزلوا هدية فقال فيها أبياته المتقدمة ، ثم التقى بها وهو أمير على حمص فعرفها وأحسن صلتها ورفدها إلى أن رحلت ، وفاء لإكرامها القديم وهديتها المذكورة . وقد يكون فكّر في أثناء نزول القبائلة بخطبة ليلى ، لكن صغر عمره ، من جهة ، وعظم بسرعة الرحيل ، من جهة أخرى جعلاه يشبّه أمره معها بمن ينكح الثريا سهيلاً ، فهي شامية ، وسهيل يمني ، فليسا يلتقيان أبداً (٣) ، ولما عرض أن التقيا بعد إمارته ، كان قد تزوج أم عبدالله ، وربما كان قد تزوج ضرّتها ثالثة أيضاً ، فلم يكن منه إلا أن ردّ هديتها السابقة .

أما المقطوعات التي لم يذكر فيها من يراد بها ، فيمكن من خلال ما تقدم من غزله - أن نلحقها بإحدى زوجتيه (٤) ، أو ان نعدها غزلاً تقليدياً بغير امرأة حقيقية (٥) .

ويتحدث النعمان في قسم من فخره عن انتساب عشيرته إلى قبيلة أم الأوس والخزرج (٦) ، ومصاهرتهم بني المنقاء وابني محرّق ، وقرابتهم إلى آل عمران وعمرو ابن عامر من أجدادهم القحطانيين (٧) ، وهو ما أثرت في الفخر إلى تأسيه فيه خطا الشعر الجاهلي ، ويتحدث في قسم آخر عن كرم عشيرته (٨) وشجاعتهم (٩) ، وحلمهم (١٠) وهي قيم قديمة استمرت محمودة بعد الاسلام ، ويتحدث في قسم ثالث عن اعتزازه

١) نفسه ص ١٣٥ . ٢) الأغاني « الثقافة » ١٢/١٦ . ٣) انظر شعر النعمان ١٢٩ .
٤) كالذي نراه في ديوانه ص ٨٣ و ١٠٤ و ١٣٧ و ١٦١ . ٥) انظر ص ١٠٦ .
٦) شعر النعمان ٨٠ . ٧) شعر النعمان ١٠٢ . ٨) شعر النعمان ٨٠ .
٩) نفسه ١٤٤ . ١٠) نفسه ١١١ .

بالأنصار، وجهادهم يوم بدر (١) ومكرمتهم يوم السقيفة (٢)، وهذه مآثر حديثة تولدت بعد الإسلام.

ويأتي وصف الناقة على رأس أشعار النعمان في هذا الغرض، فهو يسلي لبانات هواه على ناقة جمالية تبغم كلما أرقلت، وترسل إلى آماد رحلتها البعر الثاقب (٣) وقد يطوي الفلاة على ناقة قوية شديدة الأسر، ضخمة كأنها الجمل، بيضاء كبقر الوحش، قد ألفت السفر فصار عندها أمراً معتاداً:

مُداخَلةٍ سَرْحَةٍ جَسْرَةٍ على الأيْن دَوْسَرَةٍ كالجمل
هجانٍ كلونِ مهاةِ الصَّوار — عُبْرِ السفار وعبر البَدَلْ (٤)

ويدعي أن يصف النعمان الصحراء — مجال الناقة — وقد مرَّ بنا تصويره لها وكيف يخاف اتساعها القطا، فيتجمع أسرابا أسرابا (٥)، وسوف يأتي بعد قليل وصفه مفازة خالية كالبُرْد الموشى، ومما وصفه النعمان ظواهر السحاب ونزول الغيث وقد ذكرت أبياته في ذلك مع الوصف، ومما تناوله أيضاً السلاح، يقول في بعض شعره:

وإلا فَبِزِّي لأمَةٌ تُبَّعِيَّةٌ مواريثُ آبائي وأبيَضُ صارم
وأجرد خوّارُ العِنان كأنه بدَوْمة موشيُّ الذراعين صائمُ
وأسمرُ خطيٌّ كأنَّ كعوبه
نوى القَسْب فيها لَهْذَمِيٌّ خُثارِم (٦)

فلاحه درع يمنية تبعية، وسيف أبتر، وفرس طائر الجري، جميل المرأى، ورمح عماني كأن عقده نوى التمر إذا كانت حادة صلبة.

١) قصه ١٤٧. ٢) قصه ١٤٤. ٣) شعر النعمان ص ١٢٣.
٤) شعر النعمان ص ١٠٨. ومداخلة: مدمجة الخلق. وسرحة: طويلة. وجسرة: ماضية. والأين: التعب. والصوار: قطيع البقر. وعبر السفار: كثيرة الرحلة. والبدل: وجع في اليدين والرجلين
٥) شعر النعمان ص ٧٩. ٦) قصه ص ١٥٣. والبز: السلاح، واللأمة: الدرع، والأجرد: القصير الشعر، وموشي الذراعين: لونهما يخالف سائر جسده، صائم: قائم، والقسب: التمر، واللهذمي: القاطع، والخثارم: الغليظ.

ولعل من الواضح في موضوعاته الشعرية ولا سيما الأول منها، تأثرها الشديد بالقرآن الكريم في معانيه وصوره وألفاظه.

وقد مرَّ بنا من قريب تأثره بحكاية القرآن التي تخبر كيف أخرج الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، ومن يقرأ قصيدته الثالثة في ديوانه يرها تفيض فيضاً بالمعاني القرآنية، فهو يتأثر قوله تعالى: «كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» (١) فيقول:

كل شيء سوى المليك يبيد لا يبيد المُسَبَّح المحمود (٢)

ويتأثر قوله تعالى: «عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم» (٣) فيقول:

عالم الغيب والشهادة والفضـ ـل وذو المنّ والجلال الحميدُ (٤)

وقوله تعالى: «أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير» (٥) فيقول:

وله الطير في السماء تراهن — قريباً ودونهن صُعودُ (٦)

وقوله تعالى: «وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام» (٧) فيقول:

وله الجاريات في لُجج البحر فمنها مواخرٌ وركود (٨)

ومن يستكمل هذه القصيدة وكذلك القصيدة الرابعة بعدها، يجدهما تشبهان أن تكونا نظماً لآيات الذكر الحكيم.

ومن صور النعمان التي اقتبسها من كتاب الله سورة يونس بن متى عليه السلام وقد ابتلعه الحوت فنادى — وهو في ظلمة جوفه — سائلاً الله أن ينجيه، فاستجاب له ربه وأذهب عنه ما نزل به من بأس:

وابن متّى الذي تداركه اللـ ـه من النم وهو فيه عميدُ

١) سورة الرحمن ٢٦ و ٢٧. ٢) شعر النعمان ٨٥
٣) سورة الحشر ٢٢ ٤) شعر النعمان ص ٨٥
٥) سورة الملك ١٩ ٦) شعر النعمان ٨٧
٧) سورة الرحمن ٢٤ ٨) شعر النعمان ص ٨٦

فدعا دعوة وقد غيّبته ظُلَمٌ دونها حَنادسُ سود[1]

والقرآن يرسم الصورة على هذا النحو : « وذا النون إذ ذهب مُغاضباً ، فظنّ أنْ لن نقدر عليه ، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك ، إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغمّ ، وكذلك ننجي المؤمنين »[2].

ويرسم النعمان بعض صور العذاب يوم القيامة فيقول :

فاتقوا الله واحذروا شرّ يوم قَطْرِيرٍ عذابه مشهودُ
فطعام الغواة فيها ضريع وشراب من الحميم صديد
كلما أخرج اللعينون منها ساعةً من عذاب غمٍ أعيدوا[3]

فيكرر تكراراً قصور التي رسمها الذكر الحكيم : « يوماً عبوساً قطريراً »[4] ، « ليس لهم طعام إلا من ضريع »[5] ، « لا يذوقون فيها بَرْداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغَسّاقاً »[6] ، « كلما ارادوا أن يخرجوا منها من غمٍ أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق »[7].

وليس غريباً بعد هذا أن يحشد كثيراً من الألفاظ القرآنيه في شعره مثل : مالك الملك[8] ، والدين[9] ، ويبدىء ويعيد[10] ، وذي المعارج[11] ، وقوم تبع[12] ،

١) شعر النعمان ص ٨٩ ، وعيد : حزين ، والحندس : الليل الشديد الظلمة
٢) الأنبياء ٨٧ و ٨٨ ، وانظر القصة في تفسير البيضاوي ٤٣٦ ، وقصص الأنبياء للثعلبي ٣٦٦ . ٣) شعر النعمان ص ٩٠ ، وقطرير : شديد ، وضريع : من أطعمة جهنم ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، والصديد ماء الجرح الرقيق والحميم أعلى حتى خثر.
٤) سورة الانسان ١٠ . ٥) سورة الغاشية ٦ . ٦) سورة النبأ ٢٤ و٢٥
٧) سورة الحج ٢٢ . ٨) انظر شعر النعمان ٨٥ وسورة آل عمران ٢٦ .
٩) شعر النعمان ٨٦ وسورة النصر ٢ ، والانفطار ١٧ . ١٠) شعر النعمان ٨٧ وسورة البروج ١٣ . ١١) شعر النعمان ٨٧ وسورة المعارج ٣ .
١٢) شعر النعمان ٨٧ وسورة الدخان ٣٧ .

وثمود [1] ، وشعيب [2] ، وهود [3] ، والنبي [4] ، وكتاب [5] ، وتقشعر منه الجلود [6] ، والحساب [7] ، وشقي وسعيد [8] ، والصالحون [9] ، ورحمة الله [10] ، والفصل [11] ، والقرآن [12] ، وسائق وشهيد [13] ، واليقين [14] ، وتبارك [15] ، وذو المرش [16] ، ورسول [17] ، والوحي [18] ، وسبعاً طباقاً [19] ، والخالق [20] ، ومرج [21] ، وجنات [22] ، وثواب [23] .

وعبارة النعمان عند مسحتها القرآنية تسهل وتسلس وتلين في الموضوعات الرقيقة ، وتقوى وتجزل بل تضطرب في الموضوعات الحماسية والتبدئية ، ولا بأس أن نقرأ مثالاً للضرب الأول ، وهو قوله :

رَحْمَةُ الله يوم ذاك تنجّي مَنْ نجا من عذابه والجُدودُ

١) شعر النعمان ٨٧ وسورة الأعراف ٧٣ .
٢) شعر النعمان ٨٨ وسورة هود ٨٤ . ٣) شعر النعمان ٨٨ وسورة هود ٦٠ . ٤) شعر النعمان ٨٩ وسورة التحريم ١ .
٥) شعر النعمان ٨٩ وسورة البقرة ٢ . ٦) شعر النعمان ٨٩ وسورة الزمر ٢٣ . ٧) شعر النعمان ٩١ وسورة النبأ ٢٧ . ٨) شعر النعمان ٩١ وسورة هود ١٠٥ . ٩) شعر النعمان ٩١ وسورة الانبياء ٧٥ .
١٠) شعر النعمان ٩٢ ، وسورة البقرة ٢١٨ ، وآل عمران ١٠٧ .
١١) شعر النعمان ٩٢ ، وسورة المرسلات ٣٨ . ١٢) شعر النعمان ٩٣ ، وسورة طه ، والانسان ٢٣ ، والحجر ٩١ . ١٣) شعر النعمان ٩٣ ، وسورة ق ٢١ .
١٤) شعر النعمان ٩٣ ، وسورة التكاثر ٧ . ١٥) شعر النعمان ٩٤ وسورة الملك ١ . ١٦) شعر النعمان ٩٤ وسورة البروج ١٥ . ١٧) شعر النعمان ٩٤ وسورة آل عمران ١٦٤ . ١٨) شعر النعمان ٩٤ وسورة الأنبياء ٤٥ .
١٩) شعر النعمان ٩٤ وسورة نوح ١٦ . ٢٠) شعر النعمان ٩٨ ، وسورة الحجر ٢٤ . ٢١) شعر النعمان ٩٨ وسورة الرحمن ١٩ . ٢٢) شعر النعمان ١٠٠ وسورة مريم ٦١ . ٢٣) شعر النعمان ١٠٠ وسورة آل عمران ١٩٥ .

خيرُ ذخر مع اليقين لعبد عملٌ صالح وقول سديد [1]

فالألفاظ واضحة عذبة ، والجمل منسابة لينة ، ومثال النوع الثاني قوله يصف بأس قومه :

ليوثٌ إذا الحرب العَضوضُ تلقَّحَتْ
بذي مِرَّة الفتيان أو نَتَجَتْ سَقْبا
أهانوا لها ما دونها ونسربَلُوا من الحَلَق الماذيِّ مُخْلَصة شُهْبا
بنو الحرب ربَّتْهم طِعاناً إذا انجلت لهم عن ذِمارٍ ماجدٍ سَمَروا حربا
أولئك ، بعد الله ، عوني وناصري
إذا خفتُ في الأقوام من رهق كربا [2]

فالكلمات قوية فخمة ، والعبارات مُجَلْجِلة ضاجّة ، ويتضح ذلك لمن يقرأ الأبيات بصوت يتماوج مع تياراتها المعنوية وموضوعها . وقد يصحب الجزالةَ إغرابٌ في الألفاظ عندما يتحدث عن الناقة والصحراء في نحو قوله :

تَخاوَصُ للرأي البعيد وتتقي بأعقاب عينيها القطيعَ المحرَّما
إذا الغائطُ المرْوتُ أمسى كأنه يُرى في شعاع الشمس بُرْداً مُنَمْنَما
طوتْ غَوْلَهُ ليلاً فأصبح خَلْفَها ولو بَعُدَتْ أعلامُهُ وتجهَّما
سأُعْمِلُها في النَّصِّ حتى أُكِلَّها وحتى تَبُلَّ الخُفَّ مِنْ نَقَبٍ دما

١) شعر النعمان ٩٢ و ٩٣ . ٢) شعر النعمان ص ٨١ . والعضوض : الشديد المهلكة وتلقحت : اشتدت . والمرة : الاحكام والقوة . والسقب : الذكر من ولد الناقة . وتسربلوا : لبسوا السربال وهو القميص . والحلق الماذي : الدرع اللينة . ومخلصة : صافية . وشهب : بيض . والذمار : ما يلزمني على المرء حمايته . والرهق : السفه والظلم .

وحتى تَشَكَّى من كَلالٍ ونَهْكَةٍ
ومن نَصَبِ الأخْياف خُفّاً ومَنْسِما [1]

فالتَّخاوُص والقطيع المحرَّم والغائط المرْوت ، والبُرْد المُنَمْنَم والغَوْل والأعلام والنَّص ، والأخْياف ، والمَنْسِم ، ألفاظ صحراوية غريبة ، وتراصّ الكلمات خلال الجمل وقوة جزالة العبارات ، كل ذلك ألحان بدوية وقعها رواد الشعر منذ الجاهلية .

ومن يرجع إلى ديوان النعمان يلق فيه من الآثار الأولية لا هذه الألحان فحسب ، وإنما أيضاً حفاظه على منهج القصيدة القديمة وهيكلها الموروث ، ولعل خير مثال لذلك قصيدته السابعة ، فهي تبدأ بالوقوف على الأطلال الدارسة ، وقراءة معالمها واستكشاف أماكنها ، حتى إذا عرف أنها دار محبوبته تهيَّج دمعه ثم جعل يتذكرها في وسواحيها ، ويتغزل بهن غزلاً تقليدياً يمهد لغرضه وهو المدح والافتخار ، فيثني على ممدوحه ، ويحبّ إليه على ناقة نشطة ضخمة قوية ، حتى إذا بلغه انكفأ يفخر به وبعشيرته ، وعندئذ نعلم أن ممدوحه إنما هو من قومه ، وأن هؤلاء إنّ م إلا الأنصار بيثرب [2] .

وفي ديوان النعمان إلى جانب الهيكل القديم للقصيدة العربية منهج جديد ، ويمكن أن نمثل له بقصيدته الثالثة ، فهي تستفتح بتنزيه الله - عز وجل - والثناء عليه ، وذكر فضله وآلائه ووحدانيته ، ثم تتحدث عن القرون الخالية كملوك التبابعة وقوم صالح وشعيب وهود ، وقصة ابتلاع الحوت ليونس ، ثم تنتقل الى الحديث عن دعوة الإسلام ورسالة النبي ونزول القرآن ، وتحذّر من عذاب جهنم ويوم الحساب ، ثم يناجي النعمان ربه ضارعاً إليه ليُنْجيه من هَوْل الآخرة ، ويتولاه بمغفرته يوم يأتي معه سائق وشهيد ، وتنتهي الأبيات ببيان النعمان أن خير

١) شعر النعمان ص ١٢٤ . وتخاوص : تكسر بصرها وتحدقه . والقطيع : السوط . والمحرم : الجديد . والغائط : المطمئن من الارض . والمروت : مفازة لا نبات فيها . والبرد : السير الشديد . والكلال : الاعياء . والاخياف ج خيف وهو الموضع ما بين مسيل الماء وغلظ الجبل . والمنسم : خف البعير . ٢) انظر القصيدة في ديوانه ص ١٠٥ وما بعدها

ذخر للمرء – مع يقينه – «عمل صالح وقول سديد» (١) .

وقارىء شعر النعمان يجد بعض نتاجه يتهيج سبيل المقطوعات الشعرية دون القصائد ، وهي مقطوعات تتألف من اثني عشر بيتا (٢) أو عشرة (٣) ، أو سبعة (٤) ، أو ستة (٥) ، أو ثلاثة (٦) ، أو بيتين (٧) ، إلا أنه لا بد من التنبه إلى ما يُرجَّح في بعض مقطوعاته من انسلاخها من قصائد طويلة أتى عليها الضياع (٨) .

ب – **أبو الأسود الدؤلي :**

ولد أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان (٩) الدؤلي الكناني في ديار بني قومه في الحجاز قبيل البعثة النبوية بيسير (١٠) ، وكان أبوه عمرو قد قُتِل كافراً في

١) انظر القصيدة في ديوانه ص ٨٥ وما بعدها
٢) انظر شعر النعمان ص ١٦٢
٣) المصدر السابق ١٤٤
٤) المصدر السابق ١٣٨
٥) المصدر السابق ١٢٨
٦) المصدر السابق ١٤٧
٧) المصدر السابق ١١٦
٨) انظر المصدر السابق ٧٩ و ٨٣ و ١٠٢ و ١٠٤ و ١٣١ و ١٤١ و ١٥٩ و ١٦١
٩) هذا أرجح الأقوال في اسمه ، وعليه كثرة المصادر ، انظر طبقات ابن سعد ٩٩/٧ ، وكنى الشعراء لابن حبيب ، مطبوع مع نوادر المخطوطات بتحقيق عبد السلام هارون (معلمة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٨١ ، والأغاني (الثقافة) ٣٠١/١٢ ، ومعجم الشعراء ٢٤٠ ، والإصابة ت ٤٣٢٩ ، وبغية الوعاة ٢٢/٢ ، والمزهر ٤١٨/٢ ، وخزانة الأدب ٢٨١/١ ، وقيل هو ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان (المعارف ٤٣٤ ، والمؤتلف والمختلف ١٥١ ، وشذرات الذهب ١١٤/٦) ، أو ظالم بن عمرو بن ظالم (بغية الوعاة ٢٢/٢) ، أو ظالم بن سراق (المؤتلف والمختلف ١٥١) ، أو عمرو ابن ظالم بن سفيان (معجم الشعراء ٢٤٠) أو عمرو بن سفيان بن ظالم (المزهر ٤١٨/٢) أو عويمر بن ظويلم (البداية والنهاية ٣١٢/٨) أو سارق بن ظالم (تاريخ ابن عساكر ، دار الكتب ، ١٨/٤٩٣) أو عثمان بن عمرو (كنى الشعراء ٢٨١) أو عمرو بن عمران (الإصابة ت ٤٣٢٩) أو عمرو بن شيبان بن ظالم (المؤتلف والمختلف ١٥١) ... وانظر الخلاف في اسمه موسعاً في تاريخ بن عساكر ، دار المكتب ، ٤٩٣/١٨ وما بعدها .
١٠) انظر رواية أنه ولد في الجاهلية المزهر ٤٦١/٢ ، ونزهة الألباء ١٣ .

بعض المعارك التي حادّ فيها رسولَ الله ﷺ (١) ، وكانت أمه من بني عبدالدار بن قصي (٢) ، ويبدو أن أبا الأسود أخذ منذ استوى عوده يتدبر في موقف أبيه من الإسلام ، ومناوأتـــه له ، ودخول غير أبيه في دين الله أفواجاً ، وليس من شك أنه قد تبلغ من رجال الدعوة الذين كان يبثهم النبي ﷺ في القبائل قدراً صالحاً من مبادىء الرسالة ، فإذا هو يندو موحّداً ويترك ما كان يعبد آباؤه الأقدمون .

وتشير الروايات إلى أنه اسلم في حياة النبي ﷺ ، ولكنه لم يره (٣) ، وأنه لذلك يعدّ من التابعين (٤) ، وكان أبا الأسود أراد ان يعوّض شيئاً مما فاته من لقاء النبي ﷺ فجعل ينهل عن اصحابه من أمثال عمر وعلي وابن عباس وأبي ذر (٥) رضي الله عنهم ، وعرض القرآن الكريم على أبي السبطين (٦) ، وتسنى علم الكتاب والسنة ، فغدا فقيهاً (٧) محدثاً (٨) قارئاً (٩) ، وربما رأى عمر بن الخطاب فصاحته ونباهته واسطته في العلم ، فبث به إلى البصرة ، وأغلب الظن أنه أرسله ليفقه الناس في دينهم ، ويقوم ألسنتهم مما اكتسبته من وطأة عجمية ، ومهما يكن فإن أبا الأسود بدأ منذ ذلك الحين يتقلّب في وظائف الدولة لعهد عمر (١٠) ، ثم عثمان من بعده (١١) ، حتى إذا استخلف علي اشتغل كاتباً لابن عباس والي البصرة (١٢) ، ثم تولى قضاءها (١٣) ، ثم عين أميراً عليها بعد ابن عباس (١٤) .

١) الاصابة ت ٤٣٢٩ ٢) المعارف ٤٣٤ ٣) تهذيب التهذيب ١٢/ ١ وسرآة والبداية والنهاية ٣١٢/٨ ٤) الشعر والشعراء ٧٢٩ ومعجم الادباء ٣٥/١٢ وسرآة الجنان ٤٤/١ وانظر أسد الغابة ٣/ ٧ إذ يؤكد ابن الاثير أنه تابعي ويرد قول ابن شاهين الذي ذكره في الصحابة ٥) انظر شيوخه في الاغاني « الثقافة » ٣ /١٢ ١ والعبر ٧٧/١ ومعجم الادبا ٣٥/١٢
٦) تاريخ الخلفاء ١٦٦ ٧) الاغاني « الثقافة » ٣٠١/١٢ و « الهيئة المصرية » ٣٧٠/٢٠ وشرح العيون لابن نباتة « مصر ١٢٢٨ هـ » ١٥٠ ومعجم الادباء ٣٥/١٢
٨) الشعر والشعراء ٧٢٩ ، وتهذيب التهذيب ١٠/١٢ . ٩) إنباه الرواة ١٥/١ .
١٠) و ١١) الأغاني « الثقافة » ٣٠١/١٢ . ١٢) خزانة الأدب ٢٨٢/١ .
١٣) إنباه الرواة ١٩/١ ، وتهذيب التهذيب ١٠/١٢ ، وبغية الوعاة ٢٢/٢ ، وذكر ابن كثير أنه كان قاضي الكوفة ، لا البصرة ، وأغلب الظن أنه لم يقض فيها ، إن ثبت ، إلا يسيراً لأن كل الروايات تحدد عمله في البصرة . انظر البداية والنهاية ٣١٢/٨ .
١٤) ابن سعد ٩٩/٧ والشعر والشعراء ٧٢٩ والاغاني « الثقافة » ٣٠١/١٢ ووفيات ٢١٨/٢ =

وتذكر الروايات أن حزازة كانت بينه وبين زياد بن أبيه منذ ذلك الحين، وكان زياد على الديوان والخراج، وكان يقع في أبي الاسود، فقال فيه:

رأيتُ زياداً يتحيني بشرّه ... وأُعرض عنه وهو باد مقاتلهْ

وكل امرىء ـ والله بالناس عالمٌ ـ ... له عادةٌ قامت عليها شمائلهْ

... الأبيات[1] ولا تلبث الأحداث أن تسفر عن مقتل الإمام وخلافة معاوية، فيعزل الدؤلي، لتشيّعه، عن زعامة البصرة وقضائها، ويبدأ منذ ذلك الوقت في معاناة همومه ومخاوفه، وكأن ابا الأسود، وقد ذهبت منه الولاية، ظنّ أنه أُفلتَ منه كل شيء، وأنه قد أُهبط إلى الحضيض، ولولا القلق الذي أصابه لأدرك أنه كان على كل حال في خير كثير، فالروايات تخبرنا أن معاوية كان يكرمه ويقدّره[2]، وأنه حتى هذه الفترة بل حتى نهاية حياته كان يملك مالاً ورياشاً وعبيداً وإماء[3]، وأنه كان يتّجر بل يُزجي البضائع مع أجرائه ومواليه[4]، وأنه كان يعلّم أبناء زياد ويؤدّبهم[5] ويبدو أن تذكّره لمنصبه القديم، وهو يدرّس أبناء زياد من ناحية، وتهاون بعض البصريين، حتى من أصهاره المثانية، في تجلّته واحترامه بعدما كان قاضيهم وواليهم من ناحية ثانية[6]، ونكبة الشيعة من ناحية ثالثة، وكِبَره وعجزه[7]، من ناحية رابعة أخرى، كانت من أسباب قلقه الذي أدّى به أن يسترفد أصحابه ومعارفه، وبجود لمن يلبّونه منهم بجميل الثناء[8]، ويعاتب من يمنعونه[9]، ويهجرهم[10].

وقد حاول ركندورف «Rechendorf» أن ينفي خبر تولّيه البصرة فرأى وأن هذا بعيد الاحتمال، لأن رجلاً مثل أبي الأسود يصف نفسه في أشعاره بأنه على استعداد لتقبيل اليد التي تصفعه لم يكن كفؤاً لولاية البصرة في الظروف العصيبة

= ومرآة الجنان ١/٢٠٦.
١) ديوانه ٢١٦.
٢) بغية الوعاة ٢/٢٢.
٣) وفيات ٢/٢١٨.
٤) ديوانه ١١١ و ١١٣ و١٤٦ و١٥١ و١٦٦ و ١٨٩.
٥) وفيات ٢/٢١٦.
٦) ديوانه ١٤٨ و ١١٩ و ١٧٦ و ١٨٥ و ٢٠٤.
٧) ديوانه ١٩٥ و ١٩٦.
٨) ديوانه ١٦٤ وتاريخ ابن عساكر (دار) ١٨/٥١٠
٩) ديوانه ١٢٤ و ١٢٦ و ١٥٧.
١٠) ديوانه ١٠٩ و ١٣٥ و ١٤ و ١٦٨.

التي كانت تمر بها،[1] وهو بذلك يغفل الروايات الكثيرة التي نصت على ولايته لها، وقد سقنا بعضاً منها، ويغفل محنته التي استشعرها في نهاية حياته، وهو الزمن الذي رأينا اضطراره فيه إلى استرفاد معارفه والذي يتهمه لذلك ركندورف باستبداده أن يقبل الأيدي، وأهم من ذلك أنه ينسى حسن أخلاق أبي الأسود، وخيصب مواهبه، ومن يعد إلى المصادر التي ترجمت حياته يرها تذكر له من الاخلاق والمواهب ما لا يعجز معه أي عجز عن إدارة شؤون البصرة، وقد رأينا تعمقه في الفقه والحديث والقضاء، وعلم القراءة، وأيضاً فقد روي أنه أول من نقط المصحف[2]، وأنه كان ذا دين وعقل ولسان وبيان وفهم وذكاء وحزم[3]، وحلم[4]، بل عدّوه من أكمل الرجال رأياً وأسدهم عقلاً[5]، وسلكوه في الأشراف الفرسان، والدهاة والحاضري الجواب[6].

على أن الرواة يردّدون من خصاله أيضاً أنه بخيل[7]، وقد استدلوا على ذلك بحكايات أو طرف أثرت عنه[8]، وقد استنكر بعض الدارسين المعاصرين هذه التهمة، ودفعوها، ومن هؤلاء الاستاذ علي ناصف، فهو يستغرب أن يتّهم بالبخل رجل بنى في البصرة مسجداً من ماله، وعُدّ من أهل السيادة والوجاهة والشرف، واليسر[9]، ومن هؤلاء الدارسين ايضاً الدكتور النعمان القاضي إذ يجعل تشيّع الدؤلي سبب التشنيع عليه بالبخل[10]، وكذلك الأستاذ فتحي الدجني، فهو يتهم الروايات التي ذكرت بخله بالوضع والتصنّع، ويذهب إلى أنه لم يكن بخيلاً كما لم

١) دائرة المعارف ١/٣٠٧.
٢) بغية الوعاة ٢/٢٢.
٣) تهذيب التهذيب ١٢/١١.
٤) المؤتلف والمختلف ١٥١.
٥) وفيات ٢/٢١٦، ومرآة الجنان ١/٤ ٢، وانظر أمالي المرتضى ١/٢٩٢، إذ يورد قول زياد لأبي الأسود: «لولا أنك كبرت لاستعنا بك في بعض أمورنا. قال: إن كنت تريدني للصراع فليس عندي، وإن كنت تريد عقلي ورأيي فهما أوفر ما كانا».
٦) الأغاني (الثقافة) ١٢/٤ ٣.
٧) المصدر السابق ١٢/٤ ٣، والشعر والشعراء ٧٢٩، والمعارف ٤٣٤، وشرح العيون ١٥٠.
٨) انظر البخلاء للجاحظ ١١ و ١٢٨ و ١٥٢، وتهذيب ابن عساكر ٧/١١٢ و ١١٣.
٩) ابو الأسود الدؤلي، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة ١٣٨٨، ص ١١٢.
١٠) الفرق الاسلامية في الشعر الاموي ٥٦٢

بكن كريماً [1].

وأغلب الظن أن الروايات التي تحدثت عن هذه المرأة إنما نقلتها عن حكايات لا تخلو من مبالغة ، وهي مبالغـــة أنتها - فيما يبدو - من بعض الناس الذين لا يستطيعون إذا سمعوا أمراً ألا يتزيدوا فيه على النحو الذي ترضاه أهواؤهم ، وترتاح له أخيلتهم ، فإذا حوادث الظن تصبح عندهم وقائع مشهودة ، وإذا الوقائع الصغيرة تنقلب بتزويدهم مضرب الأمثال ، وإذا كان الدؤلي قد نعم بثنية من المال حتى آخر عمره فإن هذا لا يعني ان حياته - كل حياته - قد مرت على هذا المنوال ، وليس بعيداً أن يكون قد ذاق مرارة الحرمان في بعض أيامه ، وزاد مرارتها في نفسه ما كان يستشعره من المخاوف ، فحسب أن الضنانة تعصمه ، فأثرت عنه في ذلك بعض القصص ، ثم ضاعفها المبالغون ، كما أثر عنه فيها قوله :

يلومونني في البخل جهلاً وضلّةً ولَلبخلُ خير من سؤال بخيل [2]

ولقد يدلنا على هذه الشدة التي اجتاحته ارتداؤه جبة رثة في بعض الأحيان[3] واضطراره أن يخرج إلى فارس للارتزاق على كبر منه [4].

وكما حاول ركندورف أن يسلخ منه ولاية البصرة ، حاول أيضاً أن يبخسه فضيلة سبقه إلى تأسيس النحو وتأصيل العربية ، فقال : « وليس حقاً ما يقال إنه واضع أصول النحو العربي [5] ». وهو يلقي ريبته دون أن يؤيدها بأية حجة أو برهان ، إلا أن المحققين من أساطين العلم اعترفوا لأبي الأسود بسابقته ، فذكرها له ابن قتيبة [6] ، والحموي [7] والذهبي [8] ، وابن خلكان [9] ، واليافعي [10] ، والسيوطي [11] ، والبغدادي [12] ، وكثير سواهم ، وبنوا دواعي نهوضه بهذا العلم ، كما أشاروا إلى أخذه حدوده عن الإمام علي بن أبي طالب [13].

١) أبو الأسود الدؤلي رسالة ماجستير في جامعة القاهرة ص ٩٦ . ٢) العقد الفريد ٦/١٩٦
٣) انظر مرآة الجنان ١/٢٠٥ ، وتذكر روايته أن الدؤلي كان يلبسها لعدم استطاعته ان يغيرها . ٤) انظر ديوانه ٢١٠ . ٥) دائرة المعارف ١/٣٠٨ . ٦) المعارف ٤٣٤
٧) معجم الأدباء ١٢/٣٥ . ٨) العبر ١/٧٧ . ٩) وفيات الأعيان ٢/٢١٦.
١٠) مرآة الجنان ١/١٤٤ و ٢٠٤ . ١١) بغية الوعاة ٢/٢٢ . ١٢) خزانة الأدب ١/٢٨١ . ١٣) نزهة الألباء ١٣، ومرآة الجنان ٢/٢٠٤ ، ووفيات ٢/٢١٦.

وقد اختلفت الروايات في سنة وفاة الدؤلي ، وأكثرها على أنها كانت سنة تسع وستين [1] ، وأنه مات في الطاعون الجارف ، بعد أن فلج ، وكان عمره حين فاضت روحه خمسة وثمانين حولاً ، وهذه الروايات ترجح لكثرتها ما يقال من أنه توفي سنة سبع وستين [2] ، وترده الخبر الذي يجعل موته سنة تسع وتسعين [3] ، لا لمخالفته كثرة الروايات فحسب ، وإنما أيضاً لسكوت شعره سكوتاً تاماً عن كل حوادث هذه الفترة ، على حين إشارته إلى كثير من أحداث الفترة التي عاصرها ، كما سوف يأتي ، وأيضاً لما رأيناه من تحديد عمره حين وفاته بخمسة وثمانين عاماً ، وكان مرّ بنا ولادته في أواخر العصر الجاهلي ، قبيل البعثة بيسير ، وإذاً لن تمتد سنوه المذكورة إلى سنة تسع وتسعين .

وتذكر المصادر أن أبا الأسود قد ترك من عقبه ولده عطاء ، وسلكه في النحاة [4] ، وأبا حرب ، وندده في الشعراء العقلاء الأمراء [5] ، وصبياً اختصم فيه مع زوجة مطلقة له أمام معاوية وحكم لها به [6] ، وبنتاً كانت تخاف عليه السفر إلى فارس في صميم الشتاء من بعد ما بلغه الكبير [7] ، وذرية انحدرت من ولده أبي حرب ، كانت تعيش في البصرة [8].

ونظن أن عقب أبي الأسود ولدوا من كلتا زوجتيه : أم عوف القشيرية [9] وهي التي ذكرنا له بيتين في برها وإكرامها ، وفاطمة بنت ضمعج القيسية [10] ، وهي التي كان معجباً بها ثم تفركنه لما أسن والتوت عليه ، وأغلب الظن أن التوءها أدى بها إلى الطلاق والاختصام من أجل صبيها أمام معاوية ، وأغلب الظن أيضاً أنها هي نفسها أم السكن التي يخبرنا ديوانه بتنكر خلائقهـــا [11] ، أما المرأة

١) الاصابة ت ٤٣٢٩ ، والاغاني « الثقافة » ١٢/٣٣٩ ، وإنباه الرواة ١/٢٠ ، والعبر ١/٧٧ ، وشذرات الذهب ٦/١١٤ ، ومرآة الجنان ١/١٤٤ ، ومرح العيون ١٥٠ ، ووفيات الاعيان ٢/٢١٨ ، وخزانة الادب ١/٢٨١ . ٢) نزهة الالباء ١٤ ، ومعجم الادباء ١٢/٣٥.
٣) الشعر والشعراء ٢٢٩ ، ومرآة الجنان ١/٢٠٤ . ٤) و ٥) المعارف ٤٣٤ و ٤٣٥
٦) تهذيب بن عساكر ٧/١١٣ ومن المحتمل ان يكون هذا الصبي عطاء او أبا حرب ، ومن المحتمل ان يكون ولداً ثالثاً من أبناء الدؤلي . ٧) الأغاني « الثقافة » ١٢/٣١٢ .
٨) المعارف ٤٣٥ ٩) ديوانه ١٤٥ ١٠) الاغاني « الثقافة » ١٢/٣٣٢
١١) ديوانه من ١١٤ و ١١٩ .

الثالثة التي تزوجها في البصرة [1] ، إلى حين فمن المستبعد أن يكون قد ورث منها شيئاً ، وكل ما في الأمر أنها عرضت عليه خطبتها ، وزينت له مواهبها ، فاقترن بها، فلم تلبث أن : أسرعت في ماله ، ومدّت يدها إلى خيانته ، وأفشت سرّه ، فندا على مَنْ كان حضَر تزويجه فسألهم أن يجتمعوا عنده ففعلوا ، فقال لهم :

أرَيْتَ امرأً كنت لم أبْلُهُ أتاني فقال اتخذني خليلا
فخالَلْتُهُ ثم أكرمْتُهُ فلم أستفِدْ من لدنْهُ فتيلا
وألفيْتُهُ حين جرّبْتُه كذوب الحديث سروقاً بخيلا
فألفيته غير مستعتبٍ ولا ذاكرَ الله إلا قليلا
ألست حقيقاً بتوديعه وإتباع ذلك صرماً طويلا ؟

فقالوا : بلى يا أبا الأسود ، قال : تلك صاحبتكم ، وقد طلقتها لكم ، وأنا احب أن أستر ما أنكرته من أمرها ، فانصرفتْ معهم » [2] .

ويطرق ديوان أبي الأسود كل ابواب الشعر ، ويأتي في مقدمة موضوعاته الحكمة والعتاب ، والهجاء والفخر ، والمدح ، وله قصائد ومقطوعات في الرثاء والوصف والغزل والاعتذار .

وتمضي حكمة الدؤلي في سبيلين ، أولهما التربية النفسية والنصائح الخلقية فهو يرسل المواعظ لترتاض النفس على الثقة بالله ، والاطمئنان به ، وابتغاء الوسيلة إليه بطيّب العمل والعفة عما في أيدي الناس [3] ، وأن يتوكل المرء - إذا عزم - على ربه ، فلنْ يصيبه سوى ما قسم له ، ولا يظنّن طيُّه الأرض تراثاً للموت ، وتحصّنه في بيته منجاة منه ، وتجامبه الشدائد مفرّاً من قضاء الله ؛ فحكمه - سبحانه - نافذ ، والموت يدرك الناس ولو كانوا في عقر ديارهم :

إذا كنت معْنِيّاً بأمرٍ تريده فأَلِ للقضاء والتوكّل من مثلِ

١) ديوانه ٢٢ . ٢) ديوانه ٢٠٢ ، وخزانة الأدب ٢٨٣/١ ، وأصل أريت : أرأيت أي أخبرني ، وبلاه : اختبره ، واستعتبه : استرضاه . ٣) الخزانة ٢٨٢/١ .

توكّلْ وحمّل أمرَك اللهُ إنّ ما تَرادُ به آتيك فاقنع بذي الفضل
ولا تحسبَنّ السير أقرب للردى من الخَفْض في دار المقامة والشّمْل
ولا تحسبيني يابْنتي عنّ مذهبي بظنك إن الظن يكذب ذا العقل
وإني ملاقٍ ما قضى الله فاصبري ولا تجعلي الحلْمَ المحقّق كالجهل
وإنك لا تدرين : هل ما أخافه أبعدي يأتي في رحيلي أم قبلي ؟
وكم قد رأيت حاذراً متحفّظاً أصيب وألفَتْهُ المنيّةُ في الأهل [1]

ويحث ابو الأسود ان يعتدل المرء إذا أحبّ ، فلعله يميل عمن ينزع إليه فيجفوه ، وأن يعتدل إذا ابغض فقد تنبعث مودته لمن هجره فينكفىء إليه ، وأن يؤثر الحلم ويصفح عما يفرط من صاحبه [2] ، ويدعو إلى البرّ والوفاء ، وينبه الإنسان حتى لا يصغي إلى كل وشاية تبلغه ، ولا تسبق منه مقالة تجعل تذييع بين الناس فلا يملك أن يتفاداها [3] ، وينصح بالصدق [4] ، ويحْمَد الصبر [5] ، ويذم الحسد [6] ، ويهدي إلى اصطفاء الاصدقاء فلا يخالّ المرء لئيماً فلُئْم الرأي فَهيم المطمعة :

لا تُواخِ الدهرَ جِنْساً راضماً مُلْهَبَ الشدّ سريع المنزعهْ
ما ينلْ منك فأحلى مغنم ورى ظرفاً به أن تمنعهْ
يسأل الناس ولا يعطيهمُ هبَلَتْهُ أمُّه ما أجْشَعَه [7] !

ويزيّن الدؤلي فضيلة المروءة ، ويحببها إلى النفس ، فهي قيمة جليلة ، مَنْ فقدها ينحطّ ، ومن يصب منها حظاً يرتفع ذكره ، ويَعْظُمْ قدْره ، إنها ذخر

١) الاغاني « الثقافة » ٣١٢/١٢ ، وكان أبو الاسود أراد الخروج الى فارس فقالت له ابنته : يا أبت إنك قد كبرت ، وهذا صميم الشتاء ، فانظر حتى ينصرم وتسلك الطريق آمناً ، فاني أخشى عليك ، فقال الابيات : انظر المصدر السابق وصفحته . وثله : أطعمه وسقاه
٢) انظر ديوانه ١٣٨ . ٣) ديوانه ١٩٨ وانظر ١٢٢ ٤) ديوانه ٢٠٠
٥) معجم الأدباء ٣٨/١٢ ٦) ديوانه ٢٣٢ ٧) ديوانه ١٢٢ ، والجشع : اللئيم وهبلته : ثكلته .

ثمين وقرين حميم [1].

أما السبيل الثاني الذي تجري فيه حكمة الدؤلي فهو الميسّر المستنبطة من تجارب الأيام، والمستخلصة منها قواعد نيّرة، وفوائد قيمة، وذلك مثل أن ينهى عن الخول الآمل بالحياة في ظلال التمني، وبُرود الكسل، والظنّ بأعطيات القدر دون أن يقدّم بين يديه السعي الجميل [2]، ومثل أن يبين حق المجتمع على أبنائه من الجود بالمال لهم، وإيثارهم لا الإغراء بهم، وكيلاءتهم لا اغتيابهم، فكيف يسيغ أن يجرّحهم ثم يقابلهم وهم سياجه وهو دعامتهم؟ :

إذا كنت ذا مالٍ كثير فجُدْ به ... فإنّ كريمَ القوم مَنْ هو باذِلُ

وقومَك لا تحمل عليهم ولا تكنْ ... بهم هارشاً تغتابهم وتقابِلُ

فما ينهض البازي بغير جناحه ... وما تحمل السّافين إلا الحوامِلُ [3]

وتتابع حكم الدؤلي في هذا السبيل فإذا الذي يأبى الصفح عن إساءة الآخرين ينأى عنه الاصدقاء ويصبح وحيداً فريداً [4]، وإذا الناس يكلون مجد الموفّق منهم فينسبون إليه كل صالحة، ولو لم يفعلها، ويحملون على الشقي فيقذفونه بكل معرّة ولو كان بريئاً منها:

المرء يسعى ثم يدرك مَجْدَهُ ... حتى يُزيّن بالذي لم يفعَلِ

وترى الشقيّ إذا تكامل غيّه ... يُرمى ويُقْذَفُ بالذي لم يعمل [5]

وقد نفذ أبو الأسود من هذه العبر أو القواعد الخبيرة المجرّبة إلى أبيات تصلح أن تضرب أمثالاً سائرة، انظر إليه يقول:

لا تحمدنّ امرأً حتى تجرّبَه ... ولا تذُمّنّه من غير تجريب [6]

أو يقول:

١) معجم الادباء ١٢/٣٦. ٢) المصدر السابق.
٣) حماسة البحتري ٢٤٥، ويحمل عليهم: يغري بهم، وهرشه: لسعه أو عضه، والحوامل: الارجل. ٤) تهذيب ابن عساكر ٧/١١٥. ٥) ديوانه ٢٣٨ ونسبا الى الشافعي في مناقب الرازي ١٩٨، ومناقب البيهقي ٢/٩١. ٦) حماسة البحتري ٢٣٣.

فحمْدكَ المرءَ ما لم تبلُهُ سَرَفٌ ... وذمُّكَ المرء بعد الحمد تكذيب [1]

أو يقول:

فلا تطمَعَنْ في مال جارٍ لقُربه ... فكلّ قريبٍ لا يُنالُ بعيدُ

وفوّضْ إلى الله الأمورَ فإنّه ... تروح بأرزاقٍ عليك جُدود

ولا تشعرنّ النفس يأساً فإنما ... يعيش بجَدّ عاجزٌ وجليد [2]

وإلى جانب الحكمة كان لأبي الاسود عتاب كثير، وردّ كثرة أشعاره في هذا الغرض إلى الفترة التي اعتزل فيها منصبه، وصار يستشعر أحزاناً ممضّة، وحاجةً إلى عون أصحابه، فمن استجاب له منهم مدحه، ومن تردّد عاتبه، ومن تنكّر هجاه، ومن هؤلاء الأصحاب أبو الجارود سالم بن سلمة الهذلي، وكان يقارض أبا الأسود الشعر، ثم ولي ولاية، وانشغل بها عن صديقه القديم، فعاتبه الدؤلي [3]، وتساءل عن الوسيلة إلى تلافي ما وقع بينهما، وبيّن عجزه من ناحيته، فقد حاول إصلاحه بالصمت كما قد حاول إصلاحه بالبيان، فعاتب وانتقد، وأنى واستعطف، فلم يجده ذلك كله، وانسدّت من دونه السبل، إلا سبيل الفراق الجميل [4].

ومن الغريب أن أبا الجارود عدّ معاتبة الدؤلي انتقاصاً له ومذمّة، وكتب إليه بذلك، وأخبره أنه لا يتغيّر على صديق له ما لم يتغيّر هو، حتى لو زلّ ذلك الصديق احتمله ولان له [5].

ولما بلغت أبيات أبي الجارود أبا الأسود صعُب وقعُها عليه واستأنف يعاتبه ويؤكد له انما أراد معتبته لا مذمّته، ثم أخذته العزّة بكرامته، فلوّح له بقوّته وصلابته أمام الأعداء، وعاد في آخر رسالته الشعرية إليه يستعطفه ويعاتبه كيف قدّم عليه الأبعدين، ويستعيذ بالله من أن يقع هو او ابو الجارود في منقصة:

أبلغْ أبا الجارود عني رسالة ... أفي كل قول قلتُه أنت آخِذُ

١) المصدر السابق ٢٣٣. ٢) ديوانه ٢٢٧
٣) ديوانه ١٢٤ ٤) ديوانه ١٢٦.
٥) انظر ثلاثة أبيات لابي الجارود في ديوان أبي الأسود ١٢٧

أمنك قوافٍ قد أتتني كأنها ... إذا صابت المرء القِرارُ النوافذ

على غير شيء غير أني معاتبٌ ... وذلك أمر سنّه الله نافذُ

فإن كنت حقاً أنتَ لا بد آخذ ... فآخذ بعلم قد ترى من تؤاخذ

بريئاً نصيحاً مسلماً ذا قرابة ... له ظُفُرٌ يُوهي العدوّ وناجذ

أولئك خلّاتٌ سيمنَعْنَ جانبي ... كما منعت ماء الأضاة الأخاشذ

وخلّفتني بعد الألى كنتُ قبلهم ... كما خلّفت عنها القسيّ الجهابذ

فدونك إني قد نطقتُ قصيدةً ... خوائمُ أخراها قريضٌ مُلاوِذ

فقل ما أراك الله إنّك راشدٌ ... كلانا من الهواء بالله عائذ (١)

ومن الولاة الذين عاتبهم الدؤلي الحصين بن الحر العنبري عامل عبيدالله بن زياد على ميسان؛ وكان من قبل له صديقاً، فبعث إليه بكتاب استهداء، ولكنه انشغل عنه بالجباية والولاية، ومنذ ذلك الحين بدأت رسائل العتاب تتدارك تترى من أبي الأسود، وتتهمه بالتحول عنه والاقتداء بغيره ممن قطعوا ذرى الحق وتناسوا المودة(٢) أو ترميه بالضنانة (٣)، أو توعده بأمرّ الهجاء (٤)، ومن اصحابه الولاة ايضاً عبدالله بن عامر، ويخبرنا ديوان أبي الأسود بمجافاتهما وانصرام ودهما، وإيثار محافظ البصرة سابقاً، البُعد الصريح على القرابة المتكرّهة (٥)، ومنهم عبيدالله بن زياد، وكان بعده بقضاء ديونه عنه ثم يعطله ويلوبه، فقال:

دعاني أميري كي أقول بحاجتي ... فقلت، وما ردّ الجوابَ وما استمع

فقلت ولم أحسسْ بشيء ولم أصُنْ ... كلامي وخيرُ القول ما صِينَ أو نفع

١) ديوانه ١٢٧، والقرار: اللاسمات، والناجذ: الضرس، والاضاة: الغدير، والاخاذة: مقبض الجعبة، وهي القرس من جلد، ويريد حاملها أي المقاتلين، والجهبذ: الناقد البصير، وملاوذ: يلوذ بعضه ببعض، أي متراصة متقنة الاحكام، والعوراء: المنقصة.
٢) ديوانه ١٤٠
٣) المصدر السابق ١٤١
٤) المصدر السابق ١٤٣
٥) المصدر السابق ١٥٨

فأجمعت يأساً لا لُبانةَ بعده ... وللبأسُ أدنى للعفاف من الطمع (١)

ومن عاتبهم الدؤلي - إلى جانب الولاة - بعض جيرانه الذين مسّه منهم أذى (٢)، وبعض خلطائه في التجارة (٣)، وصديق له اختصم إليه مع رجل آخر، وكان وجه الحكم مع الثاني فحكم له على صاحبه، فلامه، فدافع أبو الأسود عن موقفه (٤)، وزوجته فاطمة التي تنكرت خلائقها له والتوت عليه (٥).

ويمكن القول إنّ فنّ العتاب عند أبي الاسود يجري في أربعة طرائق: الأولى أخذه صاحبه بالرفق واللاينة ومجاهدة ما قد يقع بينهما من خلاف بالتي هي أحسن، ومن ذلك قوله لصديق له كان صاحب إبل ولِقاح، فساومه أبو الأسود في ناقة منها، فقال صاحبه: أتكسرها علي يا أبا الاسود وقد تعلم انك لست أبصر بها مني؟ فقال هذا لمعرك مخالبة منك فقال:

أبى صاحبي بذلي وبيعي كليهما ... هو المرء يستغني ويحمدُ صاحبه

فقلت وبعضُ الظنّ يكذبُ أهلَه ... ويصدقُهم وأكثر الظنّ كاذبه

لعلّ أخي لما رأى حُسنَ شيمتي ... وليني إليه ظنّ أني أواربُه

وكنت امرأً - والحمد لله - لا أرى

أخي وخليلي كالبعيد أخالبه

وأعطيتُ حظّاً من حياء وأشتكي

من العَجْز مَنْ لم يبْدُ للناس عائبُه (٦)

فهو ينبهه إلى الظنّ وما قد يؤدي إليه من خطل الاحكام، ثم يزدلف إليه بخطاب الأخوّة ويذكر براءته من المواربة، وما أوتي من شمائل طيبة وحياء

١) تهذيب ابن عساكر ١١٥/٧
٢) ديوانه ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢
٣) المصدر السابق ١٧٢
٤) المصدر السابق ٢٠٩
٥) المصدر السابق ١١٤ و ١١٩ و ١٥٨ و ١٦٠ و ١٦١
٦) ديوانه ١٧٢، والمواربة: المخادعة.

محمود، ويستطلقه بما أصابه من الضعف من ناحية، فيذكر الضعف الذي أصابه من ناحية وغنى صاحبه من ناحية أخرى. والطريقة الثانية هي التلميح، وفيه يذكر مآخذ صاحبه، دون أن يوجهها إليه توجيهاً مباشراً وذلك كقوله لعبدالله بن عامر:

وعُدَّ من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ماجاء للعُرْفِ طالبُ

وإنّ امرأً لا يُرتجى الخير عنده
يكنْ هيّناً ثِقلاً على من يُصاحب (١)

فهو يرسل حكماً عامة، أنْ يتذكّر كل ذي فضل آلاء ربه عليه إذ رفعه إلى مرتبة المقصودين، وأن يسخو فلا يشحّ، فإنه - إذا لم يكن مُرتجى خير - سَقَطَ من الأعيُن واستُثقل، وما من شك أن ابن عامر أول مَنْ يعلمون أن أبا الأسود قد قصده بحاجته؛ وانه لم يُعِنْه عليها!

والطريقة الثالثة: اللوم والتنديف، وفيها يقسو على من يعاتبهم، ويُبدي لهم امتعاضه وانتقاده بجلاء، ويبين سوء عملهم، وفداحة مَزْلقهم، ومن ذلك قوله لصديق أزدي له كان أبو الاسود قد أسرّ إليه برغبته أن يخطب امرأة من عبد القيس، فنقل الأزدي الخبرَ إلى ابن عم لها، وكان يريدها، فأسرع فيها وخطبها من دون أبي الاسود:

لعمري لقد أفشيتُ يوماً فخانني إلى بعض مَنْ لم أخش، سراً مكتّما

فزلّقه مزق السّعى وهو غافل ونادى بما أخفيت منه فأسمعا

فقلت ولم أفحش، لعلك عاثرٌ وقد يعثر الساعي إذا كان مسرعا

ولست بجازيك الملامةَ إنني أرى العفو أدنى للرشاد وأوسعا (٢)

فهو يتهمه بخيانة سره وإفشاء أمانته، وإن كان ذاك بغفلة منه لا بمكر فيه.

والطريقة الرابعة: التهديد بفضّ هرى المودة ونكث أواصرها، وذلك مثل قوله لعبد الله بن عامر:

١) ديوانه ٢٢٩. ٢) ديوانه ٢٠٦.

ألم تر ما بيني وبين ابن عامر من الودّ قد بالتْ عليه الثعالبُ

وأصبح باقي الودّ بيني وبينه كأنْ لم يكن والدهر فيه عجائب

إذا المرء لم يُحبِبْك إلاّ تكرّها بدا لك من أخلاقه ما يغالب

فلانأي خير من مقام على أذىً ولا خير فيما يستقل المعاتب (١)

والأبيات، كما هو واضح، قريبة جداً من الهجاء، ولو كانت لزّتْ شخص ابن عامر ببعض الصراحة لسلكتها في الغرض الاخير، وذلك أن من ضروب الهجاء عند أبي الأسود ما كان في بدايته عذلاً وملامة، غير أنه ما لبث ان استشرى فتحوّل ذماً وزراية، ومن أمثلة هذا اللون المقطوعة الأولى في ديوانه، فهي تعاتب والي جَيّ وأصبهان وكان من قبل صديقاً لأبي الاسود، فلما أتاه جفاه، وفي مطلع الأبيات يخاطبه بمقام الاخوة ثم يذكر تناسيه له في البعاد، وسأمته منه عند اللقاء ثم يكشف جحوده مآثر اصحابه ثم يزري عليه ضلاله وإضلاله فهو يتنكب السبيل القويم، ويتخذ سبيل الغواية بل يهدي إليه، وبذلك ينقلب العتاب هجاء فادحاً:

تَزَوَّحتَ من رُزْداق جَيٍّ عشية وغادرتَ في رزداقِ جي أخاً لكا

أخاً لك إن طال التنائي وجدتَه نسياً وإن طال التعاشُرُ ملّكا

ولو كنت سيفاً يُستجبُ الناسَ حدُّه فكنتَ له يوماً من الدهر فلّكا (٢)

ولو كنت أهدي الناس ثم صحبتَه فطاوعتَه ضلّ الهدى واضلّكا

إذا جئته تبغي الهدى خالف الهدى وإن جُرْتَ عن باب الغواية دلّكا (٣)

ويستحوذ الهجاء النفسي الخلقي على جملة آثار أبي الأسود في هذا الغرض فهو يقبّح الضلالة - كما في الأبيات المتقدمة - ويذم متعاطي الخمر ويرميه بالضلال (٤) ويحمل على اصحاب الخيانة والمواربة والكذب والغلول (٥)، ويشنّع على الهوْج ويسكت

١) الاغاني «الثقافة» ١٢/٣٣١. ٢) البيت سنيان، أولهما أنه يحط أصدقاءه فضلهم ويجحد مآثرهم، والثاني انه يجور عليهم حتى يرحلهم. ٣) ديوانه ١٠٩، والرزداق: السواد والقرى معرب رستا، وفله: ثلمه. ٤) ديوانه ١٨٩ ٥) ديوانه ١٦٦

فعلة الحاقدين. يقول في ساخر هُزَأة حاول أن ينال منه :

وأهوَجَ مِلجاجٍ تصامَمْتُ قِيلَهُ ... أن اسمعه وما يسمعي من بأس

ولو شئتُ قد أعرضتُ حتى أصيبه ... على أنه حدباء تعضُلُ بالآسي

فإن لساني ليس أهون وقعةً ... وأصغر آثاراً من النحت بالفاس

وذي إحْنة لم يُبْدِها غير أنه
كذي الحَبْل تأبى نفسه غير وسواس

صفحت له صفحاً جميلاً كصفحه
وعيني - وما يدري - عليه وأحراسي [1]

ومما يلقاه في الهجاء عند أبي الأسود القدْح السياسي إذ يتهم الامويين بإمعانهم في سفك دماء الشيعة وحجب الخير عنهم [2]، ويرمي بني زياد بالغدر والخيانة ويدعو الله ان يزيل ملكهم [3]، ويطعن في الخوارج ويُزْري عليهم نواقضهم [4].

وأكثر هجاء الدؤلي ذم مباشر متصارح، وتمثل لذلك بأبياته السابقة في والي جيٍّ وأصبهان، وفي الساخر الهُزأة، وقد يسلك سبيل التعريض كقوله عندما مطله عبيدالله بن زياد :

ألم تر أني أجملُ الوأْيَ ذِمّةً
أخو الغدر عندي رَوْغةُ المرء بالوَعْد

وما رجل لا يَقتني بكلامه ... بموفٍ بميثاق عليه ولا عهد [5]

فهو يعد الوعد ذمة تحتاج إلى وفاء، فمن راغ فيه أوشك أن يكون مع الغادرين، بل هو شقيق لهم حميم، ومَنْ لا يفعل ما يقول فليس ينتظر منه ميثاق

١) الأغاني (الثقافة) ٣٠٧/١٢، وحدباء: صعبة شديدة، وتعضل بالآسي: تعيز المداوي، والاحنة: الضغينة. ٢) مرآة الجنان ٢٠٦/١. ٣) انظر ديوانه ٢٤١. ٤) ديوانه ١٩٤. ٥) ديوانه ١٦٨، والوأي: العهد.

ولا وفاء لهود، والشاعر لا يخاطب ابن زياد في صغيرة ولا كبيرة غير أنه لم يكن يخفى عليه مُراد أبي الاسود.

ومن سبل الهجاء عنده ايضاً السخرية الفنية إذ يرسم ان يمكنه صورة طريفة أو مضحكة، كأنْ يعرض هيئته وهو يتحدث ويخلج حاجبيه تمالؤاً [1]، أو يجعل له سورة الأسد يُرْعد ويزأر بينما يتطاهر الهزلي بالرعب منه، وكأنما هو مورده القتل أو ما هو أشبه بالقتل [2].

ويبدو أن مواقف اصدقائه المتنكرين كانت تدفعه إلى تذكيرهم بسوابقه في الخير ومآثره في الحامد، فيفتخر بذلك علّه يخفف عن نفسه وطأة محنته فيهم، ومن يقرأ موضوع الفخر في ديوان أبي الأسود يجد فيه نمطين من القديم، النمط الأول معايير قديمة استمرّتْ في الإسلام، كفضيلة الشعر، ومقدرة البيان [3]، والعزيمة الجلْدة، والشجاعة [4]، وإتقان المصاولة [5]، والنمط الثاني قيم جديدة تعتز باعتناق الإسلام وإسداء النصيحة [6]، كما تجانبُ الخنى والجهل، وتعوذ منهما بالدين الحنيف والحياء واللطف والكرم :

وإني ليَثْنيني عَنِ الجهل والخنى ... وعن شتم ذي القربى خلائق أربعُ

حياء وإسلام ولطف وأنني ... كريم، ومثلي قد يضرُّ وينفع [7]

وعلى هذا النحو يفتخر أبو الاسود بشربه اللبن الحلال لا الخمر وما فيها من إثم وعار :

إنّ امرأً نُبِّئتُه عن صديقنا ... يسائلُ هل أسقي من اللبن الجارا؟

وإني لأسقي الجار في عقر بيته ... وأشرب ما لا إثم فيه ولا عارا

شراباً حلالاً ينزل المرء صاحياً ... ولا يتولّى يَقْتَبِسُ الإثم والعارا [8]

١) ديوانه ١٣٢. ٢) ديوانه ١٩٠. ٣) ديوانه ١٢٩ و ١٥٥.
٤) ديوانه ١١٥ وما بعدها. ٥) ديوانه ص ١٣٤. ٦) ديوانه ص ١٢٨ و ١٥٠
٧) ديوانه ص ١٤٩. ٨) الأغاني « الثقافة » ٣١٩/١٢ وفيه « كان لأبي الاسود جار يحسده ويبلغه عنه قوارص، فلما باع أبو الاسود داره في بني الديل وانتقل الى هذيل =

وبدور مديح أبي الاسود حول اصحابه الذين برّوه ولم يضنوا عليه ، ولم يتنكروا له ، ومنهم أبو ماعن والي عبيدالله بن زياد على جُنْدَ يسابور ، وهو يشيد بترحيبه فيه ، وقضائه حاجته [1] ، ومنهم المنذر بن جارود وفيه يقول :

كساني ولم أستكسه فحمدتُه أخ لك يعطيك الجزيل وناصر
وإن أحق الناس إنْ كنت حامداً بحمدك مَنْ أعطاك والعرض وافر [2]

ومن هؤلاء أبو بحر عبدالرحمن بن أبي بكرة وهو يثني بكرمه وخيره ، ووفائه ورحمته وحسن شيمه [3] ، ومنهم بحير بن ريسان الحيري وكان قد جاء إليه وقال له :

بحير بن ريسان الذي ساد حميراً بأفعاله والدائراتُ تدورُ
وإني لأرجو من بحير وليدة وذاك على المرء الكريم يسير

فقال : يا أبا الأسود سألتنا على قدرك ، ولو سألتنا على قدرنا ما رضينا بها لك [4] . وقد بنى لأبي الاسود عدة مقطوعات في الرثاء ، وهي مقطوعات بارعات تنمي الإمام علي بن أبي طالب [5] وابنه الحسين [6] ، وشهداء الطف [7] ، وأبيات أخرى في وصف الصحراء [8] والناقة [9] ، والطريق المخوف [10] ، والشيب [11] ، وضمة أبيات في الاعتذار [12] ، أو في الغزل [13] .

=قال جار أبي الاسود لبعض جيرانه من هذيل : هل يستقيم أبو الاسود من ألبان لقاحه ؟ ، وكانت لا تزال عنده لقحة أو لقحتان ، وكان جاره هذا يصيب من الشراب ، فبلغ أبو الاسود قوله ، فقال فيه: « ان امرءاً ... » ويقلس : يخرج من حلقه امتلاء ، واللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .

١) ديوانه ١٦٤ . ٢) ديوانه ١٩٣ وكان المنذر رأى عليه برداً رثاً فأهداه ثياباً وكسوة. وقال البرد ان الذي أعطاه انما هو عبيد الله بن زياد « الكامل ١/٣٤١ » وقيل بل هو عبيد الله بن أبي بكرة « وفيات ٢/٢١٧ . ٣) ديوانه ص ٢٠٤ . ٤) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر « دار الكتب » ١٨/٥١٠ . ٥) تاريخ الخلفاء ١٨٦ . ٦) ديوانه ١٨٠ .
٧) ديوانه ١٨٢ ٨) ديوانه ١١٥ ٩) المصدر السابق ١١٦ ١٠) المصدر السابق ١١٢
١١) المصدر السابق ١٩٥ ١٢) المصدر السابق ١٢٠ و ٢٢٠ ١٣) المصدر السابق ١٤٤

والناظر في ديوان أبي الأسود ، من الوجهة الفنية ، يجد أكثر ما فيه مقطعات صغيرات وأقله قصائد قصاراً ، وكذلك يجد كلتا النزعتين اللتين تقاسمتا شعر الفقهاء : النظم ، والابداع الفني ، ويتجلى النظم بوضوح عندما يتطرق لتجارته التي مارسها بعد تنحيته عن الولاية فيقول :

يريدُ وثاقٌ ناقتي ويعيبها يخادعني عنها وثاق بن جابر
فقلت : تعلّم يا وثاق بأنها عليك حِمىً أخرى الليالي النوابر
بَصُرْتَ بها كوماء حوشاء جَلْدَةً
من المولياتِ الهامَ جِدَّ الظهائر [1]

فإذا استحسن لأبي الاسود غضبه من طريقة المماكسة التي سلكها وثاق حين سار يتلجلج ويتلوّى ويحاول أن يلحق بالناقة عيباً مبتَرىً ليبخس ثمنها [2] ، فقد كان خيراً ألا يعالج مثل هذه القضية في الشعر ، حتى لا يحول ضرباً من المماكسة: « يريد ناقتي ويعيبها ، ويخادعني ، عليك حِمىً » ، أو ترويج السلع وكأنما ينادى بها في سوق الابل « كوماء ، حوشاء ، جلدة » ولعل من الواضح أن المدّ في كوماء وحوشاء يعين على النداء البعيد المدى ، بينما تصلح « جلدة » أن تتكرّر ، كما يفعل المروّجون لسلعهم ، فيُحْدِث لها التكرار - إذا كان ثنائياً - تناغماً مع الكلمتين الأوليين .

وتكثر هذه الظاهرة في ديوان أبي الأسود ، إذ يعرض في مواضع أخرى مماكسة أوس بن عامر له في ناقته « الطُّبَّاء [3] » ، كما يعقد صفقة شراء بغلة من مهران مولى بن عامر [4] ... وما من شك أن استعراضَ أحاديث السوق في ميدان الشعر غالباً ما يسمه بالابتذال .

وكما يتجلى النظم في ديوان أبي الاسود عند أحاديث التجارة يتبدّى في

١) المصدر السابق ١٠١ وحِمىً : ممنوعة ، وكوماء : عظيمة السنام ، وحوشاء : جيدة الاكل ، والظهائر : جمع ظهيرة وقت انتصاف النهار . ٢) انظر مقدمة الأبيات ص ١١٠ في ديوانه
٣) ديوانه ص ١١٣ . ٤) المصدر السابق ١٤٦ وانظر أيضاً احاديث البيع والشراء ص ١٦٦ و ٢١٢ من ديوانه .

موضوعات متفرّقة أخرى لا يشعر فيها القارىء بنبض المشاعر ولا بلطافة الاحاسيس ولا ببراعة الصور ، ولا يحسّ إلا بكلام مرصوف رصفاً ، وذلك في نحو قوله في الهجاء :

يصيب وما يدري ، ويُخطي وما درى
فكيف يكون النّوكُ إلا كذلكا

وإن قال قولاً لم يكن ذا حقيقة
وإن قلتَ قولاً ردّه من فِعالكا [1]

أو قوله :

تقولُ فمن يسمَعْ يقلْ أنت فاعلٌ ومن دونه بابٌ من الشّحّ مُقْفَلُ
«نعم» منك «لا» معروفة غير أنها تغر فيرجوها الضعيف المغفّل
فقل «لا» ولا تعرض لها، أو «نعم» ولا
تقل «لا» إذا ما قلتُ إني سأفعل

لعمريَ «لا» خير إذا كنت باخلاً وأروَحُ من قولٍ «نعم» ثم تبخل
وإن ثقلت «لا» وهي غير خفيفة عليك فلأُخرى أشدّ وأثقلُ
إذا هي لم تَنفُذْ بصدقٍ ولم تكن إذا اختُبرتْ إلا الضلالُ المضلّل [2]

فقد يحسن التكرار في مواطن كثيرة ، إلا ان كل المواطن الشعرية البارعة تأبى «وما درى» بعد «وما يدري» في البيتين الأوّلين ، ولو استبدل بعبارته كلمة «جهالةً» أو «ضلالة» لبرّأها الساجة والاستقلال . أما «نعمْ» و«لا» الكلمتان المتلاعبتان بزمام النص الاخير فربما كانتا تستهان الترحيب في مسائل التمرين النحوية أو الالغاز المعنوية ، غير أنهما في مضمار الشعر تعوّقان انطلاقته وتعرقلان انسيابه،

١) المصدر السابق ١٣٧ ، والنوك : الحمق .
٢) المصدر السابق ١٩٩ و ٢٠٠

وتعقيدان ما كان بدونهما سهلاً رهْواً ، وما كان التعقيد في شيء إلا شانه .

وقد يحسن الاغراب في الشعر احياناً ، ويضفي عليه جزالة وجلالاً ، ولكن اقرأ قوله في رجل وعده شيئاً ثم نزعه :

ذهبت وكان المرء يُبْلي ويُبْتَلى أطالع ما قال المُجيرُ بن مالكِ
فلم أر إلا هَيْجَ ريح تقطعت أعاصيرَ في أرضٍ سَهوبٍ مَهالكِ
فلا ذنبَ لي لو كنت أضطرّ ضيعتي
إلى جَوْلِ رسٍّ من حجا متماسك [1]

وواضح مقصوده من البيتين الأولين أن أبهة المُجيرْ إنْ هي إلا مثل ريح هائجة لم تحمل الغيث ولم تنفع الناس ، أما البيت الثالث فهو يجعل القارىء أمام لغز معنوي حقاً ، فالجَوْل - بالفتح - التراب والغبار ، والرسّ البئر المطوية الحجارة ، فقد يريد أنه غني عن تراب البئر المتماسك ، لأن التراب لا ينفعه شيئاً ، كما أن حصوله عليه غير هيّن ، وبذلك يعيد صورة الريح غير النافعة وإصابتها - مع قلة نفعها - الفلوات لا المواطن . على ان الجَوْل أيضاً الطواف . فمن المحتمل أنه يقصد إباءه التطواف حول بئر شحيحة تمسك المياه ولا تسقيها ، وكذلك فإن الجُوْل بالضم العزم والعقل ، والرّس الإصلاح ، فهل يعني استغناءه عن العزيمة الصالحة التي أبداها الهجْر لأن الإمساك وقفها عن الجُوْد ؟ مهما يكن فإن البيت لم يستطع - لتعقيده وغرابته - أن يعبر في دقة عن مراد أبي الاسود ، وبقي «المعنى في قلب الشاعر» .

وأغلب الظن أن الناقدين الذين جرَحوا شعر أبي الاسود وأتخنوه النكوا على مثل هذه الأبيات ، ثم قاسوا عليها ، ثم عمموا الحُكْم فقال بروكلمان : إن «شعر أبي الاسود ليس على مستوى رفيع من الوجهة الفنية ، كما أنه لا يقدم غُنْماً تاريخياً جديراً بالذكر في احوال عصره [2]» ، وذهب ركندورف إلى أن

١) ديوانه ١٤٤ ، والهيج : الهيجان ، والسهوب : الأرض المستوية ، وسهوب الفلاة : نواحيها التي لا مسلك لها ، والمهلكة : المفازة .
٢) تاريخ الادب العربي « ترجمة عبد الحليم نجار ، دار المعارف بمصر » ١/٣٠٧ .

اشعاره – عدا قصيدته في رثاء الامام علي – لا قيمة لها (١)، ونحن لا نستغرب هذه الاحكام من المستشرقين الذين قلّما قدّروا أن يتذوقوا الادب العربي أو يعاربوا له، غير اننا نستغرب أن يردّد باحثان من أهل الضاد الرأي نفسه، فيقول فتحي الدجي إن « شعره – في حد ذاته – لا قيمة له من الناحية الفنية والتاريخية معاً (٢) »، ويعده ناظماً فقط (٣)، ويرى عبدالكريم الدجيلي محقق ديوانه أن « شعر أبي الاسود الذي وصل إلينا لا يصور مجتمعه ويبقه تصويراً كاملاً، ولا يعالج المشاكل والأوضاع العامة. فهو في الواقع ناظم لا شاعر » (٤)، ويرجع قوله مرة أخرى فيقول: « فشعره ليس في حدّ ذاته ذا قيمة فنية، فهو لم يعانا الحقائق التاريخية لذلك الزمن المليء بالأحداث والعبر والتقلبات » (٥)، ومن الغريب ان يبني محقق الديوان رأيه في فنّ أبي الاسود على حظه من الحقائق التاريخية، ومن الغريب أيضاً أنْ يتهم هو والنقاد الآخرون شعر الدؤلي بضآلة تصويره الأحداث المعاصرة، مع أنه يخبرنا بما وقع من خلاف بين الامام علي من جهة وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير من جهة ثانية (٦)، كما يسجل حركة الخوارج (٧). وخلافة معاوية وبني أمية (٨)، وحكومة بني زياد في العراق (٩)، ومقتل السبط (١٠)، والشقاق عبدالله بن الزبير وإبلائه البصرة للحارث بن عبدالله الملقب بالقباع (١١)، وتلك كبريات الحوادث في أيام أبي الاسود.

ومن يقرأ ديوانه يرَ إلى جانب هذه الحوادث وقائع تاريخية اخرى (١٢) إضافة إلى ما يصوره من أمور الدؤلي الخاصة به (١٣)، إلا ان ديوانه لم يؤرخ لكل ذلك تأريخ اليعقوبي أو الطبري أو الدينوري أو البلاذري أو ابن قتيبة، أو ابي الفرج أو ابن عبد ربه أو المسعودي ممن فصّلوا القول في تلك الحوادث ونقلوها عن

١) دائرة المعارف ٣٠٧/١. ٢) أبو الاسود ١٧٧. ٣) المصدر السابق ١٢٨
٤) مقدمة ديوان أبي الأسود ص ٣٢ و ٣٣. ٥) المصدر السابق ص ٣٢
٦) ديوانه ٢٣٠ و ٢٣٨. ٧) ديوانه ص ١٩٤. ٨) ديوانه ١٧٤ و ٢٢٠
٩) ديوانه ص ١٦٧ و ١٦٨ و ٢١٩ و ٢٢٠. ١٠) ديوانه ١٨٠ و ١٨٢.
١١) ديوانه ص ٢٢٠. ١٢) انظر طائفة من الولاة الامويين والحوادث التي جرت بأيامهم في ديوانه ص ١٠٩ و ١٢٢ و ١٢٤ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٣٣ و ١٣٥ و ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٨ و ١٥١ و ١٥٧ و ١٦٤. ١٣) انظر بعض أعماله وأصحابه وجيرانه وأزواجه =

مصادرها الأولى التي افتقدناها، ولكنْ هل على الشعر ان ينقلب بحثاً وتأريخاً وتفصيلاً؟. وهل فعل ذلك من الشعراء أحد فنقّهم أبا الأسود من دونهم؟!

وإذا انتقلنا إلى تعميمهم الحكم على شعر أبي الاسود وحرمانهم له من القيمة الجمالية رأينا الجانب الآخر من قريضه، وهو جانب الابداع الفني يردّ هذا التعميم، ويدفعه بحجج خمس:

الحجة الأولى: ما يحويه من بعض المقطوعات العاطفية النادرة، ويأتي على رأسها قوله في العتاب:

مَنْ ذا الذي بإخائه وبوُدّه ... من بَعْد وُدِّك أو إخائك أفرَحُ
لمّا يقول الكاشحون لنا غداً ... وعيونهم نحوي ونحوك تلمَحُ
قد رابَهم من بعد حُسْنِ تواصُلٍ ... منا مباعَدَةٌ وبين مفصِحُ
أمْرٌ يَسُرهم ما يشتهون وفاعلٌ ... من ذاك ما يُثْنى وما يُستَقبح
أم مُمْسِكٌ بوصالِ خِلٍّ ناصح ... مَحْضِ الأُخوّة مثلُه لا يُطرَح
أيا فعَلْتَ فلا تزال مُقيمةً ... في الصدر منك مودة لا تبرح (١)

والحجة الثانية ما فيه من تصوير دقيق لافت في بعض المواضع، كصورة الكاشحين في الأبيات السابقة وهم يرسلون النظرات إلى الصديقين الحميمين علها تكشف لهم أسباب الشقاق، وكصورة الحمامة الساجعة في فروع الأيك، وقد مرت بنا في الابداع الفني في شعر الفقهاء، وكرسم صورة طريق مخوف، يكتنفه من أحد جانبيه أكمة وهرة، ويحف به من الجانب الآخر غابة كثيفة، وهو يتلوى بينها

= وجواريه: ديوانه ص ١١١ و ١١٣ و ١١٤ و ١١٩ و ١٢١ و ١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٦ و ١٥٣ و ١٥٨ و ١٦٠ و ١٦٣ و ١٦٦ و ١٧٠ و ١٨٧ و ١٩٤ و ١٩٥ و ٢٠٢ و ٢٠٤ و ٢٠٦ و ٢٠٩ و ٢٢١ و ٢٢٤ و ٢٤٠. ١) حماسة البحتري ٢٥٩ وانظر قصيدته في رثاء الامام علي في تاريخ الخلفاء ١٨٦، إلا أن هذه القصيدة الأخيرة منسوبة أيضاً إلى أم الهيثم بنت الاسود النخعية، انظر مقاتل الطالبيين لأبي الفرج (النجف ١٣٠٣) ص ٢٩، ولهذا لم أوردها.

في ضيق شديد دون أن يكون ثمة طريق سواه ، وعلى صفحة ذلك الدرب كانت تتبدى آثار الأسود وصائديها ، ولا يلبث المساء حتى يحلّ فيخيم على الطريق الموحش المنفرد الفاوي بين الجبال العالية والغابات المكتظة ظلمة رهيبة دامسة ، وهنالك يأتي هبور أبي الاسود :

وخَلٍّ مَخوفٍ بين ضَرسٍ وغابةٍ ... ألفَّ مَضيقٍ ليس عنه مُجَنَّبُ
كأن مَصامات الأسود بطنه ... مَراغٌ وآثار الأراجيل ملعب
سلكت إذا ما جنّ ثغرَ طريقِه ... أغمُّ دجوجيٌّ من الليل غَيْهَبُ[1]

والحجة الثالثة : أنه لا يخلو من انسياب شعري متتابع متلاحق سَلِس كقوله يعاتب صديقاً أفشى له سراً فأذاه :

أمِنْتَ امرأً في السرّ لم يك حازماً ... ولكنه في النصح غيرُ مُريبِ
أذاع به في الناس حتى كأنه ... بعَلياء نارٌ أُوقِدتْ بثقوب
وكنت متى لم تَرْعَ سرّك تلتبسْ ... قوارعُهُ من مخطئٍ ومصيب
فما كل ذي لبٍّ بمؤتيك نَصْحَه ... ولا كل مؤتٍ نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد ... فحقّ له من طاعة بنصيب[2]

وقد يحوّل الانسياب تدفقاً مصطخباً بنغمات عروضية بارزة وإيقاعات داخلية متقابلة في نحو قوله :

بُليتُ بصاحبٍ إنْ أدْنُ شبراً ... يزدْني في مباعدةٍ ذراعا
وإن أمددْ له في الوصل ذرعي ... يزدْني فوق قِيس الذّرع باعا

١) ديوانه ١١٧ ، والحل : الطريق ، والضرس : الجبل ، والصامة : المقام والوقت ، والمراغ : مكان تمرغ الحيوان ، والأراجيل : الصيادون ، ودجوجي : مظلم ومثله غيهب ، وانظر صوراً بارعة أخرى في ديوانه ص ١٨٦ و ١٨٧ . ٢) المصدر السابق ٢٠٧ ، وانظر المؤتلف والمختلف ١٥١ ، والثقوب : عود الثقاب ، والقوارع : الدواهي جمع قارعة .

أبت نفسي له إلا اتباعاً ... وتأبى نفسه إلا امتناعا
كلانا جاهدٌ أدنو ويَنأى ... كذلك ما استطعت وما استطاعا[1]

والحجة الرابعة نكبة أبي الاسود في ديوانه واضطراب النسخ المخطوطة منه ، ويبدو هذا الاضطراب في بعض السَّقَطات النحوية والعروضية فيه ، كأن يضطرّ إلى قطع الهمزة الموصولة في « استقبلْ » فيقول :

وبالصدق استقبلْ حديثك إنّه ... أصحّ وأدنى للسّداد وأمثَلُ[2]

أو إشباع فتحة النون في ضمير المتكلم المفرد « أنا » لتأخذ مقام الألف ، ومعروف أنها تُكتب ولا تلفظ :

فأنا أطالبه في الناس أنشده ... يا حبّذا من مضلٍّ غير موجود[3]

أو ينطمس فيصير كالطلّيمساء المحنوتة على هذه الشاكلة :

إذا المنايا الرّتى الردى مل أهله ... نفته الأمور بالرعيش الملبس[4]

وقد تبدو نكبة ديوانه بصورة أشد وضوحاً إذا قرنّا أشعاره فيه بروايات أخرى نقلتها المصادر المُتْقِنة لفنّ الشعر كالأغاني وإنباه الرواة وخزانة الأدب . . . فهو يقول في ديوانه :

أتاني في الطيفاء أوسُ بن عامرٍ ... ليخدعني عنها بحَنّ ضراسها
فسام قليلاً بائساً غير ناجز ... وأحضر نفساً واثقاً بمكاسها
فأقسمتُ لو أعطيتُ ما سُمْتَ مثلَه
ـ وأنت حريصٌ ـ ما غدوتَ برأسها
أغرّك منها عَذْمُها عن حُوارها ... تَعَذُّرَ أمِّ السَّكْنِ يوم نِفاسها[5]

١) خزانة الأدب ٢٨٦/١ ٢) ديوانه ص ٢٠٠ .
٣) ديوانه ص ١٩٧ ٤) ديوانه ص ١٥٩ . ٥) ديوانه ص ١١٣ ، والحن : الانصراف ، ونجز الحاجة : قضاها ، وعذمها عن حوارها : دفعها عن ولدها .

وانظر رواية الأغاني للأبيات :

أتاني في الطيفاء أوس بن عامرٍ ... ليخدعني عنها بجَنّ ضِراسها
فسام قليلاً ناشئاً غير ناجز ... وأحصر نفساً وانتهى بمكاسها
فأقسم لو أعطيتَ ما سُمْتَ مثله ... وضِعْفاً له كما غدوتَ براسها
أغرّك منها أن نحرتُ حوارها ... لجيران أم السكن يوم نِفاسها
فولّى ولم يطمع وفي النفس حاجة ... يردّدها مردودةً بإياسها (١)

ورواية الأغاني تفضّل نص الديوان بعدة سوابق ، منها خلو ستر محاسن الناقة « الطيفاء » من مبالغة صرفيها عن صَرْفاً ، ومنها أن المماكس لم يكن يائساً ، وإنما كان يحرص أن يكسب الصفقة ويؤخر ثمنها ، ومنها أن نفس المرء ليست تفارقه ما دام حياً ، فهي لا تحْتَضِرُ إحضاراً ، بل قد تحْتَضَر إحضاراً ، ومنها أن تخفيف الهمز في راسها خير من تحقيقه ، ليناظر سائر الألفات في الابيات ، ومنها أن نحره الحوار ابتهاجاً بولادة امرأته يترك في النفس أثراً لطيفاً لا انكماشاً على أم السكن إذا تذكّرت ولادتها (٢) .

والحجة الخامسة أنّ النقاد الأوّلين قدّروا شعره واستحسنوه ، وذلك يعني وقوفهم على روايات سليمة لأشعاره قبل أن تضطرب طائفة منها أو تضيع ، ومن هؤلاء النقاد ابن قتيبة الذي يعدّه « شاعراً مجيداً » (٣) ، والآمدي الذي شهد أنه كان « شاعراً يتقناً للمعاني » (٤) . وقال ابن كثير كما قال ابن الأثير « له شعر حسن »(٥) وأورد البغدادي مجموعة من شعره ثم أتبعها بقوله : « وقد أطلنا في إيراد شعره لكنا أطنبْنا ، فإن حِكَمه شماء الصدور ودرر قلائد النحور » (٦) .

١) الأغاني « الثقافة » ٣٢٠/١٢ والجن : الستر ، وأحصره العدو : ضيق عليه .
٢) وقارن رواية ديوانه ص ١٤٣ بالاغاني « الثقافة » ٣٢٩/١٢ ،وروايته ص ١٥٣ وما بعدها بالاغاني ايضاً « الثقافة » ٢٣٠/١٢ ٣) المعارف ٤٣٤ ٤) المؤتلف والمختلف ١٥١
٥) أسد الغابة ٧٠/٣ والبداية والنهاية ٣١٢/٨ ٦) خزانة الأدب ٢٨١/١ .

ج - ابن عتبة :

ولد عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي في المدينة في أواخر خلافة عمر او أوائل حكم عثمان (١) ، ونشأ على أبيه عبدالله بن عتبة ، وأبي هريرة ، والسيدة عائشة ، وابن عباس ، وابن عمر ، والنعمان بن بشير ، وأبي سعيد الخدري(٢) وزيد بن ثابت (٣) ، ولحظ ابن عباس لديه تربة صالحة للفراس فكان يقدّمه ويؤثره(٤) ولم يزل يغترف من حياض العلم حتى اصبح من كبار فقهاء المدينة ، بل أصبح من فقهائها السبعة الأفذاذ ، وصارت وفود الناهلين تلتقط من حوله (٥) ، فيأخذ عنه أخوه عون بن عبدالله والزهري وضمْرة بن سعيد وابو الزناد وصالح بن كيسان وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم (٦) ، وزاد يحفظون له فضله عليهم ويقدّرونه قدره ، فيقول الزهري : « سمعت من العلم شيئاً كثيراً ، فظننت أني اكتفيت حتى لقيت عبيدالله بن عتبة فإذا كأنّ ليس في يدي شيء » (٧) ، وينعته في موضع آخر بأنه « بحر » (٨) .

ويمكن القول إن عمر بن عبدالعزيز كان من أوفى طلابه وأبرّهم ، إذ نراه - بعد توليّه المدينة يذكر جميل سعيه إليه ويحرص على زيارته (٩) ، ويبدو أن أبا عبدالله بن عتبة كان ينظر إلى عاهل المدينة نظرة الوليّ الذي يفرح المنّ تعب في تنشئته إذا أصاب خيراً ، ويعد ذلك الخير من ثمار غرسه ، ويستشعر أن له على طالبه - مهما بلغ - حق السمع والطاعة والهيبة والتقدير ، ولذلك كان يحجبُ والي المدينة أحياناً فلا يأذن له (١٠) ، ولا يتردّد إذا لحظ منه تقصيراً - أي تقصير - في حفظ مكانته عنده أن يلومه بل يحذره ويندره ، حتى لو كان الذي لحظه ظناً محضاً ، وقد احتفظت له المصادر بأربعة نصوص في هذا الشأن .

وهو يكتب له النص الأول بعد أن بلغه عنه شيء يكرهه ، فيتساءل في كتابه عما يريده عمر : أالنيل من مكانته أم عتابه ؟ فإن كان مراده عتاباً ، أعتبه ،

١) سير أعلام النبلاء مجلد ٢٥٥/٤/٤ . ٢) تهذيب التهذيب ٢٤/٧
٣) طبقات الفقهاء ١٥ ٤) الأغاني « الثقافة » ١٣٦/٩
٥) وفيات ٣٠٠/٢ وتاريخ ابن الوردي ٨٣/١/١ ٦) سير أعلام النبلاء مجلد ٢٥٦/٢/٤
٧) طبقات الفقهاء للشيرازي ٢٩ ٨) المصدر السابق ٣١ .
٩) صفوة الصفوة ٥٧/٢ ١٠) صفة الصفوة ٥٧/٢ ، وحلية الأولياء ١٨٨/٢ .

وإن كان الأمر الآخر فارقه ملياً[1].

وفي النص الثاني يعاتب عمر فيما بدر منه عند ما زاره هو وعروة بن الزبير، وتخاصم عروة والأمير في عبدالله بن الزبير ومدى حب السيدة عائشة - خالته - له، ومع أن ابن عتبة لم يقحم نفسه في خصامهما فإنه لم يسلم من شظايا هذه المعركة الكلامية، إذ طلب الوالي أن يخرجا عنه، ثم لم يلبث أن ندم على ما فرط في جنب معلمه الخير، فبعث إليه رسولاً يدعوه فيلتمس عتابه[2].

أما النص الثالث فيروى أن ابن عتبة استأذن على عمر، فردّه الحاجب دون معرفة من عمر، وأخبره أن عند الأمير عبدالله بن عمرو بن عثمان، وأنهما يتدارسان أمراً، فانصرف وهو مُحْنَق مَغيظ، وقال هـذه الابيات التي يضع فيها عمر بن عبدالعزيز على مفترق أمرين: أن يختار صحبته واحتذاء خطاه، أو يبتغي مثيلاً له من دونه، ويبيّن أنه - من جانبه - لا يهب تلك الصحبة أحداً ما لم يكن مسلماً مفكراً، ويذكره بافتراق الأخلاء إذا اختلفوا!!

أبنْ لي فكن مثلي أو ابتغ صاحباً كفعلك إني تابع صاحباً مثلي
عزيز إخائي لا ينال مودتي من الناس إلا مُسلم كامل العقل
وما يلبث الفتيان أن يتفرّقوا
إذا لم يُؤَلِّفْ رُوحُ شكل إلى شكل[3]

ويبدو في الأبيات أيضاً ما كان يحزّ في نفس عبيدالله تجاه فعلة طالبه القديم عمر، فيذكر أنه لولا التقى لهجاه هجاء لاذعاً بعيد الصدى يخشاه القيام والظاعنون ويعتب على الوالي تهاونه في حاجته، واختفاءه وراء الابواب:

ولولا اتقائي اللهَ قلتُ قصيدة تسير بها الركبان أبرَدُها يغلي

١) انظر الأبيات في العقد الفريد ٢/٢٣٢.
٢) انظر هذا الخبر وعتاب عبيد الله في مجالس ثعلب ١/١٥
٣) انظر الخبر والابيات في الأغاني (الثقافة) ٩/١٣٩.

بها تُنْقَضُ الأحلاس في كلّ منزل
ويَنْفي الكرى عنه بها صاحبُ الرحل
كفاني يسيرٌ إذ أراك بحاجتي كليلَ اللسان ما تُمِرُّ وما تُحلي
تلاوِذُ بالأبواب مني مخافة الـ ـملامة والإخلاف شرٌ من البخل[1]

وقد أُخبر والي المدينة بالأبيات فاستقبل تقريعه استقبالاً حسناً، واعتذر إليه وأقسم له أنه لم يكن يدري بمجيئه ولا نبيء عنه، فسكت عن مؤدبه الغضب، وعذره[2].

وأما النص الرابع فقد رواه ابن شهاب الزهري وقال: «جئت عبيدالله بن عبدالله يوماً في منزله فوجدته ينفخ وهو مغتاظ فقلت له: مالك؟ قال جئت أميركم آنفاً - يعني عمر بن عبدالعزيز - فسلّمْتُ عليه وعلى عبدالله بن عمرو بن عثمان، فلم يردّا علي»[3]، ويبدو أنهما كانا يتطارحان قضية، فشردا عنه، فعدّ ذلك إهانة له، فمضى ينهاها عن الكبْر، ويأمرهما أن يتذكرا التراب، فمنه خُلقا وإليه المعاد، وأن يتذكرا الآخرة ففيها الحساب، وإليها المُنْقلب، ولا يلبث أن يخطر في ذهنه ما فعلاه، فيأخذه من ذلك غضب شديد، فيحذرهما ويذرهما من شر خصومهما الذين أقل ما يمكنه تجاههم ألا يصدهم عن سبيل عداوتهم، ويعود في النهاية يلومهما كيف يحملانه - حين استنكفا عن ردّ سلامه - على ما كان يسأباه وهو صبي فتيء! ويفتخر بأنه ذو عزّة ومجد وإباء[4].

غير أن عمر تلقى بيده الوديعة، وقلبه المخلص، ما أنذره شيخه به، وبقي يقدّمه، ويحرص على زيارته ورضاه، حتى إذا قضى عبيدالله نحبه واستُخلف عمر، جعل يذكر نصيحته التي يستنكر فيها مقالة الأمويين في علي فاستبدل بها قول الله

١) المصدر السابق ٩/ ١٤٠
٢) انظر المصدر السابق ٩/ ١٤
٣) المصدر السابق ٩/١٤٢
٤) انظر الابيات في الأغاني «الثقافة» ٩/ ١٤٠ وما بعدها، والمحبر ٢٩٧، وانظر بيتين منها في حماسة البحتري ١٥٠، وقد جمعها المرتضى مع أبيات غائلها في الروي والقافية والوزن في لوم مراك ابن مالك وأبي بكر بن حزم، وصرح باسم الآخرين، انظر أمالي المرتضى ١/٣٩٩.

سبحانه : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون »(١) وأمر بترديدها في أقطار الدولة ، وبقيت سيرة ابن عتبة ومجالسه في ذهن الخليفة عمر فكان يقول : « لأن يكون لي مجلس من عبيدالله أحبّ إلي من الدنيا »(٢) ، ويقول أيضاً : « لو كان عبيدالله ابن عتبة حياً ما صَدَرْتُ إلا عن رأيه ، ولوَدِدْتُ أنّ لي بيوم من عبيد الله غرْماً »(٣) .

ولعل فيما استعرضته من صلة الشاعر بأبي حفص ما يدل على إحساس مرهف رقيق كان فيه ، وهو إحساس لا نلمسه في علاقته بعمر من تلامذته حسب ، وإنما نراه يتردد مع ابن شهاب الزهري الذي كان من أوفى طلابه ، وأكثرهم إعجاباً بغزارة علمه ، على نحو ما رأينا ، ومع ذلك نرى لابن عتبة بيتين يهددانه بفصم مودّتها(٤) ، كما يتردد مع مرّاك بن مالك وأبي بكر بن حزم ، وكان الأول تلميذه، والثاني صاحبه ، وكانوا يتجالسون بالمدينة زماناً ثم إن ابن حزم ولي أمرتها وولي مرّاكٌ القضاء ، وكانا يمرّان بعبيدالله فلا يسلمان عليه ولا يقفان ، وكان ضريراً فأخبر بذلك(٥) ، فحنق واغتاظ من قساوتهما وذكر أنه لولا تقواه وأمله في أن يلينا بعد الجفاء للامهما لوماً أحر من الجمر(٦) .

ويبدو أن هذا الإحساس لم يكن مزاجاً فيطريا صُبغ عبيدالله به ، أو قل هو مزاج فطري لكنه ما كان ليبلغ مداه الذي بلغه لولا أنه كان يعاني في نفسه أمراً ، وهي مساغة عبّر عنها غير مرّة فقال :

لا بدّ للمصدور أن ينفثا »(٧)

وقال : « إن المصدور إذا نفث برأ »(٨) ، وقال أيضاً : « أرأيتم المصدور إذا لم ينفث أليس يموت »(٩) ، ونحن إذا عدنا إلى المصادر التي ترجمت له لم نجد فيها

١) تاريخ الأمم الاسلامية ٥٩٠/١
٢) نكت الهميان ١٩٧
٣) الاغاني « الثقافة » ١٣٧/٩
٤) الأغاز « الثقافة » ١٤٢/٩
٥) الاغاني ١٤٠/٩
٦) المصدر السابق ١٤٠/٩
٧) وفيات الأعيان ٣٠١/٢
٨) الأغاني « الثقافة » ١٤٢/٩
٩) طبقات ابن سعد ٢٥٠/٥

تحديداً مفصّلاً لكربه الذي أرمضه ، إلا أننا نجد شيئين قد يمكن أن نستدل بهما على ذلك الكرب .

أولها : ما ذكره الرواة من ضعف توأمتيه(١) ، ثم انطفائهما(٢) بأخرة من حياته(٣) ، وهو ما يشير إليه - في أغلب الظن - بقوله :

أبكي على ذلك الزمان ولا أحسب شيئاً قد فات مُرْتَجَعا
إذ نحن في ظل نعمة سَلَفَتْ كانت لها كل نعمة تَبَعا(٤)

والشيء الثاني ما رواه أبو الفرج الاصبهاني وأحمد بن محمد المرزوقي من أنه كان له زوجة يقال لها عثمة ، فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة(٥) ، وكل تلك الاشعار يؤكد أنه كان مشغوفاً بها شغفاً شديداً ، وأنه قد ندم على هجرانها أحرّ ندامة ، ولعلّ تلك الندامة هي التي أمضته وأرهقته ، واحالت عيشته مرارة مضنية وهماً ثقيلاً . وقد مرّت له خلال البحث ثلاث مقطوعات بديعات في عثمة ، الأولى :

تتلغل حب عثمة في فؤادي فبانيه مع الخافي يسير(٦)

والثانية :

غراب وظبي أعضب القرن ناديا بشُرْمٍ وسِرْدانُ العشي تصيح(٧)

والثالثة :

كتمتَ الهوى حتى أضرّ بك الكَتْمُ
ولامكَ أقوامٌ ولومُهم ظُلْمُ(٨)

١) سير أعلام النبلاء ٢٥٦/٢/٤
٢) صفة الصفوة ٥٧/٢
٣) نكت الهميان ١٩٨
٤) الاغاني « الطبعة السابقة » ١٤٤/٩ ، ومن المحتمل أن يكون سواده بالنعمة السالفة حياته مع عثمة قبل أن يطلقها على نحو ما سوف يأتي .
٥) انظر الاغاني « الثقافة » ١٤٥/٩ ، و ١٤٧ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٣٥٤/٣
٦) انظر الابيات في الأغاني « الثقافة » ١٤٧/٩ ونكت الهميان ١٩٨
٧) انظر الاغاني السابقة ١٤٦/٩ وسمط اللآلي ٧٨١
٨) انظر الابيات في مجالس ثعلب =

ومما رواه له أبو الفرج مما يصرّح فيه باسم عثمة قوله :

عَفَتْ أطلالُ عثمةَ بالغميم ... فأضحت وهي مُوحشة الرُّسوم
وقد كنا نحلّ بها وفيهـــا ... هضيم الكشح جائلة البَريم [1]

لكن أبا عبيد البكري كان يحسب عثمة امرأة ابن عتبة محبوبة له يشبّب بها ، وأنها كانت قد آمت فهويها ، فقيل له : لو تزوجتها ، فأبى وقال : أين ضبطي لنفسي وملكي لهواي ؟ [2] . وهو سهو واضح ذلك ان أبا الفرج والمرزوقي قد نصّا نصاً على انها زوجة ، وأيضاً كيف يضبط شيخ ابن شهاب الزهري وعمر بن عبدالعزيز نفسَه ويملك هواه فلا يتزوجها ـ لو كانت حبيبة له ـ زواجاً حلالاً في الوقت الذي لا يضبط نفسه ولا يملك هواه إذا عشقها وتنزل بها وشهرها ووقع في الاثم الحرام ؟

وقد يضاف إلى هذا ما يدّعيه قارىء غزله من أمر طلاق حقيقي ، ثم ندم مبرّح في غيبته ، وهو ندم يجعله يروح بهم ويعود بهم ويتجمّل العلاّ بثيابه ، لكنّ قلبه يدمى من تحتها بجراحه [3] ، ويتذكر العهد من عثمة فإذا هو يوشك أن يطير لو كان إنسان يطير [4] . . . ولا يملك أمام ذلك إلا ان يلوم نفسه أشد ملامة لتذوق ألم الهجران الذي كانت تحسبه من قبل رشاداً ، وإصابة [5] .

على ان أبا عبيد البكري يحكي خبراً قريباً مما ذهب إليه فيقول : « اختصم رجل وامرأة إلى عبيدالله بن عبدالله ففرّق بينهما ، وكان ذلك سبيلَ الحُكم ، فنظر عبيدالله إلى المرأة فهويها فرقبها حتى انقضت عدّتها ، ثم أرسل إليها فهي عثمة التي يشبب بها » [6] .

على أن من يرجع إلى المصادر الأخرى يجد في الاغاني هذه الرواية « . . . عن أبي الزناد عن أبيه قال : « قدمت المدينةَ امرأة من ناحية مكة من هذيل ، وكانت

= ٢٣٦/١ والاغاني ثقافة ١٤٥/٩ .
١) الاغاني « الثقافة » ١٤٧/٩ والجائل : ما يجول في موضعه ولا يستقر . والبريم : الخلخال .
٢) سمط اللآلي ٧٨٢ .
٣) سمط اللآلي ٧٨٢ .
٤) أمالي المرتضى ٣٩٩/١
٥) الزهرة ١٨٤ .
٦) سمط اللآلي ٧٨٢ .

جميلة ، فخطبها الناس ، وكانت تذهب بعقول أكثرهم فقال فيها عبيدالله بن عبدالله بن عتبة :

أحبّك حباً لو علمت ببعضه ... لجُدْتِ ولم يصعب عليك شديد
وحبّك يا أم الصبي مُدلّسي ... شهيدي أبو بكر وأيّ شهيد
ويعلم وجدي القاسم بن محمد ... وعروةُ ما أبقى بكم وسعيد
ويعلم ما أخفي سليمانُ على ... وخارجةُ يبدي لنا ويعيد
متى تسألي عما أقول فتُخبَري ... فللحبّ عندي طارف وتليد

فبلغت أبياتُه سعيدَ بن المسيب فقال : والله لقد أمين أن تسألها ، وعلم انها لو استشهدت بنا لم نشهد له بالباطل عندها » [1] . وروى الحادثة أيضاً الحصري عن الزبير بن أبي بكر ، واورد أنها أيّم [2] ، وهذه المرأة هي ما أرجح أنها التبست بعثمة عند أبي عبيد واصحاب الخبر الذي رواه فظنوهما واحدة ، والبون بينهما بعيد ، وليس أدل على ذلك من تكلف الأبيات الاخيرة ، ووضوح تصنّعها وهو تصنّع أشار إليه سعيد بن المسيب في تعليقه عليها ، وليس بعيداً أن تكون المرأة التي اختصمت هي وزوجها إلى ابن عتبة ففرّق بينهما ، لأن ذلك كان سبيل الحكم ، كما ذكر البكري ، قد أتت المدينة بعد ذلك ، وكان ابن عتبة يرغب في الزواج منها ، فخطبها في جملة الخاطبين ، ولم يتم شيء ، ولم يقل فيها غير هذه الابيات أيام رغبته في خطبتها.

ومهما يكن فإن ابن عتبة مات وفي نفسه حسرة من عثمة لا من غيرها ، وقد اختلفت الروايات في ميقات وفاته فـــذكرت سنة اربع وتسعين [3] ، وخمس وتسعين [4] وسبع وتسعين [5] وثمان وتسعين [6]

١) الاغاني ١٤٥/٩ « الثقافة » .
٢) زهر الآداب ١٦٩/١ وانظر الابيات أيضاً في العمدة ١٨/١ ، وطبقات الفقهاء للشيرازي ٣٠ وأبو بكر بن عبدالرحمن ، والقاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وخارجة بن زيد وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة هم فقهاء المدينة السبعة المشهورون .
٣) تهذيب التهذيب ٢١/٧ ، وتهذيب الأسماء واللغات ٣١٢/١ .
٤) المصدران السابقان وصفحتاهما .
٥) صفة الصفوة ٥٧/٢ .
٦) طبقات الفقهاء الشيرازي ٢٨ ، ووفيات ٣٠٠/٢ ، وابن سعد ٢٥٠/٥ ، وسير أعلام النبلاء مجلد ٢٥٦/٢/٤ ، وتهذيب الاسما واللغات ٣١٢/١ وصفة الصفوة ٥٧/٢ .

وتسع وتسعين [1] واثنتين ومائة [2] .

أما وفاته في إحدى السنتين الأخيرتين (٩٩ أو ١٠٢) فقد مرّ بنا ما رواه أبو الفرج من تمني عمر في خلافته لو كان عبيد الله حياً ، وأيضاً روى ابو نعيم عن عمر أنه قال : « لو أدركني عبيدالله بن عبدالله بن عتبة إذ وقعت فيها فيه لهان عليّ ما أنا فيه » [3] ، ومعروف أن عمر قد بويع بالخلافة في صفر سنة تسع وتسعين [4] أي في هذه السنة ، وهو ما يرجّح وفاة ابن عتبة قبلها ، في الوقت الذي يرد ردّاً قاطعاً أن تكون وفاته سنة اثنتين ومائة ، كما يجعل الباحث يطمئن إلى أن وفاته كانت سنة ثمان وتسعين وهي السنة التي ذكرتها أكثر الروايات .

وقد تناثرت خلال البحث أبيات كثيرة لابن عتبة وهي تعد في أرق درجات الشعر الغنية ومَنْ يرجع النظر فيها يجد أنها تختص بعدة سمات منها التدفق العاطفي ، ويمكن أن اسوق له هذا المثال وهو ما كتبه إلى عمر بن عبد العزيز عند ما بلغه عنه شيء يكرهه :

أبا حفص أتاني عنك قول ... قُطعتُ به وضاق به جوابي
أبا حفص فلا أدري أرَغْمي ... تريد بما تحاول أم عتابي
فإن تك عاتباً نُعتب وإلا ... فما عودي إذاً ببَراع غابِ
وقد فارقتُ أعظم منك رُزْءاً ... ووارَيت الأحبة في التراب
وقد عزّوا عليّ وأسلموني ... معاً فليست بعدهم ثيابي [5]

فانظر كيف قطعه النبأ وحيره في مراده أهو إهانته أم عتابه ؟ وانظر كيف يبدي استعداده للعفو والمعذرة ، ويفتح لها الأبواب العراض ، ذلك أنها تعني أن عمر

١) طبقات الفقهاء للشيرازي ٢٨ ووفيات ٣٠٠/٢ ، وابن سعد ٢٥٠/٥ ، وتهذيب التهذيب ٢٤/٧ ، وسير أعلام النبلاء مجلد ٢٥٦/٢/٤ وتهذيب الاسماء واللغات ٣١٢/١ .
٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ٢٨ ، وتاريخ ابن الوردي ١٨٣/١ ، ووفيات ٣٠٠/٢ .
٣) حلية الأولياء ١٨٨/٢ .
٤) انظر تاريخ الخلفاء ٢٣١ .
٥) العقد الفريد ٢٣٢/٢ .

لم يحقّره ولم يهنه ! أما إن كانت الاخرى فإن ابن عتبة لا يستطيع منها صبراً ، بل يفارق فيها عمر ومن هو أحبّ إليه من عمر ... وبؤكد قدرته على ذلك بمضاء عزيمته وبقائه من بعدهم حيناً ! .

ومن السمات الفنية في شعر عبيدالله براعة التصوير ، ولا بأس أن أمثّل له بقوله :

ولو شئت أدلى فيكما غير واحد ... علانية أو قال عندي في السرّ
فإن أنا لم آمُرْ ولم أنه عنكما ... ضحكتُ له حتى يلجّ ويستشري
وكيف تريدان ابن سبعين حجّةً ... على ما أبى وهو ابن عشرين أو عشر
لقد علِقتْ دلواكما دلو ماجد ... من القوم لا رخْو المراس ولا مُزْري [1]

فبيوتهما تدلى إدلاء ، وهو يضحك لأعدائهما حتى يلجّوا ، وحبلاهما دلوان يشدّان إلى دلوه ، غير أنهما لا يقلبانه ، لأنه مشدود إلى حبل قوي ليس ثمة فيه ما يعيبه ! فهو يجسّم الغيبة والحيلة ، ويرسم صورة الضاحك والمستشري .

ومن سماته الفنية إحكام القول ورصانة التعبير ، اسمعه وهو يفتخر :

إذا هي حلّتْ وسط عوذِ ابن غالبٍ ... فذلك وُدّ نازح لا أطالبُهْ
شددتُ حيازيمي على قلب حازمٍ ... كتومٍ لما ضُمّتْ عليه أضالعه
أداجي رجالاً لستُ مُطلِعَ بعضهم ... على سرّ بعض إن صدري واسعه
بنى لي عبد الله في ذروة العُلا ... وعتبةُ مجداً لا تُنال مصانعه [2]

١) أمالي المرتضى ٣٩٩/١ ، والمحبر ٢٩٨ وحماسة البحتري ١٥٠ ، والاغاني ١٤٠/٩ ويستشري : يلج . ٢) الاغاني « الثقافة » ١٤٣/٩ ، والميزوم : وسط الصدر .

فانظر كيف تنقاد الألفاظ لسياقها فلا تجد فيها نبوّاً ولا التواء ، وكيف يؤكد النزوح بتكرير نمت آخر قريب منه هو « لا أطالمه » ، وكيف يتقدّم متعلّق الفعل « في ذروة الملا » مفعوله « مجداً » لأهمية التعلق والالتفات إليه ، بينما يُنكّر ذلك المفعول لتعظيمه ، وكأنما يخاف ان يخفي مبتغاه من التنكير فينعته بجملة صريحة ... !!

ومن سماته الفنية الايقاع الموسيقي الواضح ، ولو تأملنا المقطوعة السابقة وجدنا فيها للفخر ضجيجاً ظاهراً في الحروف المضعّفة في نحو « حللْتُ » ، « ودّ » ، « ضُمّت » . . . وفي الحروف الجهرية المحتشدة في الابيات كاللام والطاء والعين والدال والذال والغين والجيم والضاد ، وفي الكلمات الفخمة مثل شددت ، وأداجي ، ورجالاً ، وبعض ، ومجداً ، وفي السياق الضاجّ التراصّ الذي يتضح أكثر ما يتضح في البيت الثاني ، ولا بأس أن نستمع ايضاً إلى قوله وهو يؤثر ان ينفق ويحيا سعيداً على أن يذر المال للوارثين أو العائبين :

سأنفق مالي على لذتي ... وأُوثر نفسي على الوارث
أبادر إهلاك مستهلكٍ ... لمالي أو عبثَ العابث[1]

فالألفاظ تتبادر مبادرة الشاعر في الانفاق ، وتتدارك في إيقاع متلاحق رتيب مستعينة بتفاعيل البحر المتقارب : « فعولُ فعولن فعَلْ » .

٥ ـ عروة بن أذينة :

وُلد أبو عامر[2] عروة بن أذينة يحيى[3] الليثيّ المدنيّ[4] في أواسط القرن الأول من الهجرة[5] ، ويبدو انه أخلد ـ منذ نعومة أظفاره ـ إلى حياة النعم واللهو ، فصحب طلاب الغناء حتى حذق الموسيقا وصار يؤلف الالحان[6] . وأغلب الظن ان الشعر كان قد تدفّق مبكّراً على لسانه ، فجعله مادّة ثريّة لألحانه ، وذلك

١) المصدر السابق ٩/١٤٣ ٢) انظر كنيته في الاغاني (طبع الهيئة المصرية) ١٨/٣٢٢ و ٣٢٧ وتاريخ الاسلام ٥/١٠٩ . ٣) أذينة لقب ابيه يحيى . انظر سمط اللآلي ١٣٦ .
٤) التاريخ الكبير للامام البخاري ٤/٣٣ . ٥) لم تحدد المصادر سنة ولادته ، ولكن يمكن ان يستنبط من خبر قدومه مكة ، لما احترقت سنة اربع وستين ، بصحبة أبيه له ، انه كان لا يزال يافعاً . انظر الخبر في الأغاني (الهيئة) ١٨/٣٢٣ ٦) الشعر والشعراء ٢/٥٧٩

ما هيأ لقريضه أن يتسم بالايقاع الواضح .

وكنا رأينا ـ عند الحديث عن الغزل ـ كيف التقى عروة في هذه الفترة بسُعدى وهام بها ، وقد رجّحنا خطبته لها ثم اقترانه بها ، ولعلّ من الممكن أن نحدّد مكان اهتماماته البكرة هذه في أودية العقيق بالمدينة ، وهي أودية يتغنى بها في غير موضع فيقول :

أحبِبْ بأودية العقيق لحبّها ... والمرصتَيْن وبالمُشاش مُشاشا
لمّا وقفتُ بهنّ بعد تأنُّس ... ذرفت دموعك في الرداء رشاشا[1]

على أنّ عروة ، منذ اطمأنّ إلى عتبة بيته ، صار يعكف عكوفاً جاداً على علوم الدين وينهل من مَعينها ، وعلى الرغم من أن المصادر قد أغفلت شيوخه الذين روى عنهم ، تماماً كما أغفلت سائر حياته ، فلم تذكر منهم إلا عبدالله بن عمر[2] ، فإن من المؤكد أنه قد بلغ في الفقه[3] والحديث[4] شأواً حسناً ، حتى كان يتنى مجالسته أمثال مالك ابن أنس الأصبحي ، وعبيدالله بن عمر العدوي[5] ؛ على نحو ما كان يتنى تلك المجالس من اهل القريض[6] .

ويبدو من لوعة رثائه لجماعة ابن الزبير ، كأخيه مصعب وعامر بن حمزة[7] ، أنّ هواه كان ، كأغلب أهل الحجاز ، مع ابن ذات النطاقين ، غير أنه لمّا أحتضر انصرف عنه ، كما انصرف كلّ رجاله ، وإذا كان لم يوالِ من بعده بني أمية ، أو لم يَدْعُ اليهم ويتنصر لفلسفتهم ، فإنه ، في الغالب ، لم يكن يُعاليهم عليهم ، بل قد أُثرت عنه أبيات في مدح أبي شاكر مسلمة بن هشام بن عبدالملك يقول فيها :

١) شعر عروة ١٧٥ ، وانظر ص ٣٥٧ و ٣٧٩ . ٢) الجرح والتعديل ٣/٣٩٦ .
٣) المعارف ٤٩٢ ، والشعر والشعراء ٢/٥٨٠ ، والاغاني (الهيئة) ١٨/٣٢٢ وسمط اللآلي ١٣٦ . ٤) العقد الفريد ٥/٢٨٥ ، وفوات الوفيات ٢/٧٤ ، وتاريخ الاسلام ٥/١٠٩ وهو يذكر قول أبي داود : لا اعلم له إلا حديثاً واحداً . وهذا يرجح غلبة الفقه على الحديث .
٥) التاريخ الكبير ٤/٣٣ والجرح والتعديل ٣/٣٩٦ .
٦) انظر ندوة شعرية في مجلس عروة حضرها الفرزدق والأحوص : مجالس ثعلب ٢/٣٤ .
٧) كتاب نسب قريش ٢٤١ وشعر عروة ٣٧٠ و ٣٩٤ .

أتَيْنا نَمُتْ بأرحامنا وجئنا بإذن أبي شاكر
فإنّ الذي سار معروفه بنَجْدٍ وغار مع الغائر
إلى خير خِنْدِفَ في مُلكها لِبادٍ من الناسِ أوحاضر[1]

كما أثرت له وفادة على أبي مَسْلَمة هشام بن عبد الملك في الشام، وهي وفادة تذكر فيها الروايات أن الخليفة قال لأبي عامر: ألست القائل:

لقد علمتُ وما الإسراف من خُلُقي أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنّيني تَطَلُّبُهُ ولو قعدتُ أتاني لا يعنّيني ؟

فقال: بلى. قال: أراك جئت تضرب من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق! فتحرّى عروة غفلة منه، وركب راحلته، وانطلق إلى المدينة، ثم افتقد هشام، فعرف خبره، فأتبعه جائزته[2].

ووفود عروة إلى الشام يعني أنه لم يقض عمره في الحجاز فحسب، وإنما تقلّب في البلاد حتى بلغ العاصمة الاموية، وأيضاً فإنه قد أقام في البصرة حيناً من الزمن؛ قال ابن شبرمة: «كان عروة ابن أذينة يخرج في الثلث الاخير من الليل إلى سِكَك البصرة فينادي: يا أهل البصرة، (أفآمنينَ أهل القرى أنْ يأتيَهم بأسنا بَياتاً وهم نائمون؟ أوَ آمنَ أهل القرى أن يأتيَهم بأسُنا ضحىً وهم يلعبون؟) الصلاةَ الصلاة»[3].

وليس بعيداً أنْ يكون عروة قد أصاب من وراء كثرة أسفاره وسَعة في الرزق وثراء حسناً، وقد يدلّ على ذلك ما روي من أنه كان له قصر بالعقيق، كما كان له ضأن يقوم بشأنها راع يدعى كَعْباً: «... عن عروة بن عبيدالله قال: كان عروة بن أذينة نازلاً مع أبي في قصر عروة بالعقيق، وخرج أبي يوماً يمشي وأنا معه وابن أذينة، ونظر إلى غنم كانت له في يدَيْ راعٍ يقال له كَعْب، وهي

١) شعر عروة ٣٢٨، وكان مسلمة قد ولي إمارة الحج وأحبه الناس ومدحوه، وكان هشام ينوه به ويريد أن يوليه من بعده.
٢) انظر الخبر في الشعر والشعراء ٥٧٩/٢ والمستطرف ٦١/١
٣) العقد الفريد ٢٨٠/٥ والآيتان من سورة الأعراف ٩٧ و ٩٨.

مُهْمَلة، وكعبٌ نائمٌ حجْرةَ، فجعل ابن أذينة يغزو حوله وهو يضربه ويقول:

لو يعلم الذئبُ بنوم كَعْبِ إذاً لأمسى عندنا ذا ذَنَبِ
أضربُهُ ولا يقول حسبي لابدّ عند ضَيْعةٍ من ضَرْبِ[1]

وقد سكتت المصادر عن مكان وفاة عروة، غير أنها لم تضنّ بالإشارة إلى أنها كانت بحدود المائة والثلاثين للهجرة[2]، وأنه كان قد أسنّ وكَبِر[3].

وقد ترك عروة من بَعْده ديواناً استطاع الدكتور يحيى الجبوري أن يجمع شَتاته في سبعمائة بيت[4]، وبدور شعره حول الغزل والفخر والوصف والرثاء والهجاء والحكمة، ويَستحوذ الموضوعان الأوّلان، الغزل والفخر، على كثرة نِتاجه، وقد رأينا في «الدراسة الوضوعية» كيف استأثر هذان الجانبان لتحمّل عروة ثلثيها وحده، ورجّحنا أن سعدى، سيدة غزله، إنّ هي إلا خيطبه ثم امرأته، ووجدنا أنّ من قِيَمه في الفخر ما هو جاهلي محض، يعتزّ بالقبيلة ويتعصّب للأنساب، وأنّ منها ما هو إسلامي، ويدخل فيه كثرة افتخاره.

وأم الموضوعات الوصفية في شعره الطلل وحيوان الصحراء، ويدعي أن يَستفيض عنده وصف الأطلال؛ لوثاقة ارتباطها بالغزل، ميدانه الأوّل، ومن يقرأ ديوانه لا يكدْ يرى قصيدة خالية من الوقوف على الآثار الدارسة لأحبابه، سواء كان وقوفه عرَضاً سريعاً، على نحو ما نجد في قصائده الاولى[5]، والسادسة[6]، والحادية عشرة[7]، أم كان مَليّاً[8] متحرّياً في انقاض الظاعنين مَنازلهم التي كانوا ينزلون فيه، وباكياً - بعد اهتدائه - من خواطر ذكرياته[9]، وتكثر هذه الظاهرة في شعره، ويمكن أن أمثّل لها بمطلع قصيدته العاشرة:

١) الاغاني (الهيئة المصرية) ٣٢٦/١٨، وحجرة: ناحية، ويغزو: يثب.
٢) فوات الوفيات ٧٤/٢.
٣) انظر تعليق ابن عائشة على ابيات سمعها منه في الاغاني «الهيئة المصرية» ٣٢٢/١٨، وقد توفي ابن عائشة في ايام الوليد (١٢٥ - ١٢٦ هـ)، وعاش عروة بعده خمس سنين!
٤) وحقق شعر عروة أيضاً الامين محمد الزاكي في رسالته لنيل الماجستير من جامعة القاهرة.
٥) و ٦) و ٧) شعر عروة ٧٥ و ١٧٥ و ٢٩٢، على التوالي.
٨) شعر عروة ٩٥ و ١١١ و ١٢٥ و ١٩١ و ٢٠٨.
٩) المصدر السابق ١٢٥.

أهاجتْكَ دارُ الحَيِّ وَحْشاً جَنابُها
أبتْ لم تكلِّمْنا وعيَّ جوابُها

نعم ذكَّرتنا ما مَضى وبَشاشةً إذا ذكرتْها النفسُ طال انتحابُها
وعيشاً بسُعْدى لانَ ثم تقلَّبتْ به حِقْبَةٌ غالَ النفوسَ انقلابُها
كأنْ لم يكنْ ما بيننا كان مرَّةً ولم تَغْنَ في تلك العِراصِ قِبابُها[1]

فهو يقف على أطلال سعدى ، بعد أن اقفرتْ بظَعْنِها عنها ، ولم يَعُدْ فيها من يجاذبه أطراف الحديث ، ثم يذكر سالف عهدها ، فتهيج ذكرياتُه دمعَه ، ويخطر له ابتهاجُ حياته أيام سُعدى فيعجب لزوال تلك الأيام ، وكأنها ما كانت ، أو كأنَّ هذه الرسوم الموحشة لم تعمر بها في خالي الزمن .

وكأنَّ هذه الديار العافية كانت قد أَلِفت السُّكْنَ منذ سعدى ، فلما رحلت عنها استقبلت أفواجاً من مخلوقات اخرى تبدَّد من حولها حجب الصمت وأمائر الفناء ، فغدت مأوى الميا والأرآم والنَّعام والعُون وغيرها مما ذكرته قصيدته الخامسة . وهو يصف فيها البقر العين وقد زيَّنتْ قوائمَها جُدَدٌ بيضٌ ، فقطعتْها قطعاً ، ويصوِّر آراماً يُزْجين نِتاجهن في روضة أنف وارفة الظلال ، ثم ينحدرْن عن نَعام رُبْد الألوان ، ويشبهها بالخيام القائمة إذا تبعثر فيها الشَّمام ، ويحكي كيف كانت ، ظِلّانا ونعامات ، تزجي وقدانها فتشبه في نفورها المستمر في الفلاة قطع السحاب المتساوقة في الفضاء ، وكيف كان القطيع القليل الريش الحائر المدَّو يتقاد لزعيم ليس خيراً منه حلماً ولا أقرب سَداداً :

وترى بها رُبْدَ النَّعام كأنَّها
جُوفُ الخِيامِ هَوَى الشَّمامُ خِلالَها

١) المصدر السابق ٢٥٨ والجناب : الفناء ، وما قرب من محلة القوم ، ووحشاً جنابها : أي فناؤها موحش مقفر ، وغال : اغتال .

من كلِّ أزْعَرَ نِقْنِقٍ ونَمامةٍ تَقْرو بَرَعْلَتَها الصِّنارُ رِمالَها
مثل الجَهامةِ ، كلَّما خَلَفَتْ لها أرجُ العَشِيَّةِ راجعتْ إجْفالَها
زُعْرٌ مُخَرَّجَةُ الزُّفوفِ وربُّها
في الرأي خِفَّةُ حِلْمِها وضَلالَها[1]

ثم ينتقل إلى وصف عانةٍ من حُمُر الوحش وهي تتجمع الفلاة ، لقد كانت أتانها ضامرة من أثر طرد الفحول لها كي تنأى عن الحُمُر السوام ، وكانت عُوذُها ترتع وتلعب ، وكان زعيمُها الشَّنونُ الشديدُ إذا نهق فرَّتْ خيفانُها ، وتبطَّأتْ منها الثِّقال ، وكان إذا أرادها إلى الماء دعاها بقسوة طاغية لا تعرف الشفقة ، وكأنما هو أجيرٌ يورد إبل سيِّده ، لا يهمُّه صحتُها ولا راحتها ، ولذلك لم تكن الأتُن الحوامل بقادرة أن تستجيب إليه على الوجه الذي يريد ، بل كانت تَرْتَبِك من الخوف ، وربما أصابت في ارتباكها وجه الشَّنون ، أمَّا الشَّطاتُ الأوارنُ فقد كانت تعدو عدواً ، إذ أنها حديثات سِنٍّ ، لم يُثْكَلْ من وبرها إلا مرَّة واحدة ، في الشتاء المنصرم :

والعُونُ تَنْتَجِعُ الفلاةَ فأضمرتْ منها البطونَ وأعرضتْ أكفالَها
قُبٌّ مُحَمْلَجَةٌ طوى أقرابَها جَرْيُ الفُحولِ بها وهذَّبَ آلَها
يَنْفي الجحاشَ ، ولا يُقارِبُ عُوذَها إلا الشَّماعُ ويَسْتحثُّ حيالَها
فإذا أرَنَّ بها شَنونٌ قارِحٌ تركتْ لِشِرَّتِها الخِفافُ ثِقالَها
وإذا أرادَ الوِرْدَ هاجَ بلَفْحِه عُنُفَ الأجيرِ على القِلاصِ دنالَها

١) شعر عروة ١٥٨ ، والربدة : لون إلى الغبرة ، والشمام : نبت ، والأزعر : القليل الريش ، والنقنق : الخفيف ، وتقرو : تقطع ، والرعلة : النعامة ، والجهامة : السحابة لا ماء فيها ، أو التي هراقت ماءها ، وخلفت : أعقبت ، والأرج : توهج ريح الطيب ، والعشية : آخر النهار ، وراجعت عادت ، والاجفال : ثور الظليم ، وتخرجه الزفوف : متقلبة المدو .

يضربْنَ صفحةَ وجْهِهِ وجبينَه ... في الرَّوْعِ، قد وسَقَتْ له أحمالَها

إلا أوارنَ كلَّ بكْرٍ عائطٍ ... تَهْدي لمستنَّ الرِّياح نِسالَها

ألْقَتْ عَقيقةَ شَتْوةٍ عن لَوْنِها ... قبل المصيف فخرَّقتْ سِرْبالَها[1]

ثم يتحدث عن قطعه فلاةً مُهْلكةً غبراءَ على ناقة خفيفة ذَوُوب قوية [2]، ولعلَّ وصف الناقة أن يكون أكثر ضروب الحيوان اهتماماً في شعر عروة، فلي جانب تصويره لها في قصيدته هذه، وكذلك في الأبيات التي ذكرتها له في موضوع الوصف عند الشعراء الفقهاء، يعود ينعتها في مواضع أخرى، فيذكر مُضِيَّ الظَّعْن على كل جَمَل ضخم « طويل القَرَى » أو ناقة « عَيْهَلَةٍ » أو « عُراهِمَة »[3]، ويحكي اجتيازه الموماة المتضرِّمة على ناقة سريعة خفيفة تطوي السَّبْل، نشطة لا تبا إذا لغبت العيس، صابرةٍ تموج في المفـــازة ولو في هجير القَيْظ، عندما يلتهب الحصى، وتتراقص أشباح السَّراب:

قطعْتُ بمجذامِ الرِّواح شِمِلَّةً ... إذا باخَ لَوْثُ العِيسِ ناجٍ هِبابُها

سفينةِ بَرٍّ حين يُسْتوقد الحصى

ويَزْدال في البيدِ الشخوصَ سَرابُها[4]

١) شعر عروة ١٦٠، والعون جمع عانة وهي القطيع من حمر الوحش، وتتتجع : تتحرى الكلأ، وأعرضت أكفالها : جلتها عريضة، وتب : ضامرة، ومحلجة : شديـــدة، والقرب : الخاصرة، والآل : الشخص، وينفي : يطرد، والعوذ : صغار الحمر، والشاع : اللعب، والشنون : الحمار ليس هزيلاً ولا سميناً، والقارح : الذي اكتملت اسنانه، والصرة : النشاط، والورد : الاستقاء : والف : أي هو وما منه، والقلوص : الناقة الفتية، ووسقت : حملت، والأوارن : النشطات، والعانط : التي لم تحمل سنين، ومستن الرياح : التي تجري على طريقة واحدة، ونسالها : وبرها، وكذلك عقيقتها، وسربالها : قميصها، يعني جلدها أو وبرها.

٢) انظر شعر عروة ١٦٠.

٣) المصدر السابق ٢٢١ والقرى : الظهر، وعيهلة : سريعة، وعراهمة : ضخمة.

٤) المصدر السابق ٢٧٦ ومجذام الرواح : سريعة الودة، وشملة : خفيفة، وباخ : فتر وأعيا، واللوث : القوة، والعيس : الابل البيض، وهبابها : نشاطها. والشخص : السواد تراه من بعد.

ولعلنا لاحظنا انطلاق عروة في وصف الها والأرْآم والزفزاف والعانة من وقوفه على الأطلال، ومن يرجع إلى ديوانه يجده ينطلق من هـذا الوقوف أيضاً فيصوِّر الرياح التي تنخرق في الديار العافية، والسُّحُب التي تنصب عليها مطراً غزيراً. ولعل خير ما يمثل مشاهد الرياح والامطار في شعره ما زاء في قصيدته الخامسة التي أطال فيها وصف ضروب الحيوانات المتقدمة، وأيضاً فإنـــه يقف على أطلال سُمْدى الحائلة وقد جعلت الريح تتلاعب في أنحائها، وتطمس معالمها، وتتعاقب عليها من بين صَبا ودَبور وجَنوبٍ وشَمال، ولقد ظلَّ عَصْفُها الذي كان يشبه حنين النوق الواهلة على حيرانها الضائمة يعرِّي آثارها حتى انتفت رمالُها، وتبعثر حصاها، وتحاتَّ سخرها، ثم آزَر الرياحَ سحابةٌ غَيْثي داكنة مثقلة بأبخرة البحر سَرْعان ما أبرقتْ وانهمرتْ فوق الرسوم المُنْدرسة إلى ان صارتْ صَفاً خالصاً ليس ثمه فيه أثرٌ ولا عَيْن، فأتمَّت بذلك عمل الريـح العاصفة، بل قـد جعل مَنْ رأى حالَها الأوَّل يعجب ويُنْكر ما آلتْ إليه بعد وَبْل المطر:

بل هل عرفْتَ لها الديارَ بناعق ... معفوَّةً لبِس البِلى أطلالَها

وتناجتْ فيها البَوارح كُلَّما ... راحتْ تحنّ تعسَّفتْ أذيالَها

تَعْفو الصَّبا ذَيْلَ الدَّبورِ وتارةً ... يدعو لها نفسُ الجَنوب شمالَها

يَسْهَكْنَ أمثالَ الروائم وُلَّها ... فقدتْ، فرجَّعت الحنينَ، فصالَها

في كلِّ منزلة لعبْنَ بدِمنِها ... وخَلَصْنَ إذخفَ الدُّقاقِ جُلالَها

ونَخَلْنَها نَخْلَ الطحين مُقيمةً ... كل الرياح تُعيرها غِرْبالَها

ثم استعنَّ على الديار مُخيلةً ... حلَّتْ على عَرصاتِها أثقالَها

دهماء واهيةَ الكُلى بحريةً ... نحَرتْ بها المُستطرِداتُ هِلالَها

فإذا يمرُّ لها حَبِيٌّ زاخِرٌ ... بالدار جادَ بوَبْلِهِ فأسالَها

فتركتُها صَلْدى العِراصِ وطَلَّقتْ
أدبارَها ورواجعـــــا أقبالَها

فتظلّ تعرفُ ما عرفتَ توهُّماً منها ونُكرُ واقفاً إبدالَها (١)

وفي ديوان عروة - إلى جانب ما تقدّم - رثاء وهجاء وحِكَم، وهو يندب في رثائه أخاه بكراً، وقد مرّت بنا مقطوعة له في هذا الشأن، ومن قوله فيه أيضاً:

لا بَكْرَ لي إذ دعوتُ بكرا ودون بكرٍ ثرىً وطينُ (٢)

وممن بكاه أيضاً بعض اصحابه من أمثال مصعب بن الزبير (٣) ويحيى بن حمزة (٤) وعامر بن حمزة وهو يخصّ الأخير بقصيدتين يتحدّث في إحداها عن أرقه وانهداد كيانه على فقيده الحميم الذي كان مأوى الأرامل واليتامى ومِذَبّ العشيرة وظاهرَ أعدائها ومسعفَها أيام المحن، ويذكر كيف جاءت الركبان بنبأ ثوائه، غير أنهم لم يُؤثروا البَيان فزعموا أنه كان - حين تركوه - عليلاً قد يُرجى شفاؤه، والحقيقة أنهم كانوا دفنوه بواسط بعد ما قضى نحبه، ويدعو له عروة أن يثيبه الله خير ثواب أينما استقرّ، فقد كان امرأً صالحاً، إلا أن شيئاً في الحياة لا يدوم، ويصوّر أثر وفاته في قومه وفداحة خطبهم فيه، ويعود يذكر برّه بالمستضعفين وأهل العَشيرة وسخاءه على أقربائه وذوي رَحِمه:

أرقتُ فما أنامُ ولا أُنيمُ وجاء بحُزْني الليلُ البهيمُ
وأصبح عامرٌ قد هدّ ركني وفارقني به اللُّطَفُ الحَميمُ
فكان عِمالنا تأوي إليه أراملُنا وعائلُنا اليتيمُ

١) شعر عروة ١٥٠ وتناوحت: تهبّت، والبوارح: جمع البارح، وهي الريح الحارة، وتعفو: تمحو، والصبا: ريح شرقية، وتقابلها الدبور، ويسهكن: يصفن، والرواثم: النوق، والوالهة: الحائرة، ومخيلة: سحابة يرجى مطرها، ودهماء: قاتمة، وكلية السحاب: أسفله، وواهية الكلى: ممطرة، والحي: السحاب المعترض، وإبدالها: تغيرها. ٢) شعر عروة ١٠٢.
٣) كتاب نسب قريش ٢٤١. ٤) شعر عروة ٣٤٧.

ومِذْرَه خَصْمنا في كلّ أمرٍ له تجْذو على الرُّكَب الخُصوم
وقيّمنا على الجُلّى بِجِدٍّ إذا ما الكَرْبُ أفظع من يقوم
أتى الرُّكبانُ بالأخبار تهوي بها وبهمْ حَراجيجٌ هُجُوم
فقالوا قد تركناه سَقيماً فما صدَقوا ولا صحّ السَّقيم
فعزّ عليّ أنّ القومَ آبُوا وأنتَ بواسطٍ جَدَثٌ مُقيمُ
جزاكَ اللهُ خيراً حيث أمستْ من البُلْدان أعْظَمُكَ الرَّميمُ
فنِعْمَ الشيءُ كنتَ وليس شيءٌ من الدنيا وما فيها يدومُ
تَضَعْضَعَ جُلُّ قومِك واستكانوا لفَقْدك إنّه حَدَثٌ عَظيم
قضى نحْباً فبانَ وكان حِصْناً يَعوذ به المُدفّع والغَريم
يَريشُ الأقْربين ويَطّبيهم ولا يَبْري كما يَبري القَدوم (١)

وفي القصيدة الثانية تنهمل دموعه ويشقّه الحزن لتولي عامر بن حمزة، فقد كان يسدّ الثُّلْم ويدفع الجائحة، ولكنه ثوى بالعراق رَمْساً غريباً نائياً عن بني الزبير، ويسترسل في مدح قومه الذين ورِثوه المكارم، ثم يُنهي أبياته بما كان بدأها من ذرف الدموع وندْب خِلال عامر (٢).

١) شعر عروة ٣٦٩، والقطف: البر، وهو مصدر وصف به، والباء في «فارقني به» للتجريد، أي يخلع منه شخصاً كأنما هو آخر، والثال: الغيات، والعائل: الفقير، والمذره: الداهية، وتجذو: تجثو، والجلى: الأمر العظيم، والحراجيج: الابل الطويلة، وواسط: مدينة بين الكوفة والبصرة، والجدث: القبر، والمدفع: المستضعف، والقريم: المدين، ويريش الأقربين: يصلح حالهم، ويطبيهم: يبرهم. وقد عقب راوي الأبيات عليها بقوله: «وهي أكثر من هذه» انظر شعر عروة ٣٧٢. ٢) المصدر السابق ٣٩٣.

ولعروة أبيات أخرى في تَشْي عشيرته الذين أتى عليهم الفناء، وحقّ عليهم أن يتقدموا فيه، ويذرّوه بتجرّع الآلام في ابدال سوء بعدم [1]، ولعلّ من المحتمل أن يَعْني بالعَشيرة الثاوية رهطَ ابن الزبير، مَحِلّ هواه، وبأبدالهم بني أمية إبّان غَلَبَتِهم على هؤلاء ودَوْلتهم، إذ لم يكن نَسيبَ أخلاءه منهم كمصعب وعامر، كما لم يكن استوى رضاه عن وارثيهم، وأغلب الظنّ أن هذا الرضا قد ابتدأ حين استُخلف عمر بن عبدالعزيز، ومعروفٌ أنه كان قبل ذلك على المدينة، موطن عروة، وليس بعيداً أن يكون عمر قد أخذ عن ابن أذينة شيئاً من العلم والفقه، أيّام تولّيه المدينة أو سكنه فيها، ممّا آلف ذات بَيْنِهما، ونجد في ديوانه بيتين يرثيان أبا حفص يقول فيها :

أتانا البريدُ التغلبيُّ فراعنا له خَبَرٌ شفّ الفؤادَ فأنهما

بموتِ أبي حفص فلا آبَ راكبٌ

بموت أبي حفص أخَبّ وأرْسما [2]

وإذا انتقلنا إلى شعر الهجاء عند عروة وجدناه لا يحدّد أسماء الذين يعيب مناقصهم، وأكثر ما في ديوانه من هذا الغرض استعراضُ خصالهم السيئة وأفعالهم الذميمة، كأنّ يستنكر تربّص مَنْ غمره عروة وقوم عروة بالعَطاء، وكيدَه لهم، وقذفه خِلالَهم، وحِرْصه على سَبْقِهم، بعد أن وسّعوا عليه فاغتنى من عَيْلة، وتعافى من ضعف، لكنّه ورث فَعْلة أبيه من قبله، فكلاهما ليس له عنهم غُنْيَة، وكلاهما يجحد مع ذلك فضلهم عليه :

ولقد عجبْتُ لحايِنٍ متعرّضٍ أبدتْ عداوتُه لنا استِغْشاشا

عَبْدٌ أساءَ بسبّه أرْبابَه منهم أصابَ مَطاعماً ورياشا

تَنمي الكرامَ ولستَ بالغ مجدهم حتى تحولَ بركتِه أكماشا

١) شعر عروة ١٨٢ . ٢) نفسه ٣٧٧ وراعنا : أفزعنا ، وشف الفؤاد : لذعه ، وأرسم : زاد ، والخبب والرسيم : ضربان من السير السريع .

ولو أنّه يوماً تكلّف شأوَهم أبقى به تَعَبُ السِّياقِ جِراشا

أو كان أصْعَدَ في جبال قديمهم لاقى بها رُتَباً وكابدَ ناشا

تَعَشّوا مَفاقِرَهُ فأصبح كافراً حَسَنَ البلاء ولم يكنْ نعّاشا

وكذاك كان أبوه يفعل قبله وكلاهما في الدهر كان قُماشا [1]

وعلى هذا النحو يَزْجُرُ ذا شَنَآنٍ طاف به وساماه [2]، ويَرْمي قوماً تنشّوه بالحسد، وأهدَوْه الغيبة، فيكشف خَتَام وقلّة نقوام ورَثّاء أن يؤاخذهم بجهلهم، ولو شاء لأزلهم قَدْرَ منازلهم ونحّاهم عن ذوي قرابته الذين تولوم أو ملكوم [3].

وكما يُشْنِع أبو عامر بن أذينة على اعدائه سوءَ خصالهم وقبح سنائهم يأخذهم أحياناً اخرى بالهُزْء والتَّبْكيت المستخِفّ بشأنهم فيقول في حُسّاده :

لا يُبْعِد الله حُسّادي وزادهمُ حتى يموتوا بداء في مكونِ

إنّي رأيتهمُ في كلّ منزلةٍ أجَلّ قدْراً من اللائي يُحيّوني [4]

وقد يبادر منذ ان يخطر لخصومه أن يأكلوا لحمه فيلوّح لهم بذرابة قوله لعلّهم يكتفون ويتهون، يقول عروة :

نُبِّئْتُ أنّ رجالاً خافَ بعضُهمُ شتمي وما كنتُ للأقوام شتّاما

فإنْ يكونوا براءً لا تُطيفُ بهمْ منّي شكاةٌ ولا أسمعْتُهمُ ذاما

وإن يَحينوا أقُلْ قولاً له أثرٌ باقٍ يُعَنّي قراطيساً وأقلاما [5]

ويبدو أنهم كفّوا عن أكل لحمه حقاً، فلم تَتَعَنّ في هجائه أقلامٌ ولا

١) شعر عروة ١٨٢ والحاين : المتربص ، والمتعرض : المتصدي ، واستغشاشاً : من الغش ، والرياش : المال والخصب ، والرك : الاضعاف ، وأكماشا : شيئاً قليلاً أو فانياً ، من الانكماش وهو التقبض ، وجراشا : مدفوعاً ، والنأش : التأخر والتباعد ، ونعشوا مفاقره ، رفعوه وسدوا خلته ، والكافر : النهر ، وقاش الفيء : متاعه ٢) شعر عروة ٢٥٥ ٣) المصدر السابق ٢٩٦
٤) المصدر السابق ٣٩٠ . ٥) شعر عروة ٣٨١ والذام : العيب واللوم ، ويعني : يعيب

قراطيس لقلّة ما ترك في هذا الغرض ، وليس من شكّ أنّ من دواعي ضمور الهجاء عنده استمساكه بعُرى الحِكْمة ، وهو استمساك لا بدّ عليه تفشّيه وعلوّه فحسب ، بل أيضاً ما في ديوانه من أبيات في هذا الشأن .

وتمضي حِكَم أبي عامر في ثلاثة أنماط ، أوّلها نظرات تأمليّة في الكون والحياة والإنسان ، وهي نظراتٌ تنفذ إلى أن الفتى مثل الهلال ، يبتدئ حيناً ثم يخبو (١) ، وأن العيش يتقلّب أفانين أطواراً أطواراً ، من يُسْر وعُسْر ومن لين وشدّة (٢) ، وأن الناس في غفلة عن مصيرهم المحتوم ، يتداعون إذا رأوا الجنائز ، ثم لا يلبثون ان يعودوا لغفلتهم الأولى (٣)

والنمط الثاني من حِكَمه نصائح تنهى عن المنّ (٤) ، وتدعو إلى تماثل المعاملة ومبادرة المذنّ بما لو تمكّن أن يفعله لما تردّد فيه وتعجيل البِرّ لمن يستحقّه ويوفيه (٥) . والنمط الثالث عِبَرٌ صالحة أن تُضرب أمثالاً كأن يقول :

والأرض فيها عمّا كرهتُ إذنْ مَنادح واسعٌ تزعمُها (٦)

أو يقول :

إنّ للدنيا وزَهْرَتها نعمةً لا بدّ منصرمة (٧)

أو يقول :

رأيتُ الفتى يرجو الرجاء ودونه لقاء التي منها الفتى غيرُ واثِلِ (٨)

. . . . .

ولعلنا لاحظنا من خلال الشواهد المتقدّمة من أشعار مروة اتجاهها اسلوبين متمايزين ، الاسلوب الأوّل يُعْنى فيه من شأن الجزالة الرّصينة إلى ابعد غاية ، فنجد العبارة النُحْتة والصياغة القويّة ، كما في قوله :

إنّ قريشاً هم الذُرى نَسَباً وقائلُ الصِدْقِ من يفخّمها

١) المصدر السابق ٣٤١ .
٢) المصدر السابق ١١٨ .
٣) المصدر السابق ٩ ٣ .
٤) المصدر السابق ٣٣٣ و ٣٤٥ .
٥) المصدر السابق ٣٤٤ .
٦) المصدر السابق ٩٣
٧) المصدر السابق ٩٨ .
٨) المصدر السابق ٢٥٢ وواثل : تائ .

تُعلّم الناسَ كُلّما جَهِلُوا ولن ترى عالماً يُعلّمها
يَمنَعُها اللهُ أن تَذِلّ وما قدّم مِنْ فضلها ويعصمها (١)

فهو يؤكّد جُمَله الخبرية بإنّ وضمير الفَصْل « هم » والجملة الاسمية « وقائل الصدق مَنْ يفخّمها » وتكرار تعلّم ، ويحشد ألفاظاً لها نَبْر عالٍ مثل « يفخّم وكلّما ، وقدّم » وحروفاً مدوّية الرنين كتضعيف إنّ ويعلّم .. وقلقلة الدال الساكنة في الصِدْق ، وتفخيم الراء قبل المدّ « درى » في الذُرى ، وتكرير الحروف الجهرية كالقاف واللام والميم ، وكلّ ذلك ينسجم مع نغمة الفخر الحَنْجَلية الصاخبة في الأبيات .

وكثيراً ما يُمعن هذا اللون من تعبيره في الرّصانة حتى يبلغ حدّ الإغراب ، ومن خير ما يمثل ذلك في شعره قولُه بعد وصف فلاة سحيقة تشتمل بقَيْظ الهجير :

جاوَزْتُها بِهِبابِ ذاتِ بُرايةٍ
ضَمّتْ عُرى عُقَدِ النُسُوع محالُها
سُرُحٍ إذا رُمِيَتْ بها مجهولةٌ مَرْتُ المَنازلِ فارقتْ أمیالَها
في كلّ خاشعة الحُزونِ مُضِلّةٍ كالتُرْسِ تَعْسِفُ سَهْلَها وجبالَها
تَهْدي مَواعجَ قد أضرّ بها الوَجَى
بَعْدَ المَراح وأعملتْ أعمالَها
يَخْبِطْنَ في الخرق البعيد إذا وَهَتْ
أخفافهنّ من السَّريح نِعالَها
فإذا بدتْ أعلامُ أرْضٍ جاوزتْ أعلامَها فرمتْ بها أهوالَها

١) شعر مروة ٨٩ .

حتى رَجَمْتُ بها وقد أكلَتْنُها لاقى إرانٌ مُطَرَّدٍ إكلالَها
مثلَ الشِّجار حُشاشةً منهوكةً قد كان ذلك قَيْدَها وعِقالَها (١)

والنصّ يتحدث عن عبوره الفلاة على ناقة نشيطة جَلْدة شدّ عليها أحزمة رحله، فكانت إذا أُريدت للصحراء الواسعة الجرداء تجاوزتها، وتحمّلت وعرها، وقطعت سهلها وجبلها، وتقدمت النوقَ اللاغبة بعد الخيفة، الكالة عقب النشاط، المتمسّغة في المواة متشقّقةً أخفافُها من العُرْي، على حين كانت ناقته كلّما استقبلت مرحلة جديدة طوتْها، واستدبرت مخاوفها ومصاعبها، إلى أن تصيّدتْ هي أيضاً وأُرْهِقتْ، واستمرّتْ نصابر - بعد نصبها وإرهاقها - يوماً من طوال الأيّام، فرجعت واهية حَسْرى كأنما هي العود من شيدة نحولها ونبولها، وذاك ما قيّدَ حركتها وعرْقلَها عرْقلة.

وأغلب ما يلقانا أسلوبه المُتْرب في قصائده التي تنحو منهج القصيدة الجاهلية لا في طولها الذي قد يبلغ ستة وثمانين بيتاً (٢) فحسب، وإنما أيضاً في هيكلها الذي يشبه الهيكل القديم للقصائد شبهاً تاماً، وأقرب مثال لها قصيدته الخامسة، وهي أطولُ ما في شعره، وهي التي تبلغ ستة وثمانين بيتاً، وهي التي اخترت منها النصّ الأخير.

ويفتتحها عروة بالغزل بسُعَيْدة، فيذكر كيف صرمت مودّتها مستجيبة لأقوال الوشاة ثمّ يصوّر محاسن خِلقتها واشتياقه إليها، ويتحدّث عن عفاء ديارها وتخرّق الرياح في أنحائها وإحالة لأمطار معالمَها، وإيوائها من بعد سعدى ضروب الحيوان كالبين والآرام والزَّمْزاف والحمر الوحشية، ثم ينتقل إلى الفخر فيُباهي بقدرته على قطع المفازة الملتهبة من القيظ، ويصف الناقة التي تطويها، ويعدّد مآثره

١) شعر عروة ١٦٥ والهباب: النشاط، وناقة ذات براية: ذات شحم ولحم أو ذات بقاء على السير، والنسع: السير تشد به الرحال، والحمالة: القفارة المتضدة في الصلب، وسرح: سريعة، ومجهولة: مفازة لا أعلام فيها، ومرت: فلاة لا نبات فيها، والحزن: ما غلظ من الأرض، وتصف تستخدم أي تقطع، وتهدي: تسبق، ومواعج: مضطربات متلويات، والوجى: الألم، والمراح: النشاط، والحرق: الأرض الواسعة، ووهت: تخرقت وانشقت، والسريح: الغربي، والأعلام: الجبال وأكلتها: أعيتها، وإران: طلب أو نشاط، والمطرد: اليوم الطويل، والشجار: عود الهودج، والحشاشة: بقية الروح. ٢ و ٣) انظر شعر عروة ١٣٩ وما بعدها.

القديمة له كالحزم والقوة والبيان واللسن والسخاء والحُنْكة وفحولة الشعر وحِدّة الفطنة وسلامة الصدر وطيب المَنْشَر.

والنمط الثاني من أسلوب عروة أقلّ من النمط الأوّل، وهو يؤثر السهولة الواضحة المستبينة فيقول في الرثاء:

مضى يحيى بن حمزةَ حين ولّى وغالتهُ عن الإخوان غُولُ
حميدَ الودّ لا يُزري عليه مؤاخٍ في الإخاء ولا دخيل (١)

وكثيراً ما يرقّ هذا الاسلوب ويلين ويسْلَس كما في قول عروة:

بِيضٌ نواعِمُ ما هممن بريبةٍ كظباء مكة صيدهنّ حرامُ؟
يُحْسَبْنَ من لين الكلام زوانياً ويصدُّهنّ عن الخنا الإسلامُ (٢)

ويُلاحظ أن كثيراً من شعره الرقيق إنما هو مقطوعات قصيرة لا قصائد طويلة وهي مقطوعات تحمل علائم الموسيقا التي اشتغل بها أول حياته، وتؤثر - مثلها - الأبيات الممدودات لا المطوّلات التي ترهق الحناجر (٣).

وقد استحسن النقاد القدماء كلا أسلوبيه معاً، وسلكوه في المقدّمين من أهل القريض، وعدّه الذهبيّ والكتبيّ «من فحول الشعراء» (٤)، وقال الأبشيهي كما قال البكريّ: «كان شاعراً مجيداً» (٥). وإذا كانوا أخذوا عليه شيئاً فإنما هو أبيات قليلة استكرهوا تفاوت نسجها، وذلك مثل قوله:

«واسْقِ العدوّ بكأسه واعلم له بالغيب أنْ قد كان قبلُ سَقاكَها
واجْزِ الكرامة مَنْ ترى أنْ لوله يوماً بذلتَ كرامة لجزاكها

فقوله في البيت الأول: «واعلم له بالغيب» كلام غث، و«له» رديئة الموقع

١) شعر عروة ٣٤٧. ٢) شعر عروة ٣٧٤ وانظر هامشه، والخنا: الفحش.
٣) وانظر شعراً لعروة غنى به في الأغاني (البيئة المصرية) ١٨/٣٢١ و ٣٢٨ و ٣٣١ و ٣٣٣.
٤) تاريخ الاسلام ٥/١٠٩ ونوات الوفيات ٢/٧٤
٥) سمط اللآلي ١٣٦ والمستطرف ٢/٢٤٨.

بشمة المَسْمع ، والبيت الثاني كان مخرجه أن يقول : واجز الكرامة من ترى أن لو بذلت له يوماً كرامة لجزاكها . وكقوله ايضاً :

وأعملتُ المطيَّة في التَّصابي رَهيصَ الخُفِّ دامية الأظَلِّ
أقولُ لها لهانَ عليَّ فيما أُحِبُّ فما اشتكاؤكِ أن تكلّي ؟

يريد أقول لها لهان عليَّ فيما أحبُّ أن تكلّي فما اشتكاؤك ؟ »[1].

٥ ـ سابق البربري :

لم تحتفظ المصادر بشيء واف عن حياة أبي سعيد سابق بن عبدالله البربري ، الذي كان يقطن الرقة فلقّب أيضاً بالرّقيّ ، وذلك ما أدّى بابن عديّ أن يجعل الذين تسمّوا بسابق بن عبدالله الرقي ثلاثة ، اثنان منهم محدّثان ، والثالث هو سابق البربري الشاعر الزاهد الذي نفى أن يكون راوياً مثلهما [2].

وقد تعقّب ابن حجر هذا الرأي ، وبيّن أنّ من دُعي بسابق بن عبدالله الرقي اثنان وليسوا ثلاثة ، وأن الآخر هو سابق بن عبدالله فحسب ، وأن أحداً لم ينسبه إلى الرقّة [3] ، وردّ قولَ ابن عدي الذي ينفي عن الشاعر سابق بن عبدالله الرقيّ البربري التحديث ، وأثبته له [4] . وممّن تعقّبوا رأي ابن عديّ أيضاً الحافظ ابنُ عساكر ، وقد ذهب إلى أنّ من سمّي سابق بن عبدالله الرقي إنما هو واحد فقط ، وأنه سابق البربري الشاعر نفسُه ، وأخرج له أحاديث رويت عنه [5] .

وسواء كان الرقي شخصاً واحداً أم اثنين أم ثلاثة فانّ ما يهمّ هذه الدراسة أن الشاعر سابق بن عبدالله البربري الرقي كان يروي الحديث ، كما ذكر المؤرخون ،

١) عيار الشعر ٤٠ و ٤١ وانظر الموشح ٢١٢ و ٢١٣ ؛ والبيتان الأولان في شعر عروة ٣٤٤ والبيتان الآخران ص ٣٥٤ ورهيص : مكلومة ، والأظل : ما تحت منسم الناقة .

٢) انظر ميزان الاعتدال ١٠٩/٢ ولسان الميزان ٢/٣ـ٣ .

٣) لسان الميزان ٣ـ٣ ، هذا وقد ذكر ابن عساكر أن رباح بن الجراح الموصلي ، تلميذ سابق ابن عبدالله الذي لم يلقب بالرقي ، روى عنه حديثاً في بغداد سنة ست واربعين ومائتين ، مما يتحد بسابق شيخ رباح عن عصر سابق بن عبدالله الرقي . انظر (تاريخ دمشق ، نسخة الدار ، ٣/١٥) .

٤) لسان الميزان ٣/٣ ، وانظر مشاهير علماء الامصار (ت ١٤٧٨). ٥) تاريخ دمشق ٢/١٥

وأنه كان إمام مسجد الرقة وقاضي أهلها [1] ، وأنه ، من أجل ذلك ، يسلك في الشعراء الفقهاء .

وعلى نحو اختلافهم في اسم أبي سعيد اختلفوا كذلك في أصله ، فمنهم من عدّه من البربر المغاربة [2] ، ومنهم من جعل « البربريّ » لقباً محضاً ، وذهب إلى أنه مشرقيّ [3] ، ومن الباحثين المعاصرين الذين مالوا الى القول الأوّل عبدالله كنون فهو يؤكّد أنّ من سمّي بالبربري والرقي إنّ هو إلا سابق نفسه [4] ، ويميل إلى أنه مغربي بربري ، وأنه هو سابق المَطْماطيّ الذي قال حين قتال البربر للروم بافريقيا أيام سليمان بن عبدالملك :

أيا معشر الروم ارحلوا عن بلادكم وخلّوا لنا عنها بطيءَ المراحلِ
فقد قصدتكم بربرٌ بسيوفها وأحلافها أهل الرّماح الذّوابل
قبائل من بَرِّ بن قَيْس وخِندف وذي يَمَن في عزّها المتطاول [5]

وقد يؤيّد هذا الرأيَ الذي يرجع بسابق إلى أصله المغربي ما أشارت إليه الروايات من أنه كان من موالي بني أمية [6] ، أو كان مولىً للوليد بن عبدالملك على وجه التحديد [7] ، وليس بعيداً أن يكون قد حمل في أثناء المدّ الإسلامي في المغرب إلى الوليد ، فألحقه بمواليه ، وكان قويّ الإحساس حادّ التأثر فتدفّق على لسانه شعر الزهد والرقائق والمواعظ والأمثال ، حتى إذا استُخلف عمر بن عبدالعزيز استقدمه واستمع إلى قريضه وارتاح له وأكرم مثواه [8] ، وكان عمر فقيهاً عالماً فهداه إلى الرواية والتفقّه ، وكان سابق نبيهاً ذكيّاً فحذق مادّته وبرع فيها .

ولم تُشر المصادر إلى سنة وفاته ، إلاّ أن ولاءه للوليد بن عبدالملك ،

١) المصدر السابق ٥/١٥ وانظر سابق البربري لعبدالله كنون في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٤٤ ج ٤١/١ . ٢) لسان الميزان ٣/٣ وخزانة الأدب ١٦٤/١ .

٣) خزانة الأدب ١٦٤/١ ، وانظر النقد الفريد ٢٥٠/١ إذ ينسبه الى قبيلة بلي اليمنية .

٤) المجلة السابقة ١٨/١ و ٣١ . ٥) المجلة السابقة ٣٠/١ . ٦) خزانة الادب ١٦٤/١ . ٧) تاريخ ابن عساكر ٥/١٥ . ٨) خزانة الادب ١٦٤/١ .

وبمجالسته عمر بن عبدالعزيز ، وأخذه عن علماء الشطر الأول من القرن الثاني[1] ، ورواية الأوزاعي المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة عنه[2] ، كلُّ ذلك يُرجّح أنه توفي في نهاية العصر الأموي ، أو مطالع الحكم العباسي .

وقد بقيت لسابق عدّة قصائد ومقطوعات تمكّن الأستاذ عبدالله كنون أن يجمع منها ١٦٩ بيتاً ، وهو يعتقد أنه كان لسابق ديوان شعري يضمّ كل نتاجه ، غير أنه افتُقد[3] . ومهما يكن فقد كانت تحظى أشعار سابق في عصره وبعد عصره بشهرة واسعة ، وكانت تقع من أنفُس الناس موقعاً حسناً ، حتى كان عمر بن عبدالعزيز يبكي إذا سمع بعضها[4] ، وكان أبو الحسن محمد بن مصعب المحدّث يثيب مَنْ يعرف شعر سابق ؛ فقد رُوي عن احمد بن محمد الانصاري أنه كان هو وجماعة عند ابن مصعب فقال : « من أخبرني لمن هذا الشعر فله ثلاثون حديثاً » ، وكان معهم رجل يعرف الشعر ، فأنشدهم ابن مصعب :

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلّي سوادَ الظلمة القمرُ

فأخبرهم راوي الشعر أنه لسابق . فسألهم عما بعده ؟ فأبأم الراوي فحدّثهم ابن مصعب بالأحاديث الثلاثين[5] .

وقد وقف الرواة على شعر سابق وتدارسوه وسلكوه مع آثار محمود الوراق وصالح ابن عبد القدّوس ، قال ابن المعتز : « وشعر محمود كثير ، وأكثره أمثال وحكم ومواعظ وأدب ، وليس يقصر بهذا الفن عن صالح بن عبدالقدّوس وسابق البربري[6] .

والناظر في شعر سابق يجد سورة واضحة للرياضة النفسية التي أخذ بها المسلمون أنفسهم مستجيبين لدعوة القرآن والسنة إلى نزع الأغلال الثقيلة التي تُصفّد

١) من هؤلاء العلماء مكحول الشامي المتوفى سنة ١١٣ وربيعة بن عبدالرحمن المتوفى سنة ١٣٦ وداود بن أبي عند المتوفى سنة ١٣٩ والعلاء بن عبدالرحمن الحرقي الذي شهد أول خلافة أبي جعفر وأبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ انظر اساتذته وتلامذته في ابن عساكر ١٥/٢ و ٥ و ٦ ولسان الميزان ٣/٣ وتاج العروس ٦/٣٧٦ . ٢) انظر فتيا رواها الأوزاعي عن سابق عن مكحول في كتاب الجهاد لابن المبارك ١٨٢ . ٣) مجلة مجمع اللغة العربية م ٤٤ ج ١/١٩ و ٢٠ .
٤) حلية الأولياء ٥/٢١٨ وتهذيب ابن عساكر ٦/٣٩ ٥) تاريخ ابن عساكر ١٥/٨
٦) طبقات الشعراء ٣٦٧ .

بها الدنيا أعناق الراكنين إليها ، ومن آثار هذه الرياضة حثّه على ذكر الله ، يقول سابق :

والذكرُ فيه حياةٌ للقلوب كما يُحيي البلادَ إذا ما مانت المطرُ
والعلمُ يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يُجلّي سوادَ الظلمة القَمَرُ
لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً وهل يَلينُ لقول الواعظ الحَجَر[1]

ومن آثارها دعوته إلى التزوّد بالتقوى وما تدفع إليه من عمل بِرّ صالح[2] ، وتُصحّه بأخذ الأنفس بأسباب الهدى والرشاد واجتناب المآثم ولو صغرت والعفة عن أوطار الدنيا ومطامعها :

وفي الهدى عِبرٌ تُشفى القلوبُ بها
كالغيث يَنْضُر عن وَسْميّه الشَّجَرُ
والرُّشْدُ نافلةٌ تَهْدي لصاحبها والغيُّ يُكره منه الوِرْدَ والصَّدَرُ
قد يُوبقُ المرءَ أمرٌ وهو يحقره والشيء بالنفس يَنْمي وهو يُحْتقر
لا يُشبع النفسَ شيءٌ حين تُحْرِزُهُ
ولا يزال لها في غيره وَطَرُ
ولا تزالُ وإن كانت لها سَعَة لها إلى الشيء لم تظفر به نَظَرُ[3]

ومن خير ما يدفع النفسَ إلى هذه الرياضة الروحية أن يتدبّر الإنسان مصيره ويتفكّر في عاقبته ، فإن الموت واقع ، والحياة الدنيا لا بدّ منصرمة ، والحساب دقيق ، والعذاب شديد :

تأوّبني هَمٌّ كثيرٌ بلابِلُهْ طروقاً فغالَ النومَ عني غوائلُهْ

١) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ٣٤١ . ٢) المصدر السابق ٣٣٩ .
٣) المصدر السابق ٣٣٩ والوسمي أول المطر ، ويوبق : يهلك .

فويحي من الموت الذي هو واقع وللموت بابٌ أنتَ لا بدَّ داخلُهْ
أيأمَنُ ريبَ الدهر - يا نفسُ - واهنٌ
تَجيشُ له بالمُفْظعاتِ مَراجِلُهْ
فلم أرَ في الدنيا ، وذو الجهل غافلٌ ،
أسيراً يخاف القتل واللهو شاغِلُه
فما باله يَفْدي من الموتِ نفسَه ويأمَنُ سيف الدهر والدهرُ قاتلُه؟
ولا يَفتدي من موقف لو رمى الردى
به جبلاً أضحتْ سَراباً جنادِلُه![1]

ومن أسباب هذه الفِدْيَة من هَوْل المَعاد مكابدةُ السهر على طريق الآخرة، كما يكابده من أجل الدنيا وحُطامها، بذلك يتداوى القلب ويصحّ الضمير :

لو كان يُسْهر عيني ذِكْرُ آخرتي كما يؤرّقني للعاجِلِ السَّهَرُ
إذاً لداوَيْتُ قلباً قد أضَرَّ به
طولُ السُّقام وهَيْضُ العظْم يَنْجَبِرُ[2]

وعلى هذا النحو تَستفيضُ حِكَم أبي سعيد وتسترسل ، وقد تبدو لأوّل وهلة أنها لا تنقاد لسياق جامع ، لكنْ من تدبَّرها أدرك انتظامها في سلك نفسي متلاحق مترابط ، وربما أوضح ذلك قولُه :

ومَنْ تُفْلت الأمراضُ يوماً فإنّه سيوشك يوماً أنْ تُصابَ مَقاتِلُهْ
وقد تُفْلِتُ الوحشَ الحبالُ وربما تقبّضت الوحشي يوماً حبائلُهْ

١) المصدر السابق ٣٤٥ وتأويي : هادني ، وتجيش : تغلي .
٢) المصدر السابق ٣٤٥ والهيض : الانكسار .

إذا العلم لم تعملْ به صار حُجّةً عليك ولم تُعْذر بما أنت جاهله
فإن كنت قد أبصرتَ هذا فإنما يصدّق قولَ المرء ما هو فاعله
ولا يستقيم الدَّهْرَ سَهْمٌ لوجهه به مَيَلٌ حتّى يُقوَّم مائله
وفيكَ إلى الدنيا اعتراضٌ وإنما يُكالُ في الميزان ما أنت كائله
فلا تتكئْ بعد الهدى عن بصيرة
كما نَكَثَ الحبلَ المُضاعَفَ فاتله
وتطلب في الدنيا المنازل والعُلا وتنسى نعيماً دائماً لا تزايله
كمَنْ غرّه لَمْعُ السَّرابِ بقيعةٍ
فقَصَّر عن وِرْدٍ تجيش مَناهِلُه
وقد خانت الدنيا قروناً تتابَعوا كما خانَ أعلى البيت يوماً أسافله
وتصبح فيها آمناً ثم لم تكن لتأمَنَ في وادٍ به الخوفُ نازلُه
وقد ختلتنا باللّطيف من الهوى كما يَختُلُ الوحشيّ بالشيء خاتله
رضينا بما فيها سفاهاً ولم يكن يَبيع سمينَ اللحم بالغثّ آكله
وعاقبة اللذاتِ تُخشى وإنما يُكدّر يوماً عاجلَ الأمْرِ آجله
وإنْ فرِحتْ بالمرء يوماً حَلائلُ فلا بدّ يوماً أن ترِنّ حلائله
فكم من فتىً قد كان في شِرّة الصِّبا
فأقصر بعد المذل عنه عواذله
إذا ما سَما حقٌّ إليك وباطل عليك فلا يذهب بحقّك باطلُه

وقد يأمل الراجي فيكذب ظنّه أمورٌ ويلقى الشيء ما كان يأمله[1]

ومعاني النصّ متوافقة متناسبة ، فمَنْ أفلتته منيته بعد المنية يوماً أوشكت أن تنقضي عليه وتفنيه ، والمرء مدّخر العمل الصالح ، فإذا انحرف صاحبه يرى منه ولم يشفع لوزره ، ولكنّ لا يظنّ أحد ان في الجهل مفرّاً ينجيه فلا يؤاخذ ، فليس في جهل معذرة . ذلك القول الحقّ ، ومن وقرَ في نفسه فلا بدّ أن تصدّقه أعماله ، ومن استكبر بجهله اسطحبه أبد الآبدين . ومن الناس مَنْ يخلد إلى الحياة الدنيا لكنه سوف يلقى ـ لا محالة ـ ما قدّمه بين يديه ، وليس مثله إلا كمثل الذي ينقضّ حبله من بعد قوة أنكاثاً ، أو كالذي خدعه السراب فجرى وراءه معكوساً عن الماء النمير . وكيف يركن إلى الدنيا وهو يعلم كيف خانت القرون الخالية ؟ وأنى له الأمنُ في واد مخوف ؟ أيغدو وراء هواه ليسقط في شباكة المنصوبة ؟ أيغتري دنياه بآخرته ؟ أيكدّر بعاجل إثمه مستقبله ؟ ويجترح السيئات ... فهل له من الموت ملاذ يأمل فيه ؟ ألا ما أكثر افتراء الظنون !

ومما يلفت النظر في شعر سابق تفاوت مستواه الفنيّ ، ولا أعني التفاوت المألوف في نتاج كل شاعر ، وإنما أعني أن يجزم المضارع بعد متى الاستفهامية :

متى تكونوا على منهاج أولكمْ
وتصبروا عنْ هوى الدنيا كما صبروا ؟[2]

أو أن ينحدر اسلوبه فيقول :

لكم بيوتٌ بمُسْتَنّ السيول وهل
يبقى على الماء بيتٌ أسّه مَدَرُ ؟
أصبحتمُ جزراً للموت يأخذكم كما البهائمُ في الدنيا لكم جزرُ[3]

١) شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي ٣٤٢ وما بعدها ، والقيسة : الأرض المنبسطة ، وختل : خدع وغر ، وترن : تبكي ، وغرة الصبا : حدته وميعته .

٢) المصدر السابق ٣٤٤ ، هذا ويجوز أن تعد متى شرطية لا استفهامية فيكون جوابها محذوفاً تقديره تفلحوا . ٣) المصدر السابق ٣٤٣ ومستن : مسيل .

والصورة الفنية في البيت الأول بديعة متقنة ، ولكنه لو استبدل بحرف الاستفهام « هل » « ما » النافية فقال :

لكم بيوتٌ بمستنّ السيول وما يبقى على الماء بيتٌ أسّه مَدَرُ

إذن لخفّف عن الشطر الأول الثقل الذي أصابه من استخفاء الميم بين يدي الباء في « لكم بيوت » ، وانقلاب التنوين ميماً قبل « بمستنّ » ، وتضعيف النون في هذه الكلمة الأخيرة ، وتوالي حركات اللام الثانية من « السيول » والواو والهاء في « وهل » بعد المرققات الثلاث السابقات ، وانقطاع النفس العميق المنبعث من الحرف الحلقيّ « الهاء » بسكون اللام ، دون أن يتيسّر لها مخرج طليق ، ولو جعل صورة الموت الذي يأتي على البشر ، في البيت الثاني ، مثل صورة الشاء يجزرونها ويقدرون عليها ، لكانت خيراً من صورة البهائم وأقرّ في النفس وادعى إلى التأثير فيها . وهذه الهفوات اللغوية والفنية ـ إذا لم يكنْ لتحريف الناسخين فيها نصيب ـ تؤيّد مغربيّة سابق ، وقد يمكن أن يُستنبط منها أنه لم يقل الشعر قبل وفادته الشام وإتقانه العربية .

على أن سابقاً ينهض بمستواه الفنيّ في مواضع اخرى نهضات عالية فاذا أبياته تمسّ القلب وتبعث على التفكّر والاستبصار ، فيقول :

نلهو ونأمل أيّاماً نُعَدّ لنا سريعةَ المرّ تطوينا ونَطْويها
كم من عزيز سيلقى بعد عزّته ذلاً وضاحكة يوماً ستبكيها[1]

ويقول :

إذا أنتَ لم ترحلْ بزاد من التقى
ووافيتَ بعد الموت من قد تزوّدا

١) المصدر السابق ٣٥٠ .

ندمتْ على ألاّ تكون شركتَهُ

وأرصدتَ قبل الموت ما كان أرْصدا[1]

فهو يلتفتُ في البيتين الأوّلين إلى انقضاء الأجل في حينه المقدّر ، فإذا عزيز بذلّ ، وإذا لامٍ يذوق وبال أمره ، ويعرض في البيتين الآخرين صورة التيّ المغبوط يوم القيامة وصورة المُفرّط النادم ، ويروى أن عمر بن عبدالعزيز بكى لما أنشد هذين البيتين ، ودمعتْ عيناه بغزارة[2] .

١) حلية الأولياء ٥/٣١٨ وتهذيب ابن عساكر ٦/٣٩ .
٢) تهذيب ابن عساكر ٦/٤٠ .

الفصل الثاني

في العصر العباسي الأوّل

١ - الشعراء الفقهاء في العصر العباسي الأول :

لم نزل عن هذه الفترة من الشعر بمقدار ما ورثناه عن الفترة قبلها ، كما لم تحتفظ المصادر بأسماء شعراء يعدلون سابقيهم عدداً ، وأوّل من نزاهم في مطلع العصر العباسي عبدالله بن شُبْرُمة الضبّيّ[1] المتوفى سنة أربع وأربعين ومائة للهجرة[2] عن ستة وثمانين حَوْلاً[3] ، وكان من أفقه أهل الكوفة[4] ، وقد جعله المنصور على قضاء سوادها[5] فعرف بالعفة وحسن الخُلق والحصافة والجود[6] ورعاية الخطابة ورواية الشعر وإتقان علم الأنساب[7] .

وقد تقدّمت لابن شبرمة بصنعة أبيات متفرّقة ، ومما بقي له أيضاً حِكَمٌ تهدي إلى الأناة في المعاملة فلا يخذلُ المرء قريبه أو حميمَه إذا ما زلّ مرّة من المرّات ، فقد يصحو ويهجر زلّته إلى غير رَجْعة ، أو إلى رَجْعة في مجالها:

لا يُخزل المولى لأوّل عَثْرةٍ عسى في اقتبال السنّ أنْ يتحكّما

فيذهب عنه الجهل أو يستعيده لِعرْيض قومٍ مثله أن يُحتّما[8]

وفي مواضع أخرى يتساءل عن عاقبته غِبَّ ثوائه في لحْده وعن أخلاّئه يومئذ : هل يذكرونه بعد رحيله أو ينسَوْنه[9] ؟ ويتحدث عن تولي الدنيا[10] ،

١) المعارف ٤٧ . ٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٣٥ ، وقيل توفي سنة ١٤٥ . انظر اخبار القضاة ٣/١٠٧ . ٣) اخبار القضاة ٣/١٢٤ . ٤) المصدر السابق ٣/١٢٠ .
٥) تهذيب الأسماء واللغات ١/٢٧١ . وكان يوسف بن عمر قد استعمله في القضاء الاموي ثم عزله، انظر اخبار القضاة ٣/٩٥ . ٦) انظر في هذه الصفات تهذيب الاسماء واللغات ١/٢٧١ .
٧) انظر في هذه الصفات البيان والتبيين ١/٣٣٦ . ٨) اخبار القضاة ٣/١٩٥ ويحتم : يجعل الشيء حتما . ٩) اخبار القضاة ٣/٩٥ . ١٠) المصدر السابق ٣/٩٠ .

ورجاله النجاة بأديه ليس لأحد عليه من شيء ولا له على أحد من شيء :

يُعْنُوني الأجرَ العظيم وليتني نَجَوْتُ كَفافاً لا عليَّ ولا ليا[1]

ويدعو إلى مواساة الأقارب وحسن الجوار فيقول :

كن للأقارب ما حَيِيتَ مواسياً ولدى الجوار تحيَّةً وسلاما[2]

ولعبدالله بن شبرمة إلى جانب الحِكَمة أبيات شتى يمدح فيها كُرْز بن وبرة ومحمد ابن طارق، وكانا من كبار الزاهدين[3]، ويرثي القعقاع بن معبد أمير شرطة الكوفة[4]، ويشكر لنوح بن درّاج تنبيهه له في مسألة لم يصب فيها[5]، ويلفت عيسى بن موسى حين عَزَلَ مالك بن الضحاك عن الولاية لشكوى أهل عمله ورفعهم فيه كتاباً أنهم لم يثبتوا على مالك ما يدينه، وأن الشكوى قد تكون وشاية ببعض الحاسدين :

بنا مَلَلٌ عن قول واشٍ وحاسد بلا ثَبَتٍ عند الأمير بهالكِ

فجُدْ يا وليَّ العهد منك بنِعْمة ومَنٍّ وإفضالٍ علينا بمالكِ[6]

وممن ثبت لهم أبيات قليلة من هذا العهد الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى ببغداد سنة مائة وخمسين، وكان أبو حنيفة خزّازاً[7]، غير أنه مع حرفته - كان يهتم بعلوم الدين حتى بلغ في فقه الرأي ما بلغ، وقد شهدت الغرائم أنه كان « عالماً عاملاً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرّع إلى الله تعالى »[8]. حسنَ المجلس شديد الكرم دَمِث الصحبة بارع المنطق[9]، ومما في قوله ينصح بالازار في الحمامات :

أقولُ وفي قولي بلاغ وحكمة وما قلت قولاً جئت فيه بمُنْكَرِ

١) المصدر السابق ٣/٩٠ . ٢) المصدر السابق ٣/١٠٤ .
٣) حلية الأولياء ٥/٨١ ٤) أخبار القضاة ٣/٩٦ ٥) المصدر السابق ٣/٩١ .
٦) المصدر السابق ٣/١٠٧ وانظر ابياتا أخرى له في اخبار القضاة ٣/٩٠ و ٩٥ و ٩٦ و ١٠١ و ١٠٧ و ١٠٨ ٧) المعارف ٤٩٥ والخزاز : بائع الثياب ٨) وفيات الأعيان ٥/٤٠٧
٩) المصدر السابق ٥/٤١ و ٤٢ .

ألا يا عباد الله خافوا إلهكم فلا تدخلوا الحمّامَ إلا بمئزر[1]

وكان يعاصر أبا حنيفة مِسْعَرُ بن كدام الفقيه الزاهد المتوفى سنة خمس وخمسين ومائة في الكوفة[2]، وكان يقول :

وَجَدْتُ الجوع يَطْرُدُه رغيفٌ ومِلْءُ الكفِّ من ماء الفراتِ

وقُلُّ الطعْم عونٌ للمصلّي وكُثْرُ الطعْم عَوْنٌ للسُّبات[3]

وعلى هذه الشاكلة من التقشف والزهادة يدعو إلى اليأس مما في أيدي الناس وينكر مساوئهم[4]. وممن عاصر مِسْعَراً في الكوفة سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري المتوفى « بالبصرة متوارياً من السلطان، سنة إحدى وستين ومائة، وهو ابن اربع وستين سنة »[5].

وذكر له ابن عبد ربه قوله في كِبَره :

إني وإنْ كان سِنّي ستين كِبَراً على ما قد تَرَيْنَ من كِبَري

أعْرِفُ من قبل أن تُفارِقَني موقع سهمي والسّهْم في الوَتَرِ[6]

وكان سفيان من فقهاء الرأي[7]، وممن كان على هذا المنهج في أبحاثه ايضاً حيّان بن علي السَّنْزي المتوفى بالكوفة سنة إحدى وسبعين ومائة[8]، وهو الذي روى عن أبي حنيفة قوله : « حين ضُرِبْتُ لأُلِيَ القضاء ما أصابني في ضربي أشدُّ عليَّ من غمِّ والدتي »[9] وقد ذكرتُ له أربعة أبيات في رثاء أخيه مِنْدَل. وممن

١) الطبقات السنية للغزي ١/١٥٨ وفيه يقول أيضا : « وأما ما ينسب إلى ابي حنيفة من الشعر فكثير » . ٢) تهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول ٢/٨٩ وقيل توفي سنة ١٥٢ هـ. (المعارف ٤٨١) وقيل سنة ١٥٣ « مختصر جامع بيان العلم ص ١٥٩ ». ٣) حلية الأولياء ٧/٢١٩ . ٤) انظر صفة الصفوة ٣/٧٣ . ٥) المعارف ٤٩٧ .
٦) العقد الفريد ٣/٥٩ . ٧) المعارف ٤٩٧ .
٨) طبقات ابن سعد ٦/٣٨١ . وقيل توفي سنة ١٧٢ « الجواهر المضية ١/١٨٤ » .
٩) الجواهر المضية ١/١٨٤ .

كان ينصر الرأي ، في بعض فترات عمره ، عبدالله بن المبارك المَرْوَزيّ ، وسوف يأتي ذكره .

وعاش في هذه الفترة عامرُ بن صالح بن عبدالله بن عروة بن الزبير المتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائة (١) ، وكان فقيهاً محدّثاً نسّاباً إخبارياً (٢) سكن بغداد (٣) إلا أنه ظلّ مضطرم الهوى نحو ديار أجداده من بني الزبير في الحجاز ، يقول في بعض شعره :

ليتَ شعري ولليالي صُروفٌ هل أرى مرّةً بَقيعَ الزُّبَيْر
ذاك مغنىً أُحبُّه وقَطينٌ تشتهي النفسُ أن يُنالوا بخَيْر (٤)

وهو يُعيد تلهّفه عليهم في بيتين آخرين ويرجو أن تُدنيه منهم فوق ضُمُر كأنها القِسِيّ من أثر السفر (٥) . ويفتخر في موضع ثالث بالزبير بن العوام ابن عمة النبي ﷺ وكان شهد معه بدراً وعليه عمامة صفراء ، فيذكر ذلك قوله :

جَدّي ابنُ عمّةِ أحمد ووزيرُه عند البلاء وفارسُ الشَّقْراء
وغَداةَ بدر كان أوّل فارسٍ شَهِدَ الوغى في اللّامة الصفراء (٦)

وممن عُزي إليهم بعض الأبيات من ذلك الحين سفيان بن عُيَيْنة المتوفى سنة ثمان وتسعين ومائة (٧) ، وكان من شيوخ الإمام الشافعي في مكة ، وقد روى له قوله:

كم من قويٍّ قويٍّ في تقلّبه
مهذَّب الرّأي عنه الرزقُ مُنْحَرِفُ
ومن ضعيفٍ ضعيفِ الرأي مختلط كأنّه من خليج البحر يغترفُ

١) و ٢) تهذيب التهذيب ٧٢/٥ وانظر طبقات ابن سعد ٤٣٥/٥ . ٣) تاريخ بغداد ٢٣٥/١٢ . ٤) جمهرة أنساب العرب ١٢٤ والمغنى : المنزل . والقاطن : المقيم .
٥) انظر تاريخ بغداد ٢٣٥/١٢ . ٦) المصدر السابق ٢٣٥/١٢ وسير أعلام النبلاء ٣٠/١ وانظر رواية الأخير لقول أبي جعفر محمد الباقر : « كانت على الزبير يوم بدر عمامة صفراء » واللامة : الدرع . ٧) العقد الفريد ٢٩٠/٢ .

هذا دليلٌ على أنّ الإله له سِرٌّ خَفيٌّ علينا ليس ينكشف (١)

وروى ابن عبد ربه أنه : لمّا انفرد سفيان بن عيينة ومات نظراؤه من العلماء تكاثر الناسُ عليه فأنشأ يقول :

خَلَتِ الديار فسُدْتُ غير مسوَّد ومن الشّقاء تفرُّدي بالسُّؤْدَدِ (٢)

وكان تلميذُ سفيان الإمام الشافعي من أشهر الفقهاء ، وسوف أقف عنده ، وتلاه أبو يحيى هارون بن عبدالله الزهري ، وكان قد نشأ في الحجاز (٣) ثم هيّأ له أن ينهل عن فقيه دار الهجرة مالك بن أنس (٤) ، ويسلك منهجه في البحث الفقهي طوال عمره (٥) ، وكما أخذ عن الإمام مالك أخذ ايضاً عن ابن وهب وابن أبي حازم والمغيرة والواقدي (٦) ، ثم روى عنه يحيى بن عمر ويوسف بن عبد الأعلى (٧) وعمر بن شبة (٨) وغيرهم .

وتخبرنا المصادر أن أبا يحيى قد أمعن في تبحّر الفقه المالكي حتى صار « أعلم من صنف في مختلف قول مالك » (٩) . ولاحظ المأمون نباهته فاستقضاه على المصّيصة ثم على الرقة ثم على عسكر المهدي في بغداد ثم على مصر (١٠) ، ويُروى أنه اتجه إلى وظيفته الاخيرة سنة سبع عشرة ومائتين (١١) ، وأنّه لم ينتظر طويلاً حتى تلقّى من رئاسة الحكومة قراراً بأمره ألاّ يقبل شهادة من لا يقرّ بخَلْق القرآن . وتختلف الروايات في موقفه من هذا القرار إلى قسمين . الأوّل يخبرنا أن هارون استتفى فكلّف ابنُ أبي دؤاد ، قاضي القضاة ، محمدَ بن أبي الليث ليقوم بالمحنة ، فصار يقول الزهري : « الحمد لله على معافاتي مما ابتلى به غيري » . ورُفع ذلك إلى ابن

١) مناقب الشافعي للبيهقي ٩١/٢ والمناقب للرازي ١١٣ وانظر روضة العقلاء ١٣
٢) العقد الفريد ٢٩٠/٢ . ٣) اختلفت المصادر هل هو مدني (معجم الشعراء ٤٨٤ وتاريخ بغداد ١٤/١٤) أو مكي (الديباج المذهب ٣٤٨ وترتيب المدارك ٥١٥/١ وشجرة النور الزكية ٥٧) لكن أخذه عن الامام مالك المدفر ، لا من معاصره سفيان بن عيينة المكي الذي كان له مذهب معروف في زمنه . وكذلك حنينه في بعض شعره إلى المدينة لا الى مكة (انظر اياتا له في اخبار القضاة ٢٧٤/٣) كل ذلك يرجح مدنيته . ٤) و ٥) و ٦) و ٧) شجرة النور الزكية ٥٧ .
٨) معجم الشعراء ٤٨٤ . ٩) لسان الميزان ١٨٠/٦ . ١٠) ترتيب المدارك ٥١٦/١ . ١١) الولاة والقضاة ٤٤٣ .

ابي دؤاد فنزله وولى ابن أبي الليث فامتحن هارون وحبسه (١) . والقسم الثاني من الروايات يذهب إلى ان هارون امتثل القرار فكان إذا شهد عنده شاهدان عدلا عن القرآن ، فإنْ أقرّا أنّه مخلوق قبلها ، وإلاّ اوقف شهادتهما ، غير أنه كان يفعل ذلك تقيّةً بدليل أنه صار يتسامح فيه حتى صُرف ثم امتحن (٢) .

وأيّاً ما صحّ الرأي الذي كان يبديه أبو يحيى في أوّل الأمر فإنّ هواه ظلّ يستنكر المحنة ويجاهدها إلى أن اجاب مُناديَ الرحمن . وأكثر الروايات على أنه خاض في مصر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين (٣) ، وقيل بل سنة ثمان وعشرين ومائتين (٤) ، والقولان مما يردّان ما ذُكر من انه توفي عام اثنين وثلاثين ومائة (٥) وأغلب الظنّ أن هذا من سَهْو النُّسّاخ .

ويدور أكثر شعره حول الحكمة ، فهو دائم الوَعْظ أن يخشى الانسان ربّه ، ويتقيَ مَعاده ، ويجاهدَ نفسه وأهواءها ، وينصرَ الجماعة ، ويحْذَرَ حسادَة نابهها ، إذ أنّ حظّهم حظّه ويرحمَ الشّتّاتَ وينعم الحيف ليوفّوه من بعد ذلك أجره ، ويكونوا له عدّة وذُخْراً ، ويفصح أبو يحيى بتكثير الإخوان ومداراة الاعداء والمبادرة بالصّلح لمن أراده ، ويستثني من ابتُلي منهم بالحسد ، فإنّ من طبائعه أن يتراءى بالمودّة ويُبكّيَ حقيقته ، وهذا ليس يُرجى لسلّته براءة ، وليس ثمّة وسيلة إلا الصبر اليَقظ على ما يُفتّق من فنون المعاملة :

والله فاخشَ وخفْ ذنوبَك عنده ... يوم الحسابِ وكن لنفسك رادعا
لا تعطِ نفسك ما تريدُ ولا تكنْ ... فيما يضرّك إنْ دُعيتَ مُسارعا
لا تُمسِ عبداً للمطامع ولتكن ... للفضل متبوعاً ولا تك تابعا
كن للمشيرة في الأمور إذا عَرَتْ ... كهفاً وعنها في الأمور مدافعا
لا تحسدن نبيهها واخشَعْ له ... خيرٌ مِنَ أنْ تلقى لآخر خاضعا

١) الولاة والقضاة ٤٧ ؛ وترتيب المدارك ٥١٦/١ ولسان الميزان ١٧٩/٦ .
٢) انظر المصادر السابقة وصفحاتها . ٣) لسان الميزان ٦/ ١٨ ومرآة الجنان ١٠٧/٢ وشجرة النور الزكية ٥٧ . ٤) ترتيب المدارك ٥١٨/١ . ٥) الديباج المذهب ٣٤٨ .

سهّلْ له فيما يريد طريقَه ... حتى يكون برفقة لك رافعا
فمتى ينَلْ حظّاً يكنْ لك حظُّه ... وتكون فيه مُفارقاً ومُجامعا
وإذا نَشا لك ناشئ فانهض به ... وامنعه من ضيم يكن لك مانعا
حافظْ عليه واتّخذه عدّةً ... سيفاً إذا لقي الكريهة قاطعا
أكثر صديقك ما استطعتَ فما به ... ضررٌ إذا ما لم يكن لك نافعا
داوِ العداوة من عدوّك بالتقى ... واحذر عدوّك دانياً أو شاسعا
وإذا دَعاك إلى الرجوع وشاءه ... فارجعْ له وليُلْفِ سِرْبك واسعا
إلاّ الحسودَ فإنّ تلك عداوة ... يبدي الرضا ويكون سماً ناقعا
فاصبر عليه فليس فيه حيلة ... وليَطلمنّ طوالعاً وطوالعا (١)

وعلى نحو استرساله في هذه النصائح يعود في قصيدة اخرى فيذكر كيف تتقلّب أحوال الإنسان في الشدّة والرخاء والمنشط والمكره ، فما عليه إلا الصبر على كلّ حال ، فكم من أمر بالغ السُّرر قد يسّره الله له من حيث لم يخطر في حسبانه:

أيّام معروفك ، ما لم يُعنْ ... بالصبر ، أحوال وأحوالُ
فاصبرْ لها ، واصبرْ لمكروهها ... إنّ للذي يُدبِر إقبالُ
ورُبّ أمرٍ مُرتَج بابُه ... عليه أنْ يُفتَحَ أقفالُ
ضاق بذي الحيلة في فتحه ... حيلتُه والمرء مُحتالُ
ثمّ تلقّاه مفاتيحه ... من حيث لم يخطرْ به البالُ (٢)

ولهارون - مع الحِكمة - عزل ونظر وهجاء ، وقد مرّت بنا أبياته او

١) ترتيب المدارك ٥١٩/١ وأخبار القضاة ٢٧٤/٣ .
٢) ترتيب المدارك ٥١٨/١ واخبار القضاة ٢٢٠/٣ ، ومرتج : مغلق .

يحنّ فيها إلى شخص حبيب إليه بأكناف الدينة ، وأيضاً فقد رُويت له قصيدة في سبعة عشر بيتاً تقترب ، في هيكلها من منهج القصيدة القديمة ، وهي تبتدىء بظعن الحيّ بليل دون أن يذروا له مجالاً لوصال ولا نوال ، ويذكر فرح المُدّال برحيلها وفرْط اكتئابه عليها وأنّه كان يُمنع زيارتها وهي لمّا تزلْ مقيمة في الحيّ ، فكيف وقد نأتْ بها مَحِلّتُها ؟ لقد باتتْ حيالَه من بعدها شقيّة مُرّة :

ماذا على الحيّ يوم البين لو رتعوا ... أو وصّلوا من حبال البين ماقطعوا
بل لم ينالوا أسيراً في الديار ولو ... نالوه لم يصنعوا في ذاك ما صنعوا
أما رأيتَ حمول الحيّ باكرةً ... بحبّها جَذِلٌ بالبين مندفع
ناديتُ ليلى ولا ليلى يودّعني ... منها السلامُ فكاد القلب ينصدع
يا ليل أهلُك أحْمَوني زيارتكم ... والدار واحدةٌ والشمل مجتمع
فالآنَ مرّ عليّ العيشُ بعدكمُ ... فلستُ بالعيش بعد اليوم انتفع

ثم ينتقل إلى الفخر بجُوده وغَنائه وجَلادته وصبره وعفّته ، ثم يهجو شخصاً شتمه فيكتفي باستخفافه بشأنه إلى حدّ إهماله وتجاهله ، ذلك أنه لا يرقى إلى درجات المؤاخذة ، وأنّ من عادة أبي يحيى ألا يجعل غضبه في غير موضعه :

قالتْ سليمى عَلاكَ الشيبُ من كِبَرٍ ... والشّيْبُ أهْوَنُ ما لم يأتِكَ الصّلَعُ
ياسَلْمَ إني وإنْ شيبٌ يفزّعني ... رَحْبُ اليدين بما حملت مضطلع
لا يطرأُ الشرُّ لي إني لمُفْرجُه ... ولا أرى لصروف الدهر اختشع
قد جرّبتْني صروفُ الدهر فاعترفتْ ... صلب القنـــاة صبوراً كيفما يقع

نزه الخلائق لا يقتادني طمع ... إنّ اللئيم الذي يقتاده الطمع
هذا وجائر قوم ظلّ يشتمني ... كالكلب ينبح حيناً ثم ينقمع
تركْتُه مُعْرضاً لي واستهنْتُ به ... إذ لم يكن فيه لي ريٌّ ولاشبع
لا واضعاً غضبي في غير موضعه ... ولا انتصاري إذا ما نالني الفزع (١)

ولعل من الواضح في اسلوب هارون بن عبدالله الجزالة والتدفّق ، وأغلب الظنّ أن هذا ما لحظه عبدالملك بن عبدالعزيز حين أنشده أبو يحيى ثلاثة أبيات له ، لكنه عزاها إلى رجل من قُشير ، وهي قوله :

ولمّا رأيتُ البَيْنَ منها فُجاءةً ... وأهْوَن للكُرْه أن يُتَوَقّعا
ولم يَبْقَ إلا أنْ يُودّع ظاعن ... مُقيماً [وتدرى غيره] أو مودّعا
نظرتُ إليها نظرةً فرأيتها ... وقد أبرزتْ من جانب الخدر إصبعا

فقال عبدالملك . والله لقد أحسن . فأخبره هارون أنها له وانه قالها في طريقه إليه ، فقال « قد والله عرفت فيها الضعف حين أنشدتني » (٢) .

ومن شعراء تلك الحقبة أحمد بن أبي دؤاد (٣) الايادي ، قاضي القضاة للمعتصم والواثق (٤) ، وهو الذي حمل الخلفـــاء على امتحان العلماء (٥) في مسألة اللفظ أو خلْق القرآن أي أنّ آيات الذكر الحكيم قد أحدثتْ حين تنزيلها من الملأ الأعلى على حسَب الوقائع والمناسبات ، فهي إذن مخلوقة وليس ثمّة قديم إلا الله جلّ جلاله ، وهو ما خالفه جمهور الفقهاء والمحدّثين واهل السُّنّة ، إذ قالوا إن كلام الله قديم أزليّ ، إلا أنه نزل نزولاً في عهد النبوّة بحسب الأسباب الداعية إلى بيان ، ورأوا

١) انظر القصيدة في أخبار القضاة ٢٧٦/٣ وترتيب المدارك ٥٢٠/١ .
٢) انظر الأبيات وخبرها في اخبار القضاة ٢٧٧/٣ . وكذا ورد الشطر الأخير من البيت الثاني وله « ويذري عبرة » . ٣) المرجح أن اسم ابيه هو كنيته « أبو دؤاد » وقيل بل اسمه فرح (وفيات ٦٣/١) وقيل بل اسمه الفرج أو دعمي (تاريخ بغداد ١٤٢/٤) .
٤) و ٥) الطبقات السنية ٣٣٤/١ .

أن الخوض في هذه المسألة - من اساسها - ضَرْبٌ من الفُضول والتَّنَطُّع ، إذ لم يجعلها الله تعالى أصلاً في الدِّين ولا فرعا[1] . وقد تُوفِّيَ ابن أبي دؤاد سنة اربعين ومائتين[2] ، بعد أن نُحِّيَ عن بِطانة الخليفة المتوكِّل[3] ، وأصيب بالفالج[4] .

ولقد مرَّتْ بنا لأحمد عدة مقطوعات في رثاء ابن شهاب وهجاء ابن الزيات ومدح المعتصم ، وهو يؤثر ، في مقدِّمة مدحه المذكور ، مدينة « سُرَّ مَنْ رأى » على العاصمة العباسيَّة ، ويصف مرابعها وديارها[5] ، وله في البَرَم ببغداد مقطوعة أخرى تتحدَّث عن جمالها وصفاء العيش فيها وتنشُّم الغرباء ، بَلْهَ قُطَّانَها ، بالأمن فيها وقرارة العَيْن ، ولكنه يجبرنا بكراهته لها ، مع كل ذلك ، وهوان أمرها عليه :

أعايَنْتَ في طُولٍ من الأرض أو عَرْضِ
كبغداد داراً إنَّها جنَّة الأرضِ

صفا العيش في بغداد واخضرَّ عوده ... وعيش سواها غيرُ صافٍ ولا غَضِّ
تنام بها عين الغريب ولا أبَتْ ... غريباً بأرض السلم يطمع في النُّهْض
لقدْ مُنِيَتْ بالبغض منِّي وبالقِلى
وما أصبحت أهلاً لهَجْرٍ ولا بُغْضِ[6]

وممَّن نُسب لهم قولُ الشعر من هذه الفترة أحمد بن المدلَّل البصري ، شقيق عبدالصمد الشاعر ، وكان فقيهاً مالكياً متكلماً صاحب تصنيف[7] ، وذكره ابن النديم في الشعراء المُقِلِّين[8] ، وتوفي سنة أربعين ومائتين[9] ، ومما نسب له قوله :

ضَحَّيْتُ له كي أستظلَّ بظلِّه ... إذا الظلُّ أضحى في القيامة قالصا
فوا أسفا إن كان سعيُك باطلاً ... ويا حسرتا إن كان حظك ناقصا

١) انظر في تاريخ هذه القضية وأثرها في العلماء بحث « مسألة خلق القرآن » للشيخ عبدالفتاح أبو غدة (طبع بيروت) . ٢) تاريخ بغداد ٤/١٥٦ . ٣) و ٤) وفيات الأعيان ١/٢٣ .
٥) انظر الابيات في اخبار القضاة ٣/٢٩٩ . ٦) المصدر السابق ٣/٣٠٠ وأبت : كرهت .
٧) شذرات الذهب ٢/٩٦ . ٨) الفهرست ٢٣٤ . ٩) شذرات الذهب ٢/٩٥ .

وعادت نفوس الناس عند حلوقهم ... يريقون زيفاً غابرَ الماء شاخصا
وما كنت أرجو أن يَنالك حَرُّها ... وقد كنت في حرِّ الظهيرة حائصا[1]

ومنهم الإمام أحمد ابن محمد بن حنبل المتوفى سنة إحدى واربعين ومائتين ، وقد كان يعلي من شأن السنة إلى أقصى حد ، وجمع أعلب تراثها في كتابه « المسند » ، ومعروف كيف امتحنه أحمد بن ابي دؤاد وأداقه مُرَّ العذاب وألقاه في غياهب السجن وأفتى بقتله[2] ، لكنه صبر على ما أُوذي به واستمرَّ يجاهد الفتنة ويقف - مع جماعة السُّنة - سدّاً قوياً حتى ثُلَّ بأسُها بل تحطَّمت في عهد المتوكل وصارت مَرَّة على صاحبها عند أهل الجرح والتعديل من المحدِّثين[3] ، وقد احتفظت المصادر بأبيات لابن حنبل يلوم فيها ابنَ المديني المتوفى سنة ٢٣٤ ويستنكر تورطه في الفتنة وإخلاده إلى اهلها بعد أن كان يقذفهم أشدَّ قذف ، ويلتفتُ إلى أن مصيبته في دينه لا في نافة ولا فصيل !

يابنَ المَديني الذي شُرِعَتْ له ... دنيا فجادَ بدينه لينالَها
ماذا دعاك إلى اعتقاد مَقالة ... قد كان عندك كافراً من قالَها
أمرٌ بدا لك رُشْدُهُ فقبلْتَه ... أم زهرة الدنيا أردتَ نوالَها ؟
فلقدْ عهدتك - لا أبا لك - مرَّةً ... صَعْبَ المَقادةِ للتي تُدْعى لها
إنَّ الحَريبَ لمن يُصابُ بدينه ... لا مَنْ يُرزْأُ ناقةً وفِصالَها[4]

وممَّنْ بقي لهم نصيب من القريض يحيى بن أكثم المتوفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين[5] ، وكان مع انتهاجه السنة[6] من المقرَّبين عند المأمون[7] ، وقد وَلي

١) ترتيب المدارك ٣/٥٥٣ ، ومحاضرة الأبرار ٢/٤٥ وحياة الحيوان ١/٣٢٤ .
٢) شذرات الذهب ٢/٩٣ . ٣) انظر أثر هذه المحنة في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل : مسألة خلق القرآن ١٠ وما بعدها . ٤) شعر الدعوة الاسلامية في العصر العباسي الثاني ٣٥ والحريب : المسروق . ٥) التاج المكلل ١٤٦ وقيل بل توفي سنة ٢٤٠ « عيون التواريخ حوادث ٢٤٠ » . ٦) و ٧) وفيات الاعيان ٥/١٩٧ .

قضاء البصرة وهو ابن إحدى وعشرين سنة (١)، ثم صار قاضي القضاة (٢).

وأهمُّ ما ورثناه من شعر يحيى أبيات لامية يعاتب فيها صديقاً له جفاه بغتة، فاستغرب ذلك منه، إذ هو - من جانبه - شديد الحرص على أخوّته، بينما يطوي الآخر مودّته بل يوشك أن يبتّ كلَّ حبائلها دون سابقةٍ مُوجبةٍ لقطيعة، ولولا ما جُبِل عليه من مصابرة وتحمّل لأذى صديقه ومبَرّةٍ به ووفاء له إذن لهاجره وقاطعه، غير أنه يؤثر السبيل الأولى؛ ذلك بأنّ خسارة الإخوان من أفدح المصائب عند العاقلين:

جفوتَ وما فيما مضى كنتَ تفعلُ ... وأغفلت من لم تُلفه عنك يغفلُ
وعجّلتَ قطع الوصل في ذات بيننا ... بلاحدَثٍ أو كدت في ذاك تَعْجَلُ
وأصبحتُ لولا أنني ذو تعطّف ... عليك بوُدّي صابرٌ متحمّلُ
أرى جفوةً أو قسوة من أخي ندىً ... إلى الله فيما المشتكى والمُعوّلُ
فأُقسِمُ لولا أنّ حقّك واجبٌ ... عليّ، وأني بالوفاء موكّلُ
لكنتُ عَزوفَ النفس عن كلّ مُدبِرٍ
وبعضُ عُزوفِ النفس عن ذاك أجمل
ولكنني أرعى الحقوق وأستحي ... وأحملُ من ذي الودّ ما ليس يحمل
فإنّ مُصابَ المرء في أهل وُدّه ... بلاء عظيم عند من كان يَعْقِلُ (٢)

وليحيى أبيات همزية في الحكمة تنازعتها ثلاثة مواضع في المصادر، وهي أبيات يُرجَّح أنها مُنتَزَعة عن قصيدة واحدة، إذ أن بحرها واحد، وهو الطويل وموضوعها واحد أو مُشترك في المُحاشَة على الجُود ومذمّة الضّنانة وتبيان أثر المال في معايير الناس حين وزنهم المرء. وقد ذكر المبرّد إحدى مزق هذه

١) تهذيب التهذيب ١٨٣/١١ ٢) عيون التواريخ حوادث ٢٤٠.
٣) أخبار القضاة ١٦٤/٢.

القصيدة دون نسبة، لكنّ محقق كتابه استطاع أن يهتدي إليها ويكشف عن صاحبها، يقول فيها:

تغطَّ بأثواب السخاء فإنني ... أرى كلَّ عيب فالسخاء غطاؤه
وقارب إذا قاربتَ حرّاً فإنما ... يزين ويُزري بالفتى قُرَناؤه
وأقلِلْ إذا ما قُلتَ قولاً فإنّه ... إذا قلّ قول المرء قلّ خطاؤه
إذا قلّ ماء الوجه قل حياؤه ... ولا خير في ماء إذا قلّ ماؤه
إذا المرء لم يختر صديقاً لنفسه ... فنادِ به في الناس هذا جزاؤه (١)

أمّا المِزَقة الثانية فقد رواها له ابن حبان وقال: «أنشدني منصور بن محمد الكريزي ليحيى ابن اكثم:

إذا قلّ مالُ المرء قلّ بهاؤه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لا يدري وإن كان حازماً ... أقُدّامُه خير له أم وراءه
ولم يمضِ في وجه من الأرض واسماً
من الناس إلا ضاق عنه فضاؤه
وأصبح مردوداً عليه مقاله ... وكان به قد يَقتدي خطباؤه
وإن يبق لم يضرُرْ عدوّاً بقاؤه ... وإن يَفْنَ لم يُفقد لخير فَناؤه (٢)

وكذلك روى له ابن حبان البيتين الآخرين:

ويُظهِرُ عيبَ المرء في الناس بخلُه ... ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغطَّ بأثواب السخاء فإنني ... أرى كل عيب والسخاء غطاؤه (٣)

١) الفاضل ٤٣، وانظر حاشيته. ٢) روضة العقلاء ٢٠١.
٣) المصدر السابق ٢١٤.

ولعلّ من الملاحظ تكرارَ البيت الثاني الأخير في مطلع المقطوعة الأولى، ومن الشعراء المعمّرين في هذه الفترة أبو الحسن عليّ بن حُجْر السَّعْديّ المتوفى سنة أربع وأربعين ومائتين بعد أن طوى تسعين عاماً (١)، وكان في أول عهده ينزل بغداد ثم انتقل منها إلى مرو (٢) مما أتاح لأئمة المحدّثين كالبخاري ومسلم والترمذي والنسّائيّ أن يَرووا عنه (٣)، ولم يكن السعدي صاحب حديث فحسب بل قد تعمّق في الفقه وألّف فيه أحكام القرآن (٤).

ولابن حُجْر عدّة مقطوعات في الصداقة والزهد، ومما له في الموضوع الأول هذه الأبيات التي كتبها إلى بعض أصحابه يعاتبه:

أحنّ إلى عتابك غيرَ أني ... أُجِلُّكَ عن عِتاب في كتابِ
ونحن إذا التقينا قبل موت ... شفيت غليل صدري من عتاب
وإنْ سبقتْ بنا أيدي المنايا ... فكم من عاتب تحت التراب (٥)

ويروى أنه التقى بعلي بن خشرم صديقه: فقال علي بن حجر لعلي بن خشرم:

وُصِفْتَ فأحببناكَ من غير خبرة
فلما اختبرنا جُزْتَ ما كنت توصفُ

فقال له:

ووافيتُ مشتاقاً على بُعْدِ شُقّةٍ ... يسايرني في كل رَكْبٍ له ذِكْرُ
واستكبر الأخبارَ قبل لقائه ... فلما التقينا صغّر الخبرَ الخُبْرُ (٦)

ومما أثر له في الزهد ثلاثة أبيات تلفت إلى حِيَل الناس أو أعلبهم وتحضّ على العُزْلة وكفّ اللسان وتخفيض الصوت وتذكّر الموت يقول فيها:

زمانُك ذا زمانُ دخولِ بيت ... وحفظ اللسان وخفض صوتِ

١) و ٢) تاريخ بغداد ١١ / ٤١٨. ٣) تهذيب التهذيب ٧ / ٢٩٣.
٤) تذكرة الحفاظ ٢ / ٣٦. ٥) روضة العقلاء ١٥٨ وتاريخ بغداد ١١ / ٤١٧
٦) تاريخ بغداد ١١ / ٤١٨.

فقد مرجتْ عهود الناس إلاّ ... أقلّهم فبادر قبل فوت
فما يبقى على الأيّام شيءٌ ... وما خُلِقَ امرؤٌ إلا لموتِ (١)

وممّن قضى نحبه سنة وفاة السعديّ (٢٤٤ هـ) (٢) الشاعر محمد بن أبي العتاهية إسماعيل بن القاسم، وكان عفّاً ناسكاً ورعاً محمود السيرة (٢) ولي القضاء برهة (٤) وجمع إلى فقهه (٥) قول الشعر في الزهد والحكمة والرقائق على طريقة أبيه (٦).

فهو ينصح بالاعتبار المُبصِر، فما أكثر أن نأتي المنيّة على كل حالٍ لم يكن ذاق طعم السُّقْم قبلَها، ويلتفت إلى سلطان الموت فيقول:

لربّما عُوفِيَ ذو غِرّة ... أصحّ ما كان ولم يَسْقمِ
يا واضع الميّت في قبره ... خاطبك القبر فلم تَفْهَمِ (٧)

ويصرّح ولا يكني عن حتْم المنيّة فيقول:

عِلَلُ المريض من المنيّـ ... ـةِ لا يعالجها الطبيبُ
إنّ الذي ذهب أهـله ... وبَقِيَ لها لهو الغريبُ (٨)

ويخاطب اللاهي المُقبل على أهوائه فيذكّره بمن باشرته المنيّة إبّان لذّته (٩)، ويتحدّث عن فضيلة حفظ اللسان وإقلال الكلام، إذ ليس لكل نُطْق جواب، بل جوابُ ما يُكره السُّكوت (١٠)، ويهدي إلى جُود المَطاء، ويرمي «لا» بالشُّحّ ويدعو عليها بالقتل:

قُتِلتْ «لا» فإنها ... خُلِعتْ خلعة النَّدَمْ
فهي تستهلك الجميـ ... ـلَ وتأتي على الكرمْ (١١)

١) روضة العقلاء ٦٧ ومرج هنا بمعنى فسد. ٢) الوافي بالوفيات ٢ / ٢٠٩.
٣) المصدر السابق وصفحته وطبقات الشعراء ٣٦٣ ٤) و ٥) طبقات الشعراء ٣٦٣.
٦) المحمدون من الشعراء ١٢٦. ٧) معجم الشعراء ٣٧٨ والوافي بالوفيات ٢ / ٢٠٩ وعونص: قبر. ٨) و ٩) المحمدون من الشعراء ١٢٢. ١٠) الاغاني «الثقافة» ٤ / ٩٠. ١١) ديوان المعاني ١ / ١٩٨.

وعُمِّر عاصر ابنَ ابي المتاهيةَ سوارٌ بن عبدالله بن سوار العنبري ، وكان فقيهاً بصرياً [1] لكنه ولي قضاء الرصافة ببغداد وانتقل إليها [2] ، وكان الامام أحمد بن حنبل إذا سئل عن سوار قال : « ما بلغني عنه إلا خير » [3] ، وتوفي في بغداد ، بعد أن كُفَّ ، سنة خمس وأربعين ومائتين [4] . وروى ابن عبد ربه أن سواراً دخل على عبدالله بن طاهر صاحب خراسان فقال : أصلح الله الأمير

لنا حاجةٌ والعُذْرُ فيها مُقدَّمُ
خفيفٌ مُعَنَّاها مُضاعَفَةُ الأجْرِ
فإن تَقْضِها فالحمدُ لله وحده وإن عاق مقدورٌ ففي أوسع العُذْرِ

فأكرمه وقضى حاجته [5] . وكان محمد بن عبدالله بن طاهر قد وصفه للمتوكل ، فمضى إليه سوار ، ولكنه لم يحظ بطائله ، فلما سأله محمد ماذا صنع قال :

رَجَعْنا سالمين كما بدأْنا وقد عظمتْ غنيمةُ سالمينا
وما تَدْرِينَ أيُّ الأمْرِ خيرٌ أما تَهْوَيْنَ أم ما تكرهينا [6]

وكان خاتمة القافلة من شعراء الفقهاء القاسمُ بن إبراهيم طباطبا الرسّي ، وهو شقيق محمد بن طباطبا الذي ظهر أيام المأمون ، وكان الخليفة لما فرغ من أمره طلب أخاه القاسم وكان يسكن جبال قدس من أعراض المدينة [7] ففرَّ إلى السند ، فلم يزل هناك إلى أن فاضتْ روحه سنة خمسة واربعين ومائتين ، ورجع ابنه الحسن إلى اليمن ، فكان من عقبه الأئمة الزيديّون فيها [8] .

ويعدّ القاسم بن إبراهيم الرسّي من أئمة الفقهاء على مذهب زيد بن علي ، بل استطاع أن ينفذ من خلال اجتهاده إلى آراء جديدة تبعثه فيها طائفة عُرفتْ

١) و ٢) تاريخ بغداد ٩ / ٢١٠ و ٢١١ . ٣) تاريخ بغداد ٩ / ٢١١ .
٤) المصدر السابق ٩ / ٢١٢ . ٥) العقد الفريد ١ / ٢٨٢ ، وقد ذكر الخطيب البغدادي أنه إنما وفد إلى محمد بن عبدالله بن طاهر . . . فقضى كل حوائجه ! انظر تاريخ بغداد ٩ / ٢١٠ . ٦) أخبار القضاة ٣ / ٢٧٩ . ٧) معجم الشعراء ٢١٧ .
٨) تاريخ اليمن لعمارة اليمني ١٥٩

بالقاسميّة [1] ، وفقه الرسّي - كما يقول الشيخ أبو زهرة - ممتاز جيّد [2] ، وآثار القاسم ، كما تدلّ آثاره المخطوطة ، غزيرة وافرة منها الدليل الكبير ، والرد على ابن المقفّع ، والرد على النصارى ، والمسترشد ، والردّ على المُلْحد ومناظراته ، وسياسة النفس ، والإمامة ، وصفة العرش والكرسي ، والقتل والقتال ، وأصول العدل والتوحيد وكتاب الهجرة ، والمكنون ، والعدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الله الواحد الحميد ، والدليل الصغير ، ومديح القرآن الكبير ، ومديح القرآن الصغير ، والناسخ والمنسوخ والبدل والكرر والمنشأ والمفرد [3] .

وإلى جانب تصانيفه الكثيرة في علوم الدين له آثارٌ من القريض ، لكنها آثارة تدلّ على أنه كان ، كما قال المرزباني ، حسن الشعر جيّده [4] ، ومما ذُكِر له قوله :

دَعِني هُديتِ أنالُ الغِنى بيأس الضَّميرِ وهَجرِ المُنى
كفافُ امرىء قانع قوتُه ومن يرضَ بالقوت نال الغِنى [5]

١) و ٢) الامام زيد لمحمد أبو زهرة ٤٩٥ . ٣) في دار الكتب المصرية صور مأخوذة لكل هذه الكتب . وانظر البعثة المصرية لتصوير المخطوطات الدكتور خليل ثابي ص ٢٤ (وزارة المعارف ١٩٥٢) . ٤) و ٥) معجم الشعراء ٢١٧ و ٢١٨ .

٢ ـ أعلام الشعراء الفقهاء في هذا العصر:

أ ـ عبدالله بن المبارك :

ولد أبو عبد الرحمن عبدالله بن المبارك سنة مائه وثماني عشرة للهجرة [١] في مدينة مرو [٢] من الأقطار الشرقية التي يَبسط اليوم الاتحاد السوفييتي نفوذه عليها، وكان أبوه المبارك من اهل هذه المدينة الأتراك [٣]، وكانت أمه خوارزمية [٤]، وقد أرسله والده إلى الكُتّاب منذ نعومة أظفاره لاستظهار القرآن وبعض مبادىء العلوم، وكانت تدرَّس بالعربية، اللغة المحبوبة في قلوب تلك الديار، ويبدو أنه كان ذكياً مفرطاً في الذكاء، ويروى عن صخر صديق ابن المبارك أنه قال: «كنا غلماناً في الكتاب، فمررت أنا وابن المبارك، ورجلٌ يخطب، فخطب خطبة طويلة، فلما فرغ قال لي ابن المبارك: قد حفظتُها، فسمعه رجل من القوم فقال: هاتها. فأعادها عليه ابن المبارك وقد حفظها» [٥].

ولما ترعرع عبدالله بن المبارك استخفّه بعض أترابه فماشاه على اللهو والموسيقا إلى حين قذف الله في قلبه نوراً وهُدىً من لدنه فأشرق بالتقوى وعمّر بالصفاء، وقد حدّث هو عن ذلك فقال: «كنت جالساً مع إخواني في البستان فأكلنا وشربنا إلى الليل، وكنت مولعاً بضرب العود والطنبور، ونمت سحراً فرأيت في منامي طائراً

١) طبقات ابن سعد ٣٧٢/٧. ٢) الورقة ١٤، والديباج المذهب ١٣٠.
٣) تذكرة الحفاظ ٢٥٠/١. والقصة المشهورة المنسبة إلى ابراهيم بن ادهم تعزى أيضاً للمبارك أبي عبدالله. قال ابن خلكان: «ويحكى عن ابيه أنه كان يعمل في بستان لمولاه وأقام فيه زماناً ثم إن مولاه جاءه يوماً وقال له: أريد رماناً حلواً. فمضى الى بعض الشجر وأحضر منها رماناً، فكسره فوجده حامضاً، فجرد عليه وقال: أطلب الحلو فتحضر لي الحامض؟ هات حلواً. فمضى وقطع من شجرة أخرى، فلما كسره وجده أيضا حامضا، فاشتد حرده عليه، وفعل ذلك دفعة ثالثة، فقال له بعد ذلك: أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟! فقال: لا. فقال: كيف ذلك؟ قال: لأني ما أكلت منه شيئاً حتى أعرفه. فقال: ولم لم تأكل؟ قال: لأنك ما أذنت لي. فكشف عن ذلك فوجده حقا، فعظم في عينه وزوجه ابنته» وبقال ان عبدالله رزقه من تلك الابنة، فنمت عليه بركة أبيه» (وفيات الأعيان ٢٣٧/٢). ٤) تاريخ بغداد ١٠٣/١٠.
٥) تاريخ بغداد ١٦٥/١٠.

فوق رأسي على شجرة يقول: «ألمْ يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق؟» قلت: بلى. فانتبهت وكسرت عودي وحرقت ما كان عندي، فكان هذا أول زهدي» [١].

وتنبئنا الروايات أنّ عبدالله قد شرع منذ هذه التوبة في حياة علمية جادّة صادقة خالصة لله، وكان آنئذ ابن بضع وعشرين [٢]، ولم يكتف بشيوخ داره بل طوّف في طلب العلم العراق والحجاز والشام ومصر واليمن [٣]، وأخذ عن كثرة عظيمة من علماء تلك الأمصار، وبلغ عدد الذين حدّث عنهم في كتبه فقط مائة وألفاً [٤]، وتشير المصادر إلى أنه قد جمع حديث رسول الله ﷺ وحمله كله وعدّه «حافظاً» [٥] له، وقد قال فيه أحمد بن حنبل، بحق، : «لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه» [٦].

وكلّ التراجم تُثني عليه بهذا الحفظ النادر، ويروى عن ابن علية أنه قال: «أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لم تضرب عنقي؟ قال له: أريح العباد منك. قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلها ما فيها حرف نطق به. قال: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبدالله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً» [٧].

ويروى أيضاً عن إسماعيل بن علي أنه قال: «بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حماد بن زيد (شيخه) مسلّماً عليه، فقال أصحاب الحديث لحماد بن زيد: يا أبا إسماعيل، تسأل أبا عبدالرحمن أن يحدثنا؟ فقال: يا أبا عبدالرحمن، تحدثهم، فإنهم قد سألوني؟ قال: سبحان الله يا أبا إسماعيل، أحدّث وأنت حاضر؟! قال: فقال: أقسمت لتفعلن - أو نحوه - قال: فقال ابن المبارك: خذوا «حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد... فما حدّث بحرف إلا عن حماد بن زيد» [٨] ولا تدل هذه القصة على مبلغ استيعاب عبدالله لحديث رسول الله فحسب، وإنما أيضاً على أدبه الوافر وذوقه السليم

١) انظر هامش الجواهر المضية ٢٨٢/١. ٢) عيون التواريخ حوادث سنة ١٨١.
٣) طبقات ابن سعد ٣٧٢/٧. ٤) الكواكب الدرية ٣٢/١ وانظر مجموعة من شيوخه في تاريخ بغداد ١٥٣/١٠ والديباج المذهب ١٣٠. ٥) تذكرة الحفاظ ٢٥٠/١.
٦) العبر في خبر من غبر ٢٧١/١. ٧) تاريخ الخلفاء ٢٩٣ ٨) تاريخ بغداد ١٥٥/١٠

واستيعابه للحديث النبوي على هذه الشاكلة التي زاد نصيبه متنها على عشرين ألف حديث[1] هو ما يفسّر إيثاره منهاج مالك في دراساته الفقهية على منهاج أبي حنيفة ، فابن المبارك صاحب ذخيرة فياضة من السنة ، وهي ذخيرة تُقيلُ - كائنا توفّرت - من الرأي ، ومن هنا كان سهلاً عليه سهولة بالغة أن يروي موطأ فقيه المدينة[2] ، ومن هنا كان كثيراً ما يردّد مثل قوله : « ليكن الذي تعتمدون عليه هذا الأثر ، وخذوا من الرأي ما يفسّر لكم الحديث »[3] ، وكان يقول إذا سئل ألا يستوحش من كثرة جلوسه في بيته ؟ : « كيف استوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه ؟ »[4] .

ومن يقرأ كتاب الزهد والرقائق وكتاب الجهاد لابن المبارك يلقَ من كثب غزارة مادّته ، وقد قام بتحقيق الكتاب الأوّل - في سفر ضخم يتألف من ٨٠٢ من الصفحات - حبيب الله الأعظمي وكيل مجلس إحياء المعارف (بماليكاؤن ، فاسك) في الهند ، فاعتمد مخطوطه نسخاً ثلاثاً من إستانبول والإسكندرية ودمشق ، وتنتهي هذه النسخ إلى المصنف من طريقتين أو من روايتين ، رواية الحسين بن الحسن المَرْوَزيّ المتوفى سنة (٢٤٦ هـ) ، ورواية نعيم بن حماد المتوفى سنة (٢٢٨) ، وكلٌّ منهما روى عن ابن المبارك .

وعلى نهج كثير من المصنفات في حديث رسول الله ﷺ في القرن الثاني كان كتاب الزهد والرقائق لا يحتوي أحاديث مرفوعة فحسب ، بل أيضاً مجموعة كبيرة من آثار الصحابه الموقوفة ومن مقاطيع التابعين وأتباعهم[5] .

والكتاب دعوة واسعة إلى طاعة الله سبحانه وعبادته ودوام ذكره سرّاً وجهراً والخوف منه والتوكل عليه ، ونبذ الآثام والرياء والعُجْب ، والإمعان في التفكّر وإخلاص النية وتذكّر الموت وحفظ اللسان والاستقامة والتواضع وامتياد

---

١) شذرات الذهب ٢٩٥/١ ، هذا ما في كتبه ، وبدعي أنه ليس بمجموع ما كان يحفظ .
٢) التاج المكلل ٥٧ . ٣) حلية الأولياء ١٦٠/٨ .
٤) تاريخ بغداد ١٥٤/١٠ . ٥) الحديث المرفوع هو ما رواه الصحابي أو التابعي أو من بعدهما من أقوال رسول الله وأفعاله وتقريراته وصفاته . والموقوف ما عزي إلى الصحابي من قول أو فعل أو تقرير ، والمقطوع ما نسب من ذلك الى التابعي فمن بعده .

الجوامع والعفة عن حطام الدنيا الغرور ، وتحرّي الحلال والاعتصام بالقناعة والرضى والإحسان والجود والصبر وإصلاح ذات البين ويعرض المؤلف أيضاً مقتطفات من سير الانبياء وخصال الصالحين .

وقد جعل المصنّف أبواباً أبواباً ، وأكثر الأغراض السالفة عناوين لها ، ولعل من الخير أن نقف عند باب منها ، وهو باب الإخلاص والنية[1] ، ليكون مثالاً على طريقته . وابن المبارك يروي فيه أربعة أحاديث للنبي ﷺ ، منها الحديث المشهور : « إنما الأعمال بالنيات . . . »[2] ، ومنها الحديث القدسي : « أحبُّ ما تعبَّدني به عبدي إليَّ النصح »[3] . وقد وزّع الأحاديث من دون تتابع . وإلى جانب ذلك أورد عدّة آثار موقوفة للسيدة عائشة منها قولها الذي أنفذته إلى معاوية : « أما بعد فاتّقِ الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً »[4] ، ويروي آثاراً أخرى لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابنه عبدالله .

وخلال الأحاديث والموقوفات كانت تتأثر مقاطيع التابعين ومن بعدهم ، فيروي لجعفر بن حيان وعمر بن عبدالعزيز ومحمد بن واسع ، وما يذكره للأخير إنما هو قول يحفظه من مواعظ لقمان لابنه ، وهو : « يا بني ، اتق الله ، ولا تُرِ الناس أنك تخشاه ليكرموك وقلبك فاجر »[5] . ويروي أيضاً لعبدالله بن عروة بن الزبير وعطاء الليثي وزبيد الذي يقول : « يسرّني أن يكون لي في كل شيء نيّة حتى في الأكل والنوم »[6] ، ويورد للحسن البصري عدّة آثار منها قوله : « ابنَ آدم تبصر القذى في عين أخيك وتدع الجِذْلَ المعترض في عينك »[7] . ويروي كذلك لشقيق بن سلمة وابن أبي جعفر وأبي العلاء وسعيد بن جبير الذي يقول : « إنّ أوّل مَن يُدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله على كل حال ، أو قال في السرّاء والضرّاء »[8] ، وعلى هذا النحو يروي لأبي البختري وبديل .

وإلى جانب الأحاديث والموقوفات والمقاطيع يشتمل الكتاب على طائفة من

---

١) انظر الزهد والرقائق ٦٢ وما بعدها . ٢) ص ٦٢ . ٣) ص ٦٨
٤) و ٥) ص ٦٣ ٦) ص ٦٤ . ٧) ص ٦٩ ، والقذى القش ونحوه ، والجذل : العود الغليظ . ٨) ص ٦٨ .

سير الأنبياء، كما تقدم، ومن ذلك ما أخرجه عن فضالة بن عبيد : أن داود عليه السلام سأل ربه عز وجل أن يخبره بأحب الأعمال إليه، فقال عشراً إذا فعلتهن يا داود! لا تذكرن أحداً من خلقي إلا بخير، ولا تغتابن أحداً من خلقي، ولا تحسدن أحداً من خلقي. .»[1] وأيضاً فيه مختارات من سير الصالحين كالذي يروى عن عمرو بن عتبة بن فرقد الذي كان يخرج ليلاً إلى القبور فيقول: يا أهل القبور، قد طويت الصحف، وقد رفعت الأعمال، ثم يبكي، ثم يصفق... [2].

ويبدو في الكتاب على نحو واضح اهتمامه بالتفسير إضافة إلى التحديث، ومن ذلك تفسير الحسن البصري لمعنى الخشوع في قوله تعالى: «ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين» [3] بأنه «الخوف الدائم في القلب» [4].

وقد يستعين ابن المبارك على غايته بالشعر، فيروي عن عاصم بن سلامة أنه قال لأصحابه: سأحدثكم ببيت من شعر. فجلوا ينظرون إليه ويقولون ما تصنع بالشعر فأنشدهم:

إنْ تَنْجُ منها تنجُ من ذي عظيمة وإلاّ فإني لا إخالك ناجيا

«فأخذ القوم يبكون بكاء ما رأيتهم بكوا من شيء، ما بكوا يومئذ» [5].

وفي الكتاب - إلى ذلك - ما يمكن عدّه مقدّمة واضحة لما تناوله فيما بعد فلاسفة المسلمين ومتصوفوهم - ولا سيما ابن سينا - المتوفى سنة (٤٢٨ هـ) عندما تحدّثوا عن أحوال العابدين والزاهدين «ومقامات العارفين»، إذ نجد ابن المبارك يروي عن وهب بن منبّه: «قال حكيم من الحكماء إني لأستحي من ربي عز وجل أن أعبده رجاء ثواب الجنة فأكون كالأجير إنْ أعطي أجراً عمل، وإلا لم يعمل، وإني لأستحي من ربي عز وجل أن أعبده مخافة النار... ولكنْ أعبده كما هو له أهل»[1].

ويشبه منهجَ الزهد والرقائق كتابُ الجهاد الذي قام بتحقيقه نزيه حماد عن

١) ص ١٦١، وانظر «باب توبة داود وذكر الانبياء صلوات الله عليهم» ص ١٦١ وما بعدها. ٢) ص ١٠ وانظر في سير الصالحين ص ٢٩٣ وما بعدها.
٣) سورة الأنبياء ٩٠. ٤) الزهد ص ٥٥، وانظر أمثلة أخرى من التفسير ص ٢٨ و ٣٠ و ٤١ و ٥٤ و ٧١ و ٧٢ و ٧٧ و ٧٨ ...
٥) ص ٧٨ و ٧٩. وانظر مثالاً آخر ص ٣٦٣. ٦) ص ٧٢ و ٧٣.

مخطوطة وحيدة احتفظت بها مكتبة لايبزج بألمانيا، فكان في ١٩٢ صفحة. ويمكن القول إن أهمّ فارق بين المؤلفين - عدا غرضيهما - أن الحديث المرفوع يغلب على كتاب الجهاد غلبة بيّنة، بينما يقلّ في كتاب الزهد والرقائق عن آثار الصحابة والتابعين، وقد روى كتاب الجهاد عن ابن المبارك سعيدُ بن رحمة المَصّيصي، وهو يدور حول فضيلة النضال في سبيل الله، وأحوال المكافحين ومقامات المجاهدين، ومكانة فريضة الجهاد في الإسلام.

ولم يؤلف عبدالله بن المبارك ذيْنك الكتابين المتقدّمين فحسب وإنما ألّف أيضاً مصنفات أخرى منها كتاب السنن في الفقه وكتاب التفسير وكتاب التاريخ وكتاب البر والصلة... [1] ولعل ذلك ما يفسّر حبّه الهائم للعلم والمعرفة، وهو حبّ ليس يدلّ عليه ما سلف من لزومه بيته للعكوف على كنوزه، وشهادة ابن حنبل به فحسب، بل كذلك يدلّ عليه مثلُ جوابه عندما سأله سائل «من الناس؟ قال: العلماء. قال: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قال: فمن السِّفْلة؟ قال: الذي يأكل بدينه» [2]، ومثل قوله: «لا تسمّى عالماً حتى لا يحقر حبّ الدنيا بقلبك» [3] فقد تغلغلت هذه الفضيلة في ضميره وعدت فيه طبعاً أصيلاً وخلقاً كأنه من جبلّته.

ومن هنا كان من أخلاقه المشهورة الإنفاق على طلبة العلم إنفاقاً واسعاً غدقاً جعله يتحرام أينما كانوا، وقد عوتب مرة فيمَ يفرق المال على غير أهل بلده فقال: «إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، بحاجة للناس... فإن تركناهم ضاع عليهم، وإن أعنّاهم بشيء انتشوا العلم لأمة محمد ﷺ، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بثّ العلم» [4] ولم تكن هذه الخصلة الزكيّة في حبّ العطاء لتقتصر على مبتغي المعارف، بل كان ينفق في سبيل الله ذات اليمين وذات الشمال، ويروى أنه كان يتصدّق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم [5]، ومن يستقص الحكايات المروية له في ذلك يخيّل إليه أن سجية السخاء قد باتت لدى ابن المبارك هيواية يهواها وأريحية قادرة، ويحكي لنا الخطيب البغدادي كيف «كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع عليه إخوانه من أهل مرو فيقولون: نصحبك

١) الفهرست ٣١٩. ٢) صفة الصفوة ٤/١١٥ ٣) الكواكب الدرية ١/١٠٢
٤) تاريخ بغداد ١٠/١٦٠. ٥) تاريخ بغداد ١٠/١٥٨

يا أبا عبدالرحمن ؟ فيقول لهم : هاتوا نفقاتكم ، فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق ، فيقفل عليها ، ثم يكتري لهم ويخرجهم من مرو إلى بغداد ، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء ، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأجمل مروءة ، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ . فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم : ما أمروك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طرَفها ؟ فيقول : كذا. فيشتري لهم ، ثم يخرجهم إلى مكة ، فإذا وصلوا مكة وقضوا حجّهم ، قال لكل واحد منهم : ما أمروك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة ؟ فيقول كذا وكذا. فيشتري لهم ، ثم يخرجهم من مكة فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو، فإذا وصل إلى مرو جصّص أبوابهم ودورهم فإذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة فكساهم ، فإذا أكلوا وسرّوا دعا بالصندوق ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرته بعد أن كتب عليها اسمه » ! (١).

ويشبه هذه القصة الطريفة ما يحكى من أنه كان يطعم أصحابه ، في أثناء سفره من مصر إلى مكة ، الخبيص ، بينما هو الدهر صائم (٢) ، ومن أنه خرج مرة إلى الحج حتى إذا كان ببعض البلدان مات معهم طائر ، فأمر بإلقائه ، وكان قد تخلف عن أصحابه ، فرأى جارية قد خرجت من دار قريبة فأخذت الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار . فجاء فسألها عن أمرها وأخذها المِنة فأخبرته أنها تقيم هي وأخوها في تلك الدار ، وليسا يملكان شيئاً ، وليس لهما قوت كاف ، وأنهما يتيمان منذ مقتل أبيهما . فأمر ابن المبارك بردّ الأحمال وقال لوكيله : كم معك من النفقة ؟ قال : ألف دينار . فقد عدّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو ، وأعطها الباقي ، فهذا أفضل من حجنا هذا العام (٣) !

ومن أخلاق ابن المبارك ـ إلى هيامه بالعلم والكرم ـ الاعتدال والحكمة في موقفه من الفرق الاسلامية لعصره ، وقد مرّ بنا كيف كان يحب عثمان وعلياً معاً ويثني على المثالين الذين ينكرون فضل أحدهما ، ويبدو أن مبالغة العلويين أو بعض العلويين في تجريح من سواهم هو ما دفعه إلى تبيان كرامة معاوية وغير معاوية ممن

١) تاريخ بغداد ١٠/١٥٨ . ٢) البداية والنهاية ١٠/١٧٨ .
٣) البداية والنهاية ١٠/١٧٨ .

تناولوهم بالطعن والازراء ، ومن هنا كان يفضّل هذا الخليفة على أمير المؤمنين عمر ابن عبدالعزيز نفسه ، على ما كان له من فضل ، ويقول : « صلّى معاوية خلف رسول الله ﷺ فقال : سمع الله لمن حمده . فقال معاوية : ربنا ولك الحمد ، فما بعد هذا »(١)؟ وكأنه كان يريد أن يبيّن أن الصحابة بشر مثل كل البشر ، وأنهم قد تتزلق منهم « طائفتان » في خلاف دون أن يسلخ ذلك عن إحداها عقيدة « المؤمنين » . ولعل ذلك ما أكسبه محبّة الفِرَق الموحّدة (٢).

ويمكن القول إن نزعه الايلاف هذه عنده تمت بأسباب قوية إلى زهده الذي شهر به ، وهو زهد كان يدفعه إلى الحدب على جماعة الصوفية الذين كانوا ينزلون معه أو يرابطون في الثغور الاسلامية كالمَصّيصة وغير المَصّيصة من مواقع المجابهة مع البيزنطيين (٣). كما كان يدفعه إلى رياضة روحية متنوّعة من صيام وقيام وحفظ لسان (٤) ، ومن مواعظ كثيرة توصي بذكر الله واتقائه حقّ التقوى ، يقول : « من ختم بذكر كتب نهاره كله ذاكراً » (٥) وكان شديد التحرّي لذلك (٦) ، ويقول أيضاً : « أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يطعموا أطيب ما فيها . قيل له : ما أطيب ما فيها ؟ قال : المعرفة بالله عز وجل » (٧).

وجهاد ابن المبارك الذي أمضى فيه عمره ، كما تخبرنا التراجم (٨) ، بل وفاته إبان انصرافه من إحدى الغزوات سنة إحدى وثمانين ومائة (٩) ، تدلّنا ـ في جملة ما يدلّنا ـ على نوع زهده وحقيقة تصوّفه ، فقد كان هوان الدنيا عليه يجعله لا يبالي لها بالة ، بل يرابض ويقاتل في سبيل الله ويتمرّس على المبارزة والمصاولة ويكون بطلاً صنديداً يقتحم بكل إقدام ميادين المعارك الدامية في الثغور ويجدل أفذاذ المحاربين من الروم (١٠) . وكان تزهّده على حطام الفانية الغرور يدفعه في الوقت نفسه لئلا يخفض همّته لأحد من الخلائق يستجدي فُتاته ، فكان من أجل ذلك يرحل للتجارة (١١) والمعاش تماماً كما كان يضرب في أنحاء الأرض طلباً للعلم.

١) وفيات الأعيان ٢/٢٣٨ . ٢) انظر عيون التواريخ حوادث سنة ١٨١ .
٣) انظر تاريخ بغداد ١٠/١٥٧ وما بعدها . ٤) و ٥) و ٦) انظر في ذلك الكواكب الدرية ١/١٣٢ ٧) حلية الأولياء ٨/١٦٧ ٨) انظر تذكرة الحفاظ ١/٢٠٥ .
٩) المعارف ٥١١ ١٠) انظر مرآة الجنان ١/٣٨٠ ١١) العبر ١/٢٨١ .

وقد انعكست هذه الحياة المجاهدة الراضية أو المفعمة الناشطة على شعر عبدالله ابن المبارك، ولحظ ذلك الأقدمون فشهد النوويّ كما قد شهد ابن سعد من قبل: « قال الشعر في الزهد والحث على الجهاد »[1]. وقد مرت بنا طائفة حسنة من أشعاره في الزهد وغير الزهد مما سلكته في الحكمة. ومن يطالع آثاره الباقية، وهي لم تزد على مائتي بيت، يجد هذا الغرض يستحوذ عليها استحواذاً ظاهراً. فهو كثيراً ما يحضّ على الزهادة في الحياة الدنيا الراحلة، والإقبال بإخلاص على الحياة الثانية الباقية، وتربية النفس على طاعة الله وتقواه، والاستمساك بعُرى الأخلاق الطيبة، والاعتبار بالأفواج المتلاحقة تترى إلى دار الفناء.

فهو لا يبالي في زهادته أن يطعم في دنياه القليل اليسير، ما دام ذلك حلالاً لا يوبقه في إثم ولا يُرديه في عذاب الآخرة:

والتمس رزقك من ذي الـ ـعَرْشِ والربِّ القديرِ
وارضَ يا ويحكَ من دنـ ـياك بالقوتِ اليسيرِ
واجتنبْ ذاك حلالاً تنجُ من نار السعيرِ[2]

ذلك أن حياة العلماء شفيفة وَرِعة ليس يمحقها نوم طويل ولا انغماس ثقيل:

يا طالب العلم بادر الورعا وهاجر النوم واهجر الشِّبَعا[3]

ومن أسباب الورع ألاّ تفوته فرصة من فراغ المشاغل دون أن يقضيها في محراب الطاعة وجَناب الرحمن، وكذلك ألاّ يزلّ في قول باطل ولا كلمة حرام، وأن يستبدل بما من شأنه ذلك ذكراً مسبّحاً أو سكوتاً سالماً:

واغتنمْ ركعتين زُلفى إلى اللـ ـه إذا كنت فارغاً مستريحا
وإذا ما همتَ بالنطق البا طل فاجعلْ مكانه تسبيحا

١) طبقات ابن سعد ٧/٣٧٢، وتهذيب الأسماء واللغات ١/٢٨٦.
٢) تاريخ ابن عساكر « المنتخب » ج ٦. ٣) جامع بيان العلم وفضله ١/٢٣٦.

إنّ بعض السكوت خير من النـ ـطق إذا كنتَ بالكلام فصيحا[1]

إن إباحة المرء لسانه أن يسترسل دونما ضابط محافظ سوف تتبره تتبيراً كبيراً، ولعل من الخير أن يهتم بأمره، فهو الذي يعكس ما يملكه من عقل وفكر، فلينظر إلى صورة ما يعكسه لسانه من ذلك:

احفظْ لسانَكَ إنّ اللسانَ حريصٌ على المرء في قتلهِ
وإنّ اللسان بريدُ الفؤادِ دليلُ اللسان على عقلهِ[2]

وكما وعظ ابن المبارك بالزهد ودعا إليه وعظ أيضاً بالاستزادة من خير ما يتزيّن به الإنسان، وهو الحرص على التقوى، وما يصحبها من هجران للمآثم، ومن تسامح في المعاملة، ومن مُسالَمة ودَعة:

ألا إنّ تقوى الله أكرم نسبةٍ يسامي بها عند الفخار كريمُ
إذا أنت نافستَ الرجال على التقى خرجتَ من الدنيا وأنتَ سليمُ
أراكَ امرأً ترجو من الله عفوه وأنت على ما لا يحبّ مُقيمُ
وإنّ امرأً لا يرتجي الناس عفوه ولم يأمنوا منه الأذى للئيم[3]

وعلى هذا النحو ينصح بجميل الأخلاق كالكرم الذي لا يحمد ثراء من دونه، وما أكثر أن يثمر لدى ذوي الحاجة ثماراً ناضرة ونشوة فَرِحة:

لا خيرَ في المال لكنّازهِ إلا جوادِ الكفّ وهّابهِ
يفعل أحياناً بزوّاره ما تفعل الخمر بشرابه[4]

ومن حُسن الخُلق أن ينبذ المرء الإثم الذي يميت القلب، وإذا فعل ذلك خطأ كان سيّداً حرّاً ليس تستعبده شهوة ولا يقهره هوى:

١) تاريخ ابن عساكر « المنتخب » ج ٦. ٢) كتاب الورقة ١٦، وروضة العقلاء ٢١، والفتوحات الوهبية ١٥٩. ٣) تاريخ ابن عساكر « المنتخب » ج ٦
٤) روضة العقلاء ٢١٣، وتاريخ ابن عساكر « المنتخب » ج ٦.

رأيت الذنوبَ تميتُ القلوبَ ويورثُكَ الذلَّ إدمانُهـــــا
وتركُ الذنوبِ حياةُ القلوبِ وخيرٌ لنفسك عصيـــــانُها[1]

وأيضاً فإنَّ من محامد الأخلاق حسن المعاشرة ودماثة الصحبة والمعاملة اللينة الرفيقة ، وأن يأخذ كل فرد نفسه بالمحاسبة والمراقبة ويعفو عن هفوات أخلائه في الوقت الذي لا يضنُّ عليهم بالموعظة الحسنة والنصيحة الطيبة دون تجريح ولا مذمة ولا تعيب وإلا فقدم واحداً واحداً.

إذا صاحبتَ في الأسفارِ قوماً فكنْ لهمُ كذي الرَّحِمِ الشفيقِ
بعيب النفس ذو بصر وعلم غنيٌّ النفس عن عيب الرفيق
ولا تأخـــــذ بعثرة كل قومٍ ولكنْ قلْ هُلمَّ إلى الطريق
فإنْ تأخذْ بعثرتهم يقلُّوا وتبقى في الزمان بلا صديق[2]

ولعبدالله بن المبارك خلاصات من الحِكَم تشبه أن تكون أمثالاً هادية ، ومن ذلك قوله :

أدَّبتُ نفسي فما وجدتُ لها من بعد تقوى الإله من أدبِ
في كل حالاتها ، وإن قصرت ، أفضلَ من صمتها عن الكذب
إن كان من فضة كلامك يا نفس فإن السكوت من ذهب[3]

وقوله وقد وعّظ رجلاً :

وهوّنَ وجدي أن قُرْبَ بيننا فراقُ حياة لا فراقُ ممات[4]

وقوله :

١) بهجة المجالس ٢/٢٣٤ ، ومختصر جامع بيان العلم ٨٥ ، وأعلام الموقعين ١/١١.
٢) ابن عساكر « المعهد » ج ٦ ، وعبدالله بن المبارك للمحتسب ١٦٤ . وقد نسبت الابيات في مناقب الشافعي ٢/٨٤ إلى الامام الشافعي . ٣) تاريخ ابن عساكر « المعهد » ج ٦.
٤) طبقات الشعراني ١/٦٠ ، وبهجة المجالس ١/٢٤٦ .

آخرُ العلم لذيذٌ طعمُهُ وبدي الذوق منه كالصَّبِر[1]

وتلك الأمثال اجتباها ابن المبارك من تجاربه الواسعة التي خبر فيها الحياة ، وهي تجارب كثيراً ما كشفتْ له قلة الدنيا وهوان أمرها ، فها هي ذي مرآة المذاق صبة الفجائع :

دنيا تداولها العبادُ ذميمةً شيبتْ بأكرهَ من نقيع الحنظلِ
وبنات دهر لا تزال مُلمَّةً فيها فجائع مثل وقْع الجندلِ[2]

إنها حياة فياضة بالهموم مترعة بالكبَد ، ما إن يستقيم لأمر فيها شأن حتى يأخذ بالميل ، وإنْ لقميناً أن يحذرها الإنسان ، فإذا أُوتي نعمة حفظها وقدّرها ، وشكر عليها مولاه ، واتقى المعاصي التي تمحق كل نعمة ، وتزيل كل خير . ذلك أنه لا يحظى فيها براحة ولا يسعد بهناءة ما لم يقدم بين يديها من الصبر والاحتمال قرباناً سبباً ، كما أنه لا يدري ميقات مصيبة ولا ميعاد حادثة ، إنما يصيبه كل ذلك بغتة من القدر المهيمن القاهر :

همومُك بالعيش مقرونةٌ فما تقطع العيشَ إلا بهمّ
إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصُه ترقَّبْ زوالاً إذا قيل تم
إذا كنتَ في نعمة فارعَها فإنَّ المعاصي تُزيل النعم
وحُمَّ عليها بشكر الإله فإنَّ الإلهَ سريعُ النِّقَم
حلاوةُ دنياك مسمومةٌ فما تأكل الشهد إلا بسم
فكم قدَرٍ دَبَّ في مُهلة فلم يعلم الناس حتى هجم[3]

وكما استنبط ابن المبارك أمثاله من مدرسة الحياة المريضة جعل يرسل نظرات بعيدة متأملة في خِتام تلك الحياة للاعتبار بالناس الذين يتووون على اختلاف درجاتهم

١) عبدالله بن المبارك للمحتسب ١٥٩ . ٢) كتاب الورقة ١٦ .
٣) عبدالله بن المبارك للمحتسب ١٦٨ ، وانظر البيتين الأول والخامس في الورقة ١٦.

في دنيام التي عاشوا :

قد تصفحت قبور الـ ـقوم في يوم النشور
لم تميّزهم ولم تعـ ـرف غنياً من فقير
خمدوا فالقوم صرعى تحت أشقاف الصخور [1]

وقد كان كلما أرسل هذه النظرات الواعية انقلب خبيراً منذراً وواعظاً فاصحاً للتفكر في ذلك المصير المحتوم وردّه ، وما قد يكون وراءه من "هوي" في سوء العذاب :

وكيفَ قرّتْ لأهل العلم أعينهم أو استلذوا لذيذ النوم أو هجعوا ؟
والموت ينذرهم جهراً علانيـة لو كان للقوم أسماع لقد سمعوا
والنار ضاحيـة لا بد موردهم وليس يدرون من ينجو ومن يقع [2]

وأم ما لعبدالله بن المبارك في هذا الشأن قصيدة هي أطول ما في أيدينا من قريضه ، إذ تقع في ستة وثلاثين بيتاً رواها له الحافظ ابن عساكر ، ويقال في سبب تأليفها إنهم حفروا بخراسان حفيراً فوجدوا فيه رأس إنسان ، فوزنوا سناً من أسنانه فإذا فيها سبعة أساتير [3] . فاهتزّ الشاعر ابن المبارك لهذه الواعية ، ومضى يتصوّر ضخامة السابقين وعظمة المتقدّمين ، ويتذكّر كيف طوتهم يد المنية ... وسرعان ما ذرفت عيناه بنزارة :

تذكّرتُ أيامَ ما قد مضى فهاج لي الدمع سَحّاً هَتونا
فردّدتُ في النفس ذكراهمُ ليُحدثَ ذلك للقلب لينا

ويستمر في تفكيره بذلك الاثر العجيب ، ويجعل منه عبرة فاطقة باقيـة ،

١) تاريخ ابن عساكر « المهد » ج ٦ . والشير مصدر عثر أي كبا ، وهي في المخطوطة هكذا الشير . ٢) المصدر السابق ج ٦.

٣) الأساتير جمع إستار وهو أربعة مثاقيل ونصف ، والمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم ، وزنة الدرهم ٣٫١٢ غ ، فالاستار الواحد ٢٠٫٠٠ غ ، أي وزن هذه السن يقارب ١٥٠ غ !!

وكأنما تخطر له حوادث أخرى لا تقل عنه عظة ولا إلتفاتاً ، فيتذكر تلاحق النوائب وتتابع الوفيات ، فيخاطب نفسه :

وما إنْ نزال على حادثٍ يطيرُ له القلب رَوْعاً حزينا
وفي كل يومٍ وفي ساعةٍ تكون النوائب بالموت فينا
وإما قريباً تُراشُ به وإما شمالاً وإما يمينا
إذا سكن الرّوع عن ميت بُدِهنا بآخر ينعى السكونا
وكيف البقاء على ما أرى ستُؤْتين عما قليل يَقينا

وها هم أولاء كرامٌ أعزّة يُوارون في مقابرهم ، وفيهم من كان حبيباً إلى أهله ، ولم يبرح من قلوبهم حتى بعد وفاته ، وفيهم الوقور الفريف والتقي الصالح ، وفيهم الاصحاب والأقارب ... كل أولئك غودروا ، وآب أشياعهم وهم يتأوهون عليهم وفي أعينهم دموع آسية وفي قلوبهم لوعة دامية :

دفنتُ الأحبّةَ لم آلُها أُهيل عليها تراباً وطينا
وكانت تعزّ على أهلها وأعزز بها اليوم أيضاً دفينا
لقد غيّب الموت في لحده وقاراً نبيلاً وبرّاً ودِينا
وصحبيَ والأهلَ فارقتُهم وليت أرام رفاقاً عزينا
كأنّ نأدّبَ اهليهمُ حنين عشار تحبّ الحنينا
وإخوان صدق لحقنا بهمْ فقد كنتُ بالقرب منهم ضنينا
وأوحشت الدار من بعدهم أظلّ على ذكرهم مُستكينا ...

هكذا ناموس الحياة يجري عليه أفواج البشر من دون أن يتأبى عليه منهم مليك ولا سُوقة ، ولا يفلت منه قديم ولا أخير ...

وإنْ كنت بالعيش مغترّة تمنّيك نفسُك فيها الظنونا
فنادي قبورك ثم انظري مصارع أهلك والأقربينا
إلى أين صاروا وماذا لقُوا وكانوا كمثلك في الدَّوْر حينا ؟
وأين الملوك وأهل الحِجا ومن كنتِ تَرْضين أو تحذرينا؟
وأين الذين بَنَوْا قبلَنا قرونًا تَتابَعُ تتلو القُرونا ؟

ويعود في نهاية القصيدة إلى خبر الحُفَير وما أدهشه من أمر السنين الفخمين، ويتذكر بقية الأسنان الثلاثين، ويتخيل صورة صاحبها وعظم جسمه، ويتساءل ماذا كان يكفي هؤلاء وما كان يشبعهم؟ إن النفس لتضؤل أمامهم حقاً، وتقيل، كيف لا وقد أتى الموت على أولئك الجبابرة الأقوياء؟!

أُتيتُ بسنَّيْنِ قد رُمِّتا من الحِصْن لما أثاروا الدفينا
على وزن مَنَّيْن إحداهما ثُقِلّ به الكف شيئاً رزينا
ثلاثون أخرى على قَدْرها! تباركت يا أحسن الخالقينا
فماذا يقوم لأفواههم وما كان يملأ تلك البطونا ؟
إذا ما تذكرت أجسامهم تَصاغرت النفس حتى تهونا
وكلٌّ على ذاك لاقى الردى فبادوا جميعاً فهم خامدونا [1]

وهذه الحكمة التي علقت على شعر ابن المبارك، بما فيها من زهد ووعظ وعبرة كانت تدفعه - من جهة أخرى - إلى جهاد فَرط وملازمة الثغور والحض على هذه الفضيلة، وقد مرّت بنا أبياته التي كتبها لأبي المتاهية والفضيل بن عياض في ذلك، ومما رواه له الخطيب البغدادي بيتان يصوران كيف كانت زهادته قوة

١) انظر القصيدة كاملة في تاريخ ابن عساكر « المعهد » ج ٦، وانظر الأبيات السبع الأخيرة أيضاً في بهجة المجالس ٢/١٥٥.

دافعة إلى المضاء الحثيث على درب النضال الصادق في سبيل الله، يقول:

بغضُ الحياة وخوفُ الله أخرجني وبيع نفسي بما ليست له ثمنا
إني وزنت الذي يبقى ليعدله ما ليس يبقى فلا والله ما اتّزنا [1]

ولعبدالله بن المبارك إلى جانب أشعاره في الحكمة والجهاد أبيات في مدح بعض الصحابة من أمثال عثمان وعلي [2]، أو في مدح أئمة العلم كأبي حنيفة وميسّر بن كدام، وقد تقدمت له مقطوعة في الإشادة بعلم الإمام الأوّل، ومما روي له فيه أيضاً قوله:

رأيت أبا حنيفة كل يوم يزيد نبالة ويزيد خيرا
وينطق بالصواب ويصطفيه إذا ما قال أهل الجور جورا
يقايس من يقايسه بلُبّ فمن ذا يجعلون له نظيرا
كفانا فَقْدَ حماد وكانت مصيبتنا به أمراً كبيرا
فردّ شماتة الأعداء عنا وأبدى بعده علماً كثيرا [3]

ومما قاله في مسعر بن كدام:

من كان ملتمساً جليساً صالحاً فليأت حلقة مسعر بن كدام
فيها السكينة والوقار، وأهلها أهل العفاف وعِلْيةُ الأقوام [4]

وله بيتان في تأبين الإمام مالك أوردتهما في الرثاء، وثلاثة أبيات في ذمّ الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة ويشرون بالباقية الفانية، يقول:

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره وقد فتحت لك الحانوتَ بالدينِ
بين الأساطين حانوت بلا غلق تبتاع بالدين أموال المساكين

١) تاريخ بغداد ١٠/١٦٦. ٢) انظر تاريخ ابن عساكر « للمعهد » ج ٦.
٣) عبدالله بن المبارك للمحتسب ١٥٨. وحماد هو حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة
٤) تذكرة الحفاظ ١/١٨٩.

صيَّرتَ دينك شاهيناً تَصيد به وليس يفلح أصحاب الشواهين [1]

وعلى الرغم من أن كثرة شعر ابن المبارك تُسلك في القريض الحسن فإنه قلَّما ارتقى إلى مستوى الإبداع الفني السامق، وإن لم يكن يخلو من ذلك، إذ قد يلمح فيه إيقاع مقسَّم كما في بيتيه اللذين مدح بهما حماد بن زيد، وقد تقدَّما، أو يلمح فيه قوة شعرية واضحة وجمال أليق كما في قوله الذي رواه ابن عبد البر:

أحضرْ طعامك وابذُلْه لمن أكلا
واحلفْ على مَنْ أبى واشكرْ لمن فعلا

ولا تكنْ ساريَ العِرْض محتشماً من القليل فلستَ الدهرَ محتفلا [2]

ومما يلحظ في شعر عبدالله بن المبارك أن أغلبه على روي النون، وهذا إن لم يكن اعتباداً نفسياً «لا شعورياً» عليه - قد يدلّ على افتقادنا لأشعار له على روي سائر الحروف، أو جملة منها، على نحو يتلاءم مع فونيماته، وربما أيّد ضياعَ كثير من قصائده أو مقطوعاته أن ابن أبي حاتم الرازي قد حكم له بأنه «من شعراء الفقهاء المبرّزين» [3]، مما يرجح أنه وقف على مجموعة صالحة له.

ب - الإمام الشافعي:

ولد أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي [4] في مدينة غزة [5] سنة خمسين ومائة للهجرة [6]، ويبدو أن أباه إدريس بن العباس الهاشمي كان قد

١) عيون التواريخ حوادث ١٨١، والتاج المكلل ٥٧.
٢) بهجة المجالس ٨٥/٢. والساري: ثوب رقيق نادر. أي لا تكن دعوتك ضيقة.
٣) الجرح والتعديل ١٧٩/٢/٢. وانظر البداية والنهاية ١٧٧/١٠ إذ يصف شعره بأنه حسن
٤) انظر في نسبه طبقات الشافعية لابن هداية الله الحسيني ص ١ والنجوم الزاهرة ١٧٧/٢.
٥) طبقات الشافعية للأسنوي ١١/١ وقيل بل ولد في اليمن (انظر معجم الأدباء ٢٨٢/١٧) وقد تأول بعضهم ذلك بأنه ولد في أرض أهلها قبائل يمنية (انظر معجم الأدباء ٢٨٢/١٧) وقيل انه ولد في عسقلان أو منى، «انظر شذرات ٩/٢» لكن القول الأول الذي يجعل مولده في غزة هو الراجح، لأنه ينتسب الى لسان الشافعي نفسه «انظر مناقب الشافعي للرازي ١٤» ولأن مجموعة من العلماء قد رجحته «انظر معجم الادباء ٢٨٢/١٧ - وتاريخ الخميس ٣٧٤/٢، وطبقات الشافعية لابن هداية الله ١».
٦) طبقات الشافعية لابن هداية الله ١.

اضطر إلى هذه المدينة النائية عن موطن قريش، طلباً للرزق والمعاش، غير أنه توفي وابنه لما يزل في المهد، فرجعت به أمّه الأزدية إلى مستقر قرابة في مكة، وهو ابن سنتين [1].

وما إن نما عوده بعض النموّ حتى أسلمته والدته الحانية إلى الكتّاب، إلا أنها لم تكن تملك ما تعطي شيخه من أجْرة [2]، وهنا بدأت أحاسيس الفتى النابغ الموهوب تتفتّح لبشق سبل المجد الحق بإخلاص العاملين وجهاد الطالبين، فكان كلما انشغل المعلم خلفه على التلامذة، جاعلاً هذه النوبة بمثابة أجر يسديه إليه، وتخبرنا الروايات أنّ مؤدّبه قد رضي منه هذا الأجر رضاء تاماً [3].

ولم يطو الغلام اليتيم من عمره سبع سنين حتى استظهر القرآن [4]، ثم شرع في مرحلة علمية ثانية، منذ هذا الوقت المبكر، فكان يجلس على مقربة من حلقة العلماء ليحفظ ما استطاع من أحاديث رسول الله ﷺ [5]، ولم يلبث أن استهوته حكمة النبوة، فصار يكتبها على ما يستطيع توفيره من قطع خزف أو دفّ أو كرَب نخيل أو أكتاف جمال أو ظهور أوراق كان يطلبها من دواوين الحكومة [6]، حتى ملأ من ذلك جرّة قديمة كانت لدى والدته [7].

وعلى عادة من كانوا يتبدّون لنيل الفصاحة من منابعها العذبة الصافية ضرب محمد بن إدريس في بوادي هذيل [8] وغيرها من أمهات القبائل التي لم يَشُبْ لسانها لحن ولا رطانة، وهنالك جمع كثيراً من لغتها وأشعارها. ولكن عين الله التي عوضته حنوّ الأبوة أزجت إليه من يهديه سبيل ما هو مهيّأ له من أوّل المشوار، وقد حكى الشافعي قصة اتجاهه إلى الدراسات الفقهية فقال: «لما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب، فمرّ بي رجل من الزيديين فقال لي: يا أبا عبدالله عزّ عليّ ألا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه، فتكون قد سدْتَ أهل زمانك» [9]. وبذلك استيقظت مبوله التي كان استجاب

١) صفة الصفوة ١٤١/٢. ٢) و ٣) و ٤) و ٥) مختصر جامع بيان العلم ٤٩.
٦) معجم الأدباء ٢٨٤/١٧، وصفة الصفوة ١٤١/٢، والكرب: أصول السعف الغلاظ العراض، وظهور الأوراق أي ما كان مكتوب الوجه من الورق المستعمل في الدواوين.
٧) مختصر جامع بيان العلم ٤٩. ٨) و ٩) الديباج المذهب ٢٢٨.

لها منذ ختم القرآن وجمع طائفة من الأحاديث .

وكان في مكة أمثال سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي فتردد عليهما (١) يغرف من علوم الدين غرفاً طيبة ، وكان اسم مالك بن أنس قد ذاع في كل مكان ، فاستعار الشافعي كتابه « الموطأ » من رجل مكي وحفظه في تسع ليال ظاهراً (٢) ، ولم يلبث أن قصد إليه ولما يتجاوز اثنتي عشرة سنة (٣) . وقد انكبّ على مَعينه ينهل ويستزيد ويدفعه إعجاب مالك بذكائه إلى الاهتمام العلمي ، ويروى أن إمام دار الهجرة قال عن الشافعي : « إن يكُ أحد يفلح فهذا الفلام » (٤) وقال أيضاً : « ما أتاني قرشي أفهم من هذا الفتى ، يعني الشافعي » (٥) . وقد حفظ له تلميذه البرّ فضله ، وظلّ يقول بعد أن بلغ ما بلغ : « مالك معلمي واستاذي ، ومنه تعلمنا العلم ، وما أحدٌ أمَنُّ عليّ من مالك ، وجعلت مالكاً حجّة فيما بيني وبين الله تعالى » (٦).

وفي هذه الفترة مرّ بالمدينة والٍ على اليمن فكلّمه بعض القرشيين بشأن الشافعي لعله يجدُ له عملاً عنده ، فقبل منهم وصحبه معه وكلّفه بوظيفة بسيطة ، فقام بها ، فأسلم إليه أخرى ، فنهض بعبئها ، وكان يأتي المعتمرون من اليمن إلى مكة لزيارة بيت الله الحرام ، فكانت أمّه تتحرى أخباره منهم فيثنون عليه (٧) . ويبدو أنه كان يذهب بين الفينة والفينة إلى مكة ليلقى والدته ، وأنه كان يقابل شيوخه الذين تلمذ لهم من قبل ، ويأخذ عنهم من جديد . وما إن بلغ من العمر خمس عشرة سنة حتى قال له مسلم بن خالد شيخُه : « أفتِ فقد آن لك أن تفتي » (٨) ، كما بلغ في هذه السن منزلة كان يملي فيها من حفظه من الموطأ على الحجّاج المصريين (٩) الذين كانوا يقدمون على مالك بعد أن يؤدوا الفريضة ، وهو ما قرّب إلى ذهنه فكرة الذهاب إلى ديارهم فيما بعد .

وربما أحسّ الشافعي من نفسه مقدرة على الحِجاج فأبدا به - في إحدى لقاءاته لمالك - يراجعه القول ويناظره ويتزاق في شماتر المراهقين أو بعض المراهقين

١) الوافي ٢/١٧٢ . ٢) معجم الأدباء ١٧/٢٨٤ . ٣) حلية الأولياء ٩/٦٩ .
٤) وفيات الاعيان ٣/٣٠٦ . ٥) مناقب الشافعي للرازي ٣١ .
٦) الديباج المذهب ٢٢٨ . ٧) مختصر جامع بيان العلم وفضله ٤٩ .
٨) تاريخ الجنابي ٢/٣٧٤ . وانظر صفة الصفوة ٢/١٤١ إذ يقول ابن الجوزي : « أذن له مسلم بن خالد الزنجي بالفتيا وهو دون العشرين » . ٩) نور الأبصار ٢١٩ .

من المبالغة في المراء والإكثار منه ، فقال له مالك : « إذا أردت : فإن قيل قلنا » فقصد هنا ! وأشار بيده إلى جهة العراق ، إشارة إلى أصحاب أبي حنيفة لأنهم أهل نظر وجدال » (١) ، فخرج « الفتى النابغة » من عند شيخه مغضباً (٢) لأول مرّة ، وقصد العراق ولقي محمد بن الحسن وأخذ عنه (٣) ، ولم يكتف بالذهاب إلى « هنا » أي العراق ، كما أشار عليه أستاذه ، بل ضرب أيضاً إلى « هناك » بلاد فارس والمناطق الفاصية بلق أئمة العلم ويكسب من معارفهم حتى صار ابن إحدى وعشرين سنة (٤) ، ثم عاد إلى العراق وكان الرشيد قد استخلف منذ سنة سبعين ومائة ، فأكرمه وولاه الصدقات بنجران (٥) ، لكن مودّته المتمكنة الوفية لإمام دار الهجرة قد هرّجت به شطر المدينة المنورة ليراه وقد احتى بعد أن تركه فقيراً ، ومن ذلك الحين جعل أستاذه يبعث إليه كل عام من هداياه إلى أن لبى مالك نداء ربه سنة تسع وسبعين ومائة (٦) .

وخبر توليه صدقات نجران وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، أي عام إحدى وسبعين ومائة ، ينفي الروايات التي تجعل زيارته لبغداد مرتين فحسب ، إحداها سنة خمس وتسعين ومائة ، والثانية سنة ثمان وتسعين ومائة (٧) ، فهو قد قصد إليها سنة إحدى وسبعين ومائة أو قبلها كما رأينا ، وقصد إليها سنة خمس وسبعين ومائة (٨) وسنة ثمان وسبعين ومائة (٩) ، واقتيد إليها سنة أربع وثمان ومائة (١٠) ، لاتهامه بمؤازرة خارجي (١١) أو علوي (١٢) كان يريد خلع بيعة الرشيد ، وذلك عندما تسلم الشافعي صدقات نجران باليمن ، غير أن كل شيء أكد براءته مما رمي به (١٣) ، فعفا

١) و ٢) المحمدون من الشعراء ١٣٧ . ٣) المحمدون من الشعراء ١٣٨ .
٤) و ٥) ثمرات الاوراق ٢٨ . ٦) المصدر السابق ٢٨١ .
٧) انظر الانتقاء ٦٧ ، ووفيات الأعيان ٣/٦٣ ، وطبقات الحنابلة ٢/٨٠ .
٨) و ٩) انظر تاريخ أبي الفداء ٢/٢٨ ، وتتمة المختصر في اخبار البشر ١/٢١٠ . على أن من المستبعد أن تكون هاتان الزيارتان « سنة خمس وسبعين ومائة وثمان وسبعين » هما الزيارتين اللتين قام بهما الى بغداد بعد شهرته سنة خمس وتسعين ومائة ، وثمان وتسعين ، وأن تكون سبعين محرفة من تسعين ، والله أعلم . ١٠) انظر حلية الاولياء ٩/٨٠ . ١١) حلية الاولياء ٩/٨١ .
١٢) معجم الادباء ١٧/٢٨٧ ، والوافي ٢/١٧٤ . ١٣) انظر مناقب الشافعي للبيهقي ١/١١٢ ، والوافي ٢/١٧٤ ، وحلية الاولياء ٩/٨١ . وفي الفهرست رواية غريبة تذهب الى أنه

عنه أمير المؤمنين

وتهمته تدفع بدورها ما يقال من أن محمد بن الحسن وأبا يوسف قد كادا له عند الرشيد وأوغرا صدره عليه (١) ، وليس مثل هذه الأقوال في حقيقتها إلا كمثل الذي لا يقدر أن يمدح امرأ دون أن ينال سواه بذمه ، وكأن دنيا الصلاح لا تسع من الناس إلا واحداً فرداً ! فالمصادر تنبئنا أن محمد بن إدريس كان يجل محمد بن الحسن ويقول فيه كما مرّ بنا من قبل : « ما رأت عيناي مثل محمد بن الحسن، ولم تلد النساء في زمانه مثله » (٢) ، وأن محمد بن الحسن - من جهته - قد ألان له قلب الخليفة وشفع له عنده ، وعزم عليه أن ينزل في داره ، فكانت تلك فرصة محظوظة استطاع الشافعي أن يكتب فيها كثيراً من مصنفات الحنفية (٣) ، ويبذل على النساخ في سبيل ذلك ما تبقى من أعطية الرشيد بعد أن نثر قسماً منها على بوابيه (٤)، وأيضاً فإنه يُروى عن أبي حسان الزيادي أنه قال : « ما رأيت محمد بن الحسن يعظم أحداً من أهل العلم تعظيمه للشافعي ولقد جاءه يوماً فلقيه ، وقد ركب محمد بن الحسن فرجع محمد إلى منزله وخلا به يومه إلى الليل » (٥).

ويعود الشافعي إلى مكة المكرمة وقد نضجت ثقافته وتبحّر إلى أبعد غاية في فقه الرأي إضافة إلى فقه الحديث ، وصار يفيض على حلق الدارسين في البيت الحرام ، وعلى الحجاج القادمين من كل فجّ عميق ، ويلبث على هذه الشاكلة حتى عام (١٩٥ هـ) عندما ذهب إلى بغداد وأقام بها حولين يدرّس ويصنف (٦) ، ثم رجع فترة قليلة إلى أم القرى (٧) وسرعان ما انقلب إلى العاصمة العباسية سنة ١٩٨(٨) فأقام فيها أشهراً معدودات على برَم منه بأهل الكلام وهواة المراء الذي لم يعد يليق الإفراط منه أيّ خطّ بعدما استوى له علمٌ غزير وحكمة بالغة ، ويتجه إلى

= انتهم بمناصرة رجل من بني أبي لهب بناحية المغرب » انظر الفهرست ٢٩٤ .

١) انظر حلية الاولياء ٨٠/٩ .
٢) مناقب الشافعي للبيهقي ١٦١/١ .
٣) حلية الاولياء ٨١/٩ .
٤) حلية الاولياء ٨١/٩ و ٩١ .
٥) وفيات الاعيان ٣٠٦/٣ وانظر تقدير كل منهما للآخر مناقب الشافعي للبيهقي ١٥٨/١ و ١٥٩ وانظر مقالة للشيخ مصطفى عبدالرزاق في الرسالة ع ٢٥ س ١ وفيها بين فساد خبر وشي أبي يوسف ومحمد بن الحسن بالشافعي عند هارون الرشيد .
٦) شذرات الذهب ٩/٢ .
٧) و ٨) الاغاني ٦٢ .

أرض كِنانة وهو يقول :

لقد أصبحتْ نفسي تتوق إلى مصرٍ ومن دونها أرض المهامه والقَفْرِ
فوالله ما أدري ألفوز والغنى أُساقُ إليها أم أساق إلى قبري ؟ (١)

وتذكر المصادر أن الشافعي قد لقي في مصر إكراماً واسعاً ، وأنه كان « محبّباً إلى الخاص والعام لعلمه وفقهه وحسن كلامه وأدبه وحِلمه » (٢) ، وأنه قد سار ذكره في البلدان وقصده الناس من الشام واليمن والعراق وسائر الأقطار للتفقه عليه والرواية عنه وسماع كتبه (٣) ، وأنه على زهادته في التقرّب إلى الولاة كان مقدّماً عند العباس بن عبدالله والشرْبي بن الحكم البَلخي (٤) من الأمراء على مصر في الفترة التي عاش فيها . وقد تمكّن الإمام الشافعي في مصر أن يستكمل أبحاثه ويتابع تأليفه الذي بدأه من قبل وأكثر ، نافذاً إلى آرائه الجديدة التي عدّل فيها شيئاً من أحكامه التي استنبطها في الحجاز أو العراق ، قاصداً فيها الحقيقة ما استطاع ، ولبث يدرّس ويؤلف حتى وفاته سنة (٢٠٤ هـ) (٥) ، فدفن في القرافة الصغرى قرب جبل المقطّم (٦) ، ولا يزال قبره إلى اليوم في شارع الإمام الشافعي في مسجد حمل اسمه ، وأساس هذا المسجد مدرسة أقامها صلاح الدين الأيوبي بجوار قبر الشافعي سنة (٥٧٢ هـ) ، ليفقه الدارسون على مذهب هذا الإمام الكبير ، ثم أنشأ لها السلطان الكامل محمد بن العادل قبة خشبية مغطاة بالرصاص سنة (٦٠٨ هـ) (٧). ثم جدد الخديوي توفيق سنة ١٣٠٩ هـ مسجد الإمام الشافعي على النحو الذي نراه عليه اليوم .

ومعنى ما تقدّم أنه لا يتعذر على الباحثين أن يحدّدوا الخطوط العريضة لحياة

١) طبقات الشافعية للسبكي ١٦٢/١ ، ومعجم الادباء ٣٢٠/١٧ ، والمحمدون من الشعراء ١٣٩ ، والعقد الفريد ٢٢/٣ .
٢) معجم الأدباء ٣٢١/١٧ . وانظر حلية الأولياء ٨٢/٩.
٣) تهذيب الاسماء واللغات ٤٩/١/١ .
٤) معجم الأدباء ٣٢١/١٧ .
٥) طبقات الشافعية لابن هداية الله ٣ .
٦) وفيات الأعيان ٣٠٦/٣ .
٧) وانظر وصف مسجد الامام الشافعي وقبته وزخارفها وحجمها في العمارة الاسلامية الدكتور كمال الدين سامح « طبعة المعهد الاسلامي بالقاهرة ص ٦٠ وما بعدها .

هذا الإمام الفذ، كما انهم لا يلقون «مشقة عظيمة في تحديد السنين المتعلقة بوقائع حياته» كما قال هفننك [1]، وذلك إذا ما قارنوا الروايات الكثيرة التي عرضت لها، واستقصوها في دقة.

وقد ترك الشافعي من بعده ثلاثة أولاد أبا عثمان محمداً الذي كان قاضياً في مدينة حلب، وفاطمة وزينب، وتوفي ابن آخر له بدعى الحسن وهو طفل [2]، وكذلك ترك ذكراً حسناً في مجالات الأخلاق العالية والصفات النبيلة والعلم والشعر.

فكل النواحي تؤكد تقوى هذا العالم الجليل وأنه لم تعرف له صبوة لا في شباب ولا كهولة [3]، وأنه قال لمن أشار إليه بمجالسة الوالي ليكسب منه: «من لا تعزّه التقوى فلا عزّ له» واقد ولدت بغزة، ورُبّيت بالحجاز، وما عندنا قوت ليلة، وما بقنا جياعاً قط» [4]، وأنه لما سمع الحارث بن لبيد يتلو من القرآن قوله تعالى: «هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون» [5] تغيّر لونه واقشعرّ جلده [6]، وأنه لم يحلف بالله لا صادقاً ولا كاذباً [7]، وأنه كان مارّاً في السوق رجلاً يسفه على رجل من أهل العلم فقال لأصحابه: «نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم، ولو ردّت كلمة السفيه لسعد رادّها كما شقي بها قائلها» [8].

وكان الإمام التقيّ يختم القرآن كتاب الله كل ليلة ختمة، فإذا كان شهر رمضان ختمه في اليوم مرتين [9]، ويروي الحسن الكرابيسيّ أنه بات مع الشافعي غير ليلة «فكان يصلي نحواً من ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة آية، وكان لا يمرّ بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين، ولا يمرّ بآية عذاب إلا تعوّذ فيها وسأل النجاة لنفسه

١) دائرة المعارف الاسلامية ٧٣/١٣. ٢) انظر في أولاده، مناقب الشافعي للرازي ٣١.
٣) مرآة الجنان ٢١/٢، وتهذيب الأسماء واللغات ٥٩/١/١. ٤) المحمدون من الشعراء ١٤٠. ٥) سورة المرسلات ٣٦. ٦) إحياء علوم الدين ٣٢/١.
٧) المصدر السابق ٣١/١. ٨) الاحياء ٣١/١. ٩) طبقات الحنابلة ٢٨٣/٢.

وللمؤمنين» [1].

وكان الشافعي رحمه الله عفّاً زاهداً في متاع الدنيا يقول عن نفسه: «ما شبعت منذ ست عشرة سنة، لأن الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة» [2]، وكذلك كان يقول: «من ادّعى أنه جمع بين حبّ الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب» [3]. ويقول: «من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع» [4]، ويقول: «التواضع يورث المحبة والقناعة تورث الراحة» [5]. وكان عدلاً [6] لطيفاً [7] كريماً [8] شجاعاً [9] ذكياً [10] مخلصاً في علمه لا يبتغي من ورائه شهرة ولا رياء، يقول: «ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطىء» [11] ويقول: «وددت أن الخلق تعلّموا هذا العلم على ألاّ ينسب إليّ منه حرف» [12] ويقول: «من لا يصف نفسه لم يفقه علمه» [13].

وتصوّر الروايات الإمام الشافعي رجلاً مديد القامة سائل الخدين قليل لحم الوجه خفيف العارضين طويل العنق آدم يخضب لحيته حسن الصوت كريم الوجه عظيم العقل أليف الشمائل مهيباً فصيحاً [14].

وتذكر تلك الروايات أن الشافعي لم يكن في الطراز الأول من الفقهاء والمحدثين فحسب، بل أيضاً كان عالماً بكلام الصحابة وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء [15] والتفسير [16] والقراءات [17] والأنساب [18] والتاريخ [19] والطب [20] والرمي [21]، وكان صادق الفراسة [22] صافي النفس نافذ البصيرة، وكان حجّة في

١) و ٢) و ٣) الاحياء ٣١/١. ٤) تهذيب الأسماء واللغات ٥٥/١/١.
٥) المصدر السابق ٥٦/١/١. ٦) التاج المكلل ١٠٥. ٧) و ٨) مرآة الجنان ٢٦/٢، ٩) و ١٠) تهذيب الاسماء واللغات ٥٢/١/١ و ٥٩ ١١) الاحياء ٣٣/١
١٢) تهذيب الاسماء واللغات ٥٣/١/١. ١٣) الاحياء ٣٢/١.
١٤) انظر صفاته الخلقية في تهذيب الاسماء واللغات ٦٤/١/١ ١٥) وفيات الأعيان ٣٠٥/٣
١٦) مناقب الشافعي للبيهقي ٢٨٤/١. ١٧) المصدر السابق ١ / ٢٧٦.
١٨) طبقات الشافعية للأسنوي ١٤/١. ١٩) مرآة الجنان ١٩/٢.
٢٠) و ٢١) و ٢٢) تهذيب الأسماء واللغات ٦٥/١/١ و ٦٦.

اللغة عند ابن هشام [1] وثعلب [2] والأزهري [3]، حجة في النحو عند المازني [4]، وقد قرأ عليه الأصمعي أشعار هذيل وديوان الشنفرى [5]، وكان يروي إضافة إلى ذلك لثلاثمائة شاعر مجنون [6]، ولثلاثين آخرين أسامیهم حمير و [7]، فضلاً عن العقلاء وسوى المعمرين من الشعراء. ومن هنا قال أحمد بن حنبل قوله الحق: «ما أحدٌ مس بيده محبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في رقبته منة» [8]، وقال أبو عبيد القاسم ابن سلاّم: «ما رأيت رجلاً قط أكمل من الشافعي» [9].

وبدَهي أن يكون الفقه رأس علومه التي حذقها، ومن يرجع إلى تاريخ الإمام الشافعي وسيرة حياته يجده لا يعدُ نفسه لهذا الأمر بحفظ القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره فحسب، بل أيضاً بجمعه كثيراً من الأحاديث النبوية في صغره وبعد صغره، وبالتمكّن اللغوي، وعلوم الدين المختلفة كآثار الصحابة وخلاف العلماء والتفسير والقراءات مما مرَّ بنا من قريب، وبالتبحّر المستبصر في الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والوقف والابتداء ونحو ذلك من البحوث الاسلامية [10].

أضف إلى ذلك أنه استوعب استيعاباً شاملاً لمدارس الفقه في عصره، على اختلاف مناحيها، فدرس فقه مالك منذ يفاعته، وأخذ فقه أبي حنيفة عن محمد بن الحسن، وانتهى إليه فقه الأوزاعي من طريق شيخه عمرو بن أبي سلمة، واطلع على فقه الليث بن سعد بوساطة يحيى بن حسان، ووقف على دراسات الشيعة وبحوث المعتزلة في هذا اللون من العلم، إضافة إلى بحوث أهل السنة ودراساتهم، وتتلمذ لعلماء مكيين ومدنيين كما تتلمذ لآخرين يمانيين وعراقيين [11]، وخلص من كل ذلك إلى منحى وسط بين مناهج أهل المدينة ومناهج أهل العراق، فهو لا يتجاوز نصاً قرآنياً أو نبوياً ثابتاً، ما وجد ذلك، ويُروى أنه قدم بيت المقدس فصلّى فيه وقال: سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ [12]. وكذلك كان

١) معجم الأدباء ١٧/٢٩٩. ٢) و ٣) مرآة الجنان ٢/٢٠. وانظر القاموس المحيط ٢/١١١، إذ ينقل الشافعي قولاً في حد معنى القراء والساكين. ٤) تهذيب الاسماء واللغات ١/١٤١، ٥٠. ٥) مرآة الجنان ٢/١٩ و ٢٠. ٦) تهذيب الاسماء واللغات ١/١٤١، ٥٠.
٧) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٤٥. ٨) تهذيب الاسماء واللغات ١/١٤١، ٥٠.
٩) وفيات الاعيان ٣/٥ ٣. ١٠) انظر معجم الادباء ١٧/٢٢٨ و ٣٠٥.
١١) انظر في شيوخه مناقب الشافعي للرازي ص ٢٠، والوافي ٢/١٧٢ ١٢) تاريخ الاسلام الجليل ١/ ٢٦

يقول: «إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ودعوا ما قلت» [1]. ومن شعره في هذه الطريقة قوله:

كلُّ العلوم سوى القرآنِ مشغلةٌ ... إلا الحديثُ وإلا الفقه في الدينِ
العلم ما كان فيه قال: حدّثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين [2]

ولعلّ ذلك مدعاة تسمية البغداديين له بناصر الحديث [3]، ولعله أيضاً سرّ ميله عن أهل الكلام وكراهته المعتزلة وقوله فيهم: «حكمي في أصحاب الكلام أن يُضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل، يقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ بالكلام» [4]، وقوله كذلك: «لو رأيت صاحب بدعة يمشي على الهواء ما قبلته» [5].

ومع ذلك فهو يعمل بالقياس والاستدلال وتفريع المسائل من أصولها، عندما لا يجد النص القرآني أو النبوي وقد مرَّ بنا عند الحديث عن أصوله أخذه بالاجماع وآثار الصحابة التي لم يختلفوا فيها، وتحريه ما قرب من الكتاب والسنة أو رجحه القياس فيما اختلفوا فيه منها، وعمله بالقياس.

وأغلب الظنّ أن استقرار الشافعي على هذا المنهج في دراساته قد تعاقبت عليه مرحلتان، إذ من المعروف أنه كان حتى عام مائة وأربعة وثمانين يتبع مسلك الإمام مالك، غير أنه لما اطلع على مباحث أهل الرأي في العراق ورجع على أصولها بصره في أحكام فقيه المدينة، عدل من موقفه من أصول الطرفين، واصفاً من كلٍّ ما فيه له مقنَع وخيار، ويمكن أن نعدّ ذلك مرحلة أولى استمرَّ عليها حتى مجيئه إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة، وهنالك لم يضف إليها وإنما عمّق مجراه في سبيلها، وقد أبان هو عن ذلك فقال: «إنما رجعت إلى أقوالي الجديدة أني لما دخلت مصر بلغني أن بالمغرب فلانة من قلائص مالك يُستسقى بها الغيث، فخفتُ أن يتمادى الزمان ويعتقد فيه ما اعتقد في المسيح، فأظهرت خلافه ليعلم

١) صفة الصفوة ٢/١٤٦. ٢) طبقات الشافعية للسبكي ١/١٥٧، والبداية والنهاية ١٠/٢٥٤. ٣) انظر شذرات الذهب ٢/٩. ٤) الانتقاء ٨٠.
٥) طبقات الشعراني ٢/٥١.

الناس أنه إمام مجتهد يخطىء ويصيب »[1] ، وهذه مرحلة ثانية .

وتتبدى طرائق الشافعي في البحث الفقهي وأحكامه التي نفذ اليها في مصنفاته القيمة التي تجاوزت مائة وثلاثة عشر مؤلفاً[2] في الفقه والحديث والتفسير والأدب . . . وقد ذكر ابن النديم منها ما يُنيف على مائة وخمسة كتب[3] قال فيها الجاحظ : « نظرت في كتب الشافعي فإذا هي در منظوم لم أر أحسن تأليفاً منه »[4].

ومما في أيدينا من هذه المؤلفات كتاب « الرسالة » الذي صنّفه استجابة لعبدالرحمن بن المهدي الفقيه العراقي الذي « التمس من الإمام الشافعي وهو شاب أن يضع له كتاباً يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص ، فوضع الشافعي كتاب الرسالة وبعثها إليه »[5] . ومن المؤكد أن الامام الشافعي قد رجع فيها بصره - على عادته في تحكيك آثاره - وعدّل فيها إلى أن استوت على هذا النحو الرائق المُستجب ، وقد قام الأستاذ القاضي أحمد محمد شاكر بتحقيقها في سفر ضخم قال في مقدمته : « إن أبواب الكتاب ومسائله التي عرض الشافعي فيها للكلام على حديث الواحد والحجة فيه ، وإلى شروط صحة الحديث ، وعدالة الرواة ، وردّ الخبر المرسل والمنقطع ، إلى غير ذلك . . أدقّ وأعلى ما كتب العلماء في أصول الحديث ، بل إن المتفقّه في علوم الحديث يفهم أنّ ما كُتب بعده إنما هو فروع منه وعالة عليه »[6] . ولعل من الخير أن نقف بين يدي هذا الكتاب الرائد في أصول الفقه .

فهو يبتدىء بخطبة أو مقدّمة يحمد فيه الله تعالى ويشهد بنبوة محمد ﷺ الذي بُعث « والناس صنفان ، أحدهما أهل كتاب بدّلوا من أحكامه . . . وصنف كفروا بالله فابتدعوا ما لم يأذن به »[7] وأنزل عليه الكتاب تبياناً لكل شيء .

ثم ينتقل إلى أوّل فصوله ويسميه « باب كيف البيان ؟ » فيقول إن جماع ما أبان الله لخلقه مما نعبّدهم به من وجوه . فمنها ما أبانه نصاً مثل جُمَل فرائضه في

١) عيون التواريخ حوادث سنة ٢٠٤ [٢) انظر تهذيب الأسماء واللغات ١/١/٠٩٣
٣) انظر الفهرست ٢٩٥ ٤) تهذيب التهذيب ٩/٢٩ . ٥) مرآة الجنان ٢/١٨
٦) مقدمة المحقق للرسالة ، ص ١٣ . ٧) الرسالة ٨ - ١٠ .

أن عليهم صلاة وزكاة وحجاً وصوماً وأنه حرّم الفواحش . . . ومنها ما أحكم فرضه بكتابه وبيّن كيف هو على لسان نبيّه ﷺ مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها . . ومنها ما سنّ رسول الله مما ليس لله سبحانه فيه نصّ حكم ، وقد فرض الله في كتابه طاعة نبيه . . . ومنها ما فرض الله جل ثناؤه على خَلْقه الاجتهاد في طلبه ، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرضه عليهم فانه تبارك وتعالى يقول : « ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم »[1] ثم يعقد أبواباً يذكر فيها أمثلة على الوجوه السابقة ، ويمهّد بها لتفصيل المستفيض لها فيما بعد

ويشير الإمام الشافعي إلى أنّ ليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حَلٌّ ولا حَرُم إلاّ من جهة العلم ، وجهة العلم الخبرُ في الكتاب أو السنة أو الاجماع أو القياس ، ويقول إن في العلم وجهين : الإجماع والاختلاف .

ويتحدث عن جماع علم كتاب الله فيقول منه « العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب ، والمعرفة بناسخ كتاب الله ومنسوخه ، والفَرْض في تنزيله ، والأدبِ والارشادِ والاباحةِ ، والمعرفة بالموضوع الذي وضع الله به نبيّه من الابانة عنه فيما أحْكَمَ فَرْضَه في كتابه وبيّنه على لسان نبيّه وما أراد بجميع فرائضه ؟ ومَنْ أراد : أكلَّ خَلْقه أم بعضهم دون بعض ؟ وما افترض على الناس من طاعته والانتهاء إلى أمره . ثم معرفة ما ضرب فيها من الأمثال الدوالّ على طاعته البيّنة لاجتناب معصيته وترك الغفلة عن الحظ والازدياد من نوافل الفضل »[2] .

ثم يأخذ في الكلام على أن القرآن إنما نزل بلسان العرب وأنه لا يستطيع إيضاح جُمَل علْم الكتاب أحدٌ جَهِل سعةَ لسانهم وكثرةَ وجوهه ، وجماع معانيه وتفرّقها ، ويتناول بعض خصائص العربية .

ويتحدّث عما فرض الله في كتابه من اتباع سنّة نبيه ويستشهد بآيات كثيرة مثل قوله تعالى : « فإنْ تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول »[3] وقوله سبحانه : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث

١) سورة محمد ٣١ . ٢) ص ٤١ . ٣) سورة النساء ٥٩ .

على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » (١).

وينتقل إلى « باب ما أبان الله لخلقه من فرضه على رسوله اتباعَ ما أوحى إليه وما شهد له به من اتباع ما أمرَه به » (٢).

ويستعرض بعد ذلك في « باب ابتداء الناسخ والمنسوخ » (٣) نسخ الكتاب بالكتاب ، وأن السنة لا تكون ناسخة للكتاب ، وإنما هي تَبَعٌ لآياته ، ومفسِّرة لمعاني ما أنزل المولى سبحانه جُمْلَةً ، وبهذا يقصر السنة على نسخ السنة فقط. ويذكر الناسخ والمنسوخ الذي بدل الكتاب على بعضه ، والسنة على بعضه ، ومجال الاجماع في هذا الشأن.

ثم تتعاقب أبواب الفرائض التي أنزلها الله نصاً (٤) ، والفرائض المنصوصة التي سنَّ رسول الله معها ، والفرض المنصوص الذي دلت السنة على أنه إنما أراد الخاص ، والفرائض التي بيَّنت السنة كيفيتها.

ويلي ذلك « باب العلل في الأحاديث » فيتقصى على لسان قائل يحاوره أهمَّ ما قد يثار حول هذا الموضوع من أسئلة. ثم يأخذ بالرد عليها في دقة ، فيبيِّن أن السنة إما أن تنصَّ على ما نصَّ عليه الذكر الحكيم ، وإما أن تفصِّل مجمله ، وإما أن تشرع ما ليس فيه نص كتاب ، وهذه ينبغي العمل بها والسير على منوالها ، مثل النوعين السابقين ، لأن الله قد فرض على عباده اتباع نبيِّهم ، أي أنها تنطلق مع مقاصد القرآن وأنها لا تنطق عن الهوى. ويتناول ناسخ الحديث ومنسوخه ويحيل إلى ما قال فيه من قبل ، عندما تحدَّث عن الناسخ والمنسوخ. ثم يبسط الكلام في الأحاديث المختلفة وينتهي إلى أنَّ ليس ثمة حديثان مختلفان إلا ولهما مَخْرج أو على أحدهما دلالة بموافقته لكتاب الله أو سنة أخرى أو بعض الدلائل.

ويتلو ذلك « باب العلم » فيقسمه قسمين : علم عامة لا يسع بالغاً غير مغلوب على عقله جهله مثل معرفة أن الصلوات خمس وأن لله على الناس صوم رمضان وحجَّ البيت لمن استطاع وإيتاء الزكاة وأن من الحرام الزنا والقتل والسرقة والخمر

١) سورة الفتح : ١٠. ٢) ص ٨٥ وما بعدها. ٣) ص ١٠٦ وما بعدها.
٤) ص ١٤٧ وما بعدها.

وما كان في معنى هذا. وعلماً آخر يتناول فروع الفرائض وما يخصُّ من الأحكام مما ليس فيه نصُّ كتاب ولا في أكثره نصُّ سنة ، الأمر الذي يجعل للقياس والتأويل فيها سبلاً عريضة ، وهذا علم إذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية سقط عن الآخرين ، « ولو ضيَّعوه معاً خِفتُ ألاَّ يخرج واحد منهم مطيقٌ فيه من المأثم ، بل لا أشكُّ » (١).

ثم ينتقل إلى « باب خبر الحجة » فيدافع عن خبر الخاصة وهو « خبر الواحد عن الواحد حتى يُنتهى به إلى النبي أو من انتهى به إليه من دونه » (٢) ، ويبيِّن شروط تعديله لراوي هذا النمط من الحديث ، ويورد تسعاً وعشرين حجة قاطعة تؤكد ثبوت أخبار الآحاد والعمل بها ، فضلاً عن حجج فرعية في ثناياها.

ويبيِّن بعد ذلك في « باب الإجماع » أن ما اجتمعوا عليه فذكروا أنه حكاية عن رسول الله ، فكما قالوا ، لأنَّ سنن رسول الله ﷺ قد تتغرَّب عن بعضهم إلا أنها لا تتغرَّب عن عامتهم « ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله ولا على خطأ إن شاء الله » (٣). ويروي حديث « ... ألا فمَنْ سرَّه بحبحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الفذِّ ، وهو من الاثنين أبعد. » (٤). وإذنْ « من قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ، ومَنْ خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أُمر بلزومها ، وإنما تكون الغلة في الفُرقة ، فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافةً غفلةٌ عن معنى كتاب ولا سنة ولا قياس إن شاء الله » (٥).

ويتحدَّث عن « القياس » فيبيِّن أن كلَّ ما نزل بمسلم فإما أن يكون فيه بعينه حُكْم ، وهنالك ينبغي اتباعه ، وإما أن يكون على سبيل الحَزْر فيه دلالة هادية ، وهي دلالة تُبلغ بالاجتهاد وهو القياس. ويأتي القياس على وجهين ، أحدهما : أن يكون الشيء في معنى الأصل ، فلا يختلف القياس فيه ، وأن يكون له في الأصول أشباه فيُلحق بأولاها به وأكثرها شبهاً فيه ، والقائسون إنما يختلفون في الضرب الثاني. ثم يفيض القول مستدلاً على صحة الاجتهاد وجواز الخلاف فيه إذا اختلفت أسبابه أو لم يكن فيه إحاطة في ظاهره وباطنه أي ليس فيه

١) ص ٣٦٦. ٢) ص ٣٦٩. ٣) ص ٤٧٢.
٤) ص ٤٧٤. ٥) ص ٤٧٦.

نص قرآني أو نبوي صحيح .

ويبطل الشافعي « الاستحسان » بغير قياس ، لأن معرفة الحكم لا تتم إلا بدلائل ، والدلائل هي القياس ، ويفصّل شروط المجتهد وما ينبغي أن يأخذ نفسه من علوم وأسباب فتوى ، ثم يعرض مجموعة كبيرة من الأمثلة التطبيقية على القياس .

ويتكلم في « باب الاختلاف » بعد ذلك على نوعيه ، المحرَّم الذي لا يحلّ لمن علمه اختلاف لمن فيه ، وهو كلّ ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيه بنصّ مبين ، والثاني ما كان يحتمل التأويل ويُدرَك قياساً .

ثم يحدّد موقفه من أقاويل الصحابة إذا تفرّقوا فيقول : « نصير إلى ما وافق الكتابَ أو السنة أو الاجماع أو كان أصحّ في القياس » (١) . ويختم كتابه بالمفاضلة بين أصول الفقه الأربعة الكبرى ، فيجعلها على هذا النحو : الكتاب والسنة ثم الاجماع ثم القياس .

ويكثر في الرسالة على نحو واضح أسلوبها الحواريّ ، فهو دائماً يبتكر أسئلة على لسان مناظره (٢) ، ويشقّقها ويفرّعها ، ثم يردّ عليها في استقصاء بالغ وإحاطة شاملة ، نافذاً من هذه الأحكام الجزئية إلى قانون كلي جامع لها (٣) . وكثيراً ما يحتج الشافعي باللغة والأشعار (٤) ، ويلتفت على النصوص التي يوردها ابتغاء إيضاحها وتأكيد ما استدلّ بها عليه (٥) ، ويتحرّى في كل ذلك الأمانة الصادقة الراشدة (٦) .

وتمضي الرسالة في أسلوب حسن قوي متدفق واضح مؤثر للبيان بأدق معانيه بجانب للتكلف بحكيم للتقسيم ، ولا بأس أن نتأمّل هذا الحوار بينه وبين

١) ص ٥٩٧ . ٢) انظر على سبيل المثال الصفحات ١٣٦ و ٣٥٧ و ٣٧٢ و ٣٨٧ و ٤٧١ و ٤٧٢ و ٤٧٣ . ٣) انظر ص ٣٦٦ إذ يقول بعد حديثه عن علم الخاصة وأنه فرض كفاية ، وأن مثله الفقه في الدين ، فيما سوى أساسه التي دعاها علم عامة ... يقول : « وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصوداً به قصد الكفاية فيما ينوب ، فإذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلف عنهم من المأثم ، ولو ضيعوه معاً خفت ألا يخرج واحد منهم مطيق فيه من المأثم بل لا أشك إن شاء الله » . ٤) انظر ص ٩١ و ١٣٥ ... ٥) انظر ص ٤٠١ وما بعدها ، و ٥٠٢ . ٦) انظر ص ١٠٥ ، إذ يصرح بسماعه الحديث موصولاً ، دون أن يذكر من وصله ، وانظر ص ٤٣١ .

مناظره وهو يتناول الحديث عن الاجتهاد ، قال الشافعي : « لا يكون الاجتهاد أبداً إلا على طلب عينٍ قائمة مغيّبة بدلالة ، وأنه قد يسع الاختلافَ مَنْ له الاجتهاد » .

فقال (الذي بناظره) : فكيف الاجتهاد ؟

فقلت : إن الله جلّ ثناؤه مَنَّ على العباد بعقول ، فدلّهم بها على الفرق بين المختلف ، وهداهم السبيل إلى الحق نصّاً ودلالة .

قال : فهَلْ من ذلك شيئاً .

قلت : نصَبَ لهم البيت الحرام ، وأمرهم بالتوجه إليه إذا رأوه ، وتأخيينه إذا غابوا عنه ، وخلَقَ لهم سماءً وأرضاً وشمساً وقمراً ونجوماً وبحاراً وجبالاً ورياحاً ، فقال : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » (١) ، وقال : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » (٢) فأخبر أنهم يهتدون بالنجم والعلامات ، فكانوا يعرفون عَيْنَ جهة البيت ، بمعونته لهم وتوفيقه إيّاهم ، بأنْ قد رآه مَنْ رآه منهم في مكانه ، وأخبر مَنْ رآه منهم من لم يره ، وأبصر ما يُهتدى به إليه ، من جبل يُقصد قَصْدُه ، أو نجم يُؤتمّ به ، وشمال وجنوب ، وشمس يُعرف مطلعُها ومغربُها ، وأين تكون من المصلّي بالشيء ، وبحور كذلك .

وكان عليهم تكلّف الدلالات بما خلق لهم من العقول التي ركّبها فيهم ، ليقصدوا قَصْدَ التوجّه للعَيْن التي فرض عليهم استقبالها .

فإذا طلبوها مجتهدين بعقولهم وعلمهم بالدلائل ، بعد استعانة الله ، والرغبة إليه في توفيقه ، فقد أدّوْا ما عليهم .

وأبان لهم أنّ فرْضَه عليهم التوجّهُ شطر المسجد الحرام ، والتوجّهُ شطرَه (٣) ، لا إصابةُ البيت بعينه على كل حال .

ولم يكن لهم - إذا كان لا تمكينهم الإحاطة في الصواب إمكانَ من عاينَ البيت - أن يقولوا نتوجّه حيث رأينا ، بلا دلالة » (٤) .

ومن الثابت أن الرسالة من كلام الشافعي نفسه ، غير أنّ إملاءه لها على

١) سورة الأنعام ٩٧ . ٢) سورة النحل ١٦ .
٣) أي لا يكون التوجه الا الى المسجد الحرام . ٤) ص ٥٠٨ وما بعدها

أصحابه جملها لا تخلو من عبارة ، قال الشافعي ، [1] في بعض الأحيان ، وهي عبارة ليست تدل - كما هو واضح - إلا على استملائهم من لسانه ، وتحريهم أن يبيّنوا أنه هو - لا غيره - أهل هذا الكتاب العلمي الجليل .

وتبدو الظاهرة الأخيرة أيضاً في المصدر الأساسي لدراسة فقه الامام الشافعي وهو كتاب الأم الذي كتبه في العراق أولاً وعُرف باسم كتاب الحجة أو كتاب المبسوط ، ثم نقّح فيه في مصر ، وهو من كلامه كما كانت الرسالة من كلامه ، إلا أن فيه بعض التعليقات أو التنبيهات التي أضافها الربيع بن سليمان المرادي المتوفى سنة (٢٧٠ هـ) صاحب الشافعي وراوي كتبه ، وهي تعليقات وتنبيهات غير خافية ولا يصعب ميزها . وقد طبع هذا المصنف الضخم في مصر ملحقاً به كتاب الرسالة الذي استغرق الجزء الأول من أجزائه السبعة ، ومضافاً إلى هامشه كتاب اختلاف مسند الشافعي وكتاب اختلاف الحديث له . وليس بعيداً أن تكون بعض أبحاث هذه المجموعة المطبوعة مما ألّفه الشافعي مفصولاً عن هذا الكتاب ، ثم جاء النساخ فضموها إليه ، وذلك مثل كتاب اختلاف مالك والشافعي وكتاب سير الأوزاعي في الجزء السابع [2] .

ويدور كتاب الأم حول فقه الامام محمد بن إدريس والأحكام الشرعية التي أدى إليها اجتهاده ، وفيه الى ذلك بعض أصول الفقه ، سوى الرسالة .

ويضم الجزء الأول منه كتاب الرسالة كما تقدّم ، ويبحث الجزء الثاني في الزكاة والصيام والاعتكاف والحج والضحايا والصيد والذبائح والأطعمة والنذر ، ويبحث الجزء الثالث في البيوع والرهن والهبة واللقطة ، ويدرس الجزء الرابع أحكام الفرائض والوصايا والجزية وقتال أهل البغي والردّة وأحوال السبق والنضال وقتال المشركين ومسألة مال الحربي ، وفيه أيضاً سير الواقدي ، ويعرض الجزء الخامس لشؤون النكاح

١) انظر ص ٢١٢ و ٣٥٧ و ٤٠٧ . ٢) هذا وقد وهم أبو طالب المكي من القدماء وزكي مبارك من المحدثين فظنوا أن الأم من مؤلفات البويطي لا الشافعي ، ولم ينتبهوا الى أن الامام كان يملي - في كثير من الاحيان املاء ، وأن اصحابه كانوا يضيفون مثل عبارة قال الشافعي أو سألت الشافعي عن كذا فقال ، لئلا يظن أحد أن فريقاً من الكتاب من تأليفهم ، ولكي يؤكدوا أن ما يقول بعد مثل هذه العبارة ان هو الا من كلامه المحض .. وانظر في ايضاح نسبة الكتاب : الشافعي لأبي زهرة ١٦٠ وما بعدها ، ومقدمة الرسالة لاحمد محمد شاكر هامش ٩ و ١٠ .

والصداق والشغار والنفقات والطلاق واللعان ، ويخوض الجزء السادس في جراح العمد والحدود والاقضية ، ويرى في هامشه كتاب مسند الامام الشافعي ، ويتابع الجزء السابع أحكام الأقضية ثم ينتقل إلى ما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبي ليلى ، واختلاف علي وعبدالله بن مسعود ، واختلاف مالك والشافعي ، ثم يستعرض المتفق وجماع العلم ، وصفة نهي رسول الله ﷺ ، وإبطال الاستحسان ، وسير الأوزاعي ، والقرعة والمكاتبة ، وفي هامش هذا الجزء الأخير كتاب اختلاف الحديث للامام الشافعي .

وأسلوب الشافعي في الأم ، كما في الرسالة ، مسترسل متلاحق يستقصي الفكرة ويفصّل المعاني دون تكلّف ولا التواء ، يقول في باب إبطال الاستحسان : وليس للحاكم أن يقبّل ، ولا للوالي أن يدع أحداً ، ولا ينبغي للمفتي أن يفتي أحداً إلا متى يجمع أن يكون عالماً علم الكتاب ، وعلم ناسخه ومنسوخه ، وخاصّه وعامّه ، وأدبه ، وعالماً بسنن رسول الله ﷺ ، وأقاويل أهل العلم قديماً وحديثاً ، وعالماً بلسان العرب ، عاقلاً يميز بين المُشْتَبه ، ويَعْقل القياس ، فإن عدم واحداً من هذه الخصال لم يحلّ له أن يقول قياساً ، وكذلك لو كان عالماً بالأصول غير عاقل القياس الذي هو الفرع ، لم يجز أن يقال لرجل : قيس . وهو لا يعقل القياس ، وإن كان عاقلاً للقياس وهو مضيّع لعلم الأصول ، أو شيء منها ، لم يجز أن يقال له : قيس على ما لا تعلم ، كما لا يجوز أن يقال : قس ، لأعمى وصفت له ، اجعل كذا عن يمينك ، وكذا عن يسارك ، فاذا بلغت كذا فانتقل متيامناً ، وهو لا يبصر ما قيل له يجعله يميناً ويساراً ، أو يقال سر بلاداً ، ولم يسرها قط ، ولم يأتها قط ، وليس له فيها علم يعرفه ، ولا يثبت له فيها قَصْدٌ سَمْتٌ يَضْبطه ، لأنه يسير فيها على غير مثال قويم ... كما لا يقال لبنّاء انظر قيمة الخياطة ، ولا لخيّاط انظر قيمة البناء . [1]

ومن مؤلفات الشافعي « كتاب السنن » في الحديث النبوي ، وهو مروي عن صاحبه إسماعيل بن يحيى المزني المتوفى سنة (٢٦٤ هـ) ، وكثرته الغالبة أحاديث مرفوعة إلى رسول الله ﷺ ، وفيه إلى ذلك موقوفات للصحابة [2] ومقاطيع يمثلها كلام الشافعي نفسه [3] ، وهو مرتب على أبواب الفقه ، ومطبوع في المطبعة الشرقية

١) الام ٧/٢٧٤ ٢) انظر على سبيل المثال ص ٥ و ٦ ٣) انظر ص ٧١ و ٧٢ و ١٢٠

سنة (١٣١٥) .

وقد جمع محمد بن جعفر النيسابوري المتوفى سنة (٣٦٠ هـ) مسنداً للامام الشافعي يحتوي أحاديث رواها عن أبي العباس الاصمّ المتوفى سنة (٣٤٦ هـ) عن الربيع بن سليمان المرادي عن الشافعي . إلا أن ابن جعفر لم يرتبها بحسب الأبواب ولا الشيوخ ، ولذلك قام المحدّث محمد عابد الأيوبيّ السّندي المتوفى سنة (١٢٥٧هـ) ، وكان يقرىء الكتب الستة في المدينة المنوّرة ، فرتبه على الأبواب الفقهية ، وحذف ما كان مكرراً في لفظه أو معناه وسماه ترتيب مسند الامام المعظم ، وقد طبع في مطبعة السعادة بمصر .

ويشبه عمل ابن جعفر ما صنعه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي النيسابوريّ المتوفى سنة (٤٥٨ هـ) إذ جمع أحكام القرآن المتفرقة في مصنفات الشافعي ، وقال في ذلك : « رأيت مَنْ دلّت الدلالة على صحة قوله - أبا عبدالله محمد بن إدريس الشافعي المطلبي ابن عم محمد رسول الله ﷺ وعلى آله - قد أتى على بيان ما يجب علينا معرفته من أحكام القرآن ، وكان ذلك مفرّقاً في كتبه المصنفة في الاصول والأحكام ، فجمّزته وجمعته . . واقتصرت في حكاية كلامه على ما يتبيّن منه المراد دون الاطناب ، ونقلت من كلامه في أصول الفقه واستشهاده بالآيات التي احتاج اليها من الكتاب ، على غاية الاختصار ما يليق بهذا الكتاب » [1] . وقد طبع الكتابَ مكتبُ نشر الثقافة الاسلامية بالقاهرة في جزئين .

وواضح أن أحكام القرآن هذا الذي جمعه البيهقي غيرُ أحكام القرآن الذي ألفه الشافعي نفسه [2] ، والذي ضاع فيما ضاع من آثاره .

ومما ترك الامام الشافعي مجموعة من الأشعار مفرّقة في بطون تراجمه من كتب الفقه والحديث والأدب والتراجم ، وهي مجموعة تُسلك في الشعر الديني الذي يهتف بالخير وينمي نوازع الإنسان الصالحة التسامية لتزداد وتقوى ، في الآن الذي يدعو إلى مجاهدة ما فيه من ميول وأهواء ورغائب تنتهي به - إن تولاّها - إلى الانحدار والارتكاس والهبوط ، ومن هنا كانت الحكمة أوّل أغراض الشافعي في قريضه .

١) أحكام القرآن ١٩/١ . ٢) انظر هدية العارفين ٩/٢ .

وتدور حكمته حول التأمل المتفكّر وما يكون وراءه من اعتبار بالتجارب العريضة وما يستخلص منها من أمثال فاطقة وقواعد هادية ، وما يدفع ذلك إليه من زهد ونصائح وأخلاق .

فهو يتبصّر في معاده المحتوم هل هو جنة هنية أو نار متلظيّة ؟ فإن مَنْ يدري هول ذلك اليوم ليذرف الدمع تلو الدمع ، بل يبكي الدم بدل الدمع ، ويقطع الليل تفكيراً وذكراً ، ويُقلّ الكلام فيما سوى ذلك الذكر :

فيا ليت شعري ، هل أصير لجنّة فأهنا ، وإمّا للسعير فأندما
فلله درُّ العارفِ النّدْبِ إنّه تسحّ لفرط الوَجْدِ أجفانُه دما
يُقيم إذا ما الليلُ جنّ ظلامُه على نفسه من شدّة الخوف مأتما
فصيحاً إذا ما كان في ذكر ربه وفيما سواه في الورى كان مُعْجِما [1]

ذلك المصير هو المَهيب الرهيب ، وهو ما يخالف مألوف الشدائد في هذه الفانية خلافاً كبيراً ، فإنّ دي - مهما كانت - زائلة قصيرة ، وإنّ آلامها لآنية على كل نعيم فيها وكل ضَنَك وجائحة :

عواقبُ مَكروه الأمور جبارُ وأيّام شرّ لا تدوم قِصارُ
وليس بباقٍ بؤسُها ونعيمُها إذا كرّ ليلٌ ثمّ كرّ نهار [2]

فكم من طاغ في هذه الحياة قد أسرف في بغيه ثم انتكس فجأة وأحاطت به هموم ثقال ومصائب فادحة ، فكانت هذه بتلك جزاء مقسطاً وثواباً غير جائر :

تحكّموا فاستطالوا في تحكّمهم عما قليل كأنّ الحُكْمَ لم يكنِ
لو أنصفوا أنصفوا ، لكنْ بغَوْا فبغى
عليهم الدهرُ بالأحزان والمحنِ

١) نور الابصار ٢٢٤ ، والروض الفائق ١٦ ، ومعجم الأدباء ٣٠٢/١٧) ، والندب : النجيب .
٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٨٣/٢ ، ومناقب الشافعي للرازي ١٩٩ .

فأصبحوا ولسان الحال ينشدهم هذا بذاك ولا عتب على الزمن [1]

وكان هذا التفكير الطويل يدفع الإمام الشافعي إلى البصر في تجارب الحياة الواسعة ، واستشراف عبرها الواعية وقواعدها الحكيمة المصطفاة . ومن تلك العبر أنّ من غير الإصابة الراشدة أن يوهب الإنسان الخير ثم لا ينفقه في سبيل الله ليكسب ثواب مولاه وشكور الناس ، أو لا يقطف ثمار ما أوتيه من الحظّ العجيب الذي يقرّب المستبعد ويحلّ المعضلات ، ولا تستغرب أن يورق يابس الميدان إذا أصاب محظوظاً ، ولا تستغرب أن يطير من يد المحروم ما كان يريد أن يبلّ به ظمأه ، وما ذلك لقلة حيلة المحروم ولا خفّة عقله ، بل لأن الانسان إما أن ينال فكراً مبصراً أو غنى باذخاً ، ولكنهما ليسا يجتمعان معاً في يده ، وهذا ما يدعو أولي الأحلام والعزائم أن يتمثّلوا لو أنّ لهم على نعمهم العقلية وخصائصهم المعنوية سمة في المال ، وهذا ما يدعو أيضاً إلى الايمان بالقضاء الحقّ المهيمن :

إنّ الذي رُزق اليسار ولم يصب حمداً ولا أجراً لغير موفّقِ
فالجدّ يدني كل أمر شاسع والجدّ يفتح كل باب مُغلَق
وإذا سمعتَ بأنّ مجدوداً حوى عوداً فأثمر في يديه فحقق
وإذا سمعت بأنّ محروماً أتى ماء ليشربه فغاض فصدّق
لو أنّ بالحيل الغنى لوجدتني بنجوم أرجاء السماء تعلّقي
لكنّ مَنْ رُزِقَ الحجا حرم الغنى ضدّان مفترقان أيّ تفرّقِ
وأحقّ خَلْق الله بالهمّ امرؤٌ ذو همّة يبلى بعيش ضيّق
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق [2]

١) الكشكول ١/٣٢ . ٢) شذرات الذهب ٢/١١ ، وطبقات الشافعية للسبكي ١/١٦٢ ، والعمدة ١/١٨ ، ونزهة المجالس ٢/٢٠٩ ، وحماسة الظرفاء ١/١٥٨ . وكونه : حدوته أو وجوده . وقد اسب البيت الخامس « لو أن بالحيل ... » لعياش الأزرق . انظر طبقات الشافعية للسبكي ١/١٦٢ .

وعلى نحو هذه الخواطر التي تعتري المرء في بعض الأحيان يؤكّد الشافعي أنّ أحداً لا ينال حكمة ولا يحوز معرفة إذا كان يقضي عمره وهو يسعى وراء القوت وسدّ رمق عيلته ، أو كان مشغول الفكر مرهقاً بالهموم ، وإن لقمان الحكيم الدائم الصيت لو كان مثقلاً بالفقر وأثقل بالأهل والولد لما أوتي شيئاً مما أوتي ، ولما قدّر أن يميز اللبن من البقل :

لا يُدرك الحكمةَ مَنْ عمرَه يكدح في مصلحة الأهلِ
ولا ينالُ العلمَ إلاّ فتىً خالٍ من الأفكار والشغلِ
لو أنّ لقمان الحكيم الذي سارت به الركبان بالفضل
بُلِيَ بفَقْر وعيالٍ لما فرّق بين التبن والبقل [1]

ومن القواعد التي اجتباها الإمام الشافعي ألا يلتفت إلى سفه الحمق ولا خصام الجاهلين ، وبذلك يقمع الشرّ عنه وبصون عرضه :

قالوا سكتّ وقد خوصمتَ قلتُ لهمْ إنّ الجوابَ لباب الشرّ مفتاحُ
فالصمت عن أحمق أو جاهل كرم وفيه أيضاً لصَوْن العِرْض إصلاح [2]

وقد يسلك مع هؤلاء ـ لاتقاء سفههم ـ طريقة غريبة ، فيماشيهم على حمقهم حتى يُظنّ منهم ، وما هو منهم ، وإنه لعاقلهم لو كانوا يعقلون :

وأنزلني طُوْل النّوى دار غربة يجاورني من ليس مثلي يشاكله
أحامقه حتى يقال سَجِيّة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله [3]

١) الكشكول ١/٣٠٣ . ٢) نتيجة الأفكار ٧ . ٣) طبقات السبكي ١/٦٢ ، والمنازل والديار لأسامة بن منقذ (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ص ٣٣٢) وشرح المقامات للشريشي ٢/١٣٩ ، وحلية الأولياء ٩/١٥٢ . وقد ذكر البيت الأول ابن عبدالبر وقال إنه تمثل به ، انظر بهجة المجالس ١/٢٣٤ .

إن إفاضة العلم على أمثال أولئك تفريط به وإضاعة له، لأن غراسه لا تثمر في تربتهم أبداً، وما أشبه من يبذر علمه فيهم بمن يبني العمارة ثم يهدمها بيديه:

فَمَنْ حَوى العلمَ ثم أودعهُ بجهله غيرَ أهله ظَلَمَهْ
وكان كالمبتني البناء إذا تَمَّ له ما أراده هَدَمَهْ (١)

حقاً إن العلماء والسفهاء لعلى طرفي نقيض، فهؤلاء لا يقيمون لعارف وزناً ولا يقدّرون له علماً، بل يلجّون في مخالفة مقالاته ما استطاعوا، وهو من جانبه يسأم عشرتهم، ويتجانب مجالسهم، ولا يُحظيهم من فضله أي مَيْل أو تبجيل:

ومنزلةُ السفيهِ من الفقيهِ كمنزلةِ الفقيهِ من السَّفيهِ
فهذا زاهدٌ في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه
إذا غَلَبَ الشقاء على سفيهٍ تَطَبَّع في مخالفة الفقيه (٢)

ومن القواعد التي استخلصها الشافعي أن أحداً لا يسلم من ألسنة الناس، أو سفهاء الناس، حتى المصطفى ﷺ: إنّ هؤلاء إذا رأوك صامتاً رموك بالبكامة، وإذا وجدوك فصيحاً اتهموك بالثرثرة، وإذا الفوك صائم نهار قائم ليل قذفوك بالرياء، فاضرب عن أقوال أولئك صفحاً ولا تلتفت إليهم أيّ التفاتة، ولا تخشَ إلا الله عز وجل وحده:

وما أحَدٌ [من] ألسُنِ الناس سالماً ولو [أنّه] ذاك النبيُّ المطهَّرُ
فإن كان سِكّيتاً يقولون أبْكَمُ وإنْ كان منطيقاً يقولون أهدر
وإنْ كان صوّاماً وبالليل قائماً يقولون زرّاق يرائي ويمكر
فلا تخشَ إلا اللهَ جل جلالُه . . . . . (٣)

١) طبقات السبكي ١/١٥٩، وهدية الأمم ٣٦. ٢) أدب الدنيا والدين ٣، وهدية الامم ٥٩، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/٩٧، وتتطع: بالغ. ٣) نتيجة الافكار ٥، وفي المخطوطة وما أحد «عن»، ولو «أن»، وقد وجد العجبي - مصنف النتيجة - الشطر الثاني =

ومما كان يعاملهم به الامام الحكيم في بعض الأحيان أن يستقبل ترّهاتهم - على مرارتها - بوجه بشّ، وكأنها مدعاة حبور لا أحزان، كل ذلك مجانبة للشرّ وحسْماً لأسبابه:

لقد أسمع القول الذي كاد كلّما تذكّرنيه النفس قلبيَ يصدعُ
وأبدي لمَنْ أبداه منّي بشاشة كأنيَ مسرور بما منه اسمع
وما ذاك من عجب به غير أنني أرى تركَ بعض الشرّ للشرّ أقطع (١)

ومن حِكَم الشافعي الخالدة أنّ الصديق مَنْ ينصر أخاه حين الشدّة ويؤازره فيها:

صديقٌ ليس ينفع يوم بأسٍ قريب من عدوّ في القياسِ
ولا يُرْجى الصّديق بكل عصر ولا الإخوانُ إلاّ للتآسي (٢)

وكثيراً ما كانت تحول هذه القواعد الفكرية إلى ضرب من الأمثال السائرة والعبر الجامعة، ومن هذا الطراز أنّ من الشقاء أن يحب المرء من لا يحبه، وأن يحرص هو على خيره، بينما الآخر يبغي ضرّه:

ومن الشقاوة أن تحبّ - ومن تحب يحبّ غيرك
أو أن تريد الخير للإنسان - وهو يريد ضرّك (٣)

وهذا آخر يريد صادقاً أن ينفع، فإذا به يضرّ:

رام نفعاً فضرّ من غير قصدٍ ومن البرّ ما يكون عقوقا (٤)

وهذا طبيب يعالج مرضاه وهو نفسه سقيم، فكيف يكحّل العيون مَنْ لا يبصر؟

= من البيت الأخير مفقوداً فأكمله من عنده وأشار الى ذلك. والهادر: الساقط، والزرق: الكذب وقد نسبت الابيات في هدية الامم ص ١٩٦ الى ابن دريد مع اختلاف في بعض الالفاظ.
١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٧٦، ومناقب الشافعي للرازي ٢٠٢.
٢) طبقات السبكي ١/١٥٩ ٣) ديوان الامام الشافعي ٣٥ ٤) وفيات الأعيان ٣/٨ ٣

جاء الطبيبُ يجسُّني فجسسْتُه فإذا الطبيب لما به من حالِ
وغدا يعالجني بطول سَقامه ومن العجائب أعمشٌ كحّالُ[1]

ويبيّن الشافعي أنّ على طالب المجد أن يكدح ويجدّ ويدأب، وإلا ما تحقق له مطمح، ولا حاز من المجد شيئاً:

بقدر الكدّ تُكتسبُ المعالي ومن طلب العُلا سهر الليالي
ومن رام العلا من غير كدٍّ أضاع العمر في طلب المُحال
تروم العزّ ثم تنام ليلاً يغوص البحر من طلب اللآلي[2]

غيرَ أنّ العمل ـ الشبَبَ ـ لا يكفي وحده، فإنّ ثمة توفيقاً وقدَراً، وإن العُقاب ـ على قوّته ـ بطعم الجيفَ النتنة، وإن الذباب ـ على قلّة شأنه ـ لينال أشهى ضروب العسل!

أكلَ العُقابُ ـ بقوّة ـ جيفَ الفلا
وجنى الذبابُ الشهدَ وهو ضعيفُ[3]

ومن هذا اللون من خلاصات الحِكمة عند الشافعي أن الانسان هو الفيّم على أسراره، فإن هو أفشاها إلى أحد سواه كان ذلك أدعى إلى نشرها لا كتمها.

إذا المرء أفشى سِرّه لصديقه ودلّ عليه غيره فهو أحمقُ
إذا ضاق صدرُ المرء عن سِرّ نفسه
فصدر الذي أودعتَه السرّ أضيقُ[4]

ومن ذلك تصويره لحال الغريب عن أهله وبلده، فانه يظل في قلق ووحشة واشتياق:

١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٢٩٦، وإتحاف السادة المتقين ٩/٥٢١.
٢) ديوان الامام الشافعي ٥٤، والاول في مرآة الجنان ٢/٢٦.
٣) ديوان الامام الشافعي ٧٧. ٤) شذرات الذهب ٢/١١.

إنّ الغريب له مَخافةُ سارقٍ وخضوعُ مديون وذلّة واقِ
وإذا تذكّر أهله وبلاده ففؤاده كجَناح طير خافق[1]

كل ذلك كان يدفع الشافعي إلى زهادة عفيفة ونظرة مرفوعة نأبى التهالك على أبواب الحُكّام الذين إذا غضبوا بغَوْا، وإذا لم يغضبوا إذا لم يسأمون، فالامام الحكيم يستغني بالله عن منّهم والتزلّف إليهم:

إنّ الملوك بلاءٌ حيثما حلّوا فلا يكنْ لك في أبوابهم ظِلّ
ماذا تؤمّل من قوم إذا غضبوا جاروا عليك وإنْ أرضَيتهم مَلّوا
فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً إنّ الوقوف على أبوابهم ذُلّ[2]

إنّ القلّة المُدقعة لموت مورود وهلاك مُرّ مَذاقه، لكن ذلّ الفبراعة ليس بأقلّ من ذاك إيلاماً، ومن الخير إيثار الفناء مع شرف الكرامة من إهانة النفس بذلّ السؤال:

لَذُلّ السؤال وهولُ المهات كلاً وجدناه طعماً وَبيلا
فإنْ كان لا بدّ إحداهما فشيأ إلى الموت مشياً جميلا[3]

إن الرضا بأيسر أكلة والكفاية بأقل شَرْبة خير من شراهة الحرص أو إراقة ماء الوجه على عتَب اللئام:

أُقسم بالله لَرَضْخُ النّوى وشرب ماء القُلُب المالحة
أحسنُ بالإنسان من حرصه ومن سؤال الأوجه الكالحة[4]

أجلْ، أنّ يطعم المرء خبز شعير مأدوماً بملح محض، وأن يضرب في ارض

١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٨٢، ومناقب الشافعي للرازي ٢٠٠، والوامق: المحب.
٢) نتيجة الأفكار ١١. ٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٦٥.
٤) مناقب الشافعي للرازي ١٩٩، ورضخ النوى: كسره لاستخراج ما في قلبه من نسغ والقلب: جمع قليب وهو البئر.

الله إلى اي مكان يكسب فيه رزقه، ويصون كرامته، خير له من أن يخفض رأسه لأحد إلا مولاه اللطيف الخبير:

صُنْ بملح الجَريشِ خبزَ الشعير ... واعتقبْ للنجاة ظهر البعيرِ
وجُبِ المَهْمَهَ المخوف إلى طَنْـ ... ـجة أو خلفها إلى الدُّرْدُورِ
وصُنِ الوجهَ أن يذلّ وأن يخْـ ... ـضع إلا إلى اللطيف الخبير (١)

وواضح من خطاب الشافعي أنه لا يعف عن الدنيا ومطامعها فحسب، بل أيضاً يدعو لذلك، وينصح به، يقول في موضع آخر:

لا تأسفِ الدنيا على فائت ... وعندك الإسلامُ والعافيةْ
إنْ فاتَ أمرٌ كنتَ تسعى له ... ففيهما من فائت كافيةْ (٢)

ويعود تارة ثالثة فيحظ بالزهادة واتقاء الشُّبُهات ومجانبة المرء ما لا يعنيه وتطهير نيته في كل أمر فيقول:

عُمْدةُ الخير عندنا كلماتٌ ... أربعٌ قالهن خير البريّةْ
اتّقِ المشبهاتِ وازهد ودعْ ما ... ليس يَعْنيكَ واعملنّ بنيّةْ (٣)

ومما هدى إليه الشافعي ألاّ يبذل الإنسان مواعظه لمن لا يرغب فيها، ذلك أنه لن يُحمد عليها من جهة، ولن تنفع النصوح الراغب عنها من جهة اخرى:

ولا تُعطينّ الرأيَ مَنْ لا يريدُه ... فلا أنتَ محمودٌ ولا الرأيُ نافعُهْ (٤)

ومن مواعظه لطلبة العلم أن يصبروا على ما قد يرونه من أساتذتهم من جفاء في بعض الأحيان، فإن ذلك الصبر - على مرارته - خير من البقاء في عماية الجهل طوال العمر، ويوصي الشافعي بالحرص على هذه الفضيلة منذ غضاضة الأعواد، ويبيّن

١) مناقب الشافعي للبيهقي ٦٧/٢، والجريش: اللحم الذي لم يطبب.
٢) مناقب البيهقي ٦٦/٢، ومناقب الرازي ١٩٨، ٣) معاهد التنصيص ١٨٦/٤.
٤) مناقب البيهقي ٩٧/٢.

أنّ العلم والتقوى هما الحياة لبّ الحياة:

تصبّرْ على مُرِّ الجَفا من معلّمٍ ... فإنّ رسوب العلم في نفراتِهِ
ومَنْ لم يَذُقْ ذلّ التعلّم ساعة ... تجرّعَ ذُلّ الجهل طُول حياته
ومن فاته التعليم وقتَ شبابِهِ ... فكبّرْ عليه أربعاً لوفاته
حياةُ الفتى - والله - بالعلم والتقى ... إذا لم يكونا لا اعتبارَ لذاته (١)

والناظر في شعر الإمام الشافعي يجد إيثار العلم من محامد الأخلاق التي أخذ بها نفسه، ودعا إليها سواه، ذلك أنه مكرمه رافعة وخصلة فاضلة، وهو وسيلة السعادة والفقه والاستبصار:

رأيت العلمَ صاحبُه كريمٌ ... ولو ولدتْه آباءٌ لئامُ
وليس يزال يرفعه إلى أنْ ... يعظّم أمرَه القومُ الكرامُ
ويتّبعونه في كل حالٍ ... كراعي الضأن تتبعه السّوامُ
فلولا العلمُ ما سَعِدَتْ رجالٌ ... ولا عُرِفَ الحلال ولا الحرامُ (٢)

وتكثر دعوة الشافعي إلى هذا الخُلُق المحمود والتماسه، ذلك أنه يجلو عن القلوب رَيْن الجهالة، ويعين على فهم الدين، وبراءة النفس من مذمّة الجهل، والحرم عليها، وينصح أبو عبدالله بلزوم رواة العلم، ويُعيد كما كان يُبدىء أن من أعظم منافع المعرفة أنها تهيء الأنفس للرّشاد واستيعاب ما نزل به الوحي:

مع العلم فاسلُكْ حيثما سلك العلمْ ... وعنه فسائلْ كلّ مَنْ عندَهُ فَهمُ
ففيه جلاء للقلوب من العمى
وعَوْنٌ على الدّيْن الذي أمرُه حَتْمُ
فإني رأيتُ الجهل يُزري بأهله ... وذو العلم في الأقوام يرفعه العلم

١) ديوان الامام الشافعي ٢١. ٢) المصدر السابق ٥٢.

فأيُّ رجاء في امرىء شاب رأسُه ... وأفنى شباباً وهو مستعجم فَدْم؟
وهل أبصرتْ عيناك أقبح منظراً ... من الشيب لا علم لديه ولا حلم
وخالطْ رواة العلم واصحبْ خيارَهم ... فصحبتهم نفع وخلطتهم غُنْم
ولا تَعْدُوَنْ عيناك عنهم فإنهمْ ... نجومُ هدىً ما مثلهم في الورى نجم
فوالله لولا العلمُ ما فصَح الهدى ... ولا لاح من غيب السماء لنا رَسْم[1]

ومن الأخلاق التي أعلى من شأنها إلى أبعد غاية حب السخاء ، فهو يتلهف على مال يجود به على المعسرين من ذوي المروءة ، لكيلا يتألم إذا التمسوا نواله فاعتذر لقلة ذات يده :

يا لهْفَ نفسي على مال أفرّقه ... على المقلّين من أهل المروءاتِ
إنّ اعتذاري إليك من جاء يسألني ... ماليس عندي لمن إحدى المصيبات[2]

وبدهو كانَ المال أن ينفقه على نفسه ليتنعّم ، وعلى غيره ليحتسب الأجر ، وبذلك لا يكون كمن لا يسخو إلا إبان الشرّع حيث لا يجديه الوَهْب كثيراً :

يا جامعَ المال ترجو أن تفوزَ به ... كلْ ما أكلتَ وقدّم للموازينِ
ولا تكن كالذي قد قال إذ حضرتْ ... وفاته : ثلث مالي للمساكين[3]

ومن محامد الأخلاق في شعر الشافعي فضيلة العفو ، فهو يصفح عمن وقع في النيل منه ، من أجل ألا يَرُدّ أحد من أمة محمد ﷺ في سبيل وزر منوط به يوم الحساب :

١) نتيجة الأفكار ٣ ، وقدم : قليل فهم .
٢) مناقب الشافعي للرازي ٢٠٣ ، ونور الابصار ٢١٤ ، وطبقات السبكي ١/١٥٩ ، ورواها ابن عبدالبر في بهجة المجالس ١/٤٨٦ للشافعي ولكنه أشار إلى أنه « قد قيل انها تمثل بيها » .
٣) نتيجة الافكار ٤ .

مَنْ نال مني أو علقت بذمّته ... أبرأتُهُ لله شاكر منّتِهْ
أأرى معوّق مؤمن يوم الجزا ... أو أن أسوء محمداً في أمته ؟[1]

إنّ خيراً من مؤاخذة هؤلاء المؤمنين أن يلتفت كلٌّ إلى نفسه لتزداد تقوى إلى تقواها ، فيكون مثَلُه في ذلك مثل السقيم الذي تلهيه آلامه عن آسقام سواه :

والمرء إنْ كان عاقلاً ورِعاً ... يشغله عن عيوبهم ورعُهْ
كما العليلُ السقيمُ يشغله ... عن وجع الناس كلّهم وجَعُهْ[2]

هكذا سبيل التقوى ، خُلُق صفوح ، وإحسان وضيء ، وهجران لكل سيئة :

فدعْ عنك سوءات الأمور فإنها ... حرامٌ على نفس التقيّ ارتكابُها
وأحسنْ إلى الأحرار تملكْ رقابهم ... فخيرُ تجارات الكرام اكتسابُها[3]

ومع الحكمة - أكبر أغراض الشافعي في قريضه - كان له شعر في الصداقة والفخر والمدح والهجاء . ومما احتفظت له المصادر في الصداقة بيتان كتبها إلى محمد ابن الحسن لما اتّهم بمالأته على الرشيد ، يقول :

لستُ أدري ما حيلتي غير أني ... أرتجي من جميل جاهك صُنْعا
والفتى إنْ أرادَ نفع صديق ... فهْو يدري في أمره كيف يسْعى ؟[4]

ولما أعانه على إثبات براءته وفسح له في مكتبته حتى ينسخ أئمة كتب الأحناف لذلك العهد ، حدّث أن تأخّر في إحدى المرّات عن تعجيل إعارته له بعض المصنفات فأنفذ الشافعي إليه :

قُلْ للّذي لم ترَ عينا - مَنْ رآه مثـــــله

١) شذرات الذهب ٢/١١ .
٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٨٨ ، وتوالي التأسيس ٧٥
٣) مختصر تذكرة القرطبي ١٦ .
٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٨٦ .

وَمنْ كأنّ مَنْ رآه - قد رأى مَنْ قبلَه
العلم ينهى أهلَه أن يمنعوه أهله [1]

فبعث إليه بتلك المصنفات. ومن آثار الشافعي في هذا الشأن بيتان قالهما في محمد بن عبدالحكم. وكان من أحبّ إخوانه في مصر إليه، وكان قد اعتلّ:

مرض الحبيب فعُدْتُه فمرضتُ من حذري عليهِ
فأتى الحبيب يعودني فبرأْت من نظري إليه [2]

ومن شعر أبي عبدالله في الفخر بيتان يذكر فيهما ما وعاه من العلم النافع الذي يصحبه أينما حلّ، يقول:

علمي معي حيثما يمّمْتُ ينفعني قلبي وِعاءٌ له لا بطن صندوقِ
إنْ كنت في البيت كان العلم فيه معي
أو كنت في السّوق كان العلم في السوق [3]

وأيضاً يفتخر بحب آل البيت فيقول:

يا راكباً قِفْ بالمحصّب من منىً واهتِفْ بقاعد خَيْفها والناهضِ
سحَراً إذا فاضَ الحجيجُ إلى منىً فيضاً كمُلْتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حبُّ آلُ محمدٍ فليشهد الثّقَلان أني رافضي [4]

وواضح أن الشافعي يعبّر عن حبه - كأيّ مسلم - لأهل البيت، إلا أن

١) المحدون من الشعراء ١٣٨، وتهذيب الأسماء واللغات ١/١/٨٢، وقد رواها له ابن خلكان في وفياته ٣/٣٢٤، وقال: «ورأيت هذه الابيات في ديوان منصور بن اسماعيل الفقيه المصري... وقد كتبتها إلى أبي بكر بن قاسم». ٢) مناقب البيهقي ٢/٩٣.
٣) أدب الدنيا والدين ٤٩. ٤) معجم الأدباء ١٧/٣١٠، والنجوم الزاهرة ٢/١٧٧، والوافي ٢/١٧٨. والمحصب: موضع رمي الجمار في منى، والخيف ناحية من منى.

هذا لا يخوّل أحداً أن يسلكه في الروافض [1] أو الشيعة [2]، كما صنع بعض الدارسين، فأقوالهم مردودة وليست تقوم على أي دليل، ذلك أن الشافعي لم يكن يتبرّأ من الشيخين أبي بكر وعمر، فمنْلة المغالين الرافضين، بل كان يقدرهما إلى أبعد غاية ويقول: «أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم» [3]، وكان يصحح إمامتهم جميعاً [4]، وكان كثير الطعن في الرافضة [5]، وقد أثرت عنه أبيات يبيّن فيها ندامة من إذا رآه يذكر عليّاً حشره مع أتباعه المغالين فيه، ومن إذا ألفاه يمدح أبا بكر سلكه في الناصبية الذين يبغضون الإمام أبا الحسن، وكل ذلك أحكام جائرة وأفهام مائلة هو منها بَراء:

إذا نحن فضّلنا علياً فإننا روافض بالتفضيل عند ذوي الجَهْلِ
وفضلُ أبي بكر إذا ما ذكرتُه رُميتُ بنُصْب عند ذكري للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما بحبهما حتى أُوسَّدَ في الرمل [6]

وأيضاً فإن من الواضح أن إمام المذهب الشافعيّ السني الكبير لم يكن شيعياً، إلا أن أبا عبدالله كان - كأيّ من أهل القبلة - يوادّ الشيعة ويحسن معاملتهم، لأنهم - ببساطة - فرقة إسلامية موحّدة تتصم بأركان الإسلام الخمسة، وتنتصر دعوته، وتمتثل أخلاق، تماماً مثل أهل السنة، وما كان الخلاف الفرعي اليسير بين الطائفتين المؤمنتين ليحجب عن بصر الامام الشافعي ما تلتقيان فيه من أمهات القواعد وكبريات القضايا الأساسية في التشريع الاسلامي، إضافة إلى اركان الايمان الذي لا تختلفان فيه إذا استبعدنا القلة من الشذّاذ المغالين - أي اختلاف.

ويزيد ما تقدّم وضوحاً أننا نجد الشافعي في مديحه يقدّر الخلفاء الأربعة الراشدين جميعاً، فيقول:

شهدتُ بأنّ الله لا شيء غيره وأشهد أن البعث حقٌ وأُخلصُ

١) انظر نقل الرازي لمقالتهم ودفعه لها في مناقب الشافعي ٨٩ ٢) تنقيح المقال ٢/٧٦.
٣) مناقب الشافعي للبيهقي ١/٤٣٣. ٤) و ٥) مناقب الشافعي للرازي ٩٢.
٦) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧، ونور الابصار ١١٥.

وأنّ أبا بكر خليفة ربّه وكان أبو حفص على الخير يحرص
وأشهد ربي أن عثمان فاضل وأنّ عليّاً فضلُه متخصّص
أئمة قوم يُهتدى بهُداهمُ لها اللهُ من إيّاهمُ يتنقّص
فما لمُتاةٍ يشهدون سفاهة وما لسفيه لا يحيص ويحرص ؟ (١)

ومما بقي من أشعاره في الهجاء بيتان يحمل فيهما على المفرطين بالرأي الذين لا يتحرّون ما في قضاياهم من حديث نبوي ، يقول :

لم يبرَح الناسُ حتى أحدثوا بِدَعاً في الدين بالرأي لم يُبعث بها الرُّسلُ
حتى استخفّ بحقّ الله أكثرُهم وفي الذي حمّلوا من حقّه شغُلُ (٢)

وكذلك يحمل على أولي الأثرة الذين أنطقتهم الدراهم بعد طول سكوت فيقول:

وأنطقت الدراهم بعد صمت أناساً بعد أن كانوا سكوتا
فما عطفوا على أحد بفضل ولا عرفوا لمكرمة بيوتا (٣)

. . . . .

ولعله اتضح من الأمثلة الكثيرة المتقدمة من شعر الشافعي أنه شعر حسن بصورة عامّة ، ويكاد دائماً يحوز فضيلة المعنى الشريف والفكرة العفيفة ، وتلك إحدى المقوّمات الأساسية لكل فنّ يبتغي لنفسه الإعزاز والتقدير والسموّ ، ولا بأس أن أسوق الآن هذا النموذج مثلاً للسمات الغالبة على قريضه ، يقول في الفقر :

ماذا يخبّر ضيفُ بيتك أهلُه إنْ ميلَ كيف مَعادُه ومَعاجُه؟
أيقولُ جاوزتُ الفراتَ ولم أنلْ ريّاً لديه وقد طفت أمواجه ؟

١) طبقات السبكي ١/١٥٦ ، ومناقب الشافعي للرازي ٨٧ ، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/٦٨ .
٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٧١ ، والبداية والنهاية ١٠/٢٥٤ .
٣) حلية الاولياء ٩/١٤١ ، وطبقات السبكي ١/٦٠ .

ورقيتُ في درج العُلا فتضايقتْ عمّا أريد شبابه وفجاجُه ؟
ولتخبرنّ خصاصتي بتملّقي والماء يُخبر عن قذاه زجاجه (١)

فهو يتمنى المقدرة على أسباب الكرم ، وذلك معنى سامٍ وأمنية وضيئة ، وهو - في إيراده على هذه الشاكلة - ليس بسطحي الطريقة داني المأخذ ، وإن لم يكن في الوقت نفسه سحيق الغور بديع المسلك ، ودائماً لا بد في الشعر مع شرف معناه من طرافته ودقته . وفي الأبيات حسرة عاطفية مؤثرة ورجاء صادق ، وفيها تشبيه الكريم بالفرات وتصوير الأمواج الطاغية والعلا المرفوع درجات درجات والسبل المتضايقة والخصاصة المخبرة والزجاج الحاكي ، وهي صور بديعة وإن كان بعضها خافت الروح . والعبارات قوية والألفاظ جزلة والتدفّق عادي والتراكيب مألوفة .

إلا أن في شعر الشافعي في بعض الأحيان إبداعاً ظاهراً وجمالاً ألقى ، يقول في تربية النفس واختيار الصديق :

صُن النفسَ واحملها على ما يزينُها تعِشْ سالماً والقولُ فيك جميلُ
ولا تُرينّ الناسَ إلا تجمّلاً نبا بكَ دهرٌ أو جفاكَ خليل
وإن ضاقَ رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ عسى نكباتُ الدهر عنك تزول
ولا خير في ودّ امرىء متلوّنٍ إذا الريحُ مالتْ مالَ حيث تميل (٢)

فمعانيه فاضلة تقوّم النفس وتحلّق بها في آفاق عالية سمحة ، وتنجو بها من معاجة المُنافق المقيت ، وتزدان الأبيات بصورة النفس المحمولة على ما يزين ويُرقي ، وبتجسيم المصائب والارزاق ، وكشف الألوان المتقلبة لذي الوجهين أو الوجوه ، وميلانه مع الريح التي يجملها الإمام الشافعي مما يميل ، ويكني بها عن الظروف والأحوال . والألفاظ رقيقة ، والتراكيب محكمة ، والسياق منساب ، والقافية تتماشى معه في اتفاق والسجام . ويقول :

١) نزهة الجليس ٢/٢١٠ ، ووفيات الاعيان ٣/٣٠٨ ، ومعاجه : مقامه .
٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٠٦ ، ومناقب الشافعي للرازي ٥٠ ، وروى الضريتي عن الربيع بن سليمان أنه أنشد الابيات انشاداً ! « انظر شرح المقامات ٢/١٣٩ » .

الناسُ بالناس ما دام الحياة بهم ... والسَّعد لا شكَّ تارات وهبّاتُ
وأفضل الناس ما بين الورى رجل ... تُقضى على يده للناس حاجاتُ
لا تمنعنَّ يد المعروف عن أحد ... ما دمتَ مقتدراً فالسَّعد تارات
واشكرْ فضائل صنع الله إذ جُعلتْ ... إليك لا لك عند الناس حاجاتُ
قد مات قومٌ وما ماتتْ مكارمُهم ... وعاش قومٌ وهم في الناس أمواتُ[1]

وبلفت في النص أنّ «لا شك» عبارة غير مألوفة في ميدان الشعر، إلا أنها قد جاءت ها هنا حسنة الموقع منسجمة مع السياق، وكذلك العطف بـ «لا» ابتغاء قصر المعنى على ما سبقها من عوائد النثر لا الشعر، لكنّ قصرها في البيت الرابع لتذكير المخاطب بما أوتيه من فضائل صنع الله، وانسجامها لا نفورها مع تراكيب البيت، ذلك جنّبها أن تكون نابزة أو غريبة. وبلفتنا أيضاً تجسيم السيد فهو يهبّ هبوباً، وتجسيم المعروف فيما هي ذي يده، وتشخيص المكارم فتلك هي حيّة، وتصوير الأشحّة فيما هم أولاء ميّتون على الرغم من أنهم يحسبون على الأحياء. وقد أحكم الرويّ الهامس «التاء» فكان مع القافية خافقة طبيعية لا متكلّفة ولا مقسورة، كما كان مناسباً للنصيحة الحكيمة التي تهمس ولا تشهّر.

وانظر تقاسيمه الموسيقية المتشابهة المتدفقة التي تلائم سرعة الهبوب وعجلة الاعتنام وتوالي الخفقان في قوله:

إذا هبّتْ رياحك فاغتنمْها ... فعُقبى كلِّ خافقة سكونُ
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فلا تدري السكون متى يكونُ؟[2]

وانظر السياق المنسجم السلس المتلاحق في قوله:

نعيبُ زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
وقد نهجو الزمان بغير جُرْم ... ولو نطق الزمان به هجانا

١) المنهج الاحمد ١/٧١. ٢) مناقب الشافعي للرازي ٢٠٥.

وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضاً عيانا[1]

وانظر هذه التقاسيم المعنوية المفصّلة:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى ... وحظّك موفورٌ وعرضك صيّنُ
لسانَك لا تذكر به عورةَ امرئ ... فكلّك عورات وللناس ألسُنُ
وعينَك إن أبدتْ اليكَ مساوياً ... [فدعها وقل] يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامحْ من اعتدى ... وفارقْ ولكنْ بالتي هي أحسن[2]

وإلى جانب هذه الأمثلة من الابداع الفني الذي يفوق مألوف شعره، كان ثمة مواضع أخرى يهبط فيه قريضه عن هذا المألوف، فمرّة نجد فيه نزعة نثرية خالية من النبض الشاعري الحيّ على جلال معانيها فيقول:

فسادٌ كبيرٌ عالمٌ منهتكٌ ... وأكبر منه جاهلٌ متنسّكُ
هما فتنة في العالمين عظيمة ... لمَنْ بهما في دينه يتمسّك[3]

ومرّة يجنح إلى عرض قضايا فقهية محدودة، ثم يمعن أحياناً فيها حتى تشبه الألغاز، ويروى أن رجلاً جاء إليه برقعة مكتوب فيها:

رجل مات وخلّف رَجلاً ... ابن عمّ ابن أخي عم أبيه

فأجاب الشافعي في الحال:

صار مال المتوفّى كاملاً ... باجتماع القول لا مرية فيه

١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٨٤، وانظر البيتين الاولين في المعمرون من الشعراء ١٤٠. وقد نسبت الابيات في معجم الادباء ١٩/٧ الى أبي الحسن محمد بن محمد المعروف بابن السكك البصري، مع اختلاف في رواية الابيات. ٢) نفيحة الافكار ١٢، وما بين المقوفين في المخطوطة هكذا: (فدعها)، والابيات في غرر الخصائص ١٠١ دون نسبة.
٣) ديوان الامام الشافعي ٥١، وهما في مفتاح السعادة ١/٣٢، دون نسبة.

للذي أخبرت عنه إنّه ابن عم ابن أخي عم أبيه [1]

والرجل الوارث هو والد المتوفّى، والقصة تدلّ على ذكاء الشافعي رحمه الله وسرعة بديهته، ولعل من الواضح أنّه قد اضطرّ إلى هذا اللغز اضطراراً، ومن هنا ندر في شعره أشباهه.

على أنّ من المؤكّد أن لأيدي النساخ آثاراً واضحة في الطراز الأخير من شعره، ذلك أن النقاد القدماء أبانوا تقدّمه في هذا الفن من القول، فذكر المبرّد أن الشافعي «كان من أشعر الناس» [2]، وشهد ابن العماد أنه كان «مع جلالة قدره شاعراً مفلقاً مطبوعاً» [3] وأبان أبو الفداء وعمر ابن الوردي أن أشعاره فائقة [4]، وأشار اليافعي - من ناحية أخرى - أنّه «له من الأشعار ما يخرج عن حيز الانحصار» [5]، مع أن ما في أيدينا منها لا يتجاوز خمسمائة بيت.

والمصادر الكثيرة المستفيضة التي روت مقطوعاته الشعرية وقصائده، واتي ذكرت مجموعة منها في الهوامش المتقدّمة، وافتخاره بحيازة هذه الموهبة الفنية [6]، وقوله: «الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح» [7]؛ كلّ ذلك يرجّح أن ما ينسب إليه من أن الشعر يزري بالعلماء [8]، أو أنه «لا يكاد يجود شعر القرشيّين، لأن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له» [9] وأن قوله: «لو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة» [10] إنْ هي إلا أحكام اصدرها أول عمره ثم عدل عنها، أو هي خواطر نظرية قد خالفها من الوجهة العملية.

---

١) مناقب الشافعي للرازي ٢٠٣. ٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٤٨.
٣) شذرات الذهب. ٤) تاريخ أبي الفداء ٢/٢٩، ونتمة المختصر ١/٢١٥.
٥) مرآة الجنان ٢/٢٦. ٦) انظر شعراً له في وفيات الاعيان ٣/٣٠٧، ونزهة الجليس ٢/٢١١. ٧) مناقب الشافعي للرازي ١٩٥.
٨) انظر في نزهة الجليس ٢/٢١١، والنجوم الزاهرة ٢/١٧٧ قوله:

ولولا الشعر بالعلماء يُزري لكنت اليوم أشعرَ من لبيد
وأشجع في الوغى من كلّ ليث وآل مهلّب وأبي يزيد

٩) مناقب الشافعي الرازي ١٩٥، والآية من سورة يس ٦٩. ١٠) توالي التأسيس ٧٥.

* * * *

خاتمة

أردت في هذه الدراسة أن يتسع مجال الأدب فلا يقف عند الأعلام لا يتعداهم ، إذ لا يمكن لهؤلاء أن يصوّروا وحدهم خصائص الأدب العربي كلها جميعاً ، فاخترت شعر الفقهاء ، والتزمت في دراستهم المعنى الاصطلاحي لكلمة فقه ، وآثرت المنهج المتكامل ، وحصرت الدراسة بما يقرب من قرنين من الزمن فحسب ، وهي حقبة زاد قارضو الشعر فيها من الفقهاء على خمسين ، وتجاوزت آثارهم التي في أيدينا ثلاثة آلاف بيت .

وقد جعلت الدراسة في ثلاثة أبواب ، تناولت في أولها موضوعات شعر الفقهاء وأغراضه ، وكانت الحكمة أول هذه الأغراض ، ويسلك تحت عنوان الحكمة ما قالوه من أشعار في الايمان والعقيدة ، وهي أشعار تؤكد أن للناس إلهاً واحداً لا شريك له ، خلق العباد ، وأنزل عليهم الدين ، ووهبهم نعماً غامرة من فضله الأوفر ، وهو سبحانه خالد باق مالك الملك يعلم الغيب والشهادة . وقد كتب على نفسه الرحمة واللطف والانعام . . . وكريم الصفات ، وجعل لعباده حياة ثانية أخرى وهي حياة تبتدىء منذ مواراة الميت في قبره ، إذ فيه يذوق - إن كان آثماً - دفعات العذاب الأولى ، وعندما يحين الحشر يمثل كل ابن أنثى بين يدي الله في موقف رهيب رائع ، فيثيبه ، بحسب عمله ، نعيماً أو جحيماً .

وعلى هدى حقيقة الايمان مضى الشعراء الفقهاء يطيلون التأمل والتفكر في الحياة والانسان والكون ، فليست هذه الحياة إلا سراباً وغروراً ، يتنفخ ابن آدم فيها ويتنفخ ، ويغيب عنه أنها سريعة المضاء ، محتومة النهاية ، وهو يشيع كل يوم فريقاً من الراحلين ، ولكنه لا يستشعر أنه سوف يمضي كما يمضون مستسلماً لقضاء ربه الغالب ونظامه المحكم .

والانسان في شعر الفقهاء ، مخلوق أبدعه الله وأنشده ، منذ كان في عالم الذر ، انما هو عبد لمولاه ، وقد كتب عليه قصر العمر ، وناط به المسؤولية وهو - خلال حياته - قد يرتكس ، إلا أن يمكنه النهوض والاستقامة من جديد ودائماً يتغلب

عليه رخاء وشدة وقوة وقبول، وليس له من الأمر من شيء، إنْ هو إلا قضاء واقع وقدر نافذ.

وقد تأمل الشعراء الفقهاء دوران الزمن وتعاقب الأيام، وتفكروا في الكون وما فيه من ليل ونهار وأرض وسماء، واستدلوا بها على الخالق الذي أبدعها، واهتدوا إلى أن ثمة نظاماً شاملاً يهيمن على الكون وعلى الانسان ويحكمها جميعاً.

وقد نفذوا من وراء هذا التأمل المستبصر إلى عبر كثيرة استخلصوها من الحياة الرحبة، وتجاربهم فيها، وصاغوها قواعد هادية وأمثلة واعظة.

وعلى طريق الحكمة دعَوا دعوة واسعة إلى الزهادة في هذه الحياة الدنيا الفانية غير أنها زهادة تخالف ما تصوره جولدتسيهر خلافاً كبيراً، إذ لم تكن خمولاً ولا تواكلاً ولا انعزالاً، وإنما كانت نظرة عفة تستعصي على إغراء الدنيا وفتنتها، من دون أن تغفل أسباب المعاش ولا استثمار الأرض. وإلى جانب هذه الدعوة السامية وعظ الشعراء الفقهاء مواعظ كثيرة أخرى تهدي إلى التقوى وذكر الله والثقة به وطاعته، وتقدم نصائح صالحة أن تكون مناهج في التربية والتقويم. وأيضاً وعظوا بطائفة حسنة من الأخلاق السامية كالفضيلة وحب العلم والكرم والمعروف والوفاء، وحذروا من اتباع الهوى والمنّ والكبْر والحسد والغيبة والرياء وغير ذلك من مساوىء الأخلاق.

ثم يلي الحكمة الغزل، وهو أمر قد يدعو إلى الاستغراب إذا لم يتنبه الدارسون إلى أن ثلثي غزل الفقهاء، أو ما يزيد على ثلثيه، لعروة بن أذينة وحده، وتُسلك جملة ما لهم من هذا الغرض في الغزل بالزوجة، وتعد في الشعر العفيف، وتخلو من التغزل بالمذكر خلواً تاماً.

ويتلو الغزل الفخر، وأيضاً قد تحمّل ابن أذينة ثلثيه وحده، وكان فخر الشعراء الفقهاء على لونين، جاهلي طرق فيه عروة من دون سائرهم أبواب الحميية الجاهلية، وإسلامي كان يمضي في سنوف ثلاثة، دار أولها حول قيم قديمة استمرت مَرْضيّة في الإسلام، وأشاد ثانيها بمعان عرفت من قديم لكنه خلع عليها زياً استنكر على حالته الأولى، لولا بقاء اسمه، واعتز ثالثها بمفاخر جديدة جدة تامة.

ويعقب الفخر خمسة أغراض هي الوصف والعتاب والهجاء والرثاء والمدح، ويتناول الوصف الطبيعة وما فيها من أطلال أحبة غادروها، ومن صحراء لا يبلغ مداها البصر، ومن صنوف حيوان تعمر تلك الصحراء، ومن سحاب ومطر... ويتناول كذلك موضوعات متفرقات كوصف طريق مخوف، أو مدينة من المدن، أو شيب ينذر بالموت.

وطرق العتاب ما قد يحدث بين الأصدقاء من جفوة أو تغير، وما قد يبدو في معاملتهم أو معاملة بعضهم من قلة وفاء أو وقوع في الهفوات، وقد استنوا بعتابهم عن هجاء كثير.

وكان هجاؤهم على ثلاثة ضروب: سياسي واجتماعي وخلقي، ويُعدّ في النوع الأخير جملة ما تركوه في هذا الغرض من الشعر، وهم يهجون - في الغالب - هجاء مباشراً، غير أنهم قد يسخرون ممن يهجونهم سخرية، وقد يعرّضون بهم تعريضاً.

وكان الشعراء الفقهاء - كلما تخطّف لهم الموت قريباً أو عزيزاً - رثوه وبكوه، سواء كان خليفة عادلاً، أم عالماً جليلاً، أم أباً شفيقاً، أم أخاً وديداً، وربما رثوا أنفسهم أو شيختهم أو اصدقاءهم، وفي كل ذلك يجملون الاعتبار نصيباً كبيراً.

وقد تنكبت مدائحهم المبالغة المكروهة، فلم تكد تعدو مِدْحة الرجل بغير ما هو فيه، ومدحوا النبي ﷺ، وفريقاً من الخلفاء، وأهل العلم والتقوى، والقادة، والسادة الأشراف.

وانتقلت إلى الباب الثاني، فدرست شعر الفقهاء، بعد أن قدمت منه عاذج وافرة عند الحديث عن موضوعاته، دراسة فنية ونقدية، فبنيت ما فيه من إبداع في رائق بأحاسيسه العاطفية وصوره الشعرية وموسيقاه الموائمة وتراكيبه المحكمة ومعانيه السامية، وكل ذلك يدفع الاحكام الشائعة بين المشتغلين بالأدب من أن قريض الفقهاء نظم لا شعر.

على أنه كان إلى جانب الابداع الفني نظم حقاً، غير أنه لم يبلغ حتى نهاية العصر العباسي الأول مقدار ما بلغه شعر الإبداع، وهو يتجلى في النزعة العقلية وما أدت إليه من استعراض اشياء علمية، أو فيكثر مجردة كما يتجلى في البساطة وما تنزع إليه من الألفاظ السهلة والتراكيب اليسيرة والأفكار العامة والارتجال في بعض الأحيان.

ثم درست علائق شعر الفقهاء بالمجتمع الإسلامي من حوله ، إذ الشعر ـ كثيره من مظاهر الحياة ـ يمتّ إليها بأواصر شتى ، ويصوّر منها ملاعب ومعالم ، وإن من واجب الشعراء الأذكياء أن يشعروا بآمال الناس وآلامهم ، وهمومهم وأشواقهم ، وأن يجعلوا مواهبهم في بناء المجتمع لا إلى كاسه ، وإرقائه لا إركاسه ، لكن ذلك لا يعني أن يُلتزم الشعراء بقضايا المجتمع إلزاماً خانقاً ليس ثمة فيه حرية ولا طلاقة ولا ذاتية متفردة . ومن هنا يخطىء الذين يريدون أن يبتروهم عن ذلك خطأ بعيداً . وتزداد فداحة خطئهم اذا حاولوا اقحام نظريات أجنبية غربية في دراسة الأدب العربي القديم الذي كان يحيا في جواء تختلف اختلافاً تاماً عن جواء تلك النظريات التي نبتت فيها ، وان تاريخ الشعر وتاريخ الحضارة ليستنكران ذلك الاقحام استنكاراً شديداً.

والناظر في شعر الفقهاء يجد فيه تصويراً لجوانب شتى من المجتمع الاسلامي ، ويجد فيه قائمة بأسماء طائفة من بلدانه ، واشتاتاً من تضاريسه وطقسه ونباته وحيوانه وسكانه ، واطرافاً من العقيدة والعبادة فيه ، ومعيار الانسان الصالح ، وحوادث سياسية ، وشؤوناً فكرية ، وجوانب مالية ، وبعض عادات اجتماعية ، وكل ذلك يشهد للمجتمع الاسلامي بغير ما شهد له به بعض الباحثين المعاصرين من أنه كان في القرن الثاني مجتمع شك وفسق ، أو ان علماء الحجاز كانوا يقفون دروسهم لسماع الغناء والموسيقا ، أو ان الأدب العربي كان أدب بلاط . وكلها أقوال قد ابتُليت بالشَّرَف في تعميمها ، أو بالتفريط في استجلاء ملامح ذاك العصر ، أو بإصدار الأحكام هكذا دون بينة ولا برهان .

ثم حاولت أن اكشف مدى التزام شعر الفقهاء بالاسلام الذي أمضوا أعمارهم في دراسة علومه وتبيان أحكامه ، فبينت موقف الاسلام من الالتزام ، فقد ناط بأتباعه مسئولية شاملة لأفعالهم وأقوالهم وآثارهم ونوايام ، أو قل لحياتهم كلها ، إلا أن رحابة ما هو حلال في الشريعة الاسلامية ، ومُكْنة الاستغناء به عن أي محرَّم ، وكلية الأحكام وسعتها في كثير من الاحيان لعدة أوجه من الأعمال ، ومباركة الدين لقوى الخير المقسامية في الانسان ، كل ذلك يجعل الالتزام بالاسلام يمتاز من الالتزام بغيره ، ويذر مجال القول رحباً فسيحاً أمام الشعراء .

ولعل ذلك ما يفسر إعلاء شعر الفقهاء ـ في كل موضوعاته ـ للشعائر الدينية

والفكر الاسلامية ، والتزامه بها على نحو يشبه أن يكون ترداداً لمعاني الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، ولا يكاد يلقى القارىء لهذا الشعر معنى واحداً يخرج على ذلك . اللهم إلا نحو ما كان لعروة بن أذينة من غزل حسي أو عصبية جاهلية .

واستعرضت في الباب الثالث حياة الشعراء استعراضاً تاريخياً ، فقد كان عصر الخلفاء الراشدين بداية أولى مهدت لنشأة شعر الفقهاء أو قل لاستوائه في مطلع العصر الأموي . ومن احتفظت لهم المصادر بقريض الخلفاء الاربعة وأبو الدرداء ، إلا انه قريض قليل ، ويدخله مع ذلك ـ وضع كثير ـ ولا يمكن أن تمتد إليه الأيدي مالم تنزع من حوله أشواك الوضع والتزييف ، ومن هنا جعلت هذه الفترة تمهيداً أولياً للمرحلة القادمة .

وما إن طُوي عهد الخلفاء الراشدين سنة اربعين للهجرة حتى كانت الطلائع الأولى من أعلام الشعراء الفقهاء قد أخذوا يتوافدون إلى ساحة الفن ، وبينما كان أوائلهم يدخلونها على استحياء كان الذين يلونهم يقتحمون الميدان بقوة وثقة ، وكان كل منهم يحمل لواءين عاليين ، أحدهما لواء الفقه والآخر لواء الشعر . ويمثل الأوائل الحسن بن علي وعقبة بن عامر والحسين السبط ، ويمثل التالين النعمان بن بشير وأبو الأسود الدؤلي . وكان يعاصر هؤلاء الفقيه الصحابي عبدالله بن عباس ، واستمرت قافلة الشعراء الفقهاء تتلاحق تترى فكان من رُكبانها القاضي شريح بن الحارث الكندي ونصر بن عاصم وابراهيم النَّخَعي وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة وعمر بن عبدالعزيز وعامر بن شراحيل الشعبي والحسن البصري وعون بن عبدالله ومحارب بن دثار وزيد ابن علي وابن شهاب الزهري وعروة بن أذينة وسابق البربري .

وأشهر هؤلاء النعمان بن بشير وأبو الأسود الدؤلي وابن عتبة وعروة بن أذينة وسابق البربري . والنعمان صحابي روى له مائة واربعة عشر حديثاً ، وكان ممن تأثروا لمقتل عثمان رضي الله عنه ، فقد حمل قميصه إلى معاوية في الشام ، ومنذ ذلك الحين انعقدت بينهما موالاة قوية . وقد ترك ديواناً من الشعر حققه له الدكتور يحيى الجبوري. ويدور شعره حول الحكمة والغزل والفخر والوصف ، ويبدو فيها تأثر واضح بالقرآن الكريم في معانيه وصوره وألفاظه . وعبارة النعمان تسهل وتسلس في الموضوعات الرقيقة ، وتجزل وتقوى بل تغرب في الموضوعات الحماسية والمتبدية ، وقد احتفظ

في قسم من قصائده بمنهج القصيدة الجاهلية وهيكلها الموروث ، وسلك في قسم آخر منهجاً حديثاً ، وألّف بعض شعره مقطوعات مقطوعات .

وأبو الأسود هو ظالم بن عمرو الدؤلي الكناني ، وكان قد أسلم في حياة النبي ﷺ ، ولكنه لم يره ، ولذلك عُدَّ في التابعين ، وأرسله عمر إلى البصرة مفقّهاً للناس ومعلّمهم العربية ، ثم اشتغل في عهد علي كاتباً لابن عباس فيها ، ثم ولاه قضاءها وإمرتها . ولما استخلف معاوية نزع عنه ذلك . وأهم أشعاره في الحكمة والعتاب والهجاء والفخر والمدح . ويلحظ فيها وجْهتان ، الأولى نظم يرصف الكلام فيه رصفاً ، والثانية إبداع رائق فيه عواطف شاعرة وتصوير بارع وانسياب رَهْوٌ سلس ، وأنغام إيقاعية . وقد لمس النقاد القدماء ذلك أو بعض ذلك واستحسنوه .

وكان ابن عتبة من فقهاء المدينة السبعة ، وكان شيخ عمر بن عبدالعزيز ، وقد عمي بصره في أخرة من حياته ، وتروي المصادر أنه كان له زوجة تدعى عتبة ، فتب عليها في بعض الأمر فطلّقها ، ثم تدم أحرّ ندامة ، وقال فيها مقطوعات تفيض لوعة واشتياقاً ، وشعر ابن عتبة من أحسن الشعر .

وكان عروة بن أذينة ، في أول أمره ، يصحب طويلاب الغناء ولم يلبث أن حذق الموسيقا وألّف الألحان . وقد هام بفتاة كانت تسمى سعدى ، وأغلب الظن أنه خطبها ـ بعد شدة عذاب ـ واقترن بها ، ثم استقر بعد ذلك ينهل من الفقه وعلوم الدين ، ولعروة ديوان يحوي سبعمائة بيت في الغزل والفخر والوصف والحكمة والرثاء والهجاء والمدح ، وأسلوبه الفني متأوج بين الجزالة الرصينة التي قد تبلغ الغموض والإغراب ، وهو ما يغلب على شعره ، وبين السهولة والسلاسة ، ومن دون ريب يبعد في كلا أسلوبيه من فحول الشعراء .

وسابق البربري رقيٌّ زاهد قد اختلف في اسمه وقومه ، والراجح أنه أبوسعيد سابق بن عبدالله البربري من موالي بني أمية الذين حملوا إلى دمشق أيام الوليد . وتذكر له مجالسات لعمر بن عبدالعزيز ، وتذكر له أيضاً أشعار دينية في الحكمة . وقد يمكن أن يستدل مما يرى في بعضها من ضعف في أنه كان مغربياً حقاً ، على أن له مقطوعات أخرى قوية التأثير في القلب والنفس معاً .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي الأول وجدنا أن شعر الفقهاء الموروث عن

هذه الفترة لا يبلغ مقداره في العصر الاسلامي ، كما أن الشعراء لم يبلغ عددهم سابقيهم ، وقد توالى على ميدان الشعر في هذه الفترة عبدالله بن شبرمة والإمام أبو حنيفة وميسّر بن كِدام وسفيان الثوري وحيْتان بن علي وابن المبارك وعامر بن صالح وسفيان بن عيينة والشافعي وهارون بن عبدالله الزهري وابن أبي دؤاد وأحمد بن المعذل وأحمد بن حنبل ويحيى بن أكثم وعلي بن حُجْر السَّعْدي ومحمد بن أبي العتاهية وسوار بن عبدالله المنبري والقاسم بن ابراهيم الرسي .

وأهم هؤلاء ابن المبارك والشافعي ، وعبدالله بن المبارك مَرْوزي طوّف بديار كثيرة طلباً للعلم ، وكان حافظاً محققاً من فقهاء الحديث ، وبغيض كتابه الزهد والجهاد من سنة رسول الله بنزارة ، وقد كان زاهداً إلى أبعد غاية ، ويمثل هذا الجانب فيه الزهد الاسلامي الإيجابي الذي لا يمنع بل يدفع دوماً إلى عمْران الأرض والسعي فيها ، من دون أن تكون الحياة فيها أكبر الهموم ولا مطمح الآمال ، وقد انعكس كل ذلك في شعره وفي حياته .

والشافعي هو محمد بن إدريس القرشي الذي ولد في غزة ونشأ في أم القرى مكة المكرّمة ، واستظهر القرآن وهو ابن سبع سنين ، وتبدّى لنبْل الفصاحة من منابعها المذبة الصافية ، وحفظ موطأ مالك ثم تلمذ له ، ورحل رحلات كثيرة إلى اليمن وبغداد ، ثم قرّ في مصر وتوفي بها ، وقد كان مذهبه وسطاً بين الأحناف والمالكية ، ويمكن معرفة هذا المذهب وأصوله من كتبه الرسالة والأم والسنن والمسند وأحكام القرآن . وتستحوذ الحكمة على شعر الإمام الشافعي استحواذاً ظاهراً ، وكان له ـ معها ـ أبيات في الصداقة والفخر والمدح والهجاء . وشعره في أغلب الأحيان حسن مألوف .

المصادر والمراجع

- ١ -

المصادر والمراجع القديمة

القرآن الكريم

. . . . .

إبراهيم بن علي الشيرازي : طبقات الفقهاء (بغداد ١٣٥٦ هـ) .

إبراهيم بن علي الحصري (أبو اسحاق) : زهر الآداب وثمر الألباب ، بتحقيق محمد علي البجاوي (الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٣ م) .

إبراهيم بن علي (بن فرحون) : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (الطبعة الاولى ، مصر ١٣٢٩) .

أبو بكر بن علي بن حجة الحموي : ثمرات الأوراق فيما طاب من نوادر الأدب وراق (الطبعة الأولى ، بالمطبعة الخيرية) .

أحمد بن الحسين البيهقي : مناقب الشافعي . حققه أحمد صقر (القاهرة ١٣٩١ هـ) .

أحمد بن طاهر (ابن طيفور) : كتاب بغداد . حققه محمد زاهد الكوثري (مصر ١٣١٨ هـ)

أحمد بن عبدالله الاصبهاني (أبو نعيم) : حلية الأولياء (بيروت ١٣٨٧ هـ) .

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة (المطبعة الشرفية بمصر ١٣٢٥ هـ) . وتهذيب التهذيب (حيدر آباد ١٣٢٦ هـ) .

ولسان الميزان (حيدر آباد ١٣٣١ هـ) .

أحمد بن علي (الخطيب البغدادي) : تاريخ بغداد (مطبعة الخانجي بالقاهرة ١٩٣١ م)

أحمد بن عمر الهمصاني : مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (الطبعة الأولى في مطبعة الموسوعات ١٣٢٠) .

أحمد بن محمد حنبل : المسند . حققه أحمد محمد شاكر (دار المعارف بمصر ١٣٦٦ هـ)

أحمد بن محمد (بن خلكان) : وفيات الأعيان . حققه محمد محي الدين عبد الحميد (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٣٦٨ هـ) .

أحمد بن محمد عبد ربه : العقد الفريد . حققه أحمد امين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ هـ) .

أحمد بن مصطفى (طاش كبرى زاده) : مفتاح السعادة . حققه كامل كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور (دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٨ م)

إسماعيل بن عمر بن كثير : البداية والنهاية (مكتبة المعارف ببيروت ومكتبة النصر بالرياض ١٩٦٦ م) .

بهاء الدين العاملي : الكشكول . حققه طاهر أحمد الزاوي (دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٣ م) .

تقي الدين الفزي : الطبقات السنية في تراجم الحنفية . حققه عبدالفتاح محمد الحلو (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٠ هـ) .

الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة (مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ) .

الحسن بن عبدالله العسكري (أبو هلال) : ديوان المعاني (مكتبة القدس بالقاهرة) .

الحسين بن المبارك الزبيدي : التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (بيروت)

حسين بن محمد الديار بكري : تاريخ الخميس (مطبعه عثمن عبدالرزاق ١٣٠٢ هـ) .

حسين بن محمد الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء (بيروت ١٩٦١) .

خليل بن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات (استانبول ١٩٤٩ م) ونكت الهميان في نكت الهميان (القاهرة ١٩١١ م) .

صديق بن علي القنوجي : التاج المكلل (المطبعة الهندية بمباي ١٣٨٣ هـ)

ظالم بن عمرو الدؤلي (أبوالاسود) : ديوانه . حققه عبدالكريم الدجيلي (بغداد ١٩٥٤م)

العباس بن علي : نزهة الجليس (المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٨٧ هـ) .

عبدالحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب (مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٠ هـ) .

عبد الرؤوف المناوي : الكواكب الدرية (مصر ١٣٥٧ هـ) .

عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي : بغية الوعاة . حققه محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ١٣٨٤ هـ) وتاريخ الخلفاء . حققه محمد محي الدين عبدالحميد (الطبعة

الرابعة بالقاهرة ١٣٨٩ هـ) . والمزهر . حققه محمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل وعلي البجاوي (دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٣٧٨ هـ ، الطبعة الرابعة)

عبدالرحمن بن علي بن الجوزي : سيرة عمر بن عبدالعزيز بتحقيق محب الدين الخطيب (مصر ١٣٣١ هـ) . وصفة الصفوة (حيدر آباد ١٣٥٥ هـ).

عبدالرحمن بن محمد الرازي : الجرح والتعديل (حيدر آباد ١٣٦٠ هـ) .

عبدالرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمته (بولاق ١٣٢٠ هـ) .

عبدالرحيم بن الحسن الأسنوي : طبقات الشافعية. حققه عبدالله الجبوري (بغداد ١٣٩١ هـ)

عبدالغني الميداني : اللباب (مصر ١٣٣١) .

عبدالقادر بن أحمد (ابن بدران) : تهذيب تاريخ ابن عساكر (دمشق ١٣٤٩) .

عبدالقادر بن عمر البغدادي : خزانة الأدب . حققه عبدالسلام هارون (دار الكاتب بالقاهرة ١٣٨٧ هـ) .

عبدالقادر بن محمد القرشي : الجواهر المضية (حيدر آباد) .

عبدالله بن أسعد اليافعي : مرآة الجنان (بيروت ١٣٩٠ هـ) .

عبدالله بن عبدالعزيز البكري : سمط اللآلي (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦م)

عبدالله بن المبارك : كتاب الجهاد . حققه نزيه حماد (بيروت ١٣٩١ هـ) . وكتاب الزهد والرقائق . حققه حبيب عبدالله الأعظمي (طبعة بيروت) .

عبدالله بن محمد البدالكاني : حماسة الظرفاء . حققه محمد المعيد (العراق ١٩٧٣) .

عبدالله بن مسلم (ابن قتيبة) . الشعر والشعراء . حققه أحمد محمد شاكر (القاهرة ١٣٧٧هـ) والمعارف . حققه الدكتور ثروت عكاشة (دار المعارف بمصر ١٩٦٩م)

عبدالله بن المعتز : طبقات الشعراء . حققه عبدالستار فرّاج (دار المعارف بمصر ١٩٥٦م)

عبدالملك بن محمد الثعالبي : ثمار القلوب (مطبعة الظاهر بمصر) .

عبدالوهاب بن أحمد الشعراني : الطبقات الكبرى (مصر ١٣٠٠ هـ) .

عروة بن أذينة : شعر عروة حققه الدكتور يحيى الجبوري (بغداد ١٣٩٠ هـ) .

علي بن الحسين الاصبهاني (أبو الفرج) : الأغاني (طبعة الهيئة المصرية العامة ١٣٩٠هـ وطبعة دار الثقافة في بيروت ١٩٥٥ م) .

علي بن الحسين المرتضى : أمالي المرتضى . حققه محمد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٤) .

علي بن محمد الديلمي : كتاب عطف الألف المألوف على اللام المعطوف (القاهرة ١٩٦٢ م)

علي بن محمد (ابن الأثير) : أسد الغابة في معرفة الصحابة (المطبعة الاسلامية في طهران ١٣٧٧ هـ) .

علي بن يوسف القفطي : إنباه الرواة . حققه محمد أبو الفضل إبراهيم (دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ) . والمحمدون من الشعراء وأشعارهم . حققه حسن معمري (نشر دار اليمامة بالرياض ١٣٩٠ هـ) .

عياض بن موسى : ترتيب المدارك . حققه الدكتور أحمد بكير محمود (بيروت ١٣٨٤ هـ)

قدامة بن جعفر : نقد الشعر (القسطنطينية ١٣٠٢) .

كمال الدين الدميري : حياة الحيوان الكبرى (القاهرة ١٣١٩)

مؤمن بن حسن الشبلنجي : نور الأبصار (مصر ١٣٥٤ هـ) .

محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية) : أعلام الموقعين (مطبعة النيل بمصر) .

محمد بن أبي يعلى : طبقات الحنابلة (القاهرة ١٣٧١ هـ) .

محمد بن أحمد بن طباطبا : عيار الشعر . حققه طه الحاجري ومحمد زغلول سلام (القاهرة ١٩٥٦) .

محمد بن أحمد الذهبي : تاريخ الإسلام (مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٦٨ هـ) وتذكرة الحفاظ (حيدر آباد ١٨٩٧) .

والعبر في خبر من غبر . بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (الكويت ١٩٦٠) وميزان الاعتدال . بتحقيق علي البجاوي (دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٣٨٢ هـ) .

محمد بن أحمد الابشيهي : المستطرف (مطبعة الاستقامة ١٣٧٩ هـ) .

محمد بن إدريس الشافعي : أحكام القرآن . جمعه أحمد بن الحسين البيهقي (مكتب نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة ١٣٧١ هـ) .

والأم (بولاق ١٣٢١) .

وديوانه . جمعه عبدالعزيز سيد الأهل (المجلس الأعلى للشؤون
الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٦ هـ)
والرسالة حققها أحمد محمد شاكر (مطبعة مصطفى البابي ١٣٥٨ هـ)

محمد بن إسحاق بن النديم : الفهرست (المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ) .

محمد بن اسماعيل البخاري : كتاب التاريخ الكبير (حيدر آباد ١٣٦٠ هـ) .

محمد بن جرير الطبري : تاريخه . حققه محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف بمصر ١٩٦٠)

محمد بن خلف (وكيع) : أخبار القضاة (مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٦٦ هـ) .

محمد بن داود بن الجراح : الورقة (دار المعارف بمصر) .

محمد بن سعد الزهري : الطبقات الكبرى (بيروت ١٣٧٦ هـ)

محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية (القاهرة ١٣٤٩ هـ) .

محمد بن محمد الغزالي (أبو حامد) : إحياء علوم الدين (مصطفى البابي ١٣٥٨ هـ) .

محمد بن يزيد المبرد : الفاضل . حققه عبدالعزيز الميمني (دار الكتب المصرية ١٣٧٥ هـ)

محمد بن يوسف الكندي : كتاب الولاة والقضاة (بيروت ١٩٠٨ م)

المهان بن بشير : شعره . حققه الدكتور يحيى الجبوري (بغداد ١٩٦٨ م) .

ياقوت بن عبدالله الحموي : معجم الادباء (مطبعة عيسى البابي ١٣٥٥) .

يحيى بن شرف النووي : تهذيب الأسماء واللغات (شركة العلماء) ورياض الصالحين .
بتحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت ١٣٩٠ هـ) .

يزيد بن محمد الأزدي : تاريخ الموصل . حققه الدكتور علي حبيبة (القاهرة ١٩٦٧ م)

يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (دار الكتب المصرية ١٣٤٩ هـ) .

يوسف بن عبدالله بن عبدالبر القرطبي : الانتقاء (القاهرة ١٣٥٠ هـ) . وبهجة
المجالس . بتحقيق محمد مرسي الخولي (دار الكاتب العربي
١٩٦٢) . وجامع بيان العلم وفضله . حققه عبدالرحمن عثمان
(المكتبة السلفية بالمدينة ١٩٦٨) .

يوسف بن قزغلي (سبط ابن الجوزي) : تذكرة خواص الأمة (النجف ١٣٨٣ هـ)

• • • • •

— ٢ —

المراجع الحديثة

إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس وعباس محمود : ترجموا
دائرة المعارف الإسلامية ١٣٥٢ هـ .

أحمد تيمور : علي بن أبي طالب شعره وحكمه (القاهرة ١٣٧٨ هـ) .

توفيق الحكيم : فن الأدب (المطبعة النموذجية بالقاهرة) .

عائشة عبدالرحمن : قيم جديدة للأدب العربي (القاهرة ١٩٦٧ م) .

عائض بنية الردادي : شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثاني (نشرة كلية
اللغة العربية بالرياض ١٩٧٢ م) .

عبدالحليم محمود : التفكير الفلسفي في الاسلام (القاهرة ١٩٦٨ م) .

عبدالعزيز الزير ومحمد الأطرم : شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي (كلية
اللغة العربية بالرياض ١٩٧٢) .

عبدالله الحامد : شعر الدعوة الاسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين (كلية
اللغة العربية بالرياض ١٩٧١ م) .

عبدالمجيد المحتسب : عبدالله بن المبارك (وزارة الأوقاف بالأردن ١٣٩٢ هـ) .

• • • •

— ٣ —

المخطوطات

أحمد بن أحمد المجمي : نتيجة الأفكار فيما يعزى للإمام الشافعي من الأشعار .
مخطوط في دار الكتب المصرية برقم ١٤١٨ أدب .

عبدالله المامقاني : منهج المقال . مخطوط في جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٢٣ .

علي بن الحسن (ابن عساكر): تاريخ دمشق. مخطوط في دار الكتب برقم ١٠٤١ تاريخ، تيمور. وفي معهد المخطوطات برقم ١٢٥ تاريخ.
محمد بن أحمد الذهبي: سير أعلام النبلاء (القسم الذي لمّا يُطبع) مخطوط في دار الكتب برقم ١٢١٩٥ ح.
محمد بن شاكر الكتبي: عيون التواريخ. مخطوط بدار الكتب برقم ١٤٩٧.
محمد بن عمر الرازي: مناقب الإمام الشافعي مخطوط في جامعة القاهرة برقم ٦٠٥٧.

. . . .

— ٤ —

الدوريات

مجلة الرسالة س ١ ع ٢٥ وس ١٠ ع ٤٦٩.
مجلة الصياد س ٣١ ع ١٥٣٦.
مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٤٤، ٥ - ١/.

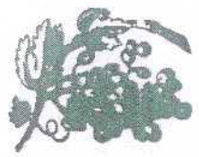

الفهرس

صفحة

مقدمة ٣

الباب الأول : ٥

الشعر : دراسة موضوعية ٥

الفصل الأول : الحكمة. ٦
١ - شعر الايمان والعقيدة ٦
٢ - تأمّل وتفكّر. ١٣
٣ - العِبَر ٢٢
٤ - الزهد والمواعظ والأخلاق ٢٧

الفصل الثاني : النزل ٤٩
١ - غزل عروة بن أذينة ٤٩
٢ - النسيب بالأزواج ٥٧
٣ - العفّة في غزل الفقهاء ٦٠

الفصل الثالث : الفخر ٦٥
١ - قيم قديمة جاهلية ٦٥
٢ - قيم قديمة مستمرة ٦٩
٣ - قيم قديمة مجدّدة ٧٢
٤ - قيم جديدة ٧٥

الفصل الرابع : موضوعات أخرى ٨٠
١ - الوصف ٨٠
٢ - العتاب ٨٨
٣ - الهجاء ٩٣

صفحة

٤ ـ الرثاء ٩٧
٥ ـ المدح ١٠٤

الباب الثاني

الشعر : دراسة فنية ونقدية ١٠٨
الفصل الأول : الإبداع الفني في شعر الفقهاء ١٠٩
١ ـ أحاسيس عاطفية ١١١
٢ ـ صور شعرية ١١٨
٣ ـ خصائص موسيقية ١٣٥
الفصل الثاني : ظاهرة النظم ١٤٤
١ ـ النزعة العقلية ١٤٤
٢ ـ البساطة ١٥٢
الفصل الثالث : شعر الفقهاء والمجتمع ١٥٧
١ ـ الشعر والحياة ١٥٧
٢ ـ صورة المجتمع الاسلامي في شعر الفقهاء ١٦٠
٣ ـ محاولات لإصلاح الانحراف الاجتماعي ١٨٦
الفصل الرابع : الالتزام ١٩٣
١ ـ الالتزام في الإسلام ١٩٣
٢ ـ الالتزام في شعر الفقهاء ١٩٦

الباب الثالث

الشعراء ٢٠٧
الفصل الأول : في العصر الإسلامي ٢٠٨
١ ـ العصر الراشدي تمهيد أولي لبداية شعر الفقهاء ٢٠٨

صفحة

٢ ـ الشعراء الفقهاء في العصر الأموي ٢١٧
٣ ـ أعلام الشعراء الفقهاء في العصر الأموي : ٢٢٨
أ ـ النعمان بن بشير ٢٢٨
ب ـ أبو الأسود الدؤلي ٢٤٤
ج ـ ابن عتبة ٢٦٩
د ـ عروة بن أذينة ٢٧٨
هـ ـ سابق البربري ٢٩٤
الفصل الثاني : في العصر العباسي الأول ٣٠٣
١ ـ الشعراء الفقهاء في العصر العباسي الأول ٣٠٣
٢ ـ أعلام الشعراء الفقهاء في هذا العصر : ٣٢٠
أ ـ عبدالله بن المبارك ٣٢٠
ب ـ الامام الشافعي ٣٣٦
خاتمة ٣٧٥
المصادر والمراجع ٣٨٤